مكتبة

ناصر أبو سرور

حكاية جدار

رواية

دار الآداب

حِكايةُ جِدار

لن ننسى تشرين .. 23

لن ننسى غزة والشهداء

انضم لـ مكتبة .. امسح الكود

telegram @soramnqraa

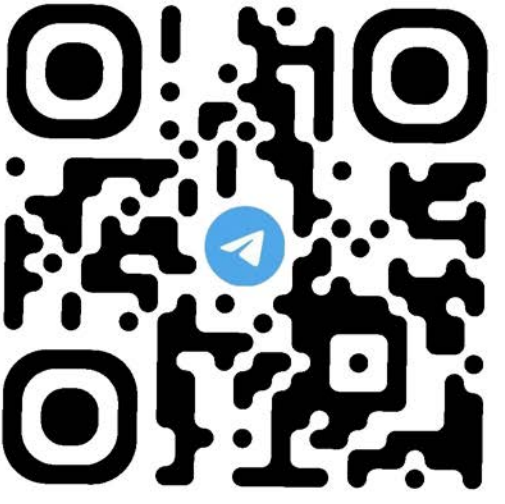

ناصر أبو سرور

مكتبة
t.me/soramnqraa

حِكايةُ جِدار

رواية

دار الآداب ـ بيروت

حِكايةُ جِدار

ناصر أبو سرور / مؤلِّف فلسطينيّ

الطبعة الأولى عام 2022

ISBN 978-9953-89-727-1

مكتبة
t.me/soramnqraa

14 11 2023

دار الآداب للنشر والتوزيع

للمزيد من المعلومات عن دار الآداب الرجاء زيارة
موقعنا www.daraladab.net

يمكنكم التواصل معنا على البريد الإلكتروني:
info@daraladab.net
rana.adab@gmail.com

Facebook: Dar Al Adab Instagram: @daraladab Twitter: @DarAlAdab

إهداء

إلى مزيونة التي ما عادت ترى
إلى نَنَّا التي رأت ما بَعْدي
وإلى شذا التي تَراني..

هَكَذا تَكَلَّمَ الجِدار

عزيزَتي ـ عزيزي الذي يقرأ

قد يبدو للوهلةِ الأولى أَنَّ الذي بَيْنَ يديْك من سطورٍ هو في حيرةٍ ذاتيَّة تفرضُها ذاتٌ محبوسة، قرَّرت بعد تردُّدٍ طويل أن تتجرَّأَ وتكتب. لا، هذه ليست حكايتي، ولستُ إلَّا شاهدًا يُقدِّم شهادةً سماعيَّة ونظراويَّة للأحداث. إنَّها حكايةُ جدارٍ قرَّرَ أن يختارَني شاهدًا على ما يقول ويفعل، وما كان لجُمَل هذا النصّ أنْ تَصْطَفّ لولا استنادِها إلى عنصرٍ ثابتٍ ووحيد هوَ الجدار، وكانت تَفَرَّقَت وتَشَظَّت لولا رعايته الصلبة ومراقبته لها عن كثب. لقد أعطاني الجدار صِفاتي وألقابي كلّها منذ بداية المشوار، في المخيَّم، على هامش المدينة، في السجن، وفي قلب امرأةٍ أو على أطرافه.

أنا صَوْتُ هَذا الجدار وَهَكَذا قَرَّرَ أن يتكلَّم، إنَّها كتابةُ السِجْنِ بِكُلِّ ما فيها من اضطرابٍ وَتَوَعُّكٍ وَتَخَبُّط، ولم تُولَدْ هذه

الكتابةُ خلالَ حديثٍ مسائيٍّ في أحد مَقاهي المثقَّفين حولَ مائدةٍ تَعُجُّ بالمَشاريبِ والأخبار، بَلْ وُلِدَت من رَحْمِ جِدارٍ إسمنتيٍّ حتى إنَّها تكادُ تخدشُ، إنَّها كتابةٌ مُطَعَّمةٌ بالحديدِ الصَلْبِ والإسمنت.

كتبتُ بكلِّ ما فيَّ من نقاطٍ وفواصل، تارةً أقطعُ وتارةً أربط كتبتُ ملتزمًا بما أملاهُ عليَّ الجدار وحسبَ قوانينَ تَخُصُّهُ وَحْدَه كتبتُ كالذي جاءَ ينقلُ كلامًا أخيرًا قبلَ توقُّف الساعة عن الدَوَران؛ كتبتُ بِلا معالَجاتٍ لغويَّة، سِوى تلك التي عانى منها الجدار وأَصَرَّ على تدويرِها؛ وكتبتُ لِأَنَّ القِراءةَ في زمن الشُحّ صارت فِعْلًا جبانًا.

أتمنَّى لكَ ـ لكِ قِراءةً وَعِرة

ناصر مزبونة أبو سرور

الجزء الأوَّل

أنا، رَبِّي وضيق المكان

تَخَلٍّ وَتَمَسُّك

قبلَ أسبوعَيْن وبعد تَثاقُلٍ دامَ طَويلًا، قرَّرتُ قراءة كتابٍ للفَيْلَسوف ـ كيركغورد يتكلَّم فيهِ عن الحُب، مُدَّعِيًا أَنَّ أفضلَ الطرق للحفاظ على الحُبّ، هيَ التَخَلّي عن الحبيب والتَنَكُّر لغرائز التَمَلُّك: التعلُّق والأنانية، وادَّعى أيضًا أنَّ ذلك يصبح ممكنًا فقط عن طريق اللامعقول الإيمانيّ. لم تكنْ قراءتي للمقالة سهلة، وكانَ على زنزانتي أن تتمدَّد مُفْسِحةً المكان لوابلِ التساؤُلات التي أثارَتْها في مقالة الرجل، وزنزانتي لا تفعل ذلك إلَّا نادرًا، ولكنَّها فعلت ـ ولا أدري رحمةً بي أَمْ بِها! وفجأةً امتلأتِ الزنزانة بأسئلة كيفَ... وبعدَ ساعة، أُقْفِلَتِ الأبواب وغُلِّقَت، وبدا الهروب من السؤال حينَها خيارًا غير معقول. وَهَكَذا، تَحَوَّلَتِ الأَقْفالُ إلى دعوةٍ للبحثِ عن إجاباتٍ مُحْتَمَلة.

كيفَ إذن بقُوَّةِ اللامعقول الإيمانيّ نَتَخَلَّى عن كُلِّ ما هُوَ زائل في سبيل متعالٍ لانهائيّ؛ لكي نَرْتَدَّ بِقُوَّةِ اللامعقول ذاتِه إلى لحظاتِنا الفانية، وقد صارت مُمْكِنةً على الرَّغمَ من استحالَتِها وعَظيمَةً في انتهائِها؟ يبدو لي أَنَّ الكُلّ يبدأ بالسؤال، فاليقين وليد

الشَكّ، كيفَ يكون الرِضا والتسليم والقَبول تَخَلِّيًا؟ وكيفَ يصبح الالتصاقُ بالجدارِ أقصرَ الطُرُقِ لاجتيازه؟ وَهَل يُعْقَل حقًّا أن تُقَيِّدَ يَداكَ قَيْدَكَ؟ وأن يمتلئَ قلبُكَ حُبًّا ولا موضوعَ يملأه؟ هذا ما أجابت عليهِ وعلى تساؤلاتٍ عديدةٍ أخرى سنواتُ اعتقالٍ طويلةٌ ومجاورةُ ثابتٍ وحيدٍ تَنَكَّرَت لَهُ كُلُّ الذَوات التي تعلَّقت على هوامِشِه، هذا ما أجابت عليهِ أيضًا فسحةُ التَخَلِّي في ظلِّ تَسَلُّط واستبداد التَمَسُّك وغريزة امتلاك ما لا تملك. وأنا أنانية لا تُراعي في موجودِكَ عُرْفًا أو تقليدًا أو إيمانًا ولو قليلًا.

يبدأُ المِشوارُ بالتخلِّي عن كلِّ ما اعْتَقَدْتَهُ مرَّةً أنت، أنت الذي ألْبَسْتَها ألف أنا ويزيد، وأَنْطَقْتَها جميعَها، حتى صَدَّقْتَ خطابَها المتعدِّد فَتَلَوَّنْتَ وَتَقَفَّزْتَ، فتارةً تؤمنُ، وتارةً تَنْفُضُ عنكَ مَوْروثًا دينيًّا أَثْقَلَكَ، ثائرًا متحرِّرًا تارةً، وأخرى عبدًا لواقعٍ صِرْتَ ترى فيهِ هديَّةَ السماء إليك، ولو في تفاصيله بَعْثَرَكَ، تُقَدَّسَت أشياؤُكَ كُلُّها ولا قُدْسِيَّةَ لَكَ، فتارةً أنتَ سَيِّدُ ما تشغلُه من فراغاتٍ تُسْقِطُ عليها مفرداتِك ومعانيكَ، وفي أخرى أنتَ رهين أَبْجَدِيَّةٍ كُتِبَت في زمنٍ لا يشبِهُك، على يَدِ أقلام احترفت تسييس النصوص وصناعة القوالب، وتوفير بديعِ الإجابات لأسئلةٍ حاضرة، وأخرى ستأتي، حتى دُفِنَت فيكَ كُلُّ التساؤُلات، وصارَ سُؤالُكَ تشكيكًا، وشَكُّكَ ضلالةً وضلالُكَ احتراقًا، ولا خَلاصَ لَكَ، وغابت أنتَ فيك في ظُلُماتِ عُصورٍ ترفض أن تنتهي وقد أَحاطَتْكَ بفضاءاتٍ ثقافيَّة لا شموسَ تُضيءُ عَتْمَتَها، ولا أَقْمارَ تُزَيِّنُها، فضاءاتٍ تقفُ على مَسافةٍ واحدة من كُلِّ مُكَوِّناتِها بما فيهم أنت.

أينَ تهرب إذن؟ ولا فرار منكَ إلّا إليك، فأنتَ لا تصيرُ أنتَ إلّا إذا تَخَلَّيْتَ عن أناواتك الثانويَّة وَتَمَسَّكْتَ بذاتِكَ الواحدة المُتَفَرِّدة، وقد صارت صاحبةَ الرأي في إطلاق الأسماء والصفات على عناصر وجودك كُلِّها، وإسقاط معانيها عليها، ثم تستقرّ فيكَ أنت عاريةً من كُلِّ دفاعاتِها المتخلِّية بعدَ أن تَخَلَّصَت من كُلِّ مَكْبوتاتِها الدينيَّة والاجتماعيَّة والسياسيَّة. تلك المكبوتات التي مارست عليكَ أفعالَها العُنْفِيَّة، وقَدَّمَت ضدَّك لوائح اتِّهام وفرضت عليكَ سُلوكًا دفاعيًّا حتى خارت دفاعاتُكَ كُلُّها. وصِرْتَ أنتَ أوَّل مَنْ يُدينُكَ، وبعدَ أن تَخَلَّيْتَ عن هَذا كُلِّهِ يصبح بإمكانك التصالُح مع كُلِّ ما هُوَ أنت وَظَنَنْتَهُ قَبْلًا نُسَخًا مُشَوَّهةً عنك. والتسلُّح من جديد بجداريَّةٍ أنتَ وقد زَيَّنْتَها أناواتُكَ كلّها. بعدَ أن وَجَدْتَ لها مكانًا في جغرافيَّتك حيث لا تَضادّ ولا تَصارُع ولا مُزاحَمة، فلا أنا فيكَ تُنْكِرُ أخرى أو تُحاكِمُها. أو تُصادِرُ صَوْتَها أنتَ الآن كُلُّ ما فيك، ما تقولُه وما تسكت عنه، ما تُخْبِرُهُ وما تُجْبَر على إخفائِه.

وكَبُرَت الأسئلة، وكذلك خشيتي على زنزانَتي تخمة السؤال ولكنَّني لم أتوقَّف، وعُدْتُ إلى شتاء 1993 في زنزانة رقم 24 في قسم التحقيق في سجن الخليل، وثلاث كلماتٍ حَفَرْتُها على جدار تلك الزنزانة: (وداعًا يا دنيا). لم أكُنْ أعرف حينَها ـ كيركغورد ولا تخلِّيه، ولكن يبدو أنِّي عرفتُ منذُ البداية أنَّ عَلَيَّ التخلِّي عن سؤال الحُرِّيَّة ومُعانَقة ذلك الجدار، مُدْرِكًا تمامًا أنِّي أفعل ذلك كَآلِيَّةٍ دفاعيَّة عَزَّزَتْها غريزةُ البقاء، وغيرَ واعٍ أنِّي كنتُ أنزع الحُرِّيَّة من ضيق السؤال إلى فسحة الخيال، مُتَخَلِّيًا بذلك عن الحرِّيَّة

كسؤالٍ مُلِحٍّ ينتظر الإجابة، متمسِّكًا بها كحلم يظلّ جميلًا حتى حينَ لا يتحقَّق، وكأيِّ فلسطينيٍّ وَعى عبوديَّتهَ وتقلَّصت خَياراتُه فكانَ عليه أن يفقدَ حُرِّيَّتَه من أجلِ أن يتحرَّر، وأن يموتَ في سبيلِ أن يحيا.

بدأت غزَليَّتي مع الجدار مُبكِّرًا، وظَلَّ طوالَ مشوار اعتقالي ثابتي الوحيد في فَضاءِ عقدي في حركته ويخشى تَبَخُّرًا إذا توقَّفَ مرَّةً عن الدَوَران، فجعلتُ من جداري نُقْطَتي الثابتة، منها أُحدِّد ملامح ما يحيطُني من مكوِّنات: موقعها، سرعتها ومَسافة كلّ مُكَوِّنٍ منها عن ثابِتي، ولا، لم أُصْبِحْ مركزَ هذا الكَوْن، لَكنِّي وجدتُ مكاني فيه، وصارَ ساكنُ هَذا الحَيِّز يملكُ مُنْطَلِقًا من ثباته القدرةَ على تحريك مَواضِع محيطه، مواقع النجوم وعدد حَبَّات السُكَّر في شرابه الصباحيّ، مقدار أشعَّة الشمس التي تتسرَّب إليه من نافذةٍ تُطِلُّ على لا مكان، وشفافية فُسْتان رفيقته في مَشاويره أوَّل كلّ ليلة. هكذا، تَخَلَّى جداري عن فيزيائِهِ لحظةَ تَمَسَّكْتُ به وغابت عن حابس جسدي المُفْتَرَض ما زُرِعَت فيه من نَوايا وأغراض، وحارَ كيفَ يصادر حُرِّيَّة من تخلَّى عن حُرِّيَّته والْتَحَمَ به حَدَّ الاختناق، وغازَلَهُ غَزَلَ المُحِبّ، ومارسَ في كنفِه كُلَّ عاداته حتى السرِّيَّة منها، وراحَ يروي له أمجادًا لا يصدِّقها عَلَّهُ عن جَهْلٍ أو في غفلةٍ يُصَدِّقُ راويها. وفي أحيانٍ أخرى يشرح له ـ نومينيَّة كانط ـ وأنَّ حقائق الأشياء ليست فوقَ إحساسنا وإدراكنا، وإذا فشلَ في إقناعه بعثرَ حجارته وأعادَ ترتيبها من جديد، فالأشياء هيَ ما نريدها أن تكون.

ظننتُ أنِّي بانتهائي من قراءة الكتاب سأنجو من كلِّ ما أثارَهُ

فيَّ من تساؤلات، وإذا بِهِ يأخذني غيرَ عابئٍ بظنوني، في رحلةٍ عبر الزمن أُطِلُّ من خلالها ومن مسافاتٍ تبدو ضوئيَّة، على ما توقَّفت فيَّ من محطَّاتٍ بما فيها من تفاصيل وأحداثٍ وشخوصٍ حقيقيَّة، وأخرى وهميَّةٍ من نسج الخيال. وطالت إطْلالَتي حتى اعتقدتُ أَلَّا عودة وأنِّي عالقٌ بينَ زمانَيْن: زمن أعيشه، وآخرَ يروي حِكايةً، تبدو مألوفةً لي، وكلّ ما فيها من وجوهٍ تُشْبِهُني وبَقيتُ على حالتي هذه أيَّامًا طِوالًا أَتَقَفَّزُ في زمنٍ تعدَّدت أبعادُه حتى كادَ جسدي يَفْقِدُ وزنَه في وجودٍ انعدمت جاذبيَّته، فلا حسِّيَّة تُدْرِكُني أو فيزياء تُعيدُ للأشياء صِفاتها الأوَّليَّة؛ وبدوافِع مَحْمومةٍ للخلاص قرَّرتُ السقوط حاملًا معي كلَّ ما علقَ بي أو تعلَّقتُ به قرابة نصف قرن، جاعِلًا الكتابةَ آليَّةً للسقوط على الورق، بكلِّ ما فيه من إمكانيَّات احتواءٍ يُعيدني إلى مربَّعاتي الآمنة.

كلّ الأشياء التي حدثت وتلك التي تَحْدُث تراصَّت بشكلٍ مصفوفةٍ سعت متآمرةً من أجل ترتيب ذلك اللقاء مع ذلك الجدار في تلك الزنزانة، أو هَكَذا اعتقدتُ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

أوَّل الأَمْر

لا أحد منَّا يختار بدايته، ولكنَّا جميعًا وبعدَ جُهْدٍ عمريٍّ قصيرٍ وانكشافنا على دوائر محيطنا القريبة، وتلك التي اتَّسعت أقطارُها نبدأ بالتساؤُل: عن متى وكيفَ وإلى أينَ؟ وتَلَمُّس بداياتٍ تقفز من عتباتِنا، وكتابة فاتحات أمورنا وما يليها من سوَر، ولا تأتي بواكير أفعالِنا في معزلٍ عن جوارِنا، وما اختلطت فيهِ من منظوماتٍ أخلاقيَّة وتَراتُبِيَّاتٍ اجتماعيَّة وانتماءاتٍ أوَّليَّة أو ما بعدَ أوَّليَّة. بعض ما يحيطُنا يرى فينا موضوعًا للوصاية وفرصةً لممارسة شَتَّى أنواع السلطة والتسلُّط والقمع. وتكبر الوصاية معنا في صُوَرِها الأبويَّة والعائليَّة والمجتمعيَّة، وَتَخْتَنِقُ الطريقُ فينا من كثرة الإملاءات وإشارات التوجيه، وقوائم المَحْذورات والمكروهات والمحبَّبات وما اختلفَ فيها الأمر والرأي، وتَتَعَقَّدُ البدايات ولا شيء في تَلَعْثُم خطواتنا يُبَشِّرُ بانعتاقٍ قريبٍ من أغلالٍ يفوق عمرُها صِبانا بآلاف السنين، وتُسْحَق محاولاتُنا في التملُّص أو التَسَلُّل أو الانفكاك بأقدامٍ أضاعت طريقَها وأيادٍ تمتدُّ إلينا ليسَ لَعِناقِنا، وخِطابٍ فِعْلُ الأمرِ فيهِ أوَّلُ الأفعال وَسَيِّدها.

وُلِدْتُ في مخيَّم للاجئين في مدينةٍ لا يزال يُطْلَق عليها مدينة السلام على الرَّغم من أنَّها لم تعرف من السلام إلَّا غيابه. فَرسولُ المحبَّة حينَ رحيله عنها، حَمَلَ معهُ كلّ البِشارات التي يعرفُها تاركًا للمدينة أن تَغْرَقَ في غابةٍ من الحراب؛ وكانَ أبي يجهل تاريخ هذه المدينة ولا أظنّ أنَّ تاريخها أقلقَهُ كثيرًا؛ فالمسيح عندَ أبي كباقي الأنبياء، قالوا أشياءَ كثيرةً لم يفهمها، ولا أظنّ أبي هَمَّهُ صِدْقُ ما قالوا. فهموم أبي حينَها ما كانت لتحتمل تلك المستويات من التعقيد، وكلّ الأنبياء الذين عرفهم أبي هجروا قريته ساعتيْن قبلَ وصول الغُزاة وبداية هروبه حافي القدميْن مُخَلِّفًا وراءه كلّ ما عرفَهُ يومًا، وآمنَ ساذَجًا رعاية السماء له.

وبيت لحم التي استقبلت أبي كانت قد تناولت عشاءَها الأخير، ولم يبقَ على مائدَتِها ما تقدِّمه لِشابٍّ عشرينيٍّ اعتادَ حتى الأمس أن يأكُلَ من جنى يديْه ويغسل وجهَهُ بما خَلَّفَتْهُ حرقة الشمس على جبينه. شابٌّ لم يبذل جهدًا كبيرًا في فهم سيكولوجيا الأرض، وتحليل بلبلة الفصول وتقلُّباتها، وتعلَّمَ صغيرًا قبول ما يأتي أو يسقط من السماء، وعديم جدوى التذمُّر، تمامًا كما فعلَ مع الأنبياء. وبعدَ أشهرٍ قليلة، بنت له مدينةُ المسيح خيمةً شاركَ في توفيرها ملوكٌ وسلاطينُ وَرُؤَساء. اعتقدَ أبي حتى الأمس أنَّها شخصيَّاتٌ مُتَخَيَّلة في قصصٍ رواها لَهُ جَدِّي ولم يتقن روايتها.

ومرَّت سنواتٌ قليلة أمضاها أبي متنقِّلًا من عملٍ إلى آخر عندَ قوم يتكلَّمون لغةً لا يفهمها، ويبنون بيوتًا غريبة الشكل، حتى استطاعَ توفير ما يكفي من المال لعقد النِيَّة على الزواج. لم تكنْ أمِّي قد تجاوزت بعدُ عامَها الرابع عشر، واستعانت بأبي

لاستكمال معارفها في تدبير شؤون منزلها. وسريعًا، صارت بنت القرية ربَّةَ خيمة، ملكت ما يلزم من الخبرات والقدرات وحواسٍّ خمس شَحَذَتْها خشونة المُخَيَّم لبدء مِشْوارِها الثقيل؛ ومارسَ أبي ذكورتَهُ بامتياز، وكنتُ أنا الشاهد الخامس على فُحولَتِه ولم أكنْ الأخير، وما بينَ نكبةٍ أولى وثانية قُزِّمَت حتى صارت نكسة، سَطَّرَ أبي انتصاراتٍ ثمانية، شهدت بالصُراخ والصورة على إرادة البقاء وغريزة التعويض عن خساراتٍ يَئِسَ من احتمالات استردادِها. هكذا، وعن وعيٍ مُسْبَق، حَمَّلَنا أبي مسؤوليَّة تعويضه عن كُلِّ ما سُلِبَ منه عن ماضيه وحاضرِه، عن أرضِه وعن كلِّ ما دَبَّ عليها من مخلوقات، عن أحلامه الصغيرة والمتوسِّطة، وعن أشياءَ أخرى كثيرة ما كانت خطرت على باله قبلًا، وكانَ عليه أن يَشْقى في سبيل إعالة أُسْرةٍ فاقَ عددُها إلى جانب جدِّي وجدَّتي قدراتِه ومهاراتِه المتواضعة، وكادَ أن يستسلم تحتَ وطأة العيش لولا تدخُّل أمِّي بِحِسِّها النسويّ المتقدِّم، وانضمامها إلى قافلةٍ طويلةٍ من النساء اللواتي قرأنَ عَجْزَ أزواجهنَّ، وخرجْنَ إلى سوق العمل غير مُباليات بما رافقَ ثورتهنَّ الصغيرة من عبارات الاستنكار. وانتقلت أسرتنا في ثمانينيَّات القرن الماضي وبسبب الفواعل الاقتصاديَّة الجديدة إلى مرحلة الماتريارکيَّة، وسلطة الأُمّ.

كانَ أبي قد مارسَ سلطته في تدبير حياتنا بدوافعَ فِطْرِيَّة وأساليب ورثها عن منظوماتٍ اجتماعيَّة عَمَّرَت طويلًا، دونَ أن تشيخ أو تظهر عليها علامات الضعف والوهن، وراحَ ضحيَّةً لها يطبِّق ما فيها من قوانينَ وأعرافٍ وتقاليدَ، عزَّزتها مشاعرُ القلق والخوف من شبح الاحتلال وما شَكَّلَهُ من تهديدٍ على النسيج

الاجتماعيّ داخل المخيَّم وخارجَه، وشَهِدْتُ أثر تلك الأساليب على من سبقَني من إخوةٍ وأخوات، ورحتُ أكبرُ، وأبي على أمِّيَّته يقيس عمري بمقدار الجُهْد الذي يبذله في حملي، ولزمني سنواتٌ وبضعة صفوف علوم ورياضيَّات لأكتشف بعدَها أنَّ العمر يُقاس بالسنين وليسَ بالكيلوغرامات. وبفِعْل خسارة أبي العديد من سلطاته وانتقالها لأمِّي، تَكَشَّفت فيه جوانب جديدة كنتُ أنا ومن تَبِعَني مِنْ إخوةٍ وأخوات المستفيد الأكبر من ظهورها، ورأيتُ أبي يستسلم لخساراته الجديدة، ولم أدرِ أيُّها كانَ أشدَّ وطأةً علَيْه خساراته الأولى أَم الأخيرة، ولم يُبْدِ أيَّ مقاومةٍ تُذْكَر وتمَّ تداوُل السلطة سِلْميًّا. لقد هَذَّبَ الفقر ذُكورة أبي وسلطويَّته، وهو يراقبَ عن كثب استيلاء أمِّي على صلاحيَّاتٍ كانت حتى أشهرٍ قليلة حقوقًا حصريَّةً له، وشرعَ يبحث عن أدوارٍ بديلة، على أن تخلو من أيِّ التزاماتٍ ماديَّة وميزانيَّاتٍ فاقت عميقَ بطالته، وصارَ إلينا أقرب وما عادَ يرانا بعين الخائف، وتَجَدَّدَت فيه حاسَّةُ الاستماع وَدَهْشةُ المشاهدة، وكنتُ أنا صاحبَ الحظّ الأكبر حينَ قَصَّرَ أبي ما بينَنا من مسافات، وصارَ صَدْرُهُ لساعاتٍ مسائيَّةٍ طويلة ساحةً مارَسْتُ فيها طقوسي الطفوليَّة حتى صِرْتُ طفلَهُ المدلَّل، كما اعتادَ أخي الأكبر أن يَدَّعي في كلِّ مرَّةٍ جئنا على ذِكْرِ أبي.

تَقَمَّصَ أبي أدواره الجديدة بحِرَفِيَّةِ مَنْ انعدمت خَياراته وظَلَّ يراقب أفعال أمِّي، وما انْتَهَجَتْهُ من سياساتٍ تربويَّة واقتصاديَّة جديدة، واعيًا لِتَقَلُّب الأدوار؛ في حين انتبهت أمِّي لِتَحَوُّل الأنظار إليها وكيفَ أصبحت فجأةً وبفعل تحوُّلات سوسيوإيكونوميك (اقتصاديَّة اجتماعيَّة) صاحبةَ السلطات وعنوانًا

للسؤالات، وبغريزة الأنثى الأُمّ والوعي بثِقَل مسؤوليَّتها طَوَّرَت أُمّي سريعًا آليَّات صُنْع قرار ومهارات صاحب المائة في استغلال موارده الاقتصاديَّة لفَرْضِ شَتَّى السياسات والقرارات، ودونَ معرفةٍ أو اطّلاع، خالفت أُمّي ما قَرَّرَهُ ماركس بأنَّ الحرِّيَّات وَهْمٌ برجوازيّ، وقامت بتوسيع مساحة الحرِّيَّات على أنواعها مُعْلِنةً بدء عهدٍ جديد، واثقةً بقدرات مخلوقاتها الصغيرة على استغلال ما وَفَّرَتْهُ من فضاءٍ جديدٍ أحسن استغلال. وشاءت الأقدار مرَّةً ثانية أن أكون أكثر المستفيدين من أجواء الحُرِّيَّةِ التي سادت بَيْتَنا الصغير، فقد تزامنت تلك الأجواء مع بدء مراهقتي بكلِّ ما فيها من تمرُّدٍ وعنفوان، ممَّا جعلَ كَسْرَ ما تَبَقَّى من قيود مغامرةً محسوبة جيِّدًا، وصاحبة فرصٍ كبيرة للنجاح. ويمكنني القَوْل بأنَّني قمتُ باستغلال كلّ مربَّعٍ وإنْ صَغُرَ في تلك المساحات شادًّا الحبلَ حتى أنفاسه الأخيرة. ولم تقتصرْ ما وفَّرته أمّي من فضاءاتٍ جديدة على زيادة ممكنات أفعالي كصبيّ، تَعَدَّت شهيَّتُه ما وُسِّعت به لائحةُ المعروضات والمتوفِّرات التي أملتها شريعة المخيَّم، بل شملت أيضًا توسيعَ وتنويعَ سلَّتنا الغذائيَّة والتي طَوَّرت بدورها حاسَّة المذاق لدينا، واغْتَنَت تدريجيًّا مفرداتنا الغذائيَّة بأسماءٍ وصفاتٍ لأنواع فاكهةٍ جديدة لَوَّنَت تلك السلَّة القابعة في زاوية المطبخ، التي كادت تنطق لشدَّة ما اعتراها من روائحَ وألوان هذا إلى جانب اللحوم التي دَشَّنَت يومًا إضافيًّا في أسبوعِنا بعدَ أن كانت مقصورةً على مقلوبةِ جُمْعةٍ يتيمة.

ظَلَّ أبي يمارسُ صغيرَ أعماله كبائعٍ لملابس تناقلتها ملكيَّات ثلاث أو أكثر حتى وصلت إليه، واعتادَ في كلِّ سبت إيقاظي

مبكرًا لكي أملأ عربته الحديديَّة والمُعَوْجَلة بالثياب، وإيصالها إلى سوق المدينة بغية بيعِها لمن قَصُرَت أيديهم، وامتلأت جيوبهم بالهواء، وكنتُ أَصِلُ متأخِّرًا في كلِّ مرَّة. وأبي الذي سبقَني إلى السوق لحجز مساحةٍ يعرض فيها بضاعته كانَ يَحْتارُ في تفسير تأخُّري الدائم بعد أن يَئِسَ من السؤال عن أسبابه. كان يفصلني أنا وعربة أبي عن السوق طريقان، إحداهما قصيرة كان من شأنها التوفير على أبي دقائق انتظارٍ طويلة مصحوبةٍ بالقلق على صبيٍّ يشقّ طريقه مُثْقَلًا بما كَدَّسَهُ أبوه من فُرَصٍ للنجاة في بطن عربته وأخرى طويلة أطالت في عمر مَخاوِف أبي وقلقه عليَّ، ولكنَّها خلت من بنايات مدرسيَّة، وبالتالي قَلَّصَت فُرَص التقائي بزملائي التلاميذ، وأنقذتني من محاولاتي الفاشلة في إخفاء وجهي الذي بَلَّلَهُ الخجل في كلِّ مرَّةٍ صادفتُ فيها أحدَ أصدقائي أو عددًا منهم إذا ساءَ حظِّي في ذلك اليوم. لا أدري في حينها ما الذي أخجلني أكثر: عربةُ أبي وما امتلأت به بطنُها من وعودٍ كاذبة أَم صاحب العربة وما خلت منهُ يَداه من وسائلَ وأسباب؟!

مخيَّم

تُحيط المخيَّم كياناتٌ تشبه المدينة لو أنَّها اجتهدت قليلًا في ترتيب عناصرها، وخفَّفت من حدَّة التناقُضات بينَها، فكُلُّ بيتٍ فيها يَقُصُّ تاريخ المدينة على طريقته، فذاكَ بيت سبعينيّ تكاد حجارته تخرج عن طَوْعِها في سبيل لَفْت انتباه المارَّة، ونَيْل السبق في سرد حكايةٍ قديمةٍ عن المدينة المقدَّسة، مسلِّطةً الأضواء على ما نُقِشَ عليها من رموزٍ دينيَّة، وأخرى وثنيَّة في مشهدٍ سرياليّ. لا يعيب قلاع عصر تواسطَ بينَ الذي غرقت فيه المدينة من عصور ويتوسَّط المشهد شهيد المدينة الأوَّل ومُخَلِّصُها، وقد أَدْمَت المسامير أطرافه وظَلَّ مُعَلَّقًا يُصَلِّي لِخَلاصٍ يُنَجِّيه. وهَذا بيت «خمسينيّ» في مقابله خلت حجارته من رموز. تكشف آلهته أو أسماء أنبيائِه وكأنَّه لا يزال عالقًا في المراحل الأولى للدعوة يخشى إنْ تَكَلَّمَ ـ وإنْ رمزًا ـ تسليم أصحابه لسادة قُرَيْش، أو هذا ما يجعلك تظنُّه، حتى إذا اقتربتَ أكثر فاجأَكَ متوسِّطًا مشهده عرفانًا بالفَضْل لربٍّ واحدٍ لا ثانٍ أو ثالث يقدِّسه؛ وحينَ صَدَّقْتَ أَنَّكَ وبفصاحة الدارس فَكَكْتَ رموز المدينة، وكشفتَ تَعاقُبَ

هُويَّاتِها صدمتكَ بعنصرٍ ثالث أعادَ إليك إرباكَكَ الذي سكنكَ ساعةَ دَخَلْتَها، فهذا بيتٌ أو ما يشبهه يُوَدِّعُ حُجّاجَ المدينة إلى أورشاليم بعدَ أَنْ فَتَّشَ جيوبهم، بحثًا عن احتمالات دعاءٍ أخفوه ربَّما في داخل ملابسهم، وقد يدعوهم في طريق عودتهم إلى داخله، فيتبرَّكون بلَمْس أو تقبيل ما نجا من حجارةٍ اتَّكأت عليها يومًا راحيلُ زَوْج يعقوب النبيّ، وهي في طريقِها إلى خليل رحمانِها؛ ومتى اعتقدتِ المدينة أنَّها شبعت تعقيدًا وهُوِيّات وجلست تضبط أنفاسها على وقع أجراسها وأذانِ صلاتها ونشيدِ إنشادها، جاءها أبي ومن تَذَيَّلَ مثله قافلة مَن لا بيوت لهم؛ كي يقام لهم في قلبها خيمةٌ صارت سريعًا بيتًا ضيِّقًا، صارَ مخيَّما. على الرَّغم من تموضعه في قلب المدينة، عاشَ المخيَّم على هوامشِها مُسَلِّمًا قابلًا ومدينًا في أحيانٍ كثيرة لما وفَّرته له الهوامِش من حَيِّزٍ للعيش، تعاقبت عليه عصورٌ، بدأت بعصر القِماش ورياحٍ لا شفقةَ في أنفاسها أو رحمةً بأرواحٍ صغيرة، لم تكتسبْ بعدُ مهارات التمسُّك والتشبُّث، حتى تناثرت في جميع الاتِّجاهات؛ ثم عصر الطوب ومَكْرُماتٍ دوليَّة غَطَّت عورات أصحابها وعجزَهم وتَواطُؤَ بعضِهم، فلا عَوْدَةَ تُحَرِّرُه، بَلْ تعوّد يؤبِّده؛ وآخرها عصر الإسمنت، بَنَتْهُ أيدٍ عاملة رخيصة، قرَّرت بعدَ فقدان أرضها تخليص الإنسان فيها، فَشَيَّدَت على أطلالِ بيوتِها للغُزاةِ وطنًا وعدهم به رَبُّهُم وصَدَّقوا وعدَه.

جئتُ في عصر العجز والتَواطُؤ لأُسْرةٍ هامشيَّة سكنت مكانًا هامشيًّا تملؤُهُ شخوصٌ هامشيَّة، تصدَّرت أخبارها حناجر من فقدوا القدرة على الصراخ ولا صَوْتَ لهم. وَكَأَيِّ طفلٍ هامشيٍّ

رحتُ أجوبُ المكان متفحِّصًا حدودي الهامشيَّة. متمهِّلًا لا أعجِّل، فليسَ في المكان ما يدعوني للتَعَجُّل وساعاتي أطول منِّي عُمْرًا، والبيوت في حاراتِنا لا يتجاوز عددُها أصابع القدم الواحدة، قدمي العارية والخَشِنة، التي اشْتَدَّت وباتت تحملني بخِفَّة شاقًّا زِقاقَ المخيَّم، متنقِّلًا بين حاراته الضيِّقة، التي أخذت تضيقُ أكثر على جسدي، وقد بدأت تظهر عليه علامات السنين غير مبالية بجماديَّة المكان وعجزه عن التَمَدُّد؛ لإفساح المجال لأرواحٍ كَبُرَت وَتَصَلَّبَت أطرافُها وَمَلَّت أقدامُها تكراريَّة الخُطى وداعَبَت فضولُها طبيعة وشكل ما يحدث في الجهة المُقابِلة، وفي كلِّ الذي لا يحدث في حاراتٍ ضَيَّقَت الخِناق واختنقت فيها الأنفس. كلّ الأشياء في الجهة المقابلة بدت أكبر، الشمس والغَيْم والنجمات، وتجمَّلت فيها الأرواح حتى خُيِّلَ لي وأنا أراقب عن بُعْد ما اكْتَسَتْهُ من جديد الثياب أَنَّ عيدًا زارَهم وسكنَ بيوتهم وَقَرَّرَ أَلّا فِراق، ولا أظنُّني لُمته، فبيوت الجهة المقابلة زَيَّنَتْها جدرانٌ بيضاء، وشُرفاتٌ أَطَلَّت على حدائقَ صغيرة وساحاتٍ أماميَّة، كِدْتُ أَشْتَمُّ نظيفها وَتَفَهَّمْتُ تَسَرُّع ليالي العيد فينا، واستعجالها قدوم الصباح وبسيط ما حملته من هدايا وثقيل ما تركته وراءها من خيبات أمل، وأطفالٌ حبسوا أحلامهم في مخدَّاتهم وناموا على صدر صلاةٍ أو دعاءٍ بصباحاتٍ بطيئة أكثر أَخَّرَ قدومَها كثيرُ استجاباتها.

لم تحتملْ مراهقتي وقوفي طويلًا على السور، وتأخُّري وتردُّدي في القفز والاستماع عن قُرْب لما ترويه تلك البيوت من أساطير، كنتُ متأكِّدًا من تَفَوُّقِها على ما قَصَّتْه أمِّي من حكايا مللتُ

استماعها واختلطت عليَّ تفاصيلها، وما عادت نهاياتها السعيدة تُبَشِّرُ بِنَوْمٍ هادئ، فَقَفَزْتُ. أوَّل ما لفتَ انتباهي هوَ اصْطِفاف البيوت وقَدْ أدارت ظهورَها للمخيَّم، ولم أدرِ فعلت ذلك تجاهُلًا أم لأسبابٍ غابت عن فهمي وإدراكي، ولكنِّي رأيتُ في اصْطِفافِها على هيئتها تلك فعلًا عدوانيًّا، فَسَّرتْه فيما بعد نظرات من استضافوا العيد وأغْلَقوا عليهِ بَوَّابات شُرُفاتِهم، محوِّلةً ذلك المشهد الرومانسيّ لبيوتٍ تعيشُ احتفاليَّةَ العيد بِلا تَوَقُّف، وصبِيٌّ مُعَلَّقٌ على حافَّة السور مدفوعٌ بالفضول والاندهاش إلى فيلمٍ بوليسيّ، ومتسلِّلٌ يبحث عن جدارٍ يخفيه أو لَيْل يسترُ خطواتِه حتى يجد سبيلَهُ إلى السور. لم يَدُمْ انتظاري طَويلًا، فلم يَكُنْ في لقائي الأوَّل مع الجهة المُقابِلة ما يكفي من خشياتٍ تردعني عن تكرار ما فَعَلْت، بل زادت من فُضولي، وَبَدَتِ الطريقُ أَقْرَب وكلّ ما فيها داعَبَ قَدَمَيَّ للشُروع في محاولةٍ ثانية، ولكنْ هذه المرَّة كانت مُفاجَأتي كبيرة فالبيوتُ شُرِّعَت أبوابها وَخَلَت شُرُفاتها وَغَصَّت الشوارع بالعيد. ولا شيء في زيارتي الأولى جَهَّزَني لهذا الموقف الجديد، ولا جدارَ يَسْتُرُ تَوَتُّري وضياع خطواتي أو يُخْفيني عن نظراتٍ ترْقُبُني بانتباهٍ شديد، وشَكٌّ لم أجدْ ما يُبَرِّرُه. ما الذي أخافَ المكان خلفَ السور من صبيٍّ ابْتَلاهُ رَبُّهُ بالفضول، وأُمٍّ أطلقت العَنانَ لخياله، وصِبًا بَكَّرَ في قُدومِه، ومخيَّمٍ ضاقَ حتى الاختناق؟

أحاطَ شِبْهُ المدينةِ بالمخيَّم من جهاته الأربع مُغْلِقًا الأبواب حتى لا مَفَرّ، وضَجَّت البيوت والحارات بأرواحٍ جديدة. بحثت لَها عن فراغٍ يطيق ازدحامَها، حتى يَئِسَت واستسلمت محاوَلاتها وأوجدت لها فيما وَفَرَهُ الضيق من مكانٍ فُرَصًا للبقاء، وراحت

تَرِثُ عن المخيِّم أفعالَهُ الهامشيَّة، فلا شيء تَقوله أو تفعله يُحْدِثُ فارقًا في تاريخ أو جغرافيَّة المدينة التي تَنَصَّلَت من روايةِ المخيَّم وكَذَّبَت ما جاءَ فيها من طَرْدٍ وتهجير، وانهالت عليه بالاتِّهامات وقَزَّمَت أوجاعَهُ، ونزعت عنهُ هُويَّاتها المتناثرة،وأسقطت عليهِ ما تَيَسَّرَ في مَعاجِمِها من مُرادِفاتٍ للخائن والهارب والمُهاجِر واللاجئ والغريب والطريد والدَخيل وغيرِها من المُفْرَدات التي ساهمت في إقصاء المخيَّم عن سياق ما يحدث أو لا يحدث فارضةً عليهِ زمانًا ومكانًا مُوازِيَيْنِ، فيهما يغزلُ على وتيرَتِهِ البطيئة خيوط تَغْريبَتِه، ويُرَتِّبُ أحداثَها من ألف الانتظار إلى ياء اليَأس بحسب أبجديَّةٍ مُسْتَحْدَثة اختُزلت حُروفُها في أربعة، ومُؤَرِّخًا تغريبته بالنكبة ـ ما قَبْلَها وما بعدَها، فَلا جاهليَّةٌ تُبَرِّرُ خَيْمَتَهُ أو نَبِيٌّ مُهاجِرٌ صارَ سَيِّد المدينة ومَليكَها، ولا صليبيُّون ولا صلاح الدين. خَلا تاريخُ المخيَّم من الأسطورة، فلا أبطالٌ رَكِبوا الغَيْم أو يَدٌ مِطْرَقة، ولا جيلٌ تزاحمت فيهِ الآلِهة أو رجلٌ كَلَّمَ رَبَّه، ولا من مشى على الماء أو مَنْ أخرجَهُ من صَخْرِهِ. . وصارَ عليه مُقَيَّدًا بأبجديَّةٍ مربَّعة ضَيِّقة، محبوسًا في حَيِّزٍ ضَيِّقٍ مُرَبَّع، أن يكتبَ أسطورَتَه وَيُلَمْلِمَ تَفاصيلَها من رموزٍ وأبطالٍ وحوادث حقيقيَّة وأخرى متخيَّلة، وحقائق بديلة، وابتكار وسائل وأدواتٍ للكتابة ورقعةٍ يكتب عليها سَرْدِيَّتَهُ، إذا شاخَتِ الأرواحُ والذاكرةُ وَتَلَعْثَمَ الرُواةُ في ترتيب عناصر الأسطورة. ونتيجةً لغياب نُخَبٍ تكتب أسطورته، وتُعيد تشكيلَ خطابٍ يُرَمِّمُ ما تَهَدَّمَ من بُيوت، ويفتح أبواب تِلْكَ الباقية على حالَتِها الأولى وتنسجُ مِخْيالًا يُوَحِّدُ ما فَرَّقَتْهُ أوجاع الطريق وأحجام الخسارات وتنوُّعُها، وجدَ المخيَّم

نفسَهُ وحيدًا في مَعْزَلِهِ مُحاطًا بِرِوايةٍ تَنَكَّرَت لَهُ وأسقطتهُ من كامل نصوصِها، وسكتت عن ضَياعِ مَوْروثِه، وجعلت بينَها وبينَهُ جدرانًا فاقت قدراتِه الجسمانيَّة وحدودًا ضمنت نقاءَ جنسِها، فالْتَفَتَ إلى ما سكنَتْهُ من أرواحٍ صغيرة كَبُرَتْ، وما عادت تقبل به انتماءً وهويَّة، ولا قبلت بأسوار المدينة حدودًا لخيالاتِها، رافضةً سياسات الإقصاء والتهميش.

انتظرَ جيلُ النكبة الثانية عشرينَ عامًا كَيْ يُسْقِطَ عن كاهِلِهِ مَوْروثَ هَزائمَ ليست لَه وإن كَبَّلَتْه، ويُعْلِنَ ثَوْرَتَهُ مُسَطِّرًا بالحجارة أولى صفحاتِها، فَتَعَرَّت صدورٌ وامْتَدَّت سَواعِدُ، وحُطِّمَت أصنامٌ وتَشَظَّت أَسْقُفٌ زجاجيَّة، وَذُبِحَت بَقَراتٌ مُقَدَّسة، وتراجَعَ الآباء وتَقَدَّمَ الأبناء كي يكتبوا أسطورَتَهُمْ. مُخَيّمٌ وقريَةٌ وأشباه مدينة تحريرٌ وعَوْدةٌ وانتصار انتظار، أحلامٌ كبيرة وأبطالٌ صِغار، مُخَيَّمٌ شاطِئٌ وجبلٌ من نار، كُلُّها عناصرُ مَلْحَمةٍ اكتملتْ، وأسطورةٍ كُتِبَت على جدار، وجيلٌ كانَ بالأمسِ مُعَلَّقًا على أسواره يعدّ أصابعه قبل قَفْزَتِه في بَحْرٍ من الرَيْبَةِ والشَكّ، أصبحَ سَيِّدَ المكان وكاتب الرواية والراوي، والعُيون التي راقَبَتْهُ يومًا باتت تَرْقُبُ لَه وَتَخَلَّت الشُرُفاتُ عن عيدِها واحتفلت بِهِ عيدًا، وزَيَّنَت البُيوتُ جُدْرانَها بصُوَرٍ من قُتِلَ في الأمس ومَن غدًا سَيُسَجِّلُ أَرْوَعَ انتصار، لقد جَدَّدَت الأسطورة حكاية الأرض وأعادت تعريف المكان والزمان، وبَنَت جُسورًا وهدمت أسوارًا، واستبدلت باللثم أقنعة النجاة والبقاء، وقَدَّمَت الأفعال، وأَخَّرَت ما تَزَيَّنَ من أقوال، وأفرغت مَقولة الآباء من نبوءَتِها حتى امتلأت قُبورٌ وتَكَسَّرَت عظام.

ما كانَ للمخيَّم أن يعقدَ أيَّ صُلْحٍ كان مع أيِّ كَيانٍ أحاطَهُ تحتَ أيِّ شجرةٍ كانت، فوقَ أيِّ أرضٍ عانقت أو تَنَكَّرَت، وما كانَ لَهُ أن يتصالَحَ مع ماضٍ دَفَنَهُ عَميقًا في أرضٍ كانت يومًا أرضَه، إن لم تَكُنْ الأسطورة وجيلٌ قامَ مَقامَ النُّخَب وشَكَّلَ حَوْلَ أيتوس العَوْدة مُخَيِّلةً جماعيَّة قَلَّصَت الفَوارِق والفجوات وَبَوْصَلت الطريق، وأعادت للأحلام كُلَّ ما فيها من احتمالات. لقد أعادت الأسطورة للمخيَّم حروف أَبْجَدِيَّتِهِ المُغَيَّبة، ولم يتوقَّف منذُها عن الكتابة، لا يوفِّر وسيلةً أو أداةً، لا يُفَوِّتُ فرصةً لاقتحام ما امتنعت عنهُ من نصوصٍ يُوَثِّقُ فيها ويُؤَرِّخُ من خلالِها بأحرُفٍ كَبيرة قَدْرَ استطاعتِه.

لكلِّ روايةٍ عناصِرُ ثلاثة هيَ: المكان والزمان والشُّخوص وسؤالٌ يربطُ بينَها، إلَّا رواية المخيَّم لا مكانَ في سرديَّتها ولا زمان، بعدَ أن فصلت الزمان عقودُ احتلالٍ طويلة عن مكانه وتَحَرَّكَ كُلٌّ منها في فضاءٍ مختلف، لقد شُلَّت عقارب الزمن في ساعاتِ مَن هُجِّروا في النكبةِ الأولى والثانية، فَعَلَّقوا ساعاتِهم مَفاتيح على عتباتِ خَيْماتهم، عَلَّ السماءَ تَعِدُهُمْ بفِصْحٍ ثانٍ وخُروجٍ أَوَّلَ الليْلِ يعفيهم من وَيْلاتِ تيهٍ جديد، وَرَتَّبوا أحداثَهم ما قبلٌ وما بعدُ دونما اعتبارٍ للزمان. فكُلُّ ما زَرَعوا ونِصْفُ ما حَصَدوه وما خَلُوهُ في أَرْضِه وما أَكَلَ الطَيْر، كُلُّها أفعالُ ما قَبْل وكُلُّ ما عَجزوا عن زراعَتِه، أو قَصَّروا في حَصادِه وما حَرَموه الطَيْر، كُلُّها أفعالُ ما بَعْد. في حين تَخَلَّفَ المكان وَعَلِقَ في ثباتِه، يُراقِبُ أرواحًا فَتِيَّةً حملت جَدّاتِها على أكتافِها وكُلّ ما طاقت بِهِ ظُهورُ دابَّة الأرض من أحمالٍ وهيَ تدخل بَوَّابةً زمنيَّةً

أَخافَتْهُ وَسَمَّرَتْهُ في أرضِه، يخشى إنْ تَجَرَّأَ انفجارًا كَوْنِيًّا يُبَعْثِرُ غباره، فلا قيامة ولا بَعْث يُنَجِّيانِه.

يقول جاك دريدا «لا شيء خارج النصّ»، ورواية المخيَّم نَصٌّ لا زمانَ أو مكانَ فيه، ما جعلَ منهُ عابرًا للزمان وعابِرًا للمكان، يكتب روايته الخاصَّة باذِلًا أقصى ما استطاعَ من أبناءٍ وبناتٍ في سبيلِ اختراقٍ قريبٍ أو بعيدٍ مُحْتَمَل، يُزَمْكِنُ فيهِ عناصر الرواية، أو تُفْسِحُ لَهُ ما تَوازَت من نصوص نقاط تَقاطُعٍ والتقاءٍ يستعيدُ فيها تَوازُنَهُ أو بَعْضًا منه. لقد عَرَفْتُ من كتابةِ المُخَيَّم الأولى أَنَّ نَصًّا ينتظرُني، أَكْتُبُهُ تارةً ومَرَّةً يَكْتُبُني. ولم أفعلْ أَيَّ شيءٍ من شأنِه إنْقاذي، أو ضَمان مستقبلٍ شبيهٍ بما جاوَرَني من أحياء، أو تَحْييدي عن روايةٍ مَبْتورةٍ عَناصِرُها، لَكِنِّي فَعَلْتُ عَكْسَ ذَلِكَ كُلِّه.

انتفاضة الحجارة

خريف 1987، كنتُ قد رَتَّبْتُ أولويَّاتي جَيِّدًا متفائِلًا بمصفوفةٍ كَوْنِيَّة تُشارِكُ فيها الشموسُ والأقمار وما خَفِيَ من مَجَرَّاتٍ تُعينُني على تحقيقِ نِيَّاتي، ما تَواضَعَ مِنْها وما بالَغْتُ في عَقْدِه. وكان المخيَّم على كتابته تلك يَتَحَرَّشُ بما أحاطَتْهُ من نصوص، غير يائسٍ من تعب المحاولات، ولامبالٍ وعن جهلٍ في بعض الأحيان، بما جَدَّ من خِطاباتٍ وتَجَدَّدَ من نُخَب؛ ولم يَكُنْ في أولويَّاتي ما يُمَيِّزُها عن تِلْكَ لدى أقراني سِوى إيماني وتصديقي بأَنَّ عنايةً إلٰهيَّة خَصَّتْني دونَهم، وخَطَّت لِيَ من الأقدار ما تَساوَقَ مع آمالٍ مَعْقودةٍ نظَّمت تَفاصيلَها وقفاتٌ طَويلةٌ على السور، وما اختلطَ فيها من مشاعر الغيرة والغضب غَذَّتْها طبيعة المَشاهِد في الجهة المُقابِلة، لم تَبْدُ لي مُهِمَّةُ تَرْتيب مصفوفَتي الكَوْنيَّة أمرًا صعبًا على رَبٍّ استعانت بِهِ أُمِّي في جميعِ أمرِها وألقت على عاتِقِهِ عَسيرَ مَهمَّاتها، وما استعصى عليها من عمليَّاتٍ حسابيَّةٍ عَقَّدَتْها كثافة احتياجاتِنا. سَهَّلَت المَهِمَّة أكثر سماءُ المُخَيَّم وشُحَّ ما سكنَ فيها من كَواكِب وأجرام، اعْتَدْتُ طِفْلًا تحريكَها

وتعديلَ مَواقِعِها ما حَلا لي، وإنْ تَعَكَّرَ مزاجي ليلةً أغمضتُ عَيْنَيّ حارِمًا السماء كُلَّ ما أضاءَ ظُلْمَتَها. لن يتطلَّب الأمرُ إذنْ مَجْهوداتٍ خارِقة يبذلُها رَبُّ أُمّي إنْ تَعَطَّفَ واستجاب وَفَعَّلَ كُلَّ حروفِ أَبْجَدِيَّتِه في صالِحي، فأيُّ جُهْدٍ يمكنُ بَذْلهُ وكُلُّ أفعالِكَ ناجِزةٌ في أَبْجَدِيَّةٍ من حَرْفَيْن. اللهُ كالمُخَيَّم. موضوع تسليم وقَبول وأبجَدِيَّةٍ مُخْتَصَرة، ووُجود خارج الزمان والمكان، وأنا عَبْدٌ للأوَّل رَبّ كافٍ ونون، والثاني يستعبِدُني أكونُ أو لا أكون. وَظَلَّت العِنايَةُ الإلٰهيَّةُ رفيقةَ مشواري تُسهِّل ما تَعَثَّرَ من طُرُقاتٍ حينًا وحينًا تُعَرْقِلُ ما اعْتَقَدْتُني متيقِّنًا من سُهولَتِها، وَقَضَيْتُ ساعاتٍ طَويلةً في لَيالٍ أَطْوَل أُفاوِضُ عِنايةَ السماء، وأُحاوِلُ بشَطارةِ مَنْ حَدَّدَت حواسَّهُ صَلابةُ الأَسْوار تحسين شروط ما قَدْ نَعْقِدُهُ من تَفاهُمات، أو تَسْوِيات إنْ تَعَذَّرَ اتِّفاق، مُسْتَفيدًا من اطِّلاعي على تجارب أبَوَيْن لم يكنْ التفاوُض أحد جوانبهما القويَّة.

بقيتُ على أفعالي تِلْكَ وكأنَّ الزمانَ والمكانَ امْتَلآ بي، فَلا ظِلٌّ لأيِّ أرواحٍ تحاوِلُ هيَ الأخرى استقطاب عِنايَتي الإلٰهيَّة راضيةً بما امتنعتُ أنا عن تقديمِه من تَنازُلات، فَصَلَّت وصامت وسَبَّحَت بالأسماءِ كُلِّها، وغَلَّظَت في إيمانِ الطاعة والوَلاء وقامت أَوَّلَ اللَيْلِ ونِصفَهِ وآخِرَه وزادت على مَفْروضاتِها الخمس فَرْضًا أو اثْنَيْن عَلَّ الكثرةَ تَغْلِبُ القناعة. بَيْنَما اكتفى صاحبُ السور بمَقولاتٍ إيمانيَّة من قَبيلِ التَوَكُّل والتصديق وثِقَتِهِ برَبٍّ رحيم يُنْجيه إنْ غَرِقَ مَرَّةً أو مَرّاتٍ في بَطْنِ شهواتِه. وأكيدًا من أولويَّاتي رُحْتُ أبذل كَلّ ما فِيَّ من جُهْدٍ، وصادَفَت على مَجْهوداتي شَهاداتٌ مدرسيَّة أرضت غُروري، وللحظةٍ شعرتُ بِأَنَّ مَصْفوفَتي الكَوْنِيَّة

تُداعِبُ أصابعي حَتى كِدْتُ ألمسها، وكُلُّ شيءٍ بدا مُمْكِنًا، لقد تَرَتَّبَت النجومُ والكَواكِبُ تمامًا كما أردتُ ترتيبَها دونَ اعتراضٍ أو تَدَخُّلٍ أو تعديلٍ من قِبَل العناية الإلٰهيَّة في إشارةٍ واضحةٍ إلى إِقْرار السماء غريب ترتيباتي، تِلْكَ التي خَلَت من المُخَيَّم والسور وأرواحٍ اعْتَدْتُ بديهيَّةَ ظُهورِها، لكنَّها كانت لحظةً قصيرة فالمخيَّم والسور والأرواح بديهيَّة الظهور كانَ لَها رأيٌ آخر، ومصفوفةٌ كونيَّةٌ أخرى رُتِّبَت عناصِرُها أفضلَ ترتيب، وعنايةٌ إلٰهيَّة اعتنت أكثر، وجريمةُ اغتيالٍ لِلُقْمة العَيْش في سوادِ عُيون قارَّةٍ ربطت بينَ عناصِرَ صارت مُجْتَمِعةً قضيَّةً تَفَجَّرَت غضبًا أو انتفاضة.

رأى المخيَّم في الانتفاضة لحظةً تاريخيَّة، وأزمةً حُبْلى بالفُرَص من شأنِها إنْ أحسنَ إدارتَها واستغلال مكوِّناته أفضل استغلال أن تفتحَ لَهُ ما أُغْلِقَت في وجهه من بَوَّابات، وتجعلَ منهُ صاحب دَوْرٍ من أدوار البُطولة في حكاياتٍ شعبيَّةٍ ستُسْدِلُ السِتار على ما سبقَها من حكايات، وتكتب تاريخًا جديدًا عن أسطورةٍ جديدة سَتَقْهَرُ أساطيرَ ظَنَّت أنَّها لا تُقْهَر، أسطورةٍ ستختفي عن مسرحِها شخوصٌ لازمانيَّة وأبطالٌ ميثولوجيُّون، ومَقولاتٌ أُخْرِجَت عن سياقاتِها، وآياتٌ تقبل كلّ تأويلٍ ممكن. وعلى عجلٍ، شَيَّدَ المخيَّم مسرحَهُ كالذي يخشى إنْ تَأَخَّرَ تفويت كلّ مساحات البناء وأَعَدَّ من النصوص ما يقيهِ مفاجآتِ سيناريوهات غير مُتَوَقَّعة. لقد تَعَلَّمَ المخيَّم درسَهُ جيِّدًا، واختارَ أدوارَهُ وأبطالَهُ ومَقولاتِه بحِرَفِيَّةِ المُجَرِّب وخشية من فَقَدَ قُدْرَتَهُ على تَحَمُّل مزيدٍ من الخَيْبات وتَصَدَّرَت المشهدَ أرواحٌ مُهَجَّرةٌ تَقَمَّصَت أدوار البطولةِ بعدَ أن أسقطت عنها كلّ ما أُلْصِقَ بِها من نزوعاتٍ هامشيَّة كادت

تُصَدِّقُها، حَتى امتلأت الساحات والأزقَّة بأبطالٍ شديدي النَزْف إذا جَرَّحَ الرصاص لَحْمَهُم. وتسارعت على خشبة المسرح عُروضٌ حَيَّةٌ لأبطالٍ يموتون في المشهد الأوَّل، لم يكنْ في واقعيَّة الأحداث وبيولوجيَّة المَشاهد ما يُذَكِّرُ بأبطال إسبارطة ودفاعات أثينا حتى انتحار آخِر آلِهَتِها، أو بأنصافِ آلِهةٍ مَلَّت رَتابةَ السماء فهبطت تَنْشُدُ مَوْتًا يُخَلِّدُها، لقد طغت زمانيَّةُ الأَلَمِ ومكانيَّةُ الوَجَعِ وحَتْمِيَّات المَوْت على كُلِّ المَشاهد والفُصول.

ضاقت جدران المسرح بالصُوَر والمُلْصَقات لعناصر الأسطورة، وطنٌ وثائرٌ وشِعار ثلاثيَّةٍ جداريَّة راحت تكتبها أرواحٌ مُعَلَّقَةٌ بمُفْرَداتٍ تُشْبِهُها ومن بناتِ عَصْرِها، لا تاريخ يَحُدُّها بأرباعِ انتصاراتٍ أو أنصاف هَزائم، أو يُؤَطِّرُ لَها بوُعوداتٍ إلٰهيَّة وسُنَنٍ تَفَرَّقَت وتَشَيَّعت وأحكام مُسْبَقة جَرَّمَت أفعالًا لم تلبثْ بَعْد تحريك ما اعْتَراها من حُروفٍ، لا فتحٌ ولا ضَمٌّ ولا تَكْسير. أرواحٌ أدارت ظُهورَها لمَقولاتٍ وُلِدَت وكَبُرَت في جغرافيا بِلا وطن ووَهْم أُمَّة دينيَّةٍ فَرَّقها دينُها ساعةَ ماتَ فيها، وصاغت مخيِّلةً جديدَة ووَحَّدت ما تَفَرَّقَ من ذَواتٍ حولَ وطنٍ ـ فكرة يستعيد فيزياء الجسد وحِسِّيَّة الجغرافيا والأرض. وعلى الرَّغم من ضيقِه توافرت في المسرح مساحاتٌ لكلِّ الذَوات الفاعلة، وكانَ على خشبته ما يكفي من فضاءاتٍ تسمح بالارتجال وتَعَدُّد الأدوار والشُخوص والخِطابات، لقد رأيتُ تَبَدُّل الأدوار والأغراض في أسوار المخيَّم وقُدْرَتَها على استيعاب كلِّ ما طرأ عليها من اختلالاتٍ جينيَّة غَيَّرَت في طبيعَتِها من قَطْعٍ إلى وَصْل، وعَزْلٍ صارَ اندماجًا، وكيفَ لَطَّفَت من خُشونَتِها وصلابَتِها حتى غَدَت

رُقْعةً كُتِبَ عليها دستورُ انتفاضةٍ شعبيَّة، وَلَوَّنَت الشِعاراتُ حجارَتَها بالأسود والأحمر وما تَسَرَّبَ من ألوان، وظَلَّت الأسوار على تَبَدُّلِها في سياقٍ داروينيٍّ عجيب مُتَأَقْلِمةً مع تَقَلُّبات مُحيطِها المادِّيّ والمعنويّ، وآمِلةً في مُعادَلةٍ تَقيها شَرَّ الانقراض أو التَهَدُّم القَسْريّ، حتى صارت لاعِبًا رئيسًا على مسرح الأحداث ومدوِّنةً لذاكرة المكان.

إنَّ قُدْرةَ النُخَبِ على الكَذِب وحاجة الناس للإيمان والتصديق عنصران مهمَّان في بناء أيِّ أسطورةٍ تسعى لنَظْم مجموعة قوانينَ وعلاقاتٍ داخل أيّ مجتمعٍ إنسانيٍّ، حتى يقبلَ الأخير بسلطة النظام وشرعيَّته. حامورابي بابِل وأسطورة الملك الطَيِّب المبعوث هِدايَةً للناس من قِبَل الآلَهة آنوس. آلهة الصين نووا وخلقها للناس من طينٍ بعضه أصفر، جعلت منهُ نُخَبًا حاكِمة، وطينٍ بُنِّيّ خلقت منه عامَّة الناس. بوروشا الآدميّ الأوَّل عند الهندوس وطبقات عُلْيا خُلِقَت من فَمِه ودنيا الطبقات من رِجْلَيْه. الملك أخناتون وأسطورة الإلٰه الواحد آتون. كُلُّها أساطير على كذباتِها تَوَحَّدَت اجتماعاتٌ إنسانيَّة، وأُقرَّت قوانينُ وشرائعُ وترتيباتٌ اجتماعيَّة، وقامت حضاراتٌ ملأت الدُنْيا تعميرًا وإفسادًا، إحياءً وتقتيلًا، وما كان لأنبياء الله أن يُقيموا عَدْلًا أو يهدموا صَرْحًا لَوْلا تكذيبهم ما سبقهم من كذبات. كُنّا في حاجةٍ إلى جيلٍ يتقن صناعة الكذب حتى يصوغ منه أسطورةً تنفي كلّ ما صَدَّقْناه قبلَها من نكباتٍ وتهجيرٍ وتقتيلٍ ويأس المُحاوَلات وجدوى التسليم ونصائح الآباء وخوف الأمَّهات، كُنّا في حاجةٍ لكذباتٍ جديدة نُصَدِّقُها ونُقَرِّبُها إلى صُدورِنا، ونُقَدِّم على مذبح حقيقَتِها ما تَبَقَّى

لَدَيْنا من قَرابين ادَّخَرْناها لمُصيباتٍ أكبر.

كُنّا في حاجةٍ إلى أنبياء نُكَذِّبُهم ونرجمهم بالاتِّهامات ونُغْلِقُ نَوافِذَنا في وجه رسالاتهم، حتى إذا يَئِسوا رفعوا أيديهم إلى السماء يدعون ربّهم تصديقًا قريبًا يُنْقِذُ ماءَ وجهِهم، وقاتلوا في سبيلِ روايَتِهم حتى إذا ماتوا دونَها صَدَّقْناهم، وحَمَلْنا ما بَيْنَ أيديهم من أخبارٍ نرويها عنهم.

كُنّا في حاجةٍ إلى جيلٍ كاملٍ من أنبياءٍ يحسنون الكتابة على الجدران والسُكْنى في القلوب والحناجر، ويموتون إذا صُلِبوا ويُدْفَنون قريبًا مِنّا حتى نقرأَ على أرواحِ كذباتهم ما حَفِظْناهُ من أغانٍ وأناشيد، وإذا ضاقت بهم الأرض حفروا قبورَهم بأيديهم وصَلُّوا على أرواحِنا صلاةً أخيرة.

كُنّا في حاجةٍ لأنبياء عُضْويين يأكلون ما نأكل ويبنون بيوتًا يَجْرِفُها السَيْلُ قبلَ بُيوتِنا، ويشربون قَهْوَتَهم مُرَّةً مُهَيَّلة، ولا يتزوَّجون وإنْ تَزَوَّجوا فواحدة، وإذا خانوا لا يُغَرِّبون الخِيانة ويغارون على زَوْجاتهم كما يفعل آخِرُ ذَكَرٍ من ذكور القبيلة.

كُنّا في حاجةٍ إلى أنبياء يجعلون من أوجاعِنا قصائدَ شِعْرِيَّة من بيتٍ واحد، ومن أسئلَتِنا مِشْوار بَحْثٍ طَويل، ويجعلون من حكايات جَدّاتِنا تَغْريبةً ومن خُروجِنا عَوْدَة، أنبياء يتكلَّمون لُغَةً نَفْهَمُها ويجعلونَ من حُروفِها قضيَّة.

كُنّا في حاجةٍ إلى جيلِ انتفاضةٍ وَخَريفٍ يُسْقِطُ عَنّا كُلَّ ما غَطّى عَوْراتِنا من أوراق، ويفضحنا أمام ما تَكَسَّر فينا من مَرايا ويُطْلِقُ علينا أفضل ما عَرَّفَنا من نُعوتاتٍ وألقاب، جيلِ الحجارة.

أسئلة

قُلْ لي عَمَّا تُدافِعُ أقُل لَكَ مَن أنت! ما الذي يُقْلِقُ نَوْمَكَ وعلى أَيِّ صباحاتٍ تستيقظُ فيكَ أحلامُك؟ ما الذي يُبَلِّلُ عَيْنَيْكَ إذا يومًا تعاظمت فيكَ ذكورَتُكَ وبَكَيْت؟ هل يعنيكَ تَأَخُّر المطر؟ أيّ الألوان يدفعُكَ إلى الجنون وأيُّها يهديكَ تَوازُنًا أَنْكَرْتَ احتياجَهُ؟ كيف تُمارِسُ الحُبّ أم أنَّك تُفَضِّلُ صبغةً إباحيَّةً أكثر للسؤال؟ على أيِّ صدرٍ تُسْقِطُ رأسَكَ إذا فارَقَتْكَ أُمُّكَ دونَ سابق إنذار؟ هل يعنيكَ حديثُ المَرايا أم أنَّك تَوَقَّفْتَ عن المُثولِ أمامَ ظِلِّك؟ أيُّ الأنبياء تُصَدِّق؟ وهل لله مكانٌ في حَيِّزِكَ الضَيِّق؟ ماذا لو اتَّسَعَ؟ هل تُتْقِنُ رقصةً مُعَيَّنة؟ ما الذي يُحَدِّدُ فَقْرَك، الأشياء التي تملكُها أم الأشياء التي لا تملك؟ كيفَ تشرب قَهْوَتَكَ؟ لو خَيَّرْتُكَ بينَ الأشياء كُلِّها، هل تختار؟ أأنتَ من بُرْجِ العقرب؟ هل تُلْقي التحيَّة على امرأةٍ مشبوهة؟ وأيّ النساء تُوْقِفُ أنفاسَكَ أو تُؤَجِّلُ فيكَ نَبْضَك؟ ماذا يعنيكَ تشرين؟ هل اخْتَبَرْتَ يومًا رَبَّك هل أَسْعَفَك؟ على أَيِّ جَنْبٍ تَموت؟ لو عادَ خَلْقُك كَرَّةً ثانية، هل تعودُ أنت، وإلى أين؟

قُلْ لي عَمَّا تُدافِعُ أَقُل لك من أنت.

وأسئلةٌ ثقيلةٌ كثيرة غيرها تسلَّطت على شابٍّ لم يُكْمِلْ بَعْدُ عامَهُ الثامن عشر، ما الذي جعلَ منها مُلِحَّةً تستنطِقُ إجاباتٍ مُسْتَعْصِيَةً في ظروف طغت عليها قنابل الغاز وسؤالاتٌ أهمّ؟ لماذا لم أَهْرُبْ إذ أمكنَ الهَرَب؟ فالكَرُّ والفَرُّ كانا عقيدةَ البقاء تحتَ وابِلٍ واسِعٍ من النار في زِقاقٍ ضَيِّق، لَكِنِّي لم أَهْرُب، وتركتُ الأسئلة تجتاحُني من كُلِّ الاتِّجاهات حتى صارَ كُلّ سؤالٍ منها حافِزًا للبَحْث والتَقَصِّي والتجريب والاختبار. ودونَ أَيِّ اعتبارٍ لِتَراتُبِيَّة الأسئلة، رُحْتُ أبحث وأنبش وأُجَرِّب. جميلةٌ هيَ الأسئلة، كانَ هَذا اكتشافي الأوَّل، وجميلةٌ ما تَضَمَّنَتْهُ من احتمالاتٍ وإجاباتٍ مُمْكِنة وطَرائِق وُصولٍ مُباشِرة وأخرى مُلْتَوِيَة وكان في مساحات حُرِّيَّتي ما يكفيني من فُرَص اكتشافٍ تخلَّلتها سقطاتٌ مُؤْلِمة وندباتٌ لا أزال أحمل بعضها على جسدي. يا لِرَوْعة الأسئلة وخَجْلةِ الإجابات أمامَها! شُعورٌ ظَلَّ يُلازِمُني على الرَّغم من أجواء التأجيل التي فَرَضَتْها الانتفاضة على كثيرٍ من تَساؤُلاتي. إنَّ عِناد الأسئلة واستعصاءَها مُقابِل استسلام وطَواعِيَّة الإجابات هُوَ ما أَبْقى على فُضولي مُشْتَعِلًا ومُتَحَفِّزًا طولَ الوقت لقد قَفَزَ ذلك الصبيّ المُعَلَّق عن سورِه، لكنَّ سورَهُ ظَلَّ يسكنه ورغبةٌ لا تُقاوَم في القفز إلى مجهولٍ تَحَدَّى مَعارِفَهُ ويقينيَّاتِه الأوَّلِيَّة، وهرموناتٌ عبثت في بنائِهِ البيوكيميائيّ تستعجلُ نُضوجًا يحتملُ مُفاجَآتِ ما سيأتي مُبَكِّرًا وعلى غير مَوْعِدِه.

عَجِبْتُ من جهوزيَّة الإجابات وَكَثْرَتِها لدى أقراني. كانوا إذا أنهكهم كَرُّهم وفَرُّهم ناموا على ما وَفَّرَتْهُ الأرض من مخدَّاتٍ

صلبة، بعدَ أن أكلوا ما تَبَقَّى على مَوائِد تَأَخَّروا عنها حتى يَئِسَ مُنْتَظِروهم، ناموا إلى جانب حبيباتٍ مُتَخَيَّلاتٍ أعادتهم إلى أحلامِهم، ناموا من كثرة التصديق بِثَوْرَة تنتصر وإنْ قتلهم تصديقُهم. تَمَلَّكَني شُعورٌ بالغَيْرة الشديدة من همومهم الكبيرة وقُدْرَتِهم على تأجيل ما قَزَّموه من همومٍ. غِرْتُ من تلك المُصالَحة العجيبة بينَ التَخَلّي عن الأسئلة والتَمَسُّك بِراحةِ الإجابة. غِرْتُ من نَوْمِهم المُتْعَب، من نَصْرِهم الواثِق، من صُوَر ما تَخَيَّلوه من حبيباتٍ ومن شَخيرِ أحلامهم، لَكِنّي لم أَتَخَلَّ وَقابَلْتُ عِنادَ الأسئلة بعِنادٍ أَشَدّ وإنْ كَلَّفَني ذَلِكَ قَلَقًا لَيليًّا لا يهدأ، وخصوماتٍ مع نَوْمٍ أنهكت جَنْبيَّ تَقَلُّباتُه. ما كُنْتُ لأرضى بإجاباتٍ تُقَدَّمُ بارِدةً وانتصاراتٍ مُباشِرة، أو بشهرزاد يُسْكِتُها الصباح ويُعيدُ لَها ما نزعته عنها من ثيابٍ تَلَوَّنَت ببَديع فُتوحاتي اللَيْلِيَّة. لم يكنْ في العروضات تِلْك ما أَسْكَتَ جوعي لمُغامراتٍ جديدة. لم أرَ جبلًا بل رأيتُ كُلَّ ما ورائه ويدعوني لاكتشافه.

كان في أجواء الانتفاضة ما بعثَ في أرواحِها الفاعلة شعورَ المَرَّة الأخيرة، فكلّ ما تفعله قد يكون آخِر أفعالك، لا شيءَ يضمن غدك إنْ قارَبَ يومُك على الانتهاء، قُبُلات أَجَّلْتَها للأسبوع القادم قد تُبَلِّلُ ثَغْرًا لَيْسَ لَك، خِصامٌ تافهٌ مع أَبيك قَرَّرْتَ تَجاهُلَهُ قد يَحْرِمُكَ شفاعةً قد تُخَلِّصُك، مُغامَرةٌ نسائيَّة لَيْلِيَّة تراجعت شريكَتُكَ فيها في اللحظة الأخيرة قد تكونُ أكبر خَساراتِك رصاصةٌ أخطأتْكَ بالأمس يمكنُها بعدَ ساعةٍ أن تَقْتُلَك، ورايَاتُ انتصارٍ خَبَّأْتَها تحتَ فِراشِ أُمِّكَ قد تَصيرُ مَوْتًا كَفَّنَك.. لقد انتهى زمن الانتظار لَدَيّ، كذلك التَباطُؤ والتَفاؤُل بغَدٍ أفضل، انتهى وُقوفي

على الجدار، وما كنتُ لِأُغادِر مع ذلك الكَمّ الهائل من الأسئلة وكَمٍّ أكبرَ من الفُرَص وجوعٍ كادَ يأكلُني.

رُحْتُ أبحث، وأتركُ لجامِح مُخَيِّلاتِكم تَصَوُّرَ ما فَعَلَتْهُ سِتَّةُ أعوامٍ من البَحْثِ مع جوعٍ لا يَشْبَع، وأسئلةٍ لا تكتفي باحتمالٍ واحدٍ للإجابة...

هل انتهت مُخيِّلاتُكُم؟

أَنا لم أبدأ بَعْد.

آلهةٌ صغيرة

إنَّ اختيارَنا لأنواع الهموم التي تشغلُنا يقولُ ويُخْبِرُ عَنّا أشياءَ كثيرة، إنَّنا نَكْبرُ إنْ كَبُرَت فينا همومُنا ونَصْغُر إنْ تَقَلَّصَت فينا وتَواضَعَت. الهَمُّ مَوْضوعُ اختيارٍ واستعداد، وكُلُّ هَمٍّ يسكُنُنا يُحَدِّدُ حَظًّا كبيرًا من أفعالِنا وصِفاتِ انشْغالاتِنا وساعاتِ نَوْمِنا وكَمِّيَّات ما نحتفلُ بِهِ على مَوائِد الإفطار، ما نستمعُ إليه من أغنياتٍ وعدد دقائق الدُعاء في آخِرِ كُلّ صَلاة، وعَناوينَ وأثمان ما نشتريهِ ونقرأه من كُتُبٍ ومدى استعجالِنا في رِثاء الأُمْنِيات. إنَّ الأشياء التي نُدافِعُ عنها وتِلْكَ التي نُحِبّ، هيَ ما يُعَرِّفُنا وهيَ أوَّل ما يُقال في أوَّل جُمْلة تعريفٍ عِنْدَ أوَّل لقاءٍ مع أوَّل من يسأل.

لقد اختارَ جيلُ الحجارة إلى جانِبِ انشغالاته همومًا فاقَت وتَعَدَّت محلِّيَّاتِه أراضيَ عربيَّةً مُحْتَلَّة تَقاعَسَ أصحابُها عن فكرةِ استرجاعِها، وأُمَّةً سكتت عن سارِقين محلِّيّين تَوَّجوا هزائمهم مُلوكًا عليها، وخِطاباتٍ قَوْمِيَّة كُتِبَت بِلُغاتٍ أجنبيَّة، وبَلايين من الفُقَراء وعالمًا تَأَبَّطَ ثَرْوَتَه، وعشرات المَلايين تَموتُ جوعًا تَحَوَّلَت إلى أرقامٍ وإحصائيَّاتٍ ومعدَّلاتٍ ذَيَّلَت صحفَ العواصم

المُهِمَّة والمؤثرة، وأطفالًا ـ عُمَّالًا وأربابَ عملٍ كفروا، وعَمالةً رخيصة وظروفَ عملٍ أرخص، نساءً صَدَّعَت أجسادَهُنَّ أيادٍ مُتَحَرِّشة وحراكًا نِسْويًّا لا يَمَلّ المُحاوَلة، وخطاباتِ تمكينِ ذكوريَّةٍ مُعَطِّلة. . لقد وجدَ الفلسطينيّ بينَ التَظاهُرة والأخرى، بينَ تشييعِ شُهَدائه ودفنِهِم، وقتًا وجُهْدًا ووُجْدانًا للاهتمام والتضامن مع كُلِّ هؤلاء، والبُكاء على صُراخِهم وتشغير مساحاتٍ في سورِهِ الضَيِّق عليها كتبَ تفاصيل مُعاناتهم حَتى اختلطت الصُوَر والشعارات في مَشْهَدٍ غريبٍ لجداريَّةٍ كَوْنِيَّةٍ من التَعَب كان فيها ما يكفي من حجارةٍ متفائلة لاحتواء ذلك الكَمّ الفائض من اليأس والإحباط.

تَكَلَّمْنا بكُلِّ لُغات الوجع وأَتْقَنّا الكتابةَ على مُخْتَلِف الرُقَع واحتضنت خطاباتُنا كوكب الأرض من جهاتِه الأربع، فلا عنصريَّة أديانٍ أو ألوانٍ أو اتِّجاهات، وكَذبَت صُدورُنا العارية والدامية ما تَمَّ تنميطُه من صُوَر عن شَرْقٍ بربريّ الخُطى والنَوايا يلزمه من يلجم وحشيَّته ويُهَذِّبُ بدائيَّته. لم يَكُنْ للأوجاع في قاموسيَّةِ جداريَّتنا لَوْن أو رائحة يُمَيِّزانِها عن أوجاعِنا، فتوحّدنا مع كُلّ خِطابٍ ثارَ على الظُلْم وناصَرَ من لا ينتصر، وأَعْلَنّا براءَتَنا من قصائد المَدْح الطَويلة والمُمِلَّة في مُلوكٍ وسَلاطينَ مَلَلْنا طولَ بَقائِهم فينا وعلينا وفَوْقَنا، فَلا خَيْرَ في قصيدةٍ لم تُخْرِجْ وراءَها مسيرة. قَرَأْنا لحِكْمَت ودنقل وعن جياب وجيفارا، ورَقَصْنا مع مَنْ تَبَقَّى من هُنود أميركا حَوْلَ نارهم. قَرَأْنا الفاتحة مليون مرَّةٍ على أرواحِ شُهَداء الجَزائر. رَكَضْنا نقطعُ حَبْلًا الْتَفَّ على عُنُق المختار في ليبيا، وحَمَلْنا إلى جامع الزيتونة ما استطعنا من كتاباتٍ عربيَّة نُخْفيها عن أسلافِ أتاتورْك، ورَدَّدْنا خَلْفَ ديغول

بعدَ انتصارِه: باريس محروقة، باريس مُدَمَّرة، لَكِنَّ باريس مُحَرَّرَة. تَكَلَّمْنا بكُلِّ لُغات الوجع، لَكِنْ ظَلَّت فينا فسحاتٌ للابتسام، وَضَحِكْنا من نكاتٍ كُنَّا في عديدٍ من الأحيان مَوْضوعَها، وأسبابَ نُزولِها. ظَلَّ فينا تصديقُنا نَصْرَنا وحياةً أفضل، حينَ يموتُ هَذا المَوْت الطَويل ونَدْفِنُه في حديقَتِنا الخلفيَّة، وَنَتْلو عليه ما كَتَبْناهُ بَعْدَ مَوْتِه من قَصائد انتصار.

لم تَكُنْ مساحاتُنا واسعة بعدَ أن شَغَلَها وافر تِلْكَ الهُموم لكنَّها كانت موجودةً، وفي ضيقِها مارَسْنا ألعابًا طفوليَّة تَذَكَّرْنا فقدانها وحاجَتَنا إلى براءة ما فيها من أخطاء وتأكيد غُفْرانِها ورومانسيَّة ما فيها من مُبالَغات، فَقُلْنا في صَحْرائِنا قصائدَ لا تُعيبُ شُعَراء الجاهليَّة وما عَلَّقوه من قَصائدَ على جدارِ كَعْبَتِهم. صارت كُلُّ نسائِنا خَنْساء، وكُلُّ مَوْتانا إلى جَنَّةٍ مُؤَكَّدة، ثمارنا لا تسقط فُصولًا أربعة، ماؤُنا عَذْب، صَيْفُنا رَطِب، بُرْتُقالُنا نَهْدٌ، وبَناتُنا إِنْ كَشَفْنَ عن ساقٍ بَرْقٌ وَرَعْد، وفي هَوائِنا نُضْرةٌ إِنْ داعَبَ مَرَّةً وَجْهَك. مَجَّدْنا شُعَراءَنا وإِنْ قالوا قصيدةً واحدة ماتوا بَعْدَها ورَوَيْنا بُطولاتٍ فرديَّةً زَوَّرْنا بعض تفاصيلِها. مَنْ يُكَذِّبُ طِفْلًا في رِوايَتِه؟ بالَغْنا في هذه وبالَغْنا في تلك! فما هيَ الأسطورة إِنْ لم تَكُنْ رَصيفًا حالِمًا على حافَّةِ مِشْوارٍ شاقّ وطَويل؟ عَلَّمَتْنا رومانسيَّة الثائر كيف نُسامِح، فَغَفَرْنا لِمَنْ تَقاعَسَ تَقاعُسَهُ، وخَلَقْنا الأسباب لِمَنْ تَعَذَّرَت عليهِ أسبابُه، وصَدَّقْنا ما جاءَ في أدبيَّات نِضالِنا بِأَنَّ الذي لا يعمل لا يُخْطِئُ، فكُنَّا قادرين على مُسامَحة أنفُسِنا على ما اقْتَرَفْناهُ من أخطاء. كُنَّا قَريبين من الناس، قَريبين من أوجاعِهم ومَتاعِب أَيَّامهم. كُنَّا إلى جانِبِ نَبْضِهم نَزيدُ من سُرْعةِ وَتيرةِ

أفعالِنا النِضالِيَّة قَدْرَ ما احتملوا ونبْطَئ إذا أنهكهم التَعَب. صَدَّقَ الناس مَقاصِدَنا وَصَدَّقونا، فَشَرَّعوا خاصَّةَ أبوابهم أمامَنا تحمينا فاحْتَمَيْنا وحَمَيْنا.

جعلت مِنّا الانتفاضة أصحاب قَضايا، جعلت مِنّا آلِهةً صغارًا، جعلناها تُشْبِهُنا في رومانسيَّتها وتَسامُحِها وغُفْرانِها ما صَغُرَ من خَطايا وما كَبُر. وأَسْكَنَّاها فَسيحَ هُمومِنا حتى تَصَدَّرَت صُفوفَنا الأماميَّة، تُقاتِلُ وتُدافِعُ وتَغْزِلُ مُعْجِزاتٍ صغيرةً كُنّا في أَمَسّ الحاجة إليها. إنَّ القَضايا كالأحلام لا تتحقَّق إلَّا إذا كُنَّا أكبر منها بِوَعْيِنا بِفَهْمِنا، بإدْراكِنا، وبإيمانِنا بقُدْرَتِنا على تَحْقيقِها، بِأَنَّها قريبة المَنال إنْ تَسَلَّحْنا بما يلزم من وَسائلَ وإراداتٍ فرديَّةٍ وجماعيَّة. كانَ علينا أن نَعْلو فَوْقَ ما حَمَلْناهُ من قَضايا لِنَراها أَصْغَر ونُدْرِكُ قابِلِيَّتَها للتَحَقُّق وعظيم ما نَمْلِكُهُ من قدرات، ولم يَكُنْ في خُروجِنا عن محلِّيَّاتِنا إلَّا تَصْديقٌ لكَوْنِيَّةِ الظُلْم وعالَمِيَّة الاضطهاد والفَقْرِ والقَهْر لم نَكُنْ قد تَجاوَزْنا عشريننا بَعْد، وَلَكِنَّا اعْتَنَيْنا بِقَضايا تَجاوَزَت أَلْفِيَّتَها الثالثة، وَحارَبْنا كُلَّ ما جاءَ فيها من أوهام قُيودٍ كَبَّلَتِ البَشَرِيَّة، ومخلوقاتٍ خُرافِيَّةٍ اسْتَباحَت واقِعِيَّة وطبيعيَّة وُجودِها وأساطيرَ لا تُشْبِهُ الخَيال في شَيْء، بَلْ تَعَدَّتْهُ إلى حَدّ الهَلْوَسة والهَذَيان وتحقير الذات الإنسانيَّة، وسَلَّطْنا الضوء على أساطيرَ أبطالُها من سُكَّان الأرض وإنْ أَلَّهَتْهُمْ أفعالُهم وما حملوا من قضايا قاتلوا وماتوا في سبيلِها. كُنّا آلِهةً تنزفُ وتموتُ إنْ أصابَها جُرْحٌ عَمَّقَ في كَراهِيَّتِه وَتَغَوَّلَ. كُنّا آلِهةً بِلا عُروش، لا سَماءَ نسكُنُها ولا نُخْلَق من عدم، لا نَحْكُمُ ولا نَسْتَعْبِد، ولا نقبل قَرابينَ من أحد. كُنّا نُقاتِلُ مِلْءَ أنفاسِنا وَنَنامُ إنْ اسْتَطَعْنا، ونَكْذِبُ حتى التَعَب.

كُنَّا أكبر من بِلادِنا، مِن بَحْرِنا مِنْ أرضِنا من سمائِنا.

كُنَّا أَقْدَس من مُقَدَّساتِنا، من جَوامِعِنا من كَنائِسِنا ومن مَقاماتِنا.

كُنَّا أَشْهى من طبيعَتِنا، من تُفّاحِنا، من نَخْلِنا ومن كُروم العِنَب.

كُنَّا أَقْدَم من تاريخِنا، من كَنْعان وعدنان ومن لِسان العَرَب.

كُنَّا أَبْلَغ من شُعَرائِنا، من طرفة من كُثيِّر ومن المَلِك امرئ القيس.

كُنَّا وكُنَّا وكُنَّا..

كُنَّا آلِهةَ كَذِب، لَكِنَّا صَدَّقْنا كِذْباتِنا، صَدَّقْنا أَنَّ فلسطين لا تَزالُ مُمْكِنة، وأَنَّ الطريقَ طَويلٌ وأعمارَنا قد لا تَكْفينا. صَدَّقْنا أَنَّ الحرِّيَّة مُمْكِنة على الرَّغم من تَطَلُّبِها وأَنَّ تضحياتنا قد لا تكفيها لم نتوقَّفْ يَوْمًا عن التَصديق. كُنَّا مُتْنا لو تَوَقَّفْنا، لم نتوقَّف يومًا عن القِتال. كُنَّا تَبَخَّرْنا لو فَعَلْنا، لم نَتَخَلَّ يومًا عن قَضِيَّتِنا، كُنّا صِرْنا بَشَرًا لَوْ تَخَلَّيْنا.

كانت العَواصِمُ العربيَّة قد اعْتَلَّت من تُخْمةِ ما أصابَها من آفات، ومن شِدَّةِ ما تعرَّضت له من خِطابات استِكانة وسياسات أمرٍ واقع، ولا بَأْسَ أَنْ أُكِلَ الثَوْرُ الأَبْيَض، ففي حَظيرة العَرَب ما يكفي ويزيد. اعتَلَّت عواصم العرب حتى تَقَيَّأَت ما تَسَلَّلَ إلى جسدِها من أجسامٍ غريبةٍ أَقْلَقَت حدودها الاستعماريَّة، وزادت من صُداعِها المُزْمِن بخِطاباتٍ ثَوْرِيَّة ادَّعَت عِلاج ما في أُمَّتِها من عِلَل. ذهبتِ العرب إلى مدريد عَلَّها تُشْفى من صُداعِها، واخْتَبَأَ

الفلسطينيُّون في أوسلو وغيرها من عواصم أوروبا، لِكَيْ تبدأَ من هناك نهايةُ أجملِ كِذْبةٍ صَدَّقْناها.

كُنْتُ لا أزالُ على تَصْديقي وكَذِبي غير مُبالٍ بما يُحاكُ ضِدَّ كِذْباتِنا من حقائق حتى قُدوم شتاء 1993.

أَوَّلُهُ اعتقال، نِصْفُهُ مُؤَبَّد، وآخِرُهُ لم يبدأ بَعْد.

صباحٌ مؤجَّل

كانون الثاني 1993 ـ ليلةٌ بارِدة قَضَيْتُها في بَيْت أحد الأصدقاء خارج المُخَيَّم. انتظرتُ ساعةَ النَوْم بِلَهْفةِ مَن انتصرَ وأَتْعَبَهُ انْتِصارُه، فراحَ يتعجَّل الصباح كي يرى كيفَ تبدو الدنيا في عُيونِ المُنْتَصِرين. مِنْ أينَ تُشْرِقُ شَمْسُهم وعلى أيِّ جَنْبٍ نامت لَيْلَتَها، كيف يكون مَذاقُ القهوة الصباحيَّة مع قَليلٍ من السُكَّر وهل يجوعُ إفْطار مَنْ نامَ مُنْتَصِرًا. هل يغسلونَ وجوهَهُمْ أَمْ يُبْقون عَلَيْها مُلَطَّخةً بغُبارِ انتصارِهم؟ أردتُ أن أعرفَ كيف سأبدو حينَ دُخولي ساحةَ الجامعة؟ تُرى هل سأبدو أَطْوَل أو أَجْمَل، وهل ستلاحظ تِلْكَ التي أحببتُ علاماتِ انتصاراتي فتتراجعُ عن تَجاهُلِها لي في الأشهر الأخيرة. بقيتُ أُلقي على كاهل ذلك الصباح من أثقالٍ حتى خشيتُ أنَّه قد لا يأتي خَوْفًا من عَظيم أحمالي. نامَ صديقايَ سريعًا، لكنَّ قَلَق الخائف على انتِصارِهِ أَرَّقَني، وكذلك شبح «المرَّة الأخيرة». فلا شيءَ يضمن قُدومَ الصباح وأنا على حالَتي المنتصرة والمُنْتَشِيَة تِلْك، فيمكنُ لساعةٍ واحدة أن تَسْرِقَ مِنِّي كُلَّ ما حَمَلَهُ يومي من انتصارات وإلى جَهَنَّمَ كُلُّ ما وضعتُه من

سيناريوهاتٍ لمحاضرة الساعة الثانية بعد الظهر ولقاء المُعيدة الشابَّة وقليلة الثِياب ناتالي، وترويعِها بما اعتَدْتُ تلفيقَهُ من صفاتٍ على فرسان الطاولة المُسْتَديرة، أو إطالة نِقاشِها عن قَصْد في كلِّ مَشاهِدِ الحُبِّ القصيرة في حياة الملك قَلْب الأسد. ناتالي كانت قد دَعَتْني أنا وصديقي قَبْلَ شَهْرَيْن إلى وجبةٍ من البوظة في بَيْتِها القديم في أحد أحياء مدينة القُدْس، وأَظُنُّها كانت على درايةٍ بمحاولات هَذا اللاجئ الفُضوليّ والشَقِيّ جَلْبَ انتِباهِها بِشَتَّى الطُرُق. البوظة كانت لذيذة. ومن سيناريو إلى آخر، غَرِقْتُ في بَحْرٍ من التَعَب ونِمْت.

جيءَ بالصباحِ على عَجَل وساعاتٍ قَبْلَ مَوْعِدِه، جيءَ به مَحْمولًا على ذِراعِ بندقيَّةٍ هبطت على جَبيني بكُلِّ ما فيها من بَرْدٍ حديدِيّ. جَمَّدَ أطرافي، وناتالي الساخنة والشَهِيَّة تحوَّلت فجأةً إلى قطعةٍ من الثَلْج لا تُشْبِهُ في شَيْءٍ ما قَدَّمَتْهُ لَنا على أطباقٍ صغيرة. لم يشبه الموقف حديث المَوْت الشائع عن شريط حياةٍ كامل يُعْرَض أمامَكَ في أقلِّ من ثانِيَتَيْن، وفيهِ كُلّ ما عَرَجْتَ عليهِ من محطَّاتٍ ظَنَنْتَها مُهِمَّةً ومصيريَّة. لم يكن الأمر كذلك، كانت لحظةً جَمَّدَ فيها الحديدُ البارد كُلَّ شيء، جَمَّدَ المكانَ والزمان وجَمَّدَني وحاملَ البندقيَّة وأسبابَه ودوافعَه، جَمَّدَ خَوْفي منه وكُرْهي لِما يُمَثِّلُه. كُلّ الوُجود تَجَمَّدَ، وانتقَلْنا جميعُنا إلى منطقةٍ متوسِّطة غير مُعَرَّفة فَقَدْنا فيها مَعالِمَنا وحواسَّنا وقدراتِنا على تحديدِ أدوارِنا. ولأَنَّ رحمةَ الحديدِ ضَيِّقة وقصيرة، انتهت اللحظة بِسُرْعة. وفجأةً تَعَرَّفْنا جميعُنا على أدوارِنا. أنا الخائف الذي عَرَّقَ الحديدُ جبينَه، حديدٌ آخر عَرَّقَ مساحاتٍ أخرى في جسدي، رَبُّ

الحديد في كامِلِ هَيْئَتِه العسكرية، أشباه أربابٍ طَوَّقَت المكان والزمان، صديقانِ غَريبان عن المشهد يُحاوِلان بِلا نَصٍّ مكتوب تفسير ما يحدث، وحيواناتٌ متربِّصةٌ لو أُفْلِتَت كانت أكلت كُلَّ ما في البيت من روائحَ مُعادِية.

صَوْتٌ غريبٌ بدأَ ينهال عَلَيَّ بِوابِلٍ من الأسئلة كمن يُطْلِقُ النار من سِلاحٍ أوتوماتيكيّ، صَوْتٌ فيهِ لهجةٌ ثقيلةٌ مُشَوَّهة لِما نحكيهِ في يومِنا. لا، لم يكنْ مَوْتًا، وإلَّا كانَ سألَني عن رَبّي ومِلَّتي وعن نَبِيٍّ يأتي في آخِرِ الزمان وعن أشياءَ أخرى من قَبيلِ تِلْكَ التي لم أعرفْ إجاباتِها. لقد خَلَت جُمَلُه من كلِّ المُفْرَدات عَدا أدوات السؤال والاستفهام في أواخِرِها عن أسماءٍ وأرواحٍ وأماكنَ عَرَفْتُها جَيِّدًا، إلَّا أَنِّي عَجَزْتُ عن الإجابة عن أَيٍّ منها لم يكنْ رَفْضًا أو تَكَبُّرًا بَلْ تَمامَ العجزِ عن الكلام. لقد جَمَّدَ الحديدُ صَوْتي بينَ عَديدِ ما جَمَّدَه، والصَوْتُ على سؤالاتِهِ لا يتوقَّف وأنا على تَوَقُّفي لا أُصْدِرُ صَوْتًا. هل سَمِعَ ذلك الصَوْت عن مُخَطَّطاتي اللَيْلِيَّة وما حِكْتُهُ من مُؤامَراتٍ صباحيَّة؟ هل سَمِعَ عن ناتالي وعن أطباق البوظة وعن تَجاهُل حبيبَتي لي؟ هل جاءَ يُفْسِدُ ما خَطَّطتُ؟ هل جاءَ يُعَكِّرُ دُخولي الواثق والمُنْتَصِر والطَويل إلى ساحةِ الجامعة؟ امتلأَ المكان بالأسئلة المُعَلَّقة، وازْدادَ المشهدُ تعقيدًا بَشَّرَ بانعطافاتٍ دراميَّة تُكَلِّلُ ذُرْوَتَها مسرحيَّة الأحداث.

تَوَقَّفَ كُلّ شيءٍ عن سابِقِ حُدوثِه، وَبَدَّلَتِ الشُخوصُ مَواقِعَها مع حِفاظِها على أدوارِها. أنا أتوسَّط المشهد في وضعيَّة الوُقوف لابِسًا ثيابي، الصوت على يميني وصوتٌ آخرُ صامتٌ على جِهَتي المُقابِلة، ومزيدٌ من البنادق والأَذْرُع المُمْتَدَّة التي أحاطت ثلاثَتَنا.

كانَ هَذا آخِر ما رَأَيْتُه قبلَ أن يَقْتادَني كُلّ هَؤُلاء إلى مركبةٍ فاحت منها رائحة الحديد والبارود، وامتلأت بأصوات كِلابٍ لا تزال شَهِيَّتُها مفتوحة. عادَ الصَوْتُ من جديد، وأسئلةٌ متكرِّرة عن تفاصيل أَمْسي، متى استيقظتَ وإلى جانبِ مَن؟ هل تناوَلْتَ إفْطارَك، وهل شَبِعْتَ ومن أَعَدَّه لَك؟ متى غادَرْتَ منزلَك وإلى أين؟ ماذا وضعتَ عليكَ من ثياب؟ ما ألوانُها؟ ولماذا بالَغْتَ في تَهَنْدُمِكَ؟ وأسئلةٌ مُشابِهة رُحْتُ هذه المرَّة أُجيبُ عليها بعدَ أن أَفاقَني ما رافَقَها من ضرباتٍ طالت جسدي كُلَّه، وكأنَّ المشهد صارَ مُكْتَمِلًا وحقيقيًّا وواقعيًّا بفِعْلِ العُنْف الذي غابَ عنهُ من بدايته، فما كان لهذا المشهد أن يتحقَّق وأن يؤدِّي أغراضَه بمعزلٍ عن عُنْفِيَّتِه كعنصرٍ أَوَّليّ وأساسيّ في كتابته. عَجِبْتُ من قُدْرَتي بينَ السؤال والسؤال عن استحضار صُوَرٍ ومَواقِفَ وأحاديثَ عديدَة، وَتَصَوَّرْتُ والِدَيَّ وَرُدودَ أَفعالِهما على خبر اعتقالي، تَذَكَّرْتُ آخر حديثٍ مع أُخْتي انشراح، رأيتُ مُتَجاهِلَتي وتمنَّيتُ لو أنَّها تبكي حالَ سَماعِها الخبر، واسْتَعَدْتُ مَذاقَ البوظة وما لم تَلْبِسْهُ ناتالي من ثيابٍ في ذلك اليوم. ثم سؤالٌ آخر وصورةٌ أخرى وإجاباتٌ صارت مُتَلَعْثِمة وكِلابٌ زادَ في إرباكي لهاثُها المسموع والقريب جِدًّا. تَوَقَّفَت المَرْكَبة فجأةً ثم تابعت سَيْرَها لِأَقَلّ من نِصْفِ دقيقة، ثم توقَّفت ثانيةً وَضَجَّ داخِلُها، وَشَعَرْتُ بحركة كُلّ شَواغِلِها وهيَ تَرْتَطِمُ بي بمن فيها الكِلاب في طريقِ خُروجِها من المَرْكَبة، تَبِعَ ذلك هُدوءٌ لأكثر من دقيقة، وإذا بأَيْدٍ تَمْتَدُّ إلى يَدَيَّ وقَدَمَيَّ المُقَيَّدَتَيْن، وأُحْمَلُ بِخُشونةٍ وأُجَرُّ مَسافةَ بِضْعةِ أَمْتارٍ، ثم يُلْقى بي في مَكانٍ ما ويُغْلَقُ عَلَيَّ بابُه.

يصعب استخدام اللغات الكلاسيكيَّة في وَصْفِ مركز التحقيق، وذلك لِأَنَّ داخِلَه يفقد حواسّه الخمس كما كان يعرفها قبل دُخوله، ويعيش فَوْضى حواسّ تُفْقِدُهُ الشُعور بالمكان والزمان وبِطَبائع الأشياء حَوْلَه، فلا يعود قادرًا على تَوْصيفِ علاقَتِهِ بمُحيطِه مُسْتَخْدِمًا ما تَجَمَّعَ لديه من رصيدِ مُفْرَدات، ولذلك يكثر عندَ رُوَّاد مَراكِز التحقيق استخدامُ مُصْطَلَحاتٍ لاقاموسيَّة في وَصْفِ تَجارِبِهِم، فتَراهُمْ يُسْقِطونَ على تَفاصيلِ المكان صِفاتٍ غير ذات صِلةٍ بمَوْضوعِها، وينتزعون عنها صِفاتِها البدائيَّة، فَلا يعود الحائط كَوْمةً من الإسمنت، ويلينُ القَيْد وَيَتَلَوَّى بِفِعْلِ ما قَيَّدَ من أطراف، ويعلو صُراخ المُقَيَّدين إلى مَقاماتٍ صوفيَّة، وتَصيرُ الأرواحُ كَياناتٍ مستقلَّةً عن أجسادِها، ويعيش الاثنان تجرِبَتَيْنِ مُخْتَلِفَتَيْنِ تَمامًا. في التحقيق لا معنى للزمن، وحِسابُكَ لَهُ يتوقَّف على طَويلِ جَوْلات التحقيق أو قصيرها، وينحصر المكان في واحدٍ من الجدران تُعَلَّق عليه نهاية كُلّ جَوْلة، وتتقلَّص احتياجاتُك في فِعْلَيْن قد يضمنان نجاتَكَ وبَقاءَك: الأكل في ظروفٍ قاتلة وعادمة للشهيَّة، والطرْق على الأبواب عَلَّ رَبّ الزنزانة يَتَأَنْسَن لدقيقَتَيْن وَيَهبُكَ فُرْصةَ التخلُّص من فاسِدِ ما أَكَلْتَ قبلَ فَوات الأوان، ويُرافِقُ انشغالُك بنَجاتِك طَوال الوقت انشغالٌ آخر، وهو التخلُّص من رائحةٍ نَتِنة عَلِقَت بك منذُ يومِك الأَوَّل داخل أقْبِية التحقيق، وللرائحة النَتِنة قصَّةٌ عجيبة يرويها لك كُلُّ مُعْتَقَلٍ على طريقتِه، ولكنَّها تَظَلّ القصَّة ذاتَها بِكُلِّ ما فيها من تَفاصيلَ وَرَوائح. كُنْتُ أُقاتِلُ من أجل فُرْصةٍ للاستحمام تُخَلِّصُني من تِلْكَ الرائحة العالقة في أنفاسي لكي أكتشفَ بعدَ اغتِسالي وارتداء ثيابي

عَوْدةَ الرائحة بحِدَّتِها السابقة، وكانَ الخجل يعتريني في كُلِّ مرَّةٍ عَلَّقَ فيها المُحَقِّق عن قَصْدٍ على رائِحَتي، وعَبَّرَ عن قَرَفِه واشمئزازِه منها ومِنِّي. لم ينجح الضَرْب بعَديدِ أشكالِه والسباب بِأَبْشَع الألْفاظ ورائحة المَوْت التي ملأت المكان في استفزازِ إنسانيَّتي وإيقاظِها من سُباتِها، ولكنْ فعلت ذلك تِلْكَ الرائحة النَتِنة وما أثارَتْهُ فِيَّ من مَشاعر القَرَف والخجل في مكانٍ يكون فيهِ الخَجَل آخِرَ هُمومِكَ الصغيرة.

في قِسْم التحقيق، يُحَوِّطُكَ المَجْهول من جَميع اتِّجاهاتِك ويُدَوِّرُ مُرَبَّعاتِك حتى يُصيبَكَ دُوارٌ مُزْمِنٌ يجعل من نَوْمِكَ مُسْتَحيلًا وأنتَ على رَأْسِ تَعَبِك.

في قِسْم التحقيق، تُعيدُ صياغةَ علاقاتِكَ مع رَبِّك وإيماناتِكَ كُلِّها، وقد ينتهي بِكَ الوَجَع إلى إلقائِكَ على الله تحيَّاتِكَ الأخيرة فلا يعودُ إيمانٌ أو تصديق.

في قِسْم التحقيق، لا يعودُ يعنيكَ تَبَدُّلُ الفُصول وَشُروقُ الشَمْس واندثارُها، فَتِلْكَ أشياءُ تَوَقَّفَت عن الحُدوث عِنْدَما سَوَّرَ الجِدارُ فَضاءَكَ.

في قِسْم التحقيق، لا نَوْم إلَّا للتعب، ولا رائحة إلَّا تِلْك التي على أجسادٍ مُنْهَكةٍ صارت تُشْبِهُ إلى حَدٍّ مُخيف ما تَعَلَّقَت عليهِ من أشباحٍ إسمنتيَّة خَشِنة.

في قِسْم التحقيق، لا شَيْءَ فيكَ حتى أنت، ولا يحضر فيكَ إلَّا غِيابُك، ولا يبقى مِنْكَ إلَّا اعترافاتُك وما أَخْفَيْتَهُ حتى عن نَفْسِك.

في قِسْمِ التحقيق، أنتَ رائحةُ عَرَقِك وطَعْمُ انكسارِك وفريسةُ ظَنِّك، أنتَ نُسْخةٌ قديمةٌ عن عُقْدةِ الهَوامِش ونُصوص ذَيَّلَها تَوْقيعُكَ بِأَحْرُفٍ متردِّدة.

في قِسْمِ التحقيق، أنتَ كُلُّ شيء ولا شيءَ أنت.

اعتراف

«الاعتراف خِيانة»، من أشنع وأسوأ (؟) أدبيَّات نضالِنا الفلسطينيّ. حكمٌ مُسْبَقٌ ومتجرِّدٌ ولامُبالٍ، حكمٌ أصدرتهُ أيادٍ لم تختنق برائحة الحديد المُعَتَّق، وخطاباتٌ ثوريَّة رومانسيَّة كُتِبَت بلغةِ ما فَوْقَ الوجع، حكمٌ يظلّ يجلدُكَ بِلا رحمة ويثقل وزنَكَ المشبوح، ويزيد من قسوة الأسئلة وسَطْوَتِها، حكمٌ يتطاوَلُ عليك بفَوْقِيَّتِه وتَعاليه وأنتَ على قِمَّةِ سُقوطِك، حكمٌ لا يرى فيكَ أنت ويمارس عليكَ إرهابَهُ، ويُلاحِقُكَ حينَ لا مكانَ تهربُ إليه، حكمٌ تَجاهلَ آدَمِيَّتَكَ ونزيفَ لَحْمِك وانقطاعَ أَنْفاسِك ومحدوديَّةَ إيمانِك وكَريهَ رائحتك وأرباب أسئلتِك وآليَّات تعذيبك، حكمٌ ينفيكَ عن عُصورِكَ الوُسْطى والمُظْلِمة إلى نهضةٍ لا غُفْرانَ فيها لاعترافاتك وكنيسةٍ توقَّفت عن صَكِّ البراءات قبلَ ميلادِك بساعة، وفيها تشهد على إدانتك ملائكة ميخائيل أنجلو وهي تُشيرُ إليك بأصابع الاتِّهام، تكاد تَنْقَضُّ عليكَ من سُقوفِها أو مِمّا نَجا من جدران.

يكادُ المشهد يكون خياليًّا وأنتَ على كرسيِّ اعترافِك تُحيطُك رائحة قهوةٍ غريبةٍ عن مِزاجِك الشرقيّ الحادّ رُحْتَ تَرْشِفُها وكأنَّها

آخِرُ ما تشرب، ودخانُ سيجارةٍ كافأت تعاونك وصراحتك بعدَ طولِ إقناعٍ وإشباعٍ بالضَرْب دَفَّأَ وحدة شهورِك الأخيرة، وعباراتُ من فضلكَ وعلى مَهْلِك وهل تُريد كوبًا آخر من القهوة تُقالُ لك عن قُرْبٍ كان قبلَ ساعات يقرف منكَ اقترابًا، ودعوةٌ لاستراحةٍ قصيرة قد تُخَفِّفُ رَعْشةً في أَصابِعِك أفسدت تَوازُنَ بَعْضِ ما كَتَبْتَه، ثم تبدأ كتابتك عن ماضٍ قريبٍ وبعيدٍ وكُلِّ ما فيهما من أفعالٍ تُدينُك وأخرى تُدينُك أكثر، وتسْقطُ مُجْبَرًا ما برِئْتَ منه من أفعال، فالسقوطُ طَوْعًا من الفردوس الأعلى، سرقة النار مع بروميثيوس، إطلاق سهمٍ أصابَ عقبَ أخيليس، بناء الهرم الأكبر، إخفاء ألواح موسى، الوِشاية بابْنِ مريم، تَكْذيب آخِر الأنبياء، بناء السدِّ العالي، تَحْطيم أسوار برلين، سُخونة كوكب الأرض والهبوط على القمر.. أو هكذا ظَنَنْتَ أنَّكَ تفعل، حتى تُساق إلى زنزانَتِكَ ويُغْلَق عليك بابُها لكي يُفاجِئك اكتشافُكَ بأنَّك اعترفت وقَدَّمْتَ ما يلزم من أدلَّةٍ تُدينُ ليسَ ماضيك بَلْ غَدَكَ وقادِمَ أَيّامِك، وأنَّ صاحب الأسئلة كانَ منذُ البداية مَعْنِيًّا بالذي ستفعل وليسَ بالذي فَعَلْت، وأنَّه يُحاكِمُ مُسْتَقْبَلَكَ بَعْدَ أَنْ أَفْلَتَ منهُ ماضيك ومَزَّقَه، ولتكتشف أيضًا بأنَّك اعترفتَ على ما سيأتي فيكَ من أفعال. كيفَ تنام وطول ساعات الظلِّ إذا اشتعلَ فيكَ صَيْفُك، عدد حَبّات ما يُصيبُك من مطر، مِزاجُك أوَّل اليوم، لَوْن فرشاة أسنانك، عدد ما سيفوتُك من قبلاتٍ ومواعيد نسائيَّة، عُمْر ما سيظهر على وجه أُمِّك من تجاعيد، أوَّل مرَّةٍ تنظر فيها زوجتك إلى رجلٍ آخر باهتمام، وأيّ أبنائِك سيلعن غيابك أوَّلًا، أو يلعنك!

ينتهي استجوابُك بكتابٍ ما عادَ هَمَّك يمينك حَمَلَتْهُ أو يُسْراك، ولا عادت تعنيك دقَّة التراجم في لغات النَقْلِ عنك ويَنْصَبُّ عظيم انشغالك في تفسير وتعريف جديدٍ أنت، واسترجاع ما فَقَدْتَه من قدراتٍ على تحديد الاتِّجاه ومكان الشمس وزاوية ظِلِّك وأسماء وملامح من تُحِبُّهم وأُولئكَ الذينَ نادمًا كَرِهْت، عدد أيَّام الأسبوع، تاريخ ميلادك، وأيّ والِدَيْكَ إليك أقرب. ثم يبدأ استجوابك لنفسك فتُلْقي عليك كلّ ما أَجَّلْتَهُ من أسئلةٍ دُفْعةً واحدة، فقد تكون هذه فرصَتك الأخيرة. هل عِشْتَ مِلْءَ أنفاسِك؟ وأيُّ خَطاياك تُثْقِلُ عليك أكثر؟ مَرَّاتُ أنا أُحِبُّك قُلْتَها لِأُمِّكَ وعَنَيْتَها حَقًّا؟ نَدَمُك على مشروبٍ أَجَّلَهُ سؤالُك عن حلاله وحرامه، وأيُّ أحمقَ أنت؟! متى يعود لِذُكورَتِكَ انتصابُها من جديد، وهل تذكر آخِر مرَّة؟ تُرى أيُّ أصدقائِكَ سيفتقدك أكثر وهل يَهُمُّك الأمر فِعْلًا؟ وتنتهي الأسئلة فجأةً، ويتقلَّص فيكَ شَكُّك وتتمدَّد في إيمانِك الهُويَّات والاعتقادات عَلَّكَ تَجِد في إحداها خَلاصًا أو غُفْرانًا يُنَجِّيكَ شُرورَ ما كَتَبَتْهُ بِيَدِك، ويكبر فيكَ التسامح والقبول، ويأخذ إيمانُكَ أشكالًا نَفَيْتَها عنكَ في ماضٍ قريب، ويصير فيه مكانٌ للتوحيد والتعدُّد أو لوثنيَّةٍ مُسْتَحْدَثة طالَما حملت في جُعْبَتِها تَضامُنًا مع أنتَ المكسورة والمُشَتَّتَة والمُعَلَّقة على أكثر من جدار، وفيها من الخرائط ما يرسم طُرُق خُروجِك من كَهْفِك إلى نورٍ يُعيدُ لأشيائِكَ أسماءَها الحقيقيَّة بَعْدَ أَنْ زَوَّرْتَ ما زَوَّرْت وأسْقَطْتَ عليها من يَأْسِكَ وَقاع ظُلْماتِك ما أسقطْتَ.

لا يتوقَّف الأمر عند ذلك الحَدّ بل يظلّ يكبُر فيكَ تَسامُحُك. وتشهد عليهِ ساعاتٌ طويلة قَضَيْتُها في صحبة مخلوقاتٍ صغيرة

راحت تجوب زنزانَتي بثقة من لا يخشى تهديدًا على حياته أو تشويشًا لخُطاه، واستئناسي حضورها البطيءَ والمُسالِم، حضورًا ما كان ليُنَجِّيه قَبْلَ أشهرٍ قليلة سِوى كَسَلي عن سَحْقِه بشَتَّى الطرق والوسائل المتوافرة في زاوية غُرْفَتي.

لا أظنّ فرويد كانَ ليشتري هذا التفسير، أظنُّه كانَ سيحفر عميقًا في أحداث ومجريات الأشهر الأخيرة، ويُرَتِّبُ مواجهةً بيني وبينَ مَخاوِفي وهَواجِسي في زنزانَتي تِلْكَ بِرِفْقة مخلوقاتي الصغيرة، ويُسْقِطُ على حالَتي غريبَ نظريَّاته في التحليل النفسيّ وقد يخرج بالآتي: هل حَقًّا فعلَ ذلك تسامُحي ورحابة قلبي في تلك الظروف أم أَنَّ الذي أَنْجَى تلك المخلوقات هو حاجَتي لمخلوقاتٍ أضعف منِّي تُعيدُ لي بعضًا من كُلِّ ما فَقَدْتُهُ على جدران هَذا المكان، حاجَتي لشعور القوَّة وقُدْرَتي على سَحْقِ حياةٍ أخرى أو تقرير نجاتِها، حاجَتي لمخلوقاتٍ دُنْيا تَعَدَّت حقارة أسباب وجودها ما وَصَلْتُ إليه أنا بعدَ سَحْقي وانكساري؟ فنحنُ لا نستشعر مكامِن قُوَّتِنا دونَ مُقابِلٍ ضعيفٍ يُبْرِزُها ويُشيرُ إليها بِيَدِه القاصرة والخائفة من بَطْشٍ ما تَصَلَّبَ فينا من مَعادِن. كم مرَّةً واسَتْنا مصائبُ غَيْرِنا وَهَوَّنَت علينا فَظيعَ مَآسينا فقط لأنَّها كانت أكبر من أوجاعِنا وأَشَدّ فَظاعة؟ هل ما قُلْناهُ عن مَعاني التَضامُنِ وَكَوْنِيَّةِ الوجع وعالَمِيَّة القَهْر لم يَكُنْ إلَّا مُواساةً كُنَّا في أمَسّ الحاجة إليها؟

أحمدُ الله أَنَّ فرويد كانَ غائبًا عن قراءاتي في تِلْكَ المرحلة المُبَكِّرة من عُمْري، وإلَّا كانَ زادَ أموري تعقيدًا كنتُ في غِنًى عنه.

انتهى استجوابي، ولم يَعُدْ هناك أيُّ ضرورةٍ لوجودي المُعَلَّق على تِلْكَ الجدران داخل تلك الأَقْبِيَةِ المُظْلِمة، خصوصًا في ظِلّ ازْدِحامِ المركبات الحديديَّة بِمَشاريع تَعَلُّقٍ جديدة، وحاجة أصحابَ السؤال لكلِّ شاغرٍ في تلك الجدران. وكانَ في اعترافي ما يكفي لضمانْ حكم يُؤَبِّدُني مع جدرانٍ أخرى في حَيِّزٍ ضَيِّقٍ آخر سيأتي. أمْضَيْتُ ساعاتي الأخيرة أتأمَّل جداري الأسود وكأنِّي أَكْتَشِفُهُ من جديد، وَأَبْحَثُ فيهِ عن نقاط التِقاء وَقَواسِمَ مُشْتَرَكة قد تَعِدُ بِعَلاقةٍ سَوِيَّة إنْ لم تَكُنْ مُتَصالِحة تجمع بَيْنَنا وقد صِرْنا مُرَشَّحيْن لِشَراكةٍ طَويلةِ الأمد. وَعَرَفْتُ حينَها أنَّ هدفًا كهذا لن يتحقَّق إنْ لم أَلْتَصِقْ بِذَلِكَ الجدار وأتمسَّك به كأنْ لا شيءَ سِواه أستندُ عليه، وأتخَلَّى عن كلِّ ما هو خَلْفه ومن شأنِه زَعْزَعةُ ثَباتي تَخَلَّيْتُ عن الحياة، وتَمَسَّكْتُ بكلِّ ما ورائها من وُعوداتٍ بِها تَخَلَّيْتُ عن الإجابات الحاضرة وعانَقْتُ أسئلة المجهول؛ تَخَلَّيْتُ عن أطباق ناتالي وتَمَسَّكْتُ بأطباقٍ صغيرة فارغة امتلأت بالاحتمالات؛ تَخَلَّيْتُ عن مُتَجاهِلَتي وَتَمَسَّكْتُ بإمكانات تَجاهُلٍ جديدة؛ تَخَلَّيْتُ عن أنا عَرَّفَتْني وَتَمَسَّكْتُ بِأنا أُعَرِّفُها؛ تَخَلَّيْتُ عن دُنْيا سَكَنَتْني وتَمَسَّكْتُ بِأُخْرى أسكُنُها.

انتصبتُ لمرَّتي الأولى منذُ أشهر وقابَلْتُ الجدار. وبقطعةٍ حديديَّةٍ صغيرة وباردة، رُحْتُ أَخُطُّ كلماتٍ ثلاثًا سَتُرافِقُني سبعةً وعشرينَ عامًا، وكلماتٍ ثلاثًا أخيرة لم تُقَلْ بَعْد: وداعًا يا دُنْيا!

عزلٌ انفراديٌّ

لا تَضْرِبْ جُذورَكَ عَميقًا في أَيِّ دُنْيا تَسْكُنُها، هَكَذا تُوَفِّرُ عَلى نَفْسِكَ أَوْجاعَ وآلام اقْتِلاعِك مِنْها، متى حانَ اقْتِلاعُك عش على سطح هذه الحياة، فَلا تُعَمِّقْ في تَعْظيمِك أشْياءك فأَنْتَ كُلُّ شَيْءٍ عَداها إِنْ تَعالَت فيك أنت. لم أَقُلْ كلمات وداعٍ كثيرةً في رحيلي عن دنيا سَكَنْتُها، وَلَكِنِّي قُلْتُ كلماتٍ كثيرةً في تَصالُحي مع جدارٍ عَلَّقَني عليه، وأَكَلَ ثُلُثَ وَزْني في الأَشْهُر الأخيرة وظلَّت فيه شهيَّة للمزيد. لم أُلْقِ نَظْرةً أَخيرةً على مَتْروكاتي وَرائي قليلِها أو ثَقيلِها، وانْتَظَرْتُ ما في مَوْجوداتي القادمة من مُفاجآت. غَفَرْتُ لي أَخْطائي كُلَّها، فالسِجْن كالإيمان يَجُبُّ ما قبله. لم أكتب نصائحي لِمُرَشَّحي السجون، وَتَرَكْتُ في الجدار ما تَبَقَّى من مساحاتٍ سَوْداء لمن يأتي بعدي، فالسِجْن كالغَرَق تجربةٌ فريدة وفردانيَّة، كُلٌّ يَلِجُها على طريقته، وما من شيءٍ يُعِدُّكَ أو يُجَهِّزُكَ لانقطاع أَنْفاسِك سِوى انقطاعها.

لم يَتَخَلَّ عَنِّي أصحابُ الأسئلة تمامًا، فَبَعْدَ انْتِهائِهِمْ مِن إِخْلاءِ جُيوبي مِن أَشْياء هَمَّتْهُمْ، وأُخْرى لم يُقَرِّروا بِشَأْنِها بَعْد

أَوْصَوا بِضَرورةِ عَزْلي وَتَأْجيلِ نَقْلي كما فَعَلوا مع باقي مَنْ أَفْرَغوا جُيوبَهُمْ إلى أحد مُعْتَقَلاتِهِم المُوَزَّعة على جُغْرافية فلسطين كلّها وَفَعَلوا ذَلِكَ بِدَعْوى عدم زَوال ما شَكَّلْتُهُ من خطرٍ على أَحْلامِهِم وضرورة قَمْع ما تَبَقَّى فيَّ من هواجسِ خِطاباتٍ ثَوْرِيَّةٍ وأَساطيرِ تحريرٍ وعَوْدَةٍ.

كانت في مَرْكَبةِ النقلِ «البوسطة» ثُقوبٌ صَغيرةٌ عَرَفْتُ خلال اسْتِراقي بَعْض النظراتِ عَبْرَها أَنَّ الرَبيعَ في أَوَّلِه، ولم أُكْثِرْ مِن نظراتي تلك لِما في الثقوب من إطْلالاتٍ على ما تَخَلَّيْتُ عَنْهُ من فَوْضى أسئلة وَأَشْباه إجابات، بَلْ انْتَظَرْتُ نِهايةَ الطَريقِ وَعَوْدَتي إلى جِداري وَوُضوحِ ما عليه من فَراغاتٍ وعديد ما احْتَمَلَهُ من أَسْئِلةٍ وإجاباتٍ لم تُكْتَبْ بَعْد أنا سَيِّدُها ومالكُ زِمامِها، أنا فضاؤُها وشَكُّها وَيَقينُها، أنا ذَلِكَ الصَبِيُّ الذي قَفَزَ عن جِدارِهِ لكي يَسْكُنَه. لَم يَكُنْ خَلْفَ الثُقوبِ سِوى تَعَلُّقي القديم وهامِشِيَّةِ الوُجودِ وَتَنَكُّرِ المكان وَضيقِ العَيْشِ وأَرْواحٍ تَوَقَّفَت عن الإيمانِ والتَصديقِ، بِفِعْلِ مَوْجةِ خِطاباتٍ جَديدةٍ بَشَّرَت بِتَسْوياتٍ قَريبةٍ تُعيدُ لأَشْباهِ المُدُنِ فُرَصَ اكْتِمالِها وَزَوالَ اشْتِباهها، وللقَرْية مدنيَّةً تَمَنَّتْها وتُنْهي في المخيَّم تَعاقُب عُصورِه وَتُصالِحُ بين الزمان والمكان وَتُعيدُ للصُدورِ أَجْسادَها، وَتُغْلِقُ بَوّاباتِ مَقابِرِنا لِتَقْتُلَنا شَيْخوخَتُنا.

أَقْلَقَتْني بَعْضُ عِباراتِ المُواساة أَطْلَقَها مُعْتَقَلون شارَكوني البوسطة حالَ سَماعِهِم أَنَّ هَدَفَ وُصولي هُوَ قِسْمُ العَزْلِ في مُعْتَقَلِ مدينةِ الرملة المُحْتَلَّة وَسَطَ فلسطين، بَدا لي أَنَّهم عَرَفوا شيئًا جَهِلْتُه، وَلَكِنّي لم أَسْأَلْ، كُنْتُ جاهِزًا. بدايتي كانت صِفْرِيَّةً ولا شَيْء أَخْسَرُه، أَوْراقي كُلُّها بَيْضاء مُسْتَعِدَّةٌ لاسْتيعابِ كُلّ أَنْواعِ

الكِتابةِ بأيِّ لَوْنٍ أشاء وعَلى أيِّ أَبْجَدِيَّةٍ أَخْتارُها. لَن يُمْلي عَلَيَّ أَحَدٌ إيماناتِه أو آلِهَةً يَعْبُدُها أَوْ أَنْصافَ حَقائق شَوَّهَ بها ما أحاطَتْهُ من جداريَّات هذه ولادتي أنا، وأنا من سيختار بُكائي الأَوَّل وأولى كلماتي وَلِمَنْ أقولُها وكيف، وأولى خطواتي وفي أيّ اتِّجاهٍ جداري، أنا مَنْ يُفَسِّرُه وَيُعَيِّنُ وَظائِفَهُ، وأنا مَنْ يَنْفي عَنْهُ مُشْتَبَهاتِه.

أنا ساعاتي القادِمة وَما تَأَخَّرَ فيَّ مِن مَواقيت، لا مُحيطَ يُعَرِّفُني بَعْد، فأنا سَيِّدُ المُحيطاتِ سَطْحِها وَبَطْنِها، وأنا سَيِّدُ القاع، لا حدودَ تُكَبِّلُني، سِجْني سَقْفُهُ سَماء وَبَرْدُهُ ماء، وَإذا احترقت فسَلامٌ على إبراهيم. إنَّ الأَشْياء هي ما نُريدُ لَها أَنْ تَكون. سأَسْكُنُ قَلْبَ هَذا المكان على سَطْحِه، وأَرْويه على طَريقتي وأَقْفِزُ في فَضائِهِ، لا جُذورَ تَشُدُّني إذا نَوَيْتُ تَحْليقًا وأَهْبِطُ إذا تَبَلْبَلَت فِيَّ الاتِّجاهات، وخشيتُ ضياعًا أَتَكَلَّمُ لسانه عَجَمِيًّا كانَ أَو سامِيًّا، فَلا ذَنْبَ للغاتِ إذا بَطَلت حُروفها وَخَلَعَت سينها عنها سلمها، وَظَلَّ يُغَطّي عُرِيَّها سَرْدٌ سَرْمَدِيّ... لا أَكْرَهُ حامِلَ المفتاح وصاحِبَهُ وما صدق من أبوابٍ يُغْلِقُها، فَلَيْسَ في الكُرْهِ إلَّا هَدْرٌ للطاقةِ ومَزيدُ أَقْفال، وَلا بابٌ إلَّا الذي أُغْلِقُهُ أنا على نَفْسي.

ارْتَفَعَت الأَصْواتُ فَجْأَةً داخِلَ البوسطة، وانْتَبَهْتُ لِتَعَدُّدِ الأَلْسِنةِ فيها، فَذاكَ لِسانٌ عَرَبِيٌّ يتذمَّر من الاكْتِظاظِ، ومثله بالَغَ الجنديُّ في شَدِّ أَوْثاقِ الحديد حول أَطْرافِهِ فَراحَ يَصْرُخُ عَلَّ الجنديَّ يُخَفِّفُ مِن شِدَّتِها، وثالثٌ يُهَدِّدُ بِتَرْطيبِ مَلابِسِهِ إنْ اسْتَمَرَّ الجُنودُ في تَجاهُلِ ضَرورةِ قَضائِهِ حاجَتَه. وَهَذا لِسانٌ عِبْريٌّ شَرْقِيٌّ

عاشَ على هامِشِ المَشْروعِ الصُهيونيّ المُتَغَرِّب حتى يَئِسَ من فرص اندماجه فيه فَراحَ يَسْرِقُه. وآخِرُها لِسانٌ روسيٌّ زادَ حَرُّ الشَرْقِ في طِباعِه حِدَّتَها فانْفَجَرَ عِنْدَ أَوَّلِ مُواجَهة. عادَ الهُدوءُ وَعُدْتُ أنا إلى أشياءَ كثيرةٍ قُلْتُها، وأشْياءَ قَرَّرْتُها في تلك المَسافة الفاصِلة بَيْنَ أَنا المُعَلَّق والمشبوح وبَيْنَ أنا التي اسْتَنْفَرَت وَتَحَفَّزَت عندما تَوَقَّفَت البوسطة عِنْدَ مدخل السِجْن الهدف، وَتَلا ذَلِكَ تَوَقُّفٌ آخر على بُعْدِ عشرات الأَمْتارِ فقط لِكَيّ نُصْبِحَ عِنْدَ مَدْخَل قِسْم العزل. تَمَّ اقْتِيادي مُكَبَّلَ اليَدَيْنِ والقَدَمَيْنِ لأهْبُطَ بِضْعَ دَرَجاتٍ إِسْمِنْتِيَّةٍ، وَبِإشارةٍ من أحد الجنود اتَّجَهْتُ يَمينًا ثم تَوَقَّفْتُ بإشارةٍ أَيْضًا، ثم بابٌ يُفْتَحُ وَيُغْلَقُ، وَيَدٌ تَدْفَعُ وبابٌ يُغْلَقُ وَرائي وَيَوْمٌ أَوَّل يَبْدَأُ ـ 36 زنزانةً تَقاسَمَت مساحةً يبلغ طولها قُرابة الـ 40 مترًا وعرضها 5 أمتار، كلّها بُنِيَت ثلاثة أَمْتار تحت سطح الأرض: 18 زنزانة في كلِّ جهة، وفي كلِّ زنزانةٍ سَريرانِ حديديَّان اعْتَلى أَحَدُهُما الآخر، يُقابِلُهُما مكانٌ للاستحمام وَلِأَغْراضٍ أُخرى. كُلُّ هَذا في زنزانةٍ لا تَزيدُ مساحتُها عن خمسة أَمْتارٍ مُرَبَّعة. كيف يكون هذا المخلوق الإسمنتيّ ممكنًا، وأيّ يَدٍ عاجِزة صَمَّمَت وأُخرى صَمّاءَ شَيَّدَت وَبَنَتْ؟ أيُّ خَوْفٍ اعْتَرَى صاحِبَهُ، وأيُّ أَمْرٍ أَخافَهُ حتى راحَ يَحْفُرُ في الأَرْضِ قَبْرًا يُواري فيهِ سوءَ أَفْعالِهِ وَمَخاوِفَه؟

نَظَرْتُ في الاتِّجاهاتِ المُتَوافرَةِ، فَرَأَيْتُ خَلْفَ البابِ وُجوهًا مُتْعَبَة تُشْبِهُني. رَكَضْتُ إلى مِرآةٍ صَغيرة عُلِّقَت على الجِدارِ أتأكَّد من وَجْهي، فلم أَجِدْ في خُشونةِ سَطْحِها ما يُشْبِهُني، خشونةٍ سَبَّبَتْها رُطوبةُ الحياةِ تَحْتَ الأَرْضِ وغيابُ خُطوطِ الشَمْسِ طَوالَ

فُصولِ السَنة. عدت للوجوه المُتْعَبة التي تَبَدَّلَت بأصواتٍ لا تُذَكِّرُ بأَيِّ شيءٍ يقترب من التعب، أَصْواتٍ خَشِنة، وجَهُورة، وَمُنْتَصِبة أَصْواتٍ أَعْرِفُها، أَصْواتٍ أُخْرى بعيدةٍ أكثر انْضَمَّت إلى مسيرةِ الأصْواتِ.. هَذا مَشْهَدٌ أَعْرِفُه جَيِّدًا، الشُخوص والأصوات ونصوص الكَلام، الكُلّ مألوفٌ لَدَيّ، لقد اكتملت عناصر الصورة والكُلّ صارَ واضحًا الآن. إنَّها آلهةٌ تَكْذِب. تَعَلَّقْتُ على بابي أمطروني بعبارات الترحيب. تَعَلَّقْتُ أكثر فزادوا في تَعْبيراتِهِم صارَت أَصْواتُهُم أَقْرَب. هذه كذبات أَعْرِفُها، وهم على كذباتهم لا زالوا، سكتوا بَعْدَ دعوةٍ لالْتِقاطِ أَنْفاسي واستكشاف المكان جيِّدًا وَوُعوداتٍ بمسيرةٍ جديدةٍ لن تتأَخَّر.

لم يَكُنْ في الزنزانةِ تَفاصيلُ تَهُمُّني، وكلّ ما عَناني هو الجدار الذي خَلَعَ عَنْهُ حِدادَهُ وارْتَدَى لَوْنًا يُشْبِهُ الأَبْيَض، لو اجْتَهَدَ أكثر بالاعْتِناءِ بِنَظافَتِهِ وأَزالَ عن جَسَدِهِ ما عَلِقَت عَلَيْهِ من شَوائِبَ تَعَدَّدَت أَشْكالُها وأَلْوانُها وَرَوائِحُها! فكانَ أَوَّلُ قَرارٍ اتَّخَذْتُه هو حاجَتُنا نَحْنُ الاثْنيْن إلى اسْتِحْمام عاجلٍ وطويل. وَهَكَذا صار. وَقَفْتُ في وَسَطِ الزنزانةِ شِبْهَ عارٍ بَعْدَ أَنْ نَزَعْتُ عنها كُلَّ ما اعْتَراها قَبْلي وَبَدَأْتُ بإِسْقاطِ الأَسْماءِ على تَفاصيلِها. صارَ الحَديدُ سَريرًا، وازْرَوْرَقَ السَقْف حتى سماءً صار، تَبَخَّرَ البابُ وَتَعَلَّقَت مَكانَه بطاقةٌ فندقيَّةٌ تَسْمَحُ وَجْهًا وَوَجْهًا تَمْنَع زياراتٍ غَيْر مُتَوَقَّعة، أَو شَخْصِيَّاتٍ غير مرغوب فيها «بيرسونا نون جراته» وَتَحَوَّلَ الجدارُ إلى مُدَوَّنةٍ فيها أَكْتُبُ وأُسْقِطُ ما أَشاء من نصوص. لم أَكُنْ قد انْتَهَيْتُ بَعْد من تَسْمياتي حينَ عادت الأَصْواتُ من جديد لِتَرْسمَ مَشْهَدًا تروتسكيًّا عجيبًا لِآلهة كذب، راحَت تُرَدِّدُ

خِطاباتٍ ثَوْرِيَّةً تَصَدَّرَ أَصْحابها ما صَدَّروه من ثورات، آلِهةِ كذبٍ جعلت من حُفْرةٍ في بَطْنِ الأَرْضِ (بانتيؤون)[1]، فيه تلتقي وفيه تدير شؤون ما دَبَّرَتْهُ من ثَوْرات. كُلُّ شَيْءٍ بَدا مَنْطِقِيًّا في لَحْظةِ صَباحي الذي تَأَجَّلَ وَما سَبَقَهُ من انْتِصارات تَعَلُّقي على جدار.. الشبح، الأسئلة، الاعترافات، ما قَرَّرْتُهُ داخِلَ ذَلِكَ الوَحْش الحديديّ قَبْلَ ساعات، وَجِداري شَبيه الأَبْيَض وانتظاره أولى خَرْبَشاتي.

ما كانَ لِآلِهةِ الكذب أَنْ تَبْقى على كذباتها هنا في هذا القاع لو أنَّها ضربت جذورها عميقًا في الأَرْضِ، وَتَوَقَّفَت عن تَحْليقِها فَوْقَ كُلّ ما هُوَ أَرْضيّ؛ ما كانَ لَها أَنْ تُصَدِّرَ ثَوْرَتَها إلى جغرافيا جديدة لَوْلا انْعِدامُ الجاذِبِيَّة في خِطاباتِها وفَضائِيَّةِ ما فيها مِن بِشارات؛ ما كانَ لَها أَنْ تَنْجو من بَرْد القاع لَوْلا لازمانيةُ ولامكانيَّةُ الوَجَع وَكَوْنِيَّةُ الكَذِب وعالَمِيَّةُ العَطَش لِنُبوءاتٍ نُصَدِّقُها؛ ما كانَ لَها أَنْ تَتَمَسَّكَ بِأَبْوابِها تلك وَتَخْلَعَ عن وَجْهِها قِناعَ التَعَبِ وَتُصَلِّي ثَوْرَتها لَوْلا تَخَلِّيها عَن فكرةِ الباب وَفيزياءِ الحَديد. لَقَدْ أَدْهَشَني المَشْهَدُ، وَكانَ القاعُ أَضافَ إِلَيْهِ عُمْقًا وَتَعْقيدًا، كُنْتُ في أَشَدِّ الحاجةِ إليهما، كُنْتُ في حاجةٍ لمشهدٍ قَريبٍ يُشْبِهُ ذلك الذي ابْتَعَدْتُ عَنْهُ سنواتٍ ضَوْئِيَّةً خلال تَواجُدي في أَقْسام التحقيق، مشهدٍ يَضْمَنُ قَفْزةً آمِنة وَسُقوطًا لَيِّنًا لا يَسْحَقُ صَلابَتي، كُنْتُ في حاجةٍ لِمَشْهَد آلهة الكذب ووجوهها المتعبة ونشاط حناجرها كي يُعيد لي توازني وإيماني الذي تَرَكْتُهُ

(1) مكان اجتماع وسكن آلهة روما القديم.

مُعَلَّقًا على جدار الشبح، على مشهدٍ يجسر بين جدارَيْن، جدارٍ وَقَفْتُ عليه مُتَحَفِّزًا والثاني سأَقْفِزُ عنده أتحيَّز التصاقًا. بضعةُ أَشْهُرٍ في قِسْم العزل كانت كُلّ ما احْتَجْتُ إلَيْهِ في سبيل تنظيم علاقتي مع الجدار بهدوءٍ وَتَرَوٍّ دونَ أَيّ انشغالات جانبيَّة، وما كانَ لهذا ليَتوافرَ لو تَمَّ نَقْلي مُباشَرةً إلى أحد المعتقلات المركزيَّة المُزْدَحِمة بمئات الأَسْرى وآلاف الروايات المُتَشابِهة والمُتَناقِضة أحيانًا عن الجدار وحياة ما بعد الجدار. كُنْتُ في حاجةٍ إلى هذه الوَقْفة القَصيرة وَحيدًا ومُتَوَحِّدًا مع ثُلاثيَّةٍ سَتُرافِقُني طوال مشواري: أَنا وربّي وضيق المكان، ثالوثٌ مُقَدَّسٌ في مِحْرابِه. وعن كذباتِه تَحْتَ هالَتِهِ وفَوْقَ سَمائِه، خَلْفَ خَيْباتِهِ وأَمامَ خَيْباتٍ أُخْرى له، في صَدْرِهِ، في رَصْدِهِ، في قُرْبِهِ، في قَبْرِهِ، في صِدْقِهِ، وفي قَصْدِهِ سأَكْتُبُ تَغْريبَتي.

إنَّ القُلوبَ إذا أَصابَها جُرْحٌ تَرْكُنُ إلى العُزْلةِ فَإمّا تَشْفى في هُدوءٍ أَوْ تَموتُ في صَمْت. رَأَيْتُ تِلْكَ الأَرْواح وهيَ تَتَعافى وَتُشْفى رُغْمَ قَهْرِ المكان وعنفيَّة تَفاصيلِهِ وَوَحْشِيَّة ما تَتَعَرَّضُ له من عذاباتٍ وتنكيل يوميًّا وَبِلا تَوَقُّف، رَأَيْتُها كيف تُغادِرُ أَجْسادَها صباحًا لِتَعودَ إليها أَوَّلَ الليل تَتَفَقَّدُ ما اخْضَرَّ من جُروحات رَأَيْتُهُم في ساعةِ الشمس الوَحيدةِ في ساحةٍ فَقيرةٍ فَوْقَ أَرْضٍ صُلْبة تَحْتَ سَقْفٍ شائك وقد لَمَعَت أَعْيُنُهم كالذي يُبْصِرُ بَعْدَ طولِ غِياب. اسْتَمَعْتُ إلى أَنْفاسِهِم الثَقيلةِ وَهِيَ تَسْتَنْشِقُ أَشِعَّةَ الشَمْسِ قَبْلَ انْطِفائِها، رافقتهم في هُبوطِهِم إلى القاع وقد امْتَلأَت صُدورُهُم بما يكفيهم من حياةٍ حتى ساعةِ الشَمْسِ القادِمة. صَدَّقْتُهُمْ حينَ قالوا إنَّ الشَمْسَ تُشْرِقُ من أَجْلِهِم في ظَهيرةِ كُلِّ يَوْم ثم تَغْرُبُ عن

هَذا الكَوْكَب. مَنْ يُجادِلُ آلهةً قُرآنُها كذبةٌ وَدينُها تَصْديقٌ وَسُنَّتُها الوَجَع؟

لقد تَوَسَّطْتُ أَشْهُرَ العَزْلِ وَتَواسطت، وجسرت بين عالَمَيْن وفيها تَخَلَّيْتُ عن أَبْجَدِيَّتي الأَرْضِيَّة، وَرُحْتُ أَتَعَلَّمُ لُغةَ أَهْلِ السَماء وغَزْل الخطابات القديمة بمفرداتٍ جديدة. عَلَّمَتْني تِلْكَ الأَشْهُر ندرةَ الشمس ورعاية الظلّ وفسحةَ الضيق وَرَوْعةَ التحليق وأحاديث الليل، والنَقْش على الجدران أَسْرار المرايا وما تُخْفيهِ تَحْتَ خُشونَتِها من أَصْواتٍ وَصُوَر، وعكورة الماء وعميق الجرح وَشُحّ الدواء وقُدْرة الأرواح على الشِفاء، ودَهْشة التَخَيُّل ودِقَّة التفاصيل في الأَحْلام، ولقاءاتٍ على حافَّة امْرَأة، ورَعْشَة التَصَوُّر ورفقة موتٍ خصيٍّ لم يعرف طوال موته لذَّة النساء.

انْتَهَت شُهوري هُنا. وعلى بُعْدِ أَمْتارٍ طَويلةٍ، فَتَحَ الوَحْشُ الحديديّ بَطْنَهُ يَتَوَعَّدُني بِمِشْوارٍ جديدٍ وأَنا كُلِّي انْتِظار.

جوع
t.me/soramnqraa

صَيْف 1993، لم يأتِ خُروجي من قِسْم العزل وحيدًا، بَلْ رافَقَهُ خُروجُ الأرواح المعزولةِ جميعها خلال أقلّ من أسبوعَيْن وكتبت سِفْرَ خُروجِنا أرواحٌ بعيدة تَفَرَّقَت مَضاجِعُها في أكثر من مُعْتَقَل، وتوحَّدت هُمومُها في أكثر من قضيَّة.

لقدْ اعتادَ الأسرى الفلسطينيُّون، وبعدَ تَنَكُّرٍ طويلٍ وَمُسْتَمِرٍّ من قِبَل سلطات الاحتلال، خَوْض مَعارِك بُطوليَّة على شَكْلِ إضراباتٍ عن الطعام وغيرها من الوسائل والطُرُق في سبيل تحسين ظروف المعيشة داخل المُعْتَقَلات، تَخَلَّلَ ذَلِكَ الحراك النِضاليّ انتصاراتٌ عديدة، وإخفاقاتٌ لم تَكْسِرْ عزيمة الأسرى أو تُثْنيهم عن تكرار المُحاوَلات مرَّةً تِلْوَ الأخرى، على الرَّغم من عظيم ما قَدَّموه من تضحياتٍ وشُهَداءَ، وآلاف الأطنان من الصبر والجوع، وما رافقَ ذلك من بَطْشِ آلةٍ لا ترحم، وملكت ما يكفي من وسائلَ وآليَّات قَمْعٍ وغطاءٍ سياسيٍّ ومجتمعيّ، جعلَ من نضال الأسرى في سبيل تحقيق مطالبهم مسألة حياةٍ أو موت.

على قديمِ ما خَلَّفَتْهُ سلطات بريطانيا الانتدابيَّة من سجونٍ

وعلى أطلالِ النَكْبَتَيْن، شَيَّدَت دولة الاحتلال مُعْتَقَلاتٍ عديدةً راحت تمتلئ بعد العام 1967 بأرواحٍ فَتِيَّة لم يكنْ وعيُها الجَمْعيّ قد اكتملَ بَعْد، في حين اكتملَ فيها الوجع والشعور بالخسْران فقاتَلَت وَقُتِلَت أو زُجَّ بِها في غَياهِبِ السُجون إنْ هيَ نجت من قَتْلِها، وتَكَدَّسَتِ الأجساد في محطَّاتٍ ضَيِّقة ومُعادية، وغُرَفٍ زنزانيَّة صُمِّمَت من أجلِ كَسْرِ الروح وفناء الجَسَد. عانى المُعْتَقَلون الفلسطينيُّون داخلَ تلك المُعْتَقَلات وَيْلاتِ القَهْر والتعذيب والنفي عن الزمان والمكان بعدَ أن جَرَّمَت أفعالَهم أجهزةُ قضاءٍ ومحاكمُ عسكريَّة كفرت بكلِّ المَواثيق والمُعاهَدات الدوليَّة، وتَعالَت على القانون الدوليّ، وتَبَنَّت لنفسِها منظومةَ شَرائع وقوانين خاصَّة غابت عنها العَدالة، وظَلَّت الإدانة حُكْمَها الأوَّل والأخير. لمْ تَصْبِرِ الأرواحُ طويلًا على بُؤْسِ ما عاشَتْهُ من ظروفٍ وعانَتْهُ مِنْ مُضايَقاتٍ وتنكيلٍ داخل المُعْتَقَلات، وسلطاتٍ صُمَّت آذانُها عن أصوات الاحتجاج واعتلال الأجساد ونَفاد الهَواء وافتقاد الشمس طوال النهار. فبدأَ مشوارُ جوعٍ طَوْعيٍّ سيمتدّ على مدار عُقودٍ عِدَّة، خاضَ فيها الأسرى إضراباتٍ كثيرة في ظروفٍ تَبايَنَت بينَ السَيِّئة والمُسْتَحيلة، وانتصاراتٍ هُنا وإخفاقاتٍ هناك، متوحِّدين تارةً، وتارةً على قَلْبِ أَلْفِ رَجُلٍ أو أكثر.

لِكُلِّ حاجةٍ إلٰه، إليه يتضرَّع صاحِبُها ويُقَدِّمُ عُهودَ الوَلاء وقَرابين إنْ تَوافرَتْ، يزيدُ في إيمانِهِ إنْ استجابَ إلٰهُه، ويلعن إذا تَأَخَّرَ أو امْتَنَعَ.. لوسيا إلٰهة الحوامل وَمُيَسِّرة الولادات؛ جونو لمن أرادَ زيجةً صالحة؛ نبتون لكلِّ بحَّارٍ تَمَزَّقَت أَشْرِعَتُه وَضَلَّ

طريقَهُ في البحر؛ مارْس رفيقُ المحاربين في حربهم وسُيوفِهم إنْ تَكَسَّرَت في أَيْديهِم سُيوفُهم؛ وللموحِّدين رَبٌّ تَبَدَّلَت أَسْماؤُه وَصِفاتُه وحَمَلةُ عَرْشِه. لصاحبِ الجوع في إضرابِهِ كُلُّ هَؤُلاء إنْ استفردَ فيهِ جوعُه وراحَ جَسَدُه يأكلُ من لَحْمِهِ وَعَظْمِهِ. في الإضراب، تلتقي آلِهَةُ الكَذِبِ جَميعُها في مَشْهَدٍ تَضامُنيّ حولَ مائدةٍ فارِغة امتلأت بالجوعِ والتَعَب وكثير الدُعاء، ويصير الله الفكرةَ الواسعةَ والبعيدة أقرب إلى الجائعين من أنفاسهم ومن أطباقٍ أَعَدُّوها كُلَّ ليلة، وتَفَنَّنوا في صُنْعِها حتى ملأت لَياليهم وأيَّامهم وبُطونهم بِشَبَعٍ مُتَخَيَّل أسكتَ جوعَهم. في الإضراب يَغْفَلُ الجائعون عن أسماء رَبِّهم فلا يعودونَ يتذكَّرونَ واحِدًا أَحَدًا رَحيمًا واسعًا عَليمًا. ولا يَظَلُّ من أسمائِهِ كُلِّها إِلَّا الصَبور، وما حَمَلَتْهُ باقي الأسماء من وُعودات بما تشتهي الأَنْفُس وَلَذَّ وطابَ وَما خَطَرَ على بالِ بَشَر. في الإضراب، تحملُ الأجسادُ أرواحَها عشرة أيَّام أولى ثُم تنقلبُ الأدوارُ بقيَّةَ الأيَّام، يَصيرُ الجسدُ عِبْئًا ثقيلًا يُلْقيهِ الجائع عنه أَوَّلَ الليل، وَيَتَلَبَّسُهُ إذا انْتَصَفَ الصباح. في الإضرابِ، لا شيءَ يَقي الأرواحَ بُرودةَ اللَيْلِ سِوى عِناقِها جِدارَها والتهاب الأمعاء وَحُمَّى الانتظار، لا شيء يُواسيها إِلَّا احتضارٌ قَريبٌ نامَ على الحديد المُقابِل وَقَرَّرَ أَلَّا يموتَ. في الإضراب حديثٌ لَيْليٌّ لا ينتهي، وجميلات ما عادَ جَسَدُكَ الهزيل يُغْري قدومهنّ أَوَّل العتمة. في الإضْرابِ، ذُكورةٌ خَجولةٌ تَقَلَّصَت طُموحاتُها حتى حدود أَصابِعِها. في الإضْرابِ، تُرافِقُ مَوْتَكَ من بِدايةِ احتضاره وتسهر على أَنْفاسه، تَنامُ قَريبًا مِن الأَرْضِ قَدْرَ ما في عِظامِكَ مِن احْتِمال، تَجْعَلُ مِن نَعْلِكَ البلاسْتيكيّ مِخَدَّةً وإن

أَزْعَجَ ذَلِكَ زُوّار لَيْلٍ غير مُتَوَقَّعين، تُبْقي على الماءِ قَريبًا جدًّا وفي مُتَناوَلِ فَمِك، تُخْفي ما هَرَّبْتَهُ مِن حَبَّات مِلْح عِنْدَ أَكْثَر أَعْضائِكَ تَواضُعًا، تَبْحَثُ عَن قِبْلَةِ صَلاتِكَ في كُلِّ اتِّجاه، تَسْجُدُ ولا أَرْضَ تَسْتَقْبِلُ رَأْسَكَ، تُطْلِقُ العَنانَ لِشَعْرِكَ فَلا شَيْءَ يَكْبرُ فيكَ غَيْرُهُ. في الإضراب، تُكَذِّبُ كُلَّ ما يَتَسَرَّبُ إِلَيْكَ مِن أَخْبار، ولا تُصَدِّقُ إِلَّا كِذْبَةَ الانتصار.

شَهِدَ العام 1970 أَوَّلَ إِضْرابٍ للأَسْرى الفلسطينيِّين، ولم يُحَقِّقوا فيه إِنْجازاتٍ مُهِمَّةً تُذْكَر، واسْتُشْهِدَ خِلالَهُ الأسير عبد القادر أبو الفحم. تَلاهُ إِضْرابٌ مُماثِل في العام 1976. انْتَظَرَتِ المُحاوَلَةُ الثالِثة أربعةَ أَعْوام، وأَطْلَقَ شَرارَتَها سِجْنُ نَفْحة الصَحْراويّ، حَيْثُ زُجَّ بِأَكْثَر من مائةٍ وخمسين أَسيرًا في زَنازين صغيرة خلت من الأَسِرَّة، مع تحديد ساعات الشمس بساعةٍ واحدة طوال النهار. اسْتَمَرَّ الإِضْراب عشرين يومًا، اسْتُشْهِدَ خلالها ثلاثة أَسْرى هم: راسم حلاوة وعلي الجعفريّ وإسحاق مراغة، بسبب إِصْرار إدارة الاحتلال على كَسْرِ إِضْرابِهم عن طريق التَغْذية القَسْرِيَّة، لَكِنَّ الأَسْرى حَقَّقوا إِنْجازاتٍ مُهِمَّة، منها: تَرْكيب الأَسِرَّة في الغرف وفرشاتٌ للنوم بدل مُسَطَّحاتٍ جِلْدِيَّةٍ دقيقة جدًّا، وتنظيمُ وزيادة عدد ساعات الشمس في ساحاتِ الأقسام. ساهمت إِنْجازاتُ إِضْرابِ العام 1980 في تعزيز إرادةِ الأَسْرى وَثِقَتِهِم في قدراتهم على تحقيق مزيدٍ من الإِنْجازات التي من شَأْنِها تحسين ظروفِهم المَعيشيَّة، فَأَعْلَنوا في العام 1984 عن إِضْرابٍ جديد انتهى بإنجازاتٍ كَثيرةٍ أَهَمُّها إِدْخال راديو ترانزستور إلى الغرف، والسماح بإِدْخال البيجامات والملابس الرياضيَّة عن

طريق الزيارات العائليَّة، وتحسينُ الطعام كَمًّا وَنَوْعًا.

عاشَ الأَسْرى بَعْدَها بضع سنواتٍ هادئة نسبيًّا إلى أَنْ قَرَّرَت سلطات الاحتلال إعلان حالةِ الطَوارئ داخلَ السجون على إِثْرِ اندلاع حرب الخليج الأولى. انتهت الحرب ورفضت إدارةُ السُجون إعادةَ الأَوْضاعِ إلى ما كانت عليه قَبْلَ الحرب ممَّا أَدَّى بالأَسْرى إلى إعْلانِ إضْرابٍ جديدٍ في العام 1992، الذي استمرَّ عشرين يومًا، انتهت بإنجازاتٍ جديدة إلى جانب استصدار قرارٍ بإغْلاقِ أقسام العزل وَنَقْلِ مَن فيها مِن أَسْرى إلى باقي المعتقلات.

بِأَطْرافٍ مُقَيَّدة بالسلاسل وخطواتٍ مُتَثاقِلة، رُحْتُ أَبْتَعِدُ عن مدخل قسم العزل أو القاع كما اعْتَدْتُ تَسْمِيَتَه، نَظَرْتُ إلى الوراء أكثر مِن مَرَّة مع وَقْفاتٍ قَصيرةٍ حتى اسْتَثارَ تردُّدي وتباطئي نظرات تعجُّبٍ ملأت وُجوهَ حُرّاسي الجنود الذين راحوا يَحُثُّون خُطاي بالصُراخ والدَفْعِ أَحْيانًا، لا أَدْري هل أَزْعَجَ حُرّاسي حَنيني إلى القاع أَمْ أَزْعَجَهُم أَكْثَر خُروجي مِنْهُ؟ وَلَكِنّي كُنْتُ متأكِّدًا أَنَّ شَيْئًا ما أَزْعَجَهُم في تِلْكَ الأَمْتار التي سَبَقَتِ ابْتِلاعي داخِلَ الوَحْشِ الحديديّ (البوسطة). نَظَرْتُ للمَرَّةِ الأَخيرةِ مِن خِلالِ الثُقوبِ في جَسَدِ البوسطة إلى عَزْلي فأَصابني الخَوْف؛ فَجْأَةً، أَخافَتْني حَقيقةُ تَرْكي عَزْلي ورُطوبةَ المَساءاتِ، تَرْكي جِداري وَما أَبْقَيْتُهُ فيه مِن قَليلِ مِساحاتٍ بَيْضاء، تَذَكَّرْتُ ساعةَ الشَمْسِ الوَحيدة وَرَعْشَةَ الجَسَدِ في أَوَّلِ لِقاء مع أَوَّل خَيْطٍ للشَمْس داعبت رُطوبَته استَمَعْتُ إلى ما تَرَكْناهُ مِن أَصْواتٍ ظَلَّت تَمْلَأُ المكان في وحدته، وصُراخِ أَبي ذر لربِّه مرَّتَيْن. كلّ يومٍ كانَ في عَزْلي ما يُشْبِهُني أَنا على

السور وأنا في لقاءٍ مسائيٍّ رَطْب، أنا الخارج عن اجْتِماعٍ قَيَّدَ شَهِيَّتي وما اشْتَهَيْت، أنا المُتَمَرِّد على أَخْلاقِ القَبيلةِ، وَأنا غَريبُ السُؤالِ وَعَنيدُ الإجاباتِ.

تَحَرَّكَتِ البوسطة بَعْدَ أن تَأَكَّدَ الجُنودُ مِن أوثاقِنا وَأَسْمائِنا وَأَعْدادِنا، وَمِن خُلُوِّ أَجْسادِنا العاريةِ مِن أَجْسادٍ غَريبة أو عَلاماتٍ مَشْبوهَةٍ قد تُعيقُ حَرَكَةَ القافِلة. بَدَأَت إشاراتُ التَوَتُّرِ في الظهورِ عَلى وُجوهِ مَن رافقَني مِن أَرْواح، وراحَ كُلٌّ يَسْأَلُ عَن وِجْهَةِ الآخر باهْتِمامٍ وقلق، كُلّ عَلى مَجْهولِهِ. أَمّا أنا، فَتَعاظَمَ فيَّ خَوْفي وَتَوَتُّري مُسْتَذْكِرًا ما سَمِعْتُهُ عن اكْتِظاظِ السجون بالأَرْواح في غُرَفٍ ضَيِّقَة، أَحْيانًا يُزَجُّ أَكْثَر مِن 15 أَسيرًا في غُرْفَةٍ واحدة. خِفْتُ عَلى عَلاقَتي مع جِداري في زَحْمَةِ الأَجْساد وَشُحّ المكان وَخِفْتُ على أَسْماءِ وَصِفاتِ الأَشْياءِ في مُحيطٍ كُلٌّ يُعَرِّفُهُ وَيُسَمِّيهِ عَلى طَريقَتِه الخاصَّة وَعلى ما تَرَكوهُ لي مِن فَراغاتٍ قَدْ لا تَكْفيني، خِفْتُ على ساعاتي أَوَّلَ كُلِّ لَيْلَةٍ وَحِرْص زُوّاري اللَيْلِيِّين على خُصوصِيَّتِهِم، وَخَشيتُ مِن تَبَدُّلاتٍ طَرَأَت عَلى آلِهَةِ الكذب في حَيِّزٍ ضاقَ عَلَيْهِم أكثر! ماذا عن أَشْيائي وأَسْمائِها وَصِفاتِها وَقَراراتي في عُزْلَتي وَجِدارِيَّتي، وما حَفَرْتُهُ فيها مِن تَخَلٍّ وَتَعَلُّقٍ وحضورٍ في الزمان والمكان. ماذا لَو كانَ كَلامُ الجُدْرانِ الضَيِّقَةِ يَمْحوهُ حَديثُ جُدْرانٍ ما عادَ فيها ضيقٌ يَتَّسِعُ لي؟ أَنْقَذَني من تَساؤُلاتي تَوَقُّفٌ مُفاجئٌ للبوسطة بَعْثَرَ ما فيها مِن أَجْسادٍ ارْتَطَمَت بِكُلِّ حَديدٍ أَحاطَ بِها، فَصاحَت وَمَلأَت الدنيا صراخًا اسْتَدْعى صُراخًا آخَر أَعْلَى وَأَشَدّ أَطْلَقَهُ حُرّاسُنا الجُنود في اتِّجاهِنا وَوَعيدًا بِعِقابٍ لَن يَتَأَخَّرَ إِنْ لَمْ تَخْرَسْ أَصْواتُنا. سَكَتَتِ الأَصْواتُ بَعْدَ

دَقائِقَ قَليلَةٍ، ولكن بفعل التعب. قارَبَتِ الدَقائِقُ الخمس والأربعون التي تَفْصِلُنا عن مُعْتَقَل عَسْقَلان من الانتهاء، واقْتَرَبَ فيها تَوَتُّري وَخَوْفي إلى قِمَّتِه.

الساعةُ الآن الخامسة مساءً من يوم الأربعاء الموافق 06/ 02/ 2019. وَصَلَنا الآن نَبَأُ اسْتِشْهادِ الأَسيرِ فارسُ بارود في سِجْنِ رامون الصحراويّ، فارسُ كانَ يَقْضي حُكْمًا بالمُؤَبَّدِ مَضَى عَلَيْهِ قُرابةَ ثلاثين عامًا، الشَهيد فارس جَلَسَ على بُعْدِ مِتْرَيْنِ مِنّي داخِلَ البوسطة، وَلا زِلْتُ أَسْمَعُ صَوْتَ صُراخِهِ جَرّاءَ ارْتِطامِهِ المُفاجِئ بالحديد. قالَت امْرَأَةٌ عَرَبِيَّةٌ حُرَّة مرَّةً: أما آنَ لِهَذا الفارس أَنْ يَتَرَجَّلَ، ها قَد تَرَجَّلَ فارسٌ آخر عن جِدارِه بَعْدَ طولِ التِصاق. لَم يَحْتَمِلْ كَبِد فارس كُلَّ هَذا الضَجيج، حاوَلَ أَنْ يُرَتِّبَ عَلاقَتَهُ بالسِجْنِ أكثر مِن مَرَّة، وَفي كُلِّ مَرَّةٍ فَشِلَ فيها حاوَلَ مَرَّةً أُخْرى وَهَرَبَ طَواعيةً بَعْدَ كُلِّ فَشَلٍ إلى عَزْلِهِ الانفراديّ، إلى أَوَّلِ جِدارٍ وإلى أَوَّلِ الجدار. مضى رُبْعُ قَرْنٍ عَلى لِقائِنا الأَخير، وقد يَنْقَضي رُبْعُ قَرْنٍ آخَر كَي يَتَرَتَّبَ لَنا احْتِمالُ لِقاءٍ آخر، عِنْدَ جِدارٍ آخَر في ساعةِ شَمْسٍ أُخْرى عَلى صُراخٍ أَخير.. خُذْ مَعْكَ يا فارس كُلَّ وُحوشِكَ الحَديدِيَّةِ وادْفِنْها عَميقًا مَعْكَ، خُذْ مَعْكَ سيجارةً وَفَّرْتَها مِن أَجْلي حينَ عَزَّتِ السجائر، خُذْ مَعْكَ صَوْتَكَ الأَسَدِيَّ الخَشِن، خُذْ معك أَنْفاسَنا الثَقيلَةَ، ورُطوبةَ الرَمْلَة، خُذْ مَعْكَ خَيْطَنا البَريديّ المُتَسَلِّل، خُذْ معك كُلَّ ما نسينا حَمْلَهُ أَوْ تَثاقَلْنا عَن حَمْلِه، خُذْ معك ما تَبَقَّى لَدَيْكَ مِن ذِكْرَياتٍ عَن أُمِّكَ قَبْلَ وَبَعْدَ رَحيلِها، خُذْ معك الشاطئ مُخَيَّمًا وَبَحْرًا أَيُّها

اللاجئ خُذْ مَعْكَ خريطَةَ البَيْتِ وَما تَذْكُرُهُ مِن حِكاياتٍ قَديمَةٍ، خُذْ مَعْكَ مِفْتاحَ جَدِّكَ، لا تَأْمَنْ عَلَيْهِ فينا فَما عُدْنا نَحْرِصُ كَما كُنّا، خُذْ مَعْكَ ما تَشاءُ واخْتَرْ لِنَفْسِكَ أَيَّ جَنَّةٍ تَرْضاها، وَلَنا مِن بَعْدِكَ طولُ جِدار. ماتَ فارس بَعْدَ أَنْ تَشَمَّعَ فيهِ كَبِدُه وراحت تَأْكُلُهُ هِنْدُ أَعْجَمِيَّة، لا حُرْمَةَ للدَم في شَريعَتِها أَو شَريعَةِ أَبيها وَأَخيها.

سَأُكْمِلُ الحِكايَةَ مِن أَجْلِ فارس وَكُلِّ الذين سَبَقوهُ مِن فُرْسان، وَآخَرين لم يَتَرَجَّلوا بَعْد وَغَيْرهم لم يُتْقِنوا فُنونَ الجِدارِ وَمَهاراتِ التَعَلُّق وَنَجاة الالتِصاق، لا لِيَتَعَلَّموا مِنْها أَو يَسْتَقوا مِنْها عِبَرًا وَدُروسًا، فَلِكُلِّ جِدارٍ حِكايةٌ وَصاحِبٌ يَرْويها، وَلِكُلِّ صاحِبِ عالَمٌ وَفَضاءٌ وَضيقٌ، لَهُ أَبْجَدِيَّةٌ وأشباهُ أَشْياء وَأَشْياء أُخْرى اكْتَمَلَت، وَلَهُ وَجَعٌ وانْتِظار، وَلَهُ حَقُّ الرِوايةِ، في الكِتابَةِ عِلاجٌ وَفُسْحات، وَكُلُّ ما شَحَّت بِهِ الدُنْيا عَلَيْكَ من مساحاتٍ بيضاء أَنْتَ تُمْلي عَلَيْها سُطورَها بِأَيِّ لُغَةٍ تَخْتارُها أَنْت.

وَصَلْنا إِلى تَوَتُّري وَخَوْفي اللذَيْنِ كَبُرا أَكْثَر كُلَّما اقْتَرَبْنا مِن مُعْتَقَل عَسْقَلان، ثَلاثة أَرْباع الساعة فَصَلَت بَيْنَ جِدارَيْنِ: واحِدٍ أَحْمِلُهُ وَثانٍ يَحْمِلُني، وَكِلاهُما أَنا.

عَسْقَلان

تَوَقَّفَتِ البوسطة وانْتَهَت ثلاثَةُ أَرْباعِ ساعةٍ مِنَ القَلَقِ، وَصِرْنا على عَتَبَةِ بِناءٍ عَسْقَلانيٍّ قَديم، امْتَلأَ هَواؤُهُ بِرائِحةِ البَحْرِ وَرُطوبَةٍ لَها مَذاقٌ مُخْتَلِفٌ عَن مَذاقِ القاع، وَأَحاطَت جُدْرانَهُ على بُعْدِ أَمْتارٍ قَليلَةٍ أَشْجارُ نَخْلٍ عاليةٌ وَخالِيَةٌ مِن أَيِّ تَمْرٍ يُؤْكَل. انْتَظَرْنا قَليلًا على عَتَبَتِهِ، ثم فَتَحَ الجِدارُ فاهُ واسِعًا وابْتَلَعَنا. دَقائِقُ انْتِظار أُخْرى وتوقَّفَ أخيرًا ليبدأ بَعْدَها إِخْلاء البوسطة مِن شُحونَتِها بابُ زِنْزانةٍ يُفْتَحُ كَي يَزِجَّ بِنا جَميعًا في داخِلِها، بابٌ يُغْلَق، انْتِظارٌ رَطْبٌ مُمِلّ، بابٌ يُفْتَح مَرَّةً أُخْرى، تَلَتْهُ عُروضاتٌ فَرْدِيَّة عارية وأَجْسادٌ تمَّ تَفْتيشُها، ثم عَرْضُ سولو مَسْرَحيّ أَمامَ جُنْديٍّ ضابط يَسْأَلُ عَن نِيّاتِ كُلّ مِنّا لِسِنينِهِ القادِمة، وَإِجاباتٍ فارِغة من أَيِّ نِيَّةٍ كانت سِوَى نِيَّة الاسْتِحْمام والنَوْم لِساعة أَو أَكْثَر. انْتَهَت عُروضُنا الفَرْدِيَّةُ دونَ تَصْفيقٍ مِن أَحَدٍ أَو تَصْديق، مَسيرٌ قَصيرٌ، بابٌ يُفْتَح وساحةٌ تَظْهَرُ مِن وَرائِهِ، تَوَسَّطَت الساحةَ أربع جِهاتٍ مِنَ الإِسْمنت، في كُلِّ جِهَةٍ طابِقانِ ما عَدا واحِدة. خَمْسةُ أَقْسامٍ اخْتَنَقَت بِما يَزيدُ عَن أَرْبَع مائةِ أَسير. أَوَّلُ ما يُلْفَتُ الداخِلَ إلىَ

الساحة شُجَيْراتٌ ثَلاث: شَجَرةُ نَخْلٍ عاليةٌ غَيْر مُثْمِرة وَلا ظِلَّ لَها في وَسَطِ الساحةِ، وَعلى يَسارِها شَجَرَةٌ مُزْهِرة ظَلَّلَت مِساحةً لَيْسَت بالصغيرة، وعلى يَمينِ النَخْلَةِ شَجَرةُ أكاسيا تَواضَعَت في ظِلِّها، تَواضَعَت كثيرًا. تَوَقَّفْتُ لِلَحَظاتٍ، نَظَرْتُ إلى ما يَحْدُثُ داخِلَ الساحَةِ. أَدْهَشَتْني مِساحَتُها مُقارَنَةً بِساحةِ القاع وعدد الأَرْواح الفاعِلة فيها، عَشَرات الأَسْرى في مجموعاتٍ لا تَزيدُ عن خَمْسة في حَرَكَةٍ دائِرِيَّةٍ بِعَكْسِ عَقارِبِ الساعةِ.

مَرَّت دَقائِقُ قَليلةٌ صِرْتُ بَعْدَها داخِلَ إِحْدى الغُرَف، سبعة أَسِرَّة تَعْتَليها سبعة أُخْرى، غُرْفَةُ اسْتِحْمامٍ صَغيرة، طاوِلةٌ خَشَبِيَّة أربعة مَقاعِد بلاستيكيَّة، وأَرْواح تَحَرَّكَتْ في كُلِّ اتِّجاه.. هَذا يَغْسِلُ، هَذا يَطْبُخ، ذاكَ يَقْرَأ، وآخَر يَتَثاءَبُ، روحانِ تَصْرُخانِ حَوْلَ طاوِلةِ نَرْدٍ جَديدةٍ، روحٌ في صَوْتِها نَبْرَةُ سُلْطَةٍ وَنُفوذٍ راحَت تَدُلُّني إلى سَريري. انْتَهَيْتُ مِن إِدْخالِ أَغْراضي، كُلُّ الأَفْعالِ تَوَقَّفَت حتى الصُراخ، عِباراتُ تَرْحيبٍ وَعِناقٌ بَعْضُهُ طَويل، الكُلُّ عادوا إلى أَفْعالِهِم، صاحِبُ الصوت يُعْطي تَعْليماتٍ لباقي الأَرْواحِ بِمُساعَدَتي في تَرْتيبِ السرير، الكُلُّ صارَ جاهزًا، أَنا على سَريري العُلْويّ المُلْتَصِق بِنافِذَةٍ مِن خَليطٍ إسْمَنتيٍّ وحديديٍّ، تُطِلُّ على الساحةِ، جِهازُ تِلْفازٍ على الجانب المقابل، روحٌ نائِمةٌ على بُعْدِ عشرين سم مِن رَأْسي، وَمَساءٌ أَوَّل يَبْدَأ.

جَلَسْتُ على سَريري أُراقِبُ ما يحدث مُحاوِلًا اسْتيعابَ هَذا الكَمّ الهائِل مِن الأَفْعالِ حَوْلي. أَسْنَدْتُ رَأْسي إلى الجِدارِ وَحَمَدْتُ اللهَ أَنَّ جِدارًا هُنا، وَأَنَّ رَأْسي لَمْ يَسْقُطْ في مَكانٍ لا أَعْرِفُهُ. الخامسةُ مَساءً، العَشاء جاهز، أربع عشرة روحًا صارَت

في وَسَطِ الغُرْفَةِ، تُحيطُ أَطْباقًا تَفَرَّقَت وَتَوَزَّعَت على أَرْضِيَّتِها الكُلُّ جَلَسَ القُرْفصاء كُلٌّ على طَريقَتِهِ، وَرَأَيْتُ طَرائِقَ عَجيبةً وَأُخْرى مُضْحِكةً، وَلَكِنّي لم أَضْحَكْ. أَكَلْنا ثم تَشارَكَتِ الأَرْواحُ في غَسيلِ الأَطْباقِ وَتَنْظيفِ وَتَرْتيبِ الغُرْفة. دَعْوةٌ مِن صاحِبِ الصَوْتِ إِلى جَلْسَةٍ مُطَوَّلَةٍ، شَرَحَ فيها بالتَفْصيل كيف سَيَبْدو يَوْمي غَدًا صَباحًا وَكيف سَتَبْدو بَقِيَّةُ اليَوْم، ما عليَّ فِعْلُهُ وَما عليَّ تَجَنُّبُه ومُحَرَّماتُ الأَفْعالِ، متى أَصْحو وَساعة الإِفْطارِ، ساعاتُ الشَمْسِ وَمَواعيدُها الدقيقةُ، متى أَقْرَأُ وَأَحْيانًا ماذا، متى أُخْرى، وكيف رابِعة، وَأَيْنَ وَأَخَواتُها إِلى متى أَنام. مَعْلوماتٌ كَثيرةٌ في مَساءٍ واحِدٍ، وَلاءاتٌ أَكْثَر رافَقَتْني في عَوْدَتي إِلى سَريري، وَنافِذةٌ عَقَدْتُ عَلَيْها آمالًا عَديدة في سَهْراتٍ لَيْلِيَّةٍ قادِمة. عادَتِ الأَرْواحُ إِلى انْشِغالاتِها تارِكينَ لي فُرْصَةَ التَوَحُّدِ قَليلًا واسْتيعابَ جَديدِ مَقامي، في كلِّ زاويةٍ قِصَّةٌ، هَذا يُحَدِّثُ عَن كِتابٍ يَقْرأه، وَذاكَ يَسْتَمِعُ باهْتِمام، ثانٍ يُعِدُّ إِبْريقًا مِنَ الشاي بالنعناع، تُقابِلُهُ مَجْموعةُ أَرْواحٍ تُتابِعُ مُباراةَ كُرَة قَدَم، روحٌ خَمْسينِيَّةٌ تُنْشِدُ على مَجْموعةٍ ثانية شَيْئًا يُشْبِهُ الشِعْرَ بِلُغَةٍ تَحْتاجُ إِلى كَثيرٍ مِن التَصْحيح. أَرْهَقَني تَأَخُّرُ الليلِ هُنا، على السقْفِ، فأنا ما اعْتَدْتُ انْتِظارَهُ في القاع كانَ يَأْتي على عَجَلٍ، وَيَتَمَهَّلُ إِذا وَصَلَ حتى كادَ أَنْ يَتَوَقَّفَ. لَيْتَهُ يَأْتي فَلا يَنْتَبِهُ أَحَدٌ إِلى حِوارٍ لَيْليّ غَريبٍ سَيَبْدَأُ، وَكِتاباتٍ أولى على بَقِيَّةِ جدار!

مُسْتَلْقيًا على سَريري العُلْوِيّ الذي يَعْلوهُ السَقْفُ بِمِتْرَيْنِ فَقَط بَدَأْتُ بمراجعةِ مَشْهَدِ دُخولي الجديد، وَحَضَرَني مَشْهَدُ دُخولي شِبْهَ المَدينةِ لِأَوَّلِ مَرَّةٍ ـ أَعْني دُخولي الواعي للمكان، ذَلِكَ التَفَحُّص

الدَقيق والقَريب للأَشْياء والوجوه وفروق التواقيت بَيْنَ اللغات واللَهْجات التي عَجَّ بها المَشْهَد. لم يَكُنْ في مَدينَةِ المَسيح ما يُذَكِّرُ بالمَدينةِ، وَكُلُّ الطرقِ فيها تُؤَدّي إلى مَرْيَم وَقِصَّتِها مع النَخْلَة، وَكَذَلِكَ الزِقاق القَديمة والطُرُق الجانِبِيَّة، حتى فَوْضى الروائح وخليط الأَلْوان المُزْعِج كُلُّها تَدُلُّ إلى مريم وابْنِها وَكَنيسةٍ تَوَسَّطَت بَيْنَ رِسالَتَيْنِ، إحْداهُما تَدَّعِي الوُدّ وَتُعَبِّرُ عَن حُسْنِ نَواياها اتِّجاه رَضيعِها، والأُخْرى تَنَكَّرَت لَهُ وَوَشَت به. مدينةٌ تتكلَّم بِكُلِّ اللُغاتِ التي تَسْرِدُ القِصَّةَ ذاتها، مع تَعْديلٍ هُنا أَو زِيادةٍ هُناكَ في بَعْضِ التَفاصيلِ الثانَوِيَّةِ. مَدينةٌ غَرِقَت في قُراها الحُدودِيَّةِ، وَمُخَيَّمٌ راحَ يَتَشَبَّثُ بِأَطْرافِها يَخْشَى انجرافًا. حارَت حَواسِّي الشابَّةُ في تَرْتيبِ العناصر المُتَفَرِّقةِ في صورةٍ واحِدَةٍ واضِحة، وَتَطَلَّبَني الأَمْرُ زياراتٍ مُتَكَرِّرَةً ومُحاوَلاتِ تَرْتيبٍ فاشِلةً كَثيرَة حتى سَلَّمْتُ بِعَبَثِيَّةِ المحاولاتِ واسْتِحالَةِ الترتيب.

ما أَشْبَهَ دُخولي اليَوْمَ بِذَلِكَ القَديم، كانَ هَذا أَوَّلَ اسْتِنْتاجٍ لي وَأَنا على سَريري الحديدِيّ، فهذا شِبْهُ سِجْنٍ ضَيِّقٍ حتى صارَ مُعْتَقَلًا، وَأَفْسَحَ فكاد يَصيرُ سِجْنًا. كُلُّ الطُرُقِ تُؤَدّي إلى ساحةٍ في وَسَطِها نَخْلة، وَتَرْويهِ رِسالاتٌ ثَلاث، واجْتَمَعَت في جُدْرانِهِ أَرْواحُ شِبْه المَدينة والقَرْيَة والمُخَيَّم، بالإِضافَةِ إلى أَرْواحٍ جاءت مِن وَراء البَحْرِ تَبْحَثُ عَن وَطَنٍ قَرَأَت عَنْهُ في صفحاتِ الجَرائِدِ البَيْروتِيَّة وَغَيْرِها مِن صُحُفِ عَواصِمِ العَرَب، أَو سَمِعَت عَنْهُ في قِصَصِ ما قَبْلَ النَوْم، رَوَتْها الأُمَّهاتُ والجَدّات. مَشْهَدٌ مَأْلوفٌ قُلْتُ في نَفْسي وَلَنْ أُعْدَمَ الوَسيلةَ في اندماجٍ سَريع، فَتِلْكَ آلِهَةُ الكَذِب وَخِطابُها الذي أَحْفَظُه، هَذا جِدارٌ جِئْتُ بِهِ مَعي، وَرُطوبَةٌ

امْتَلأَت بِها أَنْفاسي، عامٌ كامِلٌ سَأُمْضيهِ هُنا وَأَتَعَلَّمُ فيهِ مَهاراتٍ عَديدَةً، سَأَتَعَلَّمُ رِفْقَةَ الروتين وَقِصَّتَهُ العَجيبة مَعَ الأَسير، والتي تَبْدَأُ بِعَداوَةٍ شَديدةٍ يُطَوِّرُها الأَسيرُ اتِّجاهَ رَتابَةِ الأَحْداثِ وَتَواتُرِها الثَقيل المُمِلّ، وَمُحاوَلاتِ كَسْرِ طُفولِيَّةٍ لروتينٍ يَظَلُّ يَقْتَرِبُ مِنْهُ حتى يَكادَ يَبْتَلِعُهُ، فَتَرَى الأَسيرَ يَصْحو قَبْلَ ساعَةٍ مِن مَوْعِدِ صَحْوِهِ أَو بَعْدَ، يُؤَجِّلُ حِلاقَتَهُ يَوْمَيْنِ أَو أَقَلّ أَو أَكْثَر، يُطيلُ في اسْتِحْمامِهِ وَيُخَفِّف، يُبَدِّلُ سَجائِرَهُ بِأُخْرَى لا تُشْبِهُها هَذا إِنْ تَوافرَت، يَخْلَعُ عَن جِدارِهِ صورَةَ أُمِّهِ وَيَسْتَبْدِلُها بِأُخْرى أَقَلّ حُضورًا وَوَطْأَةً، يَغيبُ عَن ساعَةِ الشَمْسِ الصَباحِيَّةِ، يُقَرِّرُ فَجْأَةً تَخْفيفَ وَزْنِهِ لِدَواعٍ صِحِّيَّةٍ، أَو يَحْلِقُ شارِبًا ما كانَ يَقْبَلُ تَهْذيبَهُ سابقًا. وَيَظَلُّ الأَسيرُ على تَنافُرِهِ هذا مَع يَوْمِيّاتِهِ حتى يأتي يَوْمٌ فيهِ يَسْتَعيذُ بالله مِن كُلِّ الشَياطين، وَيَعدّ حتى العشرين قَبْلَ تَوْجيهِهِ مُلاحَظَةً صَغيرة لِروحٍ مُجاوِرة أَيْقَظَت نَوْمَهُ قَبْلَ مَوْعِدِهِ بِرُبْعِ ساعة، وَيَغارُ على رَتابَةِ أَحْداثِهِ وَأَشْيائِهِ غيرَةَ الكاتبِ على نَصِّه، وقد يُؤَدِّي كُلُّ خَلَلٍ في أَيِّ خِطَّةٍ أَعَدَّها مُعْتَمِدًا على دَوْرِيَّةِ أَفْعالِهِ إِلى عُطْلٍ في تَوازُنِهِ النَفْسيّ أَو في انْتِظام دَوْرَتِهِ الدَمَوِيَّة، وقد يَحْدُثُ هَذا التَقارُبُ سَريعًا وَقَد يَتَأَخَّرُ، وَلَكِنَّهُ دَوْمًا يَأْتي.

هُنا، سَأَتَعَلَّمُ الكِتابَةَ بِأَحْرُفٍ صَغيرَةٍ ضَيِّقَة، فَلا أُزْعِجُ جيراني الكتبة؛ وتفسيرَ الأحلام بخاتماتٍ تنتهي كلّها بإفْراجٍ قَريبٍ من الله، النومَ على أَصْواتٍ شَخيرٍ مُتَقَطِّع؛ الصبرَ على قضاء الحاجة ولا يزال أمامي عشرةٌ يُصَبِّرونَ حاجاتهم؛ ادِّعاءَ النَوْمِ ولا زالت في انْتِظاري ساعاتُ سَهَرٍ طَويلة؛ الاسْتِماعَ لِأَكْثَرَ مِن قِصَّةٍ في وَقْتٍ واحِدٍ، والاسْتِعْدادَ للإِجابَةِ على أَيِّ سُؤالٍ مُفاجِئٍ يَمْتَحِنُ

اهْتِمامي؛ إِمْتاعَ نَفْسي مع كاتِمٍ للصوت والصورة والانتشاء التحليل السياسيّ والاجتماعيّ والنفسيّ، وَتَشْخيصَ الأَمْراضِ وَطَرْح حُلولٍ وَعِلاجاتٍ وَتَصْديقَ صِدْقِ تَحْليلاتي؛ الصَلاة جَماعةً والتأمين بَعْدَ كُلِّ دُعاءٍ وإن أنكرته؛ الاكْتِفاءَ بِلُقْمَةٍ واحِدةٍ من صَحْنٍ شَهِيّ على طاوِلَةِ الإِفْطارِ؛ الدُعاءَ للطَبّاخِ بِطولِ العُمْرِ وإِنْ أَفْسَدَ العَشاء شَهِيَّتي لِأُسْبوعٍ قادِم؛ الاسْتِحْمامَ مِلْءِ الجَسَدِ بِأَقَلِّ قَدْرٍ مِنَ الماءِ الساخن، فَيَنْجو مَن يَنْتَظِرُ دَوْرَهُ من رَعْشَةٍ مُفاجِئَةٍ بارِدة وَأَنْجو أنا مِن لَعْناتٍ خافِتَةٍ قَد تَطالُ أُناسًا أُحِبُّهُم؛ المَشْيَ على وَتيرةٍ واحِدَةٍ مع سبعين مشّاءً آخَرين بِشَكْلٍ دائِرِيّ وَلا أُصابُ بالدَوَران. سَأَتَعَلَّمُ في سنتي تِلْكَ أَيْضًا مَحْدوديَّةَ صَوابي واحْتِمالَ خَطَئي، وتَطْويعَ تَمَرُّدي وَلَوْ قَليلًا، والانْصِياعَ لرأي الجماعة وَإِنْ أخطأَتْ، والإيثارَ وإن آلَمَني اسْتِغْنائي عَن شَيْءٍ أَرَدْتُه والاسْتِغْفارَ دونَ سَبَبٍ والحَمْدَ بَعْدَ كُلِّ مُسَبِّب، وتَجاهُلَ السَجّانين كأن لا سجن يَجْمَعُ بَيْنَنا، واسْتِقْبالَ كُلِّ روحٍ جَديدَةٍ وَكَأَنَّها الأَخيرة والجُلوسَ بِصَمْتٍ في حَضْرَةِ روحٍ تَبْكي أَبًا لَها رَحَلَ قَبْلَ مَوْعِدِه وَتَلْعَنُ ذاكَ التَعَجُّل، ووداع مَن مَلَّتِ الجُدْرانُ تَعَلُّقَهُم فأَفْرَجَت عَن أَرْواحِهِم، وانْتِظارَ أَوَّلِ فنجان قَهْوَةٍ أَفْتَتِحُ بِهِ صَباحي وَقِراءَةَ الأَدَبِ الروسيّ والسوفْييتيّ، والتَذَمُّرَ مِن فَقْرِ آدابِنا الحَديثَةِ للصورةِ، والتَعَرُّفَ على جُغْرافيَّة بِلادي وَتَعْقيدَ ما سَمَّت بِهِ بَعْضَ قُراها وَخِرْباتِها النائية. وسأتعلَّمُ أيضًا التَخَلِّي عَن عُزْلَتي والتَمَسُّكَ بِفُرَصِ تَوَحُّدٍ مَسْروقَةٍ.

رَأَيْتُ في عَسْقَلان أَرْواحًا مَحْبوسَةً وَلَكِنْ مُحَلِّقَة، رَأَيْتُ وُجوهًا تَتْرُكُ خَيالاتِها على أَسْطُحِ المَرايا مِن شِدَّةِ الوُقوفِ

أَمامَها. رَأَيْتُ آلِهَةَ الكَذِب وقد ظَلَّت على غيّها تُصدِّق وتؤمن وَتَكْتُب الشِعارات، وَتُوَزِّعُ منشوراتها الشَهْرِيَّة، وتدعو للثَوْرَةِ. رَأَيْتُها تَتَضامَنُ لا تزال مع كُلِّ وَجَعٍ متوافر، وَتُرَبِّي الوجع كما يُرَبِّي أَسيرٌ درويش الأَمَلَ. تَضامَنَت مَع فُقَراءِ العالم وَأَخَّرَت وَجْباتٍ لَها أَو أَعادَتْها، تَضامَنَت مَع كلِّ زَنازينِ الأَرْضِ على سطحها أَو في القاع، تَضامَنَت مَع العُمّال، تَضامَنَت مع الفَلّاحين وَصَلَّت مَعْهُم اسْتِسْقاءً للماء، تَضامَنَت مع كُلِّ ما تَحَرَّكَ أو تَوَقَّفَ عن حَرَكَتِه بِفِعْلِ عَوامِلَ أَو قُوى خارِجِيَّة، تَضامَنَت مَع النساء في وجه ذكوريَّةٍ راحت تبطش أفرادًا وجماعاتٍ. رَأَيْتُ في عَسْقَلان صُدورًا عارية قاوَمَت قَمْعَها وَقَتْلَها، وحارَبَت كَما اعْتادَت أَنْ تُحارِبَ، وَدافَعَت عَن ضيقِها فَلا يَضيقُ أَكْثَر، وَشَيَّعَت قَتْلاها إِلى جليدٍ أَجَّلَ دفنها، وَصَلَّت على أَرْواحِها صلاةً دافئة.

أَمْضَيْتُ أَيَّامي الأولى أُشاهِدُ وَأُراقِبُ وَأَتَعَلَّمُ وَأَسْتَمِعُ أكثر منِّي متكلِّمًا، وَأُفَسِّرُ وَأُحَلِّلُ سُلوكِيَّاتِ الأَرْواحِ مِن حَوْلي، حتى جاءت نِهايَةُ أُسْبوعي الأَوَّل لكي أرى الأرواح وقد تَقَمَّصَت أَجْسادها فَجْأَةً، وَتَفَقَّدَتْها وَتَأَكَّدَت مِن كَمالِ عَناصِرِها، وَأَن لا نُقْصانَ أَو أَضْرارَ يَصْعُبُ إِخْفاؤُها. إِنَّهُ الثلاثاء وَغَدًا أَرْبعاء زيارة.

زيارة

صباحٌ تَبَدَّلَت فيهِ كلّ الأشياء، واستفاقتِ الأرواح على أجسادٍ بدأت تنفض عنها غبار أسبوعيْن من التعب والسُبات الجافّ في زوايا مُظْلِمة، وبحثت عن طريقةٍ تُخْفي بِها جُرْحًا خَلَّفَتْهُ آخِرُ مُواجَهةٍ أو بقايا تَوَعُّكٍ لم تُسْعِفْهُ حَبّات الأكامول. بدأَ المشهد بالتحوُّل وأنا على سريري أتفاجأ وأُذْهَل من سرعة ما يطرأ من تغيّرات وجديد أفعال، وعجزي عن متابعة تفاصيل كلّ فعلٍ في زحمة ما يحدث.. عشرة أرواحٍ غَزِّيَّة بَحْرِيَّة سَمَّرَت بَشَرَتَها مُلوحةُ الماء وبُطْء الشمس في مُرورِها على أوجاع قطاعٍ اكْتَظّ، عشرة أرواحٍ نامت نصف ليلةٍ وأَشْعَلَ انتظار الصباح نِصْفَها الباقي، أرواحٍ صَلّت لكلِّ سماءٍ تأخَّرت في نَوْمِها أو بَكَّرَت كثيرًا في صحوِها، عَلَّها تُرافِقُ وتحرس حافِلاتٍ حملت في بُطونِها حنينَ طفولةٍ شاخت ورائحة بَحْرٍ خَبَّأَتْها الأخواتُ في مناديلَ صغيرة، حافلاتٍ حملت دعاءً أخيرًا خَبَّأَتْهُ الأمُّهاتُ عن باقي أبنائِها وقامت قبل الشمس بساعَتَيْن ودَثَّرَتْهُ عميقًا في أثوابِها تأكَّدت مِنْهُ مَرَّةً ثانيةً وأضافت عليه بَعْضَ كلامِ الرجاء، تأكَّدت منه

ثالثةً وتَرَجَّت أكثر. حملتِ الحافلات أيضًا أطفالًا يَئِسوا من الوُقوفِ ساعاتٍ أمامَ صورةٍ تَعَلَّقَت على جِدارِ البَيْتِ، صورةٍ خَرْساء لَيْسَ في سُكوتِها ما يَشْفي غَليلًا، أو يُطْعِمُ جوعًا، أو يجيبُ على أسئلة الغياب.

بَقيتُ على مُشاهَدَتي لما يحدث في ذلك الصباح الغريب.. أرواحٌ مُصْطَفَّةٌ أمامَ مِرآةٍ وحيدة ازدحمت بالوجوه، هَذا يَحْلِقُ وذاكَ يتأكَّد من وجهه بعدَ الحِلاقةِ، وثالث يحاولُ إيقافَ نَزيفٍ صَغيرٍ سَبَّبَتْهُ حِلاقةٌ مُسْرِعة، وآخَرُ يحثّهم جميعهم على الإسراع بعدَ أن ضاقَ وجهه من واسع الانتظار. تحوَّلت وجهة الأرواح إلى غرفة الاستحمام بعدَ أن انتهى معظمها من حِلاقَتِه، جلست كلّ روحٍ على سريرها برفقة كيلومتراتٍ من التوتُّر والتَرَقُّب وملابس غُسِلَت بعنايةٍ فائقة، نعيمًا بعدَ كلِّ استحمامٍ تتبعها ملاحظةٌ عن إمكانيَّة الإسراع أكثر، ازدحامٌ جديدٌ أمامَ المرآة تسريحُ شعرٍ ونظرةٌ أخيرة للتأكُّد من الحِلاقة، ترطيبٌ للوجه بكولونيا حارقة كبديل للعِطْر، تعليقاتٌ وملاحظاتٌ مُتَبادَلة عن جهوزيَّة كُلِّ روحٍ يتبع بعضها زيارةً أخيرة للمرآة أو لحقيبة الملابس. أحدهم يعدّ قهوةً جديدة ويحرق معها بضعَ دقائقَ أرهقت أعصابه، رائحة السجائر المشتعلة تملأ الغرفة وكذلك موجات الدخان، أسئلة متكرِّرة حولَ أسباب تأخُّر قوائم الأسماء للزائرين، ولا جوابٌ يريح السائلين. الساعة العاشرة صباحًا وصلتِ القوائم بعدَ أن استجابت آلِهة السفر المتوسِّط لدعوات أرواحٍ لَيْلِيَّةٍ صَلَّت حتى تعبتْ، حتى نامت.

مَرَّ أسبوعٌ كامِلٌ حتى جاءَ ليلٌ فيهِ صَلَّيْتُ حتى نِمْت. صباحُ

استحمام وقهوةٌ ودخانُ سيجارةٍ ظَلَّ يَطوفُ سَقْفَ الغُرْفَةِ بِلا تَوَقُّف، واسْتِجابةُ آلِهَةِ السفرِ الطَويلِ لِلَيْلَةٍ أَثْقَلْتُها بالدعاء والرجاء وصلوات الوصول لِحافلاتٍ جاءت مِن ضِفَّةٍ بِلا نَهْر يحملُ اسمَها، وَتَخَطَّت حَواجِزَ عَسْكَرِيَّةً كانت في حينِها قليلةً وَسَهْلَةَ الاجْتِيازِ. حَمَلَتِ الحافِلاتُ أمَّهاتٍ وزوجاتٍ وأطفالًا وأخوةً وأخواتٍ وجدَّاتٍ وآباء وأجدادًا، وأصدقاءَ وصديقات وفي أحيانٍ نادرة أحبَّاء وحبيبات.. حافلاتٍ حملت أخبارًا وحكايات أشواقًا وعِتابًا وطول غياب، حملت يأسًا وضيقًا ظَلَّ على حالِه، حملت فصولًا أربعة من الثياب وعُسْرًا في الحال، حملت وجدانًا وسافرت بِهِ أوَّل الفجر، وعَرَّجَت بِهِ على مَساقِطِ رأسِه أو ما بَقِيَ منها من أطلال بُيوتٍ ومقابر كانت ليسَ ببعيدٍ مساكنَ أحيائِه ومَوْتاه. وانتقلت به عبر بوَّابةٍ زمنيَّة فصلت بينَه وبينَ أطلاله تلك لتجمع لساعاتٍ قليلة بينَ زمانَيْن ثقافيَّيْن فَرَّقَت بينَهُما نكبَتان. ليسَ من جغرافيا للذاكرة وإلَّا كانت تَجَمَّدَت في مكانِها. إنَّ القطيعةَ زمانيَّةٌ في طبيعَتِها وكذلك هيَ الذاكرة، ونحنُ حينَ نعود إلى أوجاعِنا لا تعنينا جغرافيَّةُ الوجع بل زمانيَّتُه، ويمكن له من ناحيتنا أن يحدث على كوكبٍ آخر في عَوْدِنا إليه، وقد يتقلَّب المكان ويلبس الوجع تضاريسَ جديدة لا يعرفها ولا يألفها، ولكن يظلّ زمانه واقِفًا على حالِه. ليسَ في أعوام نكبَتِنا إلَّا زمانيَّات أوجاعِنا، ويمكن للوجع أن يضرب جُذورَهُ في أيِّ جغرافية نُفِيَ إليها ويبقى زمانُهُ حاضِرًا فيه.

وصلتِ الحافلات بينَ أوجاعٍ كثيرةٍ حتى وصلت إلى وجعٍ متأخِّرٍ أخير. نزلَ الأطفالُ أوَّلًا وتأخَّرتِ الأمَّهات والجدَّات

وتأخَّرت أكثر زَوْجاتٌ جَلَسْنَ في المقعد الأخير ورُحْنَ، على مرآةٍ صغيرة، يتأكَّدنَ من وجوههنَّ في غفلةٍ عن الأطفال وأمَّهات الأزواج. تقسيمٌ إلى مجموعاتٍ بما يتناسب وعدد المقاعد في غرفة الزيارة، دخولٌ إلى غرفة تفتيشٍ صغيرة ومُضاءةٍ جيِّدًا، منها للرجال وأخرى للسيِّدات، وعبورٌ لن يُؤتى على ذكرِه في الساعات القادمة.. المجموعة الأولى على مقاعدِها داخل غرفة الزيارة ودقائق انتظارٍ أخيرة.

فنجانُ قهوةٍ وسيجارة رافَقا دقائق انتظاري الأخيرة في غرفَتي، بابٌ يُفْتَح ونزولٌ لا يستمرّ طويلًا برِفْقة الحُرّاس الجنود. غرفة تفتيشٍ وتفاصيل عبورٍ لا تختلف كثيرًا عن تلك في الجهة المُقابِلة، دخولٌ إلى غرفة الزيارة، وبحثٌ دقيق في الوجوه على مقاعدِها، مربَّعاتٌ صغيرةٌ من الحديد تكفي لأنصاف أصابع وأطراف قُبَل، وخلفَها جلست أُمِّي ومن رافَقَها من قُرْبى الدم.. مرحبًا يا حبيبي، كيف حالك يمّا إن شاء الله منيح؟ أطراف قُبُلات، أصابع تعانقت داخل مربَّعات الحديد الضيِّقة.. اشتقتلَّك يمَّا، كيف أنت؟ إن شاء الله منيح وصحَّتك كويِّسة؟ عادت أمِّي تسألُ واثقةً من قدراتي على الكذب، ما كانت أمِّي لِتَنْجو من إجابةٍ صادقة واحدة لأيٍّ من سؤالاتِها. هذه كذبات أُتْقِنُها جيِّدًا وذاك تصديقٌ أنجت به أُمّي روحَها. تَشُدُّ أمِّي على أطراف أصابعي بما يُشْبِهُ التَعَلُّق وتارةً تُقَبِّلُها، إن شاء الله منيح يمَّا وصحَّتك كويِّسة؟ ليش ضعفان يمَّا؟ أخوك اشترى لك بلوزة جديدة وبيسلِّم عليك.. أفطرت يمَّا ولَّا جاي على لحم بطنك؟ أختك مبارح طبخت ورق عنب إلِّي بتحبّه، واشتهت تكون عندها

زيّ زمان، ولادها جنَّنوها يمَّا، عينيك تعبانات، ليش بتنامش يا حبيبي! وتشدّ على أصابعي أكثر وتُقَبِّلُها من جديد. تركت أمِّي مربَّعات الحديد من أجل أطراف أصابعَ أخرى جاءت تُعانِقُ وشفاهٍ جاءت تُقَبِّل.

وقفَ أبي بعيدًا حتى انتهى عناقُ جميع من حضر، يكره أبي كثرة الحديث، عانقَ أصابعي سريعًا وسألَ عن سَلامَتي، وتجاهلَ رغبَتي في بقائِهِ قريبًا وفي عِناقِ أصابعه طويلًا، هكذا أجابَ أبي على تجاهُلي نصائحَ كثيرةٍ رأى فيها نَجاتي وَنَجاتَهُ. لم يُصَدِّقْ أبي يَوْمًا قُدْرَةَ آلهةِ الكَذِب على تَخْليصِهِ مِن أَوْجاعِهِ، على الرَّغم من أنَّه لم يَمْنَعْني يومًا عن تصديقي لها أو يردعني عن ممارساتٍ خافَ عَلَيَّ من عواقِبِها. عادَ أبي إلى وقوفه البعيد والصامت والمتوجِّع، واحتَلَّتِ المربَّعاتِ الصغيرةَ أطرافُ أصابع أخرى لأُخْتٍ اشتاقت (كَزْدوراتٍ) لَيْلِيَّة، وذِراعٌ تأبَّطَتْها خشيةَ انزلاق أو سقوط، وأخٌ أصغر رأى فِيَّ إلٰهًا تَمَنَّاه لنَفْسِه حتى كَبرَ، وراحَ يبحث عن آلِهةٍ أخرى لا تُفارِقُهُ حينَ الحاجة وتظلّ ساعةَ السؤال.

أنا بخير وصحَّتي جيِّدة، وأنام ملءَ عينيَّ، وآكل حتى تُخْمَتي. أُصَلِّي حاضرًا ثابتًا خاشِعًا، تنامُ إلى جَنْبي لَيْلًا أجملُ نساء القَبيلة، وأفيقُ مع رفيقاتِها. أكتب كلّ يوم قصيدةَ عِشْقٍ متفائِلة، لا تَهُمُّني خِطْبةُ مُتَجاهِلَتي لِرَجُلٍ كَرِهْتُه، لن يطولَ انتظارُكِ يَمَّا وأنا أقرب إليكِ من خَوْفِك عَلَيَّ، أفهم احتجاجَكَ يا أبي، لَنا كَزْدوراتٌ كثيرةٌ قادمة يا أُخْتاه فلا تبحثي عن رفيقٍ آخر. وكِذْباتٌ أخرى كثيرة يُحِبُّ زُوّاري تصديقَها، كذباتٌ غَزَلْتُها بينَ الصلاة والأخرى وبينَ دعائي وتسبيحي، بينَ أوَّل فنجان قهوةٍ

وآخر سيجارةٍ أحرَقْتُها هَذا الصباح. ثلاثة أرباع ساعة لَبِسَ فيها كلّ زُوَّاري وجوهًا خاليةً من التعب وأجسادًا لم تُنْتَهَك في ذلك العُبور المسكوت عنهُ في غرفة التفتيش؛ وهكذا فعلتُ أنا، ورُحْنا جميعًا نُمارِسُ أدوارًا حَفِظْناها جَيِّدًا، وراجَعْنا تفاصيلَها مرَّاتٍ ومرَّات فلا تسقط منَّا عبارةٌ أو حركةٌ تُسَلِّمُ أو تكشف كِذْباتِنا.. لكنَّها أيضًا ثلاثةُ أرباع ساعة يصبح فيها الأسيرُ / الأسيرةُ أبًا أو أخًا أو أُخْتًا، أُمًّا بنتًا أو زوجة، حبيبًا أو حبيبة؛ ثلاثة أرباع ساعة تُذَكِّرُكَ بكلِّ ما تخشى نسيانَهُ، وتزرعُكَ عميقًا في حاضر مَنْ تُحِبّ، وترفع من درجات إيمانِك، وتزيد في عدد ما تُصَدِّق من رواياتٍ سَماويَّة، وتُهْديكَ إطلالةً على ربيعِك الذي تَجَمَّدَ في عُيونِ زُوّارِك، وتُبْعِدُ عنكَ أشباحَ خريفٍ لا يَنْفَكُّ يُلاحِقُك؛ ثلاثة أرباع ساعة تُصَدِّقُ فيها كلّ كلمات الحُبّ ويرقص قلبُك على أنغام أغاني أُمِّكَ القديمة؛ ثلاثة أرباع ساعة تسقط فيها عنكَ كلّ دِفاعاتِك، فلا شيءَ يُهَدِّدُك في حضرةِ أربابِكَ كلّهم؛ ثلاثة أرباع ساعة تهبط فيها عن جِدارِك، ولا يهمّك أيُّ أرضٍ تستقبل ارتطامَ عِظامِك؛ ثلاثةُ أرباع ساعة يغيب عنكَ الزمان والمكان ولا يحضر فيكَ إلَّا أنت، تنتفي فيكَ كُلُّ الوُجودات، ولا يظلّ سِوى مربَّعٍ حديديٍّ صغير واحتراقِ أصابع بعدَ كُلِّ عِناق، وتغفر لعينيْكَ خطيئة البكاء وتسامح أطرافَكَ إذا خانَتْكَ أَوَّلَ اللقاء؛ ثلاثة أرباع ساعة تُعَظِّمُ فيكَ تَخَلّيك، وتُعَزّيكَ إذا أنتَ تَمَسَّكْتَ؛ ثلاثة أرباع ساعة تُعيد إليكَ أشياءَكَ كُلَّها، وتستعيدُها آخر اللقاء.

قاربت الزيارة على الانتهاء، هَذا ما بَشَّرَت به حركات الحُرّاس حَوْلَنا وما أثاروهُ من جَلَبة. فوضى عَمَّت في الجهة

المُقابِلة لمربَّعات الحديد. الكُلّ يُزاحم لأجلِ عِناقٍ أخير، أمَّهاتٌ تَشَبَّثَت بأصابع أبنائِها ترفض تحريرَها. من يدري؟ فقد يكون عِناقُها الأخير! علامات ارتياح تظهر على وجوه الأطفال، فبعدَ دقائق قليلة سينتهي هذا المشهد العجيب، ويعودون إلى ألعابٍ يفهمونَ تَفاصيلَها جيِّدًا، وإلى وجوهٍ مألوفةٍ على خِلاف هذا الوجه الغريب الذي تَوَزَّعَ على مربَّعاتٍ صغيرة عَجِزوا عن تركيبِها في صورةٍ واحدةٍ كاملةِ المَلامِح. أبٌ يتوسَّل قُبْلةً أخيرة من ابنٍ اختبأَ خلفَ ثَوْبِ أُمِّه ليتساءل عمَّا يريده هذا الرجل ذو الوجه الحديديِّ المربَّع. مُراهِقةٌ ارتدت ما يزيد عن حاجَتِها من ثيابٍ تُخْفي تحتَها ما نَما على جسدِها من ثمارٍ مُحَرَّمة، وأبٌ صارَ يتردَّد في تقبيلِها مُوَدِّعًا. زوجةٌ قبلَ أربعينِها استغلَّت فوضى ما يحدث لتسرق طرفَ قُبْلةٍ أو أكثر تُطْفِئُ فيها ما يُشْعِلُهُ كُلّ ليلةٍ نصفُ سريرِها الفارغ.

وصايا أمِّي قبلَ تحريرِها أصابِعي: نام منيح وكُلْ كويِّس يمَّا وتخافش علينا، إحنا مناح ومش ناقصنا إلَّا إنَّك تكون بينّا، حبيبي يمَّا دير بالك على حالك يا حبيب عمري.. هكذا تَدْعوني أُمّي بِحَبيبِ عُمْرِها، ثم تُحَرِّرُني فأعانق ما تَبَقَّى من زُوَّاري بما خَلَّفَتْهُ لي من أصابع. أبي على وقفتِه تلك يظلّ أخيرًا، ويعانِقُ باردًا وَيُفارِقُ متوجِّعًا. يبدأ الأهل بمغادرة غرفة الزيارة، أجسادٌ تتقدَّم وعيونٌ تأخَّرتْ. أصابعي لا تزال على اختناقِها في مربَّعاتِها الصغيرة، آخر ما أراهُ طَرَفُ ثَوْبِ أُمّي. سكوتٌ يُخَيِّمُ على المكان، أشباهُ ابتساماتٍ وبقيَّة بُكاء، وجوهٌ حائرة تنظر إلى السقف ورؤوسٌ غارقة في يَدَيْها، أكياسٌ بلاستيكيَّة فيها ملابس امتلأت برائحة من كانوا هُنا. ثلاثة أرباع ساعة منتهية، هَذا ما

ظَلَّ يملأ المكان، حتى عادت أصوات الحرَّاس من جديد، وعَوْد على خُطى سابقة انتهت بي على سريري، أغرقُ في أخبار وأحداث الزيارة قليلًا، ثم أدفن ثلاثة أرباع الساعة في مكانٍ لا أَصِلُ إليه، وبعدَها أبدأ بترتيب أشيائي كما كانت قبلَها: جداري حديث الأرواح في أمور الدنيا وبعض كلام الآخرة، أوَّل ساعة شمسٍ قادمة وَخَرْبَشاتي على الجدار.

ظَلَّتِ الأرواحُ في المعتقلات على انْشِغالاتِها واهتماماتِها الداخليَّة وتلك الخارجيَّة في ظلِّ أجواء تُبَشِّرُ بمُنْعَطَفاتٍ حادَّة على صعيد روايَتِهم، تراقب كلّ ما يحدث عن كَثَب في ساحات فلسطين وفي الساحات الدوليَّة، وأثر ذلك على حالةِ المَوْت البطيء التي أصابت ثَوْرَتَهم، حتى فاجأَ الفلسطينيُّون العالم بما أَعَدُّوه من وجبةٍ سياسيَّةٍ دَسِمة في مطاعم ميشلين أوروبيَّة.

أوسلو

في عالم وحيد القُطْب وعلى مدخل تسعينيَّة القَرْن الماضي اجتمعت كُلُّ قُوى الظَلام والنور وحاكت ما استطاعَت من مُؤامَرات، تُسانِدُها مركزيَّاتٌ إقليميَّة وأشباهُ دُوَل وَدُوَيْلات وجماعات محلِّيَّة من أجل إطفاء شرارة. كان هَذا ما فَعَلَتْهُ آلِهة الحِجارة، أطلقت شرارة إيمانٍ وتصديقٍ بِأَنَّ الأشياء مُمْكِنة إِنْ أَرَدْنا لَها أن تكون، فقاتَلَت وحاربت حُروبَها الصغيرة، قُتِلَت ودُفِنَت أو لم تُدْفَن، لوحِقَت وطورِدَت وَكُبِّلَت بالحديد، وغُيِّبَت في أكثر من قاعٍ وكثير سُقوف. وَقَّعَ بَعْضُ مُمَثِّلي الشعب الفلسطينيّ في أيلول 1993 اتِّفاقًا مَرْحَلِيًّا ـ أوسلو ـ مع دولة الاحتلال. قامتِ المُعْتَقَلات ولم تَقْعُدْ بينَ مُؤَيِّدٍ ومُعارِض وتَحَوَّلَت إلى ساحات سِجالٍ سياسيٍّ وندوات تحليلٍ عُقِدَت داخل الغُرَف الضَيِّقة استمرَّت شُهورًا. حياةٌ من نوعٍ آخر دَبَّت في الأقسام والغُرَف داخل جميع المُعْتَقَلات، وبذلَ قادة الأَسْرى مَجْهوداتٍ كبيرة في تبرير وتفسير وتحليل الحَدَث الجَلَل. بدأت تفاصيلُ الاتِّفاق ترشح تدريجيًّا، ولم يكُنْ فيها ما يشبه آلِهة

الكَذِب أو كَذِباتها، عَلَتِ الأصوات المُعارِضة للاتِّفاق، تَفَرَّقَت آلِهة الكَذِب في أكثر من اتِّجاه، سادَ التوتُّر في المُعْتَقَلات وبدأَ سِباقٌ مَحْموم على تفاصيل الرواية وحقوق الرُواة.

لا يَفِلّ الكَذِباتِ إلَّا كَذِباتٌ أكبر منها. لم يكنْ في جُعْبة أصحاب أوسلو سِوى كَذِباتٍ صغيرة عن رِوايةٍ مَجْزوءة، ورُواةٍ لم يُصَدِّقوا حتى النهاية ما في روايَتِهم من جميلِ كَذِبات، جاؤوا على ظهورِ خُيولٍ سوداء لا تُشْبِهُنا، وخطواتها أقصر من أنفاسِنا جاؤوا يلبسون بزَّاتٍ عسكريَّة توقَّفت قبلَ ألفِ عامٍ عن القِتال، وأخرى مدنيَّة لا تصلح لصانع أو لفَلَّاح، جاؤوا بمنظوماتٍ أخلاقيَّة واجتماعيَّة شبه قَبَليَّة؛ جاؤوا بمدنيَّةٍ لا مدينةٍ تُلائِمُ حَداثَتَها جاؤوا ليبقوا في شعبٍ كانَ جَهَّزَ كُلَّ حقائِبِهِ للرحيل؛ جاؤوا بأغانٍ لا بَحْرَ فيها خشيةَ الغَرَق؛ جاؤوا بقصائدَ كثيرةٍ عن السلام وذكريات حُروب؛ جاؤوا بخرائطَ غابت عنها عَروسُ البَحْر وقاهرةُ نابليون وطريق المَيِّتين إلى السماء، وغياب كثير آخر؛ جاؤوا يُحْيون تراثًا على أطلال آخر تَعَقَّدَت وتَقادَمَت شعبيَّة ما فيهِ من رقصاتٍ وأغانٍ. كانوا أشباه آلِهةٍ سكنت شبيهات أَساطير، وَرَوَت أشباه كَذِباتٍ صَدَّقَتْها شِبْه تصديق، ورسمت أشباهَ خرائط لأشباه مناطق.

ما كانَ لجموع الأَسْرى أن تنجو بِلا كَذِبات تُصَدِّقُها، تَمَسَّكَ بعضُهم بِروايَتِه القديمة، وأعادوا كتابَتَها بحُروفٍ أكبر ورَووها بصُراخٍ أعلى كي لا يغيبوا عن المشهد، خَوَّنوا تارةً وكَفَّروا في أخرى، رَشَقوا آلِهةَ الباطل بأحجار سبعين، ونزعوا عنها قُدْسِيَّةَ ما تقول وشرعيَّة ما خَطَّطَتْهُ من أفعال، تَعَلَّقوا على جدرانهم

وانتَظَروا، صَلَّوا وصاموا ودَعوا رَبَّهم الأَوْحَد نجاةً قريبة، بعض أَسْرى آخرين خَوَّنوا وكَذَّبوا، لم يُكَفِّروا فلا جَهَنَّمَ يُصَدِّقونَها تَعَلَّقوا على جدرانهم وانْتَظَروا، وتَمَنَّوا حَظًّا يُصيبُهم من حُصَّةِ ما كَذَّبوا وَخَوَّنوا. شريحةٌ كبيرة وأخيرة من الأَسْرى أرادت أن تُصَدِّق، تَعَلَّقوا على جدرانِهم وانْتَظَروا، بعضهم صلَّى وصام وآخرون لم يفعلوا واكتفوا بالانتظار والتَعَلُّق، وتبرير بدايةٍ جديدة بمفرداتٍ قديمة لا يزالون يحفظونَها وَزَيَّنَت جدرانَهم.

لا تُولَد أسطورةٌ جديدة إلَّا إذا ماتت قديمة، أو قُتِلَت وسقطت كَذِباتُها عن كُلِّ الجدران، فلا أثرٌ يُذَكِّرُ بِها أو يُحَدِّثُ عنها، وعلى أطلالِها شَيَّدَ الرواة الجُدُد صَرْحًا حديثًا يَتَّسِعُ لهم جميعًا. لكي تموتَ أسطورةٌ أو تُقْتَل يحتاج الأمر إلى أسطورةٍ تَفوقُها سَطْوَةً وكَذِبًا، أي كَذِبةً أكبر وأَشَدّ سطوةً من فلسطين الرِباط، فلسطين الحَشْد والبَعْث، فلسطين الله وفلسطين الأنبياء فلسطين الحجارة، فلسطين البحر والسماء، فلسطين الذاكرة والأسماء، فلسطين جداريَّة الرَبّ وكِتاباته الثلاث، فلسطين غَزَل الجارات لي واقتناص اللحظات، فلسطين أشباه الأشياء كلّها ولا شيءَ شبيهُها، فلسطين صَدْرُ البيت وعَجْزُه، فلسطين عِوَضي عن كُلِّ شيءٍ ولا شيءَ يُعَوِّضُها، فلسطين اختناق أبي عندَ زيارَتي فلسطين بكاء المُصَلِّين وتاركي الصلاة، فلسطين لا شمسَ تُطْفِئُها وفلسطين ظلّ السماء، وَخَرْبَشاتٍ أخرى كثيرة رُحْتُ أتأكَّد ثباتها على جداري وعلى جدران مُجاوِرةٍ كتبتها قبلي أو بعدي. لم يكنْ في الجدران ما يكفي من مساحاتٍ لرواية أخرى جديدة تحتاج لشروحاتٍ كثيرة، وتفسيراتٍ وتبريراتٍ أكثر، ونظريَّاتٍ قديمة عن

واقعيَّاتٍ سياسيَّة وظروفٍ إقليميَّة ودوليَّة، ما كانت خشونة الجدران لتحتمل انسيابيَّة ما فيها من أشباه خطابات.

كان في انتظار الأسرى الفلسطينيِّين شتاءٌ بارد، تَفَرَّقَت فيهِ قلوب، وتَهَدَّمت جدران على أنقاضِها شُيِّدَت أخرى جديدة جاهزة لاستقبال كَذِبات من نوعٍ جديد لأنبياءٍ قديمين غَيَّروا في رسالاتِهم وَبَدَّلوا من وَحْيِهم، إلى جانبها جدران ظَلَّت على دينِها القديم رافضةً لأيِّ تسوياتٍ متمسِّكة بكذباتها الأولى. شتاءٌ طويلٌ تَخَلَّلَتْهُ عمليَّاتُ هدمٍ وبناء، وأرواحٌ راحت تقرأ نصوصًا جديدة وتحفظها وتحفرها على جدرانِها وتُبَشِّرُ بوعوداتٍ عن نهاية التاريخ، وأرواحٌ أخرى قَرَّبت إليها نصوصها القديمة واحتمت في جدرانِها وتَعَلَّقَت أكثر. ضاقتِ الساحاتُ بأرواحِها وكذلك الأقسام والغُرَف، وما عادَ في ذلك الضيق مكانٌ لأكثر من رواية، تَفَرَّقَت آلِهة الكذب وهبطت من سمائِها وسكنت في صحرائِها، تنافرتِ الجدران وتَكَلَّمت بِلُغاتٍ شتَّى غريبةٍ عن بعضِها بعضًا، أصبحَ للفقر والجوع والظُلْم تَراجِمُ عديدة، صارَ للحرِّيَّة والتحرير وجهاتُ نظرٍ لا تُعَدّ ولا تُحْصى، تَبَلْبَلَت في الأرواح حاسَّة التاريخ والجغرافيا، تَبَدَّلَتِ القدسيَّات وحُلِّلَت مُحَرَّمات، دَقَّت طُبول السلام وتراجعتِ الحروب إلى كُهوفِها على المنابر وفي الخطاب امتلأَ الضيق بالأساطير قديمِها وجديدِها وتعدَّدتِ الروايات، تقاتَلَ الرُواة وقَدَّموا خصوماتِهم وَقَفَزوا قاصِدين عن كلِّ نِقاط الالتقاء المُمْكِنة، تجاهَلوا نكباتِهم، تجاهَلوا المُخَيَّم والقرية وأشباه المُدُن، تجاهَلوا احتضان الساحات لهم وصحبة المَقابر، تجاهلوا الأسوار والجدران والزنازين. بَقِيَ الأسرى على حالَتِهم تلك إلى

أن تَمَّ توقيع اتِّفاق القاهرة في أيّار 1994، لكي تشهد المُعْتَقَلات هَزَّةً جداريَّة من العِيار الثقيل.

شَهِدَ الأسرى في مُعْتَقَلاتِهم منذ العام 1967 فُرَص تحريرٍ عديدة، بَشَّرَت بعضهم بانعتاقٍ حَرَّرَهم، وتركت لباقي الأرواح صلاتَهم ودعاءهم لفرصةٍ أخرى قادمة تُنْهي مُعاناتِهم داخل الأسوار. عَمِلَت على خَلْق تلك الفُرَص أرواحٌ مَنْفِيَّة خارج جغرافيَّة الوطن، أرواحٌ مُقاتِلةٌ وعنيدة وصاحبة إيمانٍ وعقيدة أرواحٌ قَدَّمَتِ الإنسان وَقَدَّسَت حُرِّيَّتَهُ. عقدت فصائل المُقاوَمة أكثر من مرَّة صفقةَ تبادل أَسْرى على مدار العُقود الأخيرة، بدأتها في سبعينيَّات القرن الماضي بأكثر من صفقة حَرَّرَت أكثر من 150 أسيرًا فلسطينيًّا، تَلاها تبادُل أسرى عام 1983 الذي تَحَرَّرَ عن طريقه أكثر من 5 آلاف أسير فلسطينيّ، وتبادُل عام 1985 وتحريره 1150 أسيرًا فلسطينيًّا من أصل 2500 أسير. تَقَلَّصَ عدد الأسرى في المعتقلات الإسرائيليَّة إلى مئاتٍ قليلة حتى نهاية العام 1987 واندلاع انتفاضة الحجارة، حيث بدأت موجاتُ اعتقالٍ جماعيَّة ملأتِ المعتقلات بآلاف الأسرى الذين تجاوزت أعدادُهم بداية العام 1994 ـ 12 ألف أسير.

بدأت موجات الإفراج عن الأسرى بعد توقيع اتِّفاق أوسلو في أيلول 1993 حينَ تمَّ الإفراج عن الأسرى المَرْضى والأسرى الأطفال. توقَّفتِ الإفراجات حتى توقيع اتِّفاق القاهرة أيّار 1994 وعاشَ الأسرى بينَ أيلول وأيّار حالة تَرَقُّبٍ تبعت توقُّعاتٍ بالإفراج عنهم جميعًا أو جَدْوَلة إطلاق سراحهم على أقلِّ تقدير كجزءٍ من الاتِّفاقيَّات السياسيَّة المعقودة بينَ منظَّمة التحرير الفلسطينيَّة ودولة

الاحتلال. كانَ عِنادي قد سَبَّبَ في نَقْلي من غُرْفَتي إلى أخرى في قسم رقم 3. لم تَكُنْ تلك غرفة عاديَّةً بل كانت ورشة عملٍ امتلأت بأسرى ذوي أيدي ماهِرة أبدعوا في صنع مجسَّماتٍ للأماكن المُقَدَّسة ومعالم سياحيَّة، محلِّيَّة وعالميَّة مثل قبَّة الصخرة وبرج إيفل، مستخدمين موادَّ أوَّليَّة من الكرتون والخيطان وحبَّات الخرز الصغيرة والصمغ. عملتِ الأرواح طيلةَ النهار حتى إذا أُنْهِكَت أصابعها وانحنت ظهورها خلدت إلى نَوْمٍ ثقيل من التعب. أمَّا أنا فاكتفيتُ بالمساعدة في بعض تفاصيل عملِهم الصغيرة والخالية من التعقيد، ولم أبذلْ أيّ جُهْدٍ لمحاولة التَعَلُّم لما في صَنْعَتِهم من حِرَفِيَّةٍ ودِقَّة افتقرت لهما يَداي. اقتربَ أيَّار حتى صارَ على الأبواب، فتركتِ الأرواح الصانعة خيطانَها وغَزْلَها، وتَجَمَّدَت لأيَّام أمامَ شاشة التلفاز تتابعُ وتنتظر يومَ التوقيع على الاتِّفاق وهكذا فعلت بقيَّة الأرواح في بقيَّة الغُرَف، تَوَقَّفَتِ الحياة كما عَرَفْناها، وحَلَّقَتِ المعتقلات بمن فيها من أرواح وأشياء في منطقة وُسْطى بينَ الأرض والسماء، هبطوا منها في أحيانٍ مُتَباعِدة من أجل قضاء بعض الحاجات الأرضيَّة، أكلوا وشَرِبوا وغَسَلوا أجسادَهم ثم عادوا إليها من جديد، تَعَلَّقوا وانْتَظَروا، هبطوا ثانيةً وثالثةً، ناموا وُقوفًا، وَأَكَلوا لا جوعَ يدفعهم، تَفَرَّقوا عن جُدْرانِهم كأنْ لا جدران، تَوَقَّفوا عن أُحادِيَّتِهم المسائيَّة وعادوا إليها إذا انْتَصَفَ الليلُ، أَجَّلوا رواياتهم وما اختلفوا عليهِ من نصوص جَلَسوا على حافَّةِ أساطيرِهم ينتظرونَ سُقوطَهُمْ عنها، أَهْمَلوا جداريّاتِهم نَسوا تسبيحَهم والدُعاء، قاموا لَيْلَهم أَرَقًا وأشعلوا سَجائرَهُم، ناموا ثانيةً وَأَخَّروا صَباحاتِهم، أَخْرَجوا ألبومات الصُوَر وتأكَّدوا من

الوجوه فيها، خَبَّأوها من جديد، وفَتَّشوا في حَقائبِهِمْ عن مَلابِسَ جَديدةٍ وَفَّروها للزيارةِ القادمة.

وَصَلَ كبيرُ الرُواةِ إلى قاهرةِ مِصْر لِيُوَقِّعَ على وَثائِقَ وَخَرائِطَ عَجَزَ هُوَ عن تفسيرِها، وصلت أخبارُ عَجْزِهِ المُذَيَّل بتوقيعِه إلى الأرواح المُعَلَّقة في غُرَفِها داخِلَ المُعْتَقَلاتِ، غَفَرَ لَهُ بعضُهم عَجْزَهُ موقَّتًا وانتظروا، وصلت قَوائِمُ أَسْماءِ المُفْرَج عنهم التي كانت أُعِدَّت مُسْبَقًا تَنْتَظِرُ لَحْظَةَ التوقيع، نِداءاتٌ عبر مُكَبِّرات الصوت داخل المُعْتَقَل، على الجميع التزام الصمت لحين الانتهاء من تسمية المجموعة الأولى المُفْرَج عنها عبر المُكَبِّرات، صَمْت قُبور، مجموعة أسماء يُعْلَنُ عنها عبر مُكَبِّرات الصوت، حبستِ الأسماء المُعْلَنة أصواتَها داخل الغُرَف بل داخل حناجِرِها حبست فَرْحَتَها وحبست أنفاسَها. انتهى نداء المجموعة الأولى، قفزتِ الأسماء المُفْرَج عنها ورقصت وعانقت وَقَبَّلَت. بكت وَوَدَّعَتْ وارتدت جديدَ ثِيابِها، بكت وعانقت مَرَّةً أخيرة. أبوابٌ تُفْتَح أسماء تُغادِرُ جدرانَها، صَمْت قُبور، مجموعة أسماء ثانية، حبسٌ للأنفاس، نهاية النداء عبر المُكَبِّرات. رقصٌ وقَفْزٌ وعناقٌ وَتَقْبيل بكاءٌ ووداعٌ أخير، أبوابٌ تُفْتَح، أرواحٌ تُغادِرُ جدرانَها. وهكذا بَقيتُ وحيدًا، نَظَرْتُ حَوْلي، ثلاث عشرةَ روحًا لم يبقَ منها إلَّا أنفاسٌ أخيرة خَلَّفَتْها وراءَها، ورائحةٌ غريبةٌ ملأتِ المكان، رائحة الفراغ والصمت واللاشيء، أشباه أرواح وخيالات. نَظَرْتُ حولي ثانيةً، ملأت وجهي فَوْضى الروائح الّتي خَلَّفَتْها على وَجْهي قُبُلات المُوَدِّعين، غَسَلْتُ وجهي، غَسَلْتُه ثانيةً، ورُحْتُ أَعدّ وأُرَدِّدُ أسماءَ من كانوا هُنا، نسيتُ اسمًا أو أكثر، رَكَضْتُ إلى الباب

المُغْلَق، لا شيءَ يُسْمَع أو يُرى، صمت قُبور، عُدْتُ إلى سريري والتَصَقْتُ بالجدار.

أَيادٍ بيضاءُ وأخرى تلطَّخت بالدماء، هذا ما قرَّرهُ كبيرُ الرواة ووقَّع عليه، لا سلامَ أو نَجاة لمن أَمْعَنَ في رِوايَتِه وَعَمَّقَ في سَرْدِه، واسْتَلَّ يَدَهُ يقطع بِها سَيْفًا أَنْكَلَه. أسطورةٌ جديدةٌ لا مكانَ فيها لِآلِهةِ الحَرْب وخطاباتِها الثَوْرِيَّة، لا مكانَ فيها لجِراحات لا تلتئم وَكَذِباتٍ عَصِيَّة على التكذيب، أسطورةٌ باهتَة عن آلِهة سِلْم زَوَّرَت خِطابَها القديم. مَلَّت وتَعِبَت نَفْيَها، فَهَرَبَت إلى أَوَّلِ جغرافيا تُنْقِذُها.

عادَ أَسْرى الحروب وآلِهَتُها إلى جدرانِهم التي ظَلَّت على حالِها، ثابتةً، لا تَتَنَكَّر لأيِّ كتابةٍ حُفِرَت عليها، قابَلَت أرواحَها بأَذْرُعٍ مُشْرَّعة وَوُعوداتٍ بِطولِ مِشْوار. عادت الأرواح وتَجَمَّعَت وتركَت غُرَفًا عديدة فارغة إلَّا من أشباحِها، تَجَمَّعَت في غُرَفٍ قليلةٍ تنتظر أسرى حُروب آخرين بَدَأوا طريقَهم إليها بعدَ أن انتهى فيهم صمتُ قُبورِهم، وقَفَزَت عَنْ أحلامِهم قوائم الأسماء وسكتت عن أوجاعِهم مُكَبِّرات الصوت، وَتَغَلَّقَت في وُجوهِهم الأبواب. عادوا من منطقةٍ وُسْطى عَلِقوا فيها ولم تَأْبَهْ بما حاكوهُ من مُؤامَراتٍ عاطفيَّة وَعَدَتْهم بِها كَذِبًا. عادوا إلى الجِدار الثابِت الوحيد وَسَيِّد المَواقِف الإسمنتيَّة وطارد الوسطيَّات. عادوا إلى جدارٍ هُوَ أَوَّل الحكاية ونِصْفُها وآخِرُها.

لم أبقَ وَحْدي إلَّا بِضْعَ ساعاتٍ قبلَ أن يتمّ نَقْلي إلى قِسْم رقم 4، حيثُ اجتمعتِ الأرواح المَسْكوت عنها. جَلَسْنا طَويلًا بِلا كلماتٍ تُزْعِجُ وَجَعًا في أَوَّلِه ولا يَزالُ ساخِنًا.

خَوْف

«إنَّ المَقْبَرة التي تُمَثِّلُ مَوْضِعَ نِهايةِ الإنسان، تُمَثِّلُ مَوْضِعَ بِدايَةِ الآلِهة»

(فويرباخ، فيلسوفٌ ألمانيّ)

حينَ يصيرُ مَوْتُنا وَشيكًا، يكبر فينا خَوْفُنا من مجهولٍ يتربَّص بِنا، ولا يعود في تفاصيلِنا الأرضيَّة ما يُطَمئِنُ فينا هَواجِسَنا ومَخاوِفَنا، ويصبح وجودُنا بكلِّ ما فيه ذا صبغةٍ أو طبيعةٍ أُفُقِيَّة ما نعتقده وما نَشُكُّهُ وما نُفَكِّرُ بِه، ما شَيَّدْناهُ وَبَنَيْناهُ فينا وخارِجَنا، ما اعْتَقَدْناهُ صالِحًا وما بَطَلَ من أعمالِنا، مَشاعِرُنا وما نُحِسُّه وما فَشِلْنا في فَهْمِه وإدراكِ مَعانيه، مُرَبَّعاتُنا وما دَوَّرْناه وما أَبْقَيْناهُ على حالَتِهِ الأولى، من ملأَ قُلوبَنا ومَنْ غَوَّرَ في كَسْرِها، مَنْ أَحْبَبْنا ومَنْ أَغْلَقْنا في وُجوهِهم فُرَصَ اقْتِرابٍ أو مَوَدَّة، خُطى مَشَيْناها وأخرى قَصَّرَت من أعمارِنا، وما قُلْناهُ وما نُخْفيه وما زَوَّرْنا مِن كَلام، لا شَيْءَ في أُفُقِيّاتِنا يُنْقِذُنا من عَمودِيَّةِ المَوْت إلَّا إيمانٌ واثِقٌ وأكيد من حياةٍ تأتي بعدَه، والتصديق بإلٰهٍ أو آلِهةٍ رحيمة أَزَلِيَّةٍ لامتناهية، تمامًا كما تفعل الأجساد التي يَنْهَشُها البَرْد حينَ

تجتمع مُتَلاصِقةً حَوْلَ شعلة نارٍ أو لَهَب، يجتمع أبناء المَوْت حَوْلَ فكرة الأَزَليّ واللامُتَناهي مُتَمَسِّكين مُلْتَصِقيْن، ينهشهم خَوْفُهم من نهاياتٍ غير مَحْسوبة وما وراء نهاياتٍ لم يَحْسِبوا حِسابَها حينَ غَرِقوا في حياةٍ أُفُقِيَّة المَعاني والأغراض. يستحضر فينا الخَوْف كُلَّ أسئلة ما وراء وما بعد، ويكشف عن جَهْلِنا لِأَيٍّ من إجاباتِها، نهرب إلى أعلى وَنَقْفِزُ عموديًّا، ونرفع رُؤوسَنا وأَيْدِيَنا وننفصل عن أُفُقِيَّتِنا، نبحث عن شيءٍ أو أشياء نتعلَّق بِها فلا نَسْقُط رُجوعًا إلى جَهَنَّم الأسئلة والخَوْف، ولا ننظر إلى أسفل، فليسَ في القاعِ إلَّا القُبور وغيابٌ وانتهاء.

غَطَّت سماءَ مُعْتَقَل عسقلان غمامةٌ سوداءُ ظَلَّت طويلًا، وفي ظِلِّها كانَ على الأسرى أن يتنفَّسوا ويُعيدوا حِساباتِهم ويستعيدوا عَلاقاتِهم القديمة مع جدرانِهم، أو يُحَدِّدوا مَواقِفَهم من رِوايةٍ جديدة كانوا هُمْ أُولى ضَحاياها ولن يكونوا آخِرَها، خَرَجوا عن صَمْتِهم وبدأوا بجَلْدِ كُلٍّ من حَمَّلوه مسؤوليَّةَ بقائِهم في مُعتقلاتِهم، جَلَدوا بالشَّتْمِ والسَبيب وبالتَخْوين أحيانًا، تَجاوَزَ بَعْضُهم السَبّ والتَخْوين، وَزَرَعوا بأيديهم بُذورَ ظَنٍّ وَشَكٍّ في مُعْتَقَداتٍ كانت حتى الأمس ثابتةً ثَباتَ ما حُفِرَت عليه من جدران. كانت إيمانات الأسرى قد اهْتَزَّت حينَ تَخَلّوا ولو تَخَيُّلًا عن نِقاطِهم الثابتة، وَحَلَّقوا فَوْقَها داعينَ السماء هُبوطًا لا جِدارَ في استقبالِه، وراحوا يُداوونَ لُحومَهم من جراحاتٍ خَلَّفَتْها شِدَّة الالتصاق. رَقَصوا على موسيقى أغانٍ عاطفيَّةٍ عن حياة ما بعدَ الحَرْب وحياة ما وراءَ الجدار، واخْتاروا لِأَنْفُسِهم حَبيباتٍ مُراهِقات، يكتبون على أَوَّلِ أجسادِهِنَّ بداياتٍ تَأَخَّرَت أو تَعَطَّلَت

فيهم. صلّى الأسرى لإلٰهِ ما بَعْدَ الجدار، وظَلّوا على صَلاتِهم تِلْكَ حتى قَرَّرَ لهم كبيرُ الرواة أقدارًا غير التي صَلّوا من أجلِها. امتلأت قلوبُهم بالخَوْف، وتحوَّلت صَلَواتُهم من صَلاةِ هُروبٍ إلى الحياة إلى صَلاةِ هُروبٍ من المَوْت. نَظَروا إلى أَسْفَل داعينَ رَبَّ الجدران جدارًا ظَلَّ على حالِه وفي مكانِه. رأى الأسرى في عَوْدَتِهم إلى جدرانِهم مَوْتَهم الذي أَلِفوهُ مَرَّةً، خافوا ومِن خَوْفِهم تَوَلَّدَ إيمانٌ جديد بإلٰهٍ قديم وَعَدَهم مَرَّةً بحياةٍ أخرى ولا يزالُ على وَعْدِهِ لم يُخْلِف.

أَنْقَذَني جداري وأَنْقَذَ آلِهَتي كُلَّها، وَتَمَسَّكْتُ به جيِّدًا، ولم أتخلَّ ولو لساعة رأيتُ تيهَ ما أحاطَني من أرواح. زِدْتُ من تَمَسُّكي، دُفِنْتُ أقدارًا وَوُلِدْتُ أخرى وأنا على جداري لا أتحرَّك، غادرتِ الأرواحُ جدرانَها إلى سماءٍ اعتقدَتْها واسعةً لكنَّها ضاقت بهم. عادوا، وأنا على جداري لا أتحرَّك، أَنْقَذَني جداري حينَ تمسَّكتُ به وَأَنْقَذَني حينَ تَخَلَّت عنهُ بقيَّةُ الأرواح، أَنْقَذَني ثَباتي حينَ تحرَّكت كلّ الأشياء من حولي وظَلَّ هُوَ نقطَتي الثابتة ولم أُشَكِّكْ يومًا في قدرَتِهِ على تفسير واستيعاب حركة كلّ ما حولي. لم أبحث عن آلِهةٍ جديدة، فقد كان في جداري كلّ ما احْتَجْتُ إليه من إيمان. فقدَ الأسرى نقاطَهم الثابتة فتحرَّكوا مع أيِّ ريح أتت وفي أيِّ اتِّجاه كانت، وما عادوا قادرين على تفسير حركة ما حولَهم حتى صاروا جزءًا منها، وأصابهم دوار حركتِها وَفَقَدوا ثِقَتَهُمْ في رواية الأرض وما فيها من حتميَّات انتصار.

على جدارٍ قريب، تعلَّقت أرواحٌ أخرى لم تُصَدِّقْ منذُ البداية

أسطورة الأرض والجغرافيا، بل تَبَنَّت روايةَ السماء وأحاديثَ الأنبياء وما فيها من حتميَّاتٍ إيمانيَّة. لم تكنْ تلك الأرواحُ صاحبةَ روايةٍ تُشْبِهُها، بَل رأت في نفسها عناصرَ فاعلة في روايةٍ أُعِدَّت مُسْبَقًا فوقَ هذه الأرض وفي ما وراء سمائِها، لم يكتبوا سياقًا أو يُغَيِّروا في تَفاصيلَ أزعجتهم، لم تكنْ لهم كَذِبات يُصَدِّقونَها أو أنبياء يلعنونَهم إذا تأخَّرت وُعودُهُم، لم يكنْ في تاريخهم انتكاساتٌ وهزائمُ بَل محطَّاتٌ أو وقفاتٌ موقَّتة في طريقهم إلى نصرٍ إلٰهيٍّ قريب، لم تَعْنِهِم رواياتُ الآخرين وأساطيرُهم، وكَذَّبوا فيها أنبياءها وأشباه آلهةٍ تُمْضي نِصْفَ وَقْتِها في زِقاقٍ تأكل وتشرب وتنزف وتموت. أرواحٌ توافرت لديها كُلُّ الإجابات، فما عادت تُداعبُ شَكَّها الأسئلة. أرواحٌ نامت على مِخَدّاتٍ من يَقينٍ لا أرق يُعيق فيها صلاتَها في الفجر أو تسبيحاتِها ما قبلَ الصباح. وعلى الرَّغم من إيماني بضيق الإجابات وتقييدها وخُلُوِّها من الاحتمالات وفُرَص البحث ولهفة الطريق وتَمَنُّع الوصول، إلَّا أنِّي حَسَدْتُ تلك الأرواح مَرَّاتٍ عَديدةً حينَ غمرتني الأسئلة وَتُهْتُ في عَديدِ الاحتمال، حينَ نامت طَويلَ لَيْلِها وأنا على طَرَفِ نَوْمي لم أبدأ بَعْد، غِرْتُ من إلٰهِها الواحد واختصارات الطُرُق إليه، وغِرْتُ من قِصَص أنبيائِها وضمانات الشفاعة والخلاص، لكنَّ غيرَتي كانت دَوْمًا تنتهي عِنْدَ أوَّل سؤالٍ جديد يُعيدُني إلى أَوَّلِ الطريق. رأيتُ تلك الأرواح تتعلَّق على جدرانِها ليسَ إيمانًا به أو تصديقًا له، بل تكذيبًا بكلِّ ما سبقَهُ أو يأتي بعدَه، تعلَّقت به خَوْفًا منهُ وطمعًا فيه، وأزالت عنهُ كلّ خربشاتٍ جاهليَّة شَوَّهَت وجهَه، تركتِ الكتابة، كَسَرَت

أقلامَها وعانقت نَصًّا جاهزًا، وراحت تُنَفِّذُ وصيَّةَ رَبِّها الأوَّل والأوحد، اقرأ.

أمضيتُ ربيع العام 1994 وأنا على مشاهداتي تلك للمشهد العسقلانيّ وأرواحٌ حائرة تبحث عن دليلٍ يُبَرِّرُ وجودَها بعد انتهاء موجات الإفراج وتغليق الأبواب، وأرواحٌ أخرى سَلَّمَت بوجودِها القديم. بدأت سلطات الاحتلال بتسليم المدن الرئيسة في الضفَّة الغربيَّة للفلسطينيِّين لإدارتها، وشهدنا دخول قوَّات أَمْنٍ وَشُرْطَة فلسطينيَّة إليها. لا زِلْتُ أذكر دخولَها مدينة غزَّة، امتلأت عيناي بالبكاء وأنا المُشَكِّك والرافض، جلستُ أمام شاشة تِلْفازٍ صغيرة تَبُثُّ مَشاهِدَ تَكادُ تكون أسطوريَّة، بَكيتُ من التعب، بَكَيْتُ بُكاءَ مَنْ يريد أن يُصَدِّق وَلَوْ قليلًا كَذِباتِه، أو ربَّما كان ذلك بكاءَ الحالمين والخائفين على أحلامهم من أشباه صباحٍ تواطأَ واستعجلَ في قُدومِه! لكنِّي بكيتُ ولم يمنعني تشكيكي وتَعَلُّقي بروايتي الجداريَّة، ورفضي لمختصرات الطرق عن البكاء، بكيتُ من مشهد الناس في ساحات أشباه المدن وهيَ ترقص تصديقًا وتنثر الحلوى، وتستقبل رُواةً جُدُدًا لا تزال فيهم رائحتهم القديمة.

انتهى الربيع وجاء صيف بَشَّرَني بموعدٍ جديد مع وحشٍ حديديٍّ سيأخذني هذه المرَّة إلى مدينة نابلس المحتلَّة التي لم تَكُنْ سُلِّمَت بعد للفلسطينيِّين. افْتُتِحَ معتقل جنيد في العام 1984 في مدينة نابلس المحتلَّة، وابتلعت أقسامه طوال عقديْن من الزمن عشراتِ الآلاف من المعتقلين من أبناء الضفَّة الغربيَّة، ونبتت فيه قياداتُ وكوادرُ الحركة الوطنيَّة الفلسطينيَّة. شُيِّدَ المعتقل على

طرف المدينة مع إطلاله على حيّ رفيديا الهادئ وقليل الحركة. وصلتُ (جنيد) في آب، أمضيتُ أسابيعَ قليلةٍ في قسم رقم 3، ثم انتقلتُ إلى قسم رقم 7 المُطِلّ من جهته الشرقيَّة على حيّ رفيديا. موعدٌ جديدٌ مع شُبّاك حديدٍ أكبر وَذي إطلالة أجمل. لم تكنْ أحوال الأرواح في جنيد مختلفة عن تلك في عسقلان، ولكنَّها كانت أَشَدّ غَلَيانًا وأكثر وعيًا بما يطرأ على الساحة الفلسطينيَّة من أحداثٍ سياسيَّة، الأمر الذي فَسَّرَ لي لاحقًا ذلك الغليان الشديد والقابل للانفجار في أيِّ لحظة. كان للخوف في جنيد طبيعةٌ مختلفة كلِّيًا، خوفٌ قريب يكاد يحرق أطرافك إذا لامسته، خوفٌ مألوفٌ صادفتُه سابقًا، خوفٌ أعرفه ويعرفني، شيءٌ في مذاقه وفي رائحته الحادَّة التي تشبه رائحة الكحول ذَكَّرَني به. فَزِعْتُ من شعوري بالانتقال وتصديقي له.

لا يتمّ أو يتحقَّق الانتقال من جغرافيا إلى أخرى إلَّا إذا رافقه انتقالٌ أو تَحَوُّلٌ في الحالة الشعوريَّة، أي أنَّ الانتقال يحدث بين حالتيْن شعوريَّتيْن، أو بين زمانَيْن ثقافيَّيْن، لكلٍّ منهما مزاجه الخاصّ. لقد فرضَ الاحتلال الإسرائيليّ على الأرض المحتلَّة عام 1948 زمنًا ثقافيًّا مختلفًا عنه في تلك المحتلَّة عام 1967. على الأولى، شَيَّدَ دولَتَهُ التي لم يبخل عليها بكلِّ عناصر ومفردات الحداثة، سواء كان ذلك في نظامها السياسيّ وبُنْيَتها الاجتماعيَّة أو تخطيطها المدينيّ، بينَما أبقى على الأرض التي احتلَّها عام 1967 في حالة جمودٍ زمانيَّة، بالإضافة إلى عمليَّات سرقٍ ونهب لكلِّ الموارد الطبيعيَّة فيها. وَهَكَذا، نجحَ الاحتلال الإسرائيليّ في خلق زمانَيْن ثقافيَّيْن مختلفَيْن تمامًا على جغرافيا

واحدة صغيرة لم تحتمل ذلك المنسوب العالي من التَبايُنات، ثم راحَ يقدِّم للعالم نموذجيْن متناقضَيْن. قَدَّمَ في الأَوَّل نموذج الدولة الحديثة والمتنوِّرة وحاملة بِشارة الحداثة إلى جغرافيا شرق أوسطيَّة وجاهليَّة ومتوحِّشة وذات نزعاتٍ بربريَّة، وقَدَّمَ في الثاني نموذج الشعب المُتَخَلِّف والعنيف والرافض والعَصِيّ على التطوُّر والتحديث، والمنتمي إلى أُمَّةٍ وجغرافيا لا تقلّ عنه شراسةً ووحشيَّة. لم يكتفِ الاحتلال بعمليَّة التقسيم الزمانيّ للمكان، بل راحَ يُضْفي على الزمان والمكان صبغةً أيديولوجيَّة، واحدةٌ يُبَشِّر بها وثانيةٌ يخيف بها ويُنْذِرُ منها.

عاشت جغرافيا فلسطين نتيجة الأفعال الاحتلاليَّة تناقُضًا رئيسيًّا في هويَّتها وطبيعتها وثقافتها، في سمائِها وهوائِها ومناخها، في اللسان واللغة والوجدان. جغرافيا أراضي الـ 67 بلسانها العربيّ الثقيل ومائِها الشحيح وزراعَتها البدائيَّة وصناعاتها ما قَبْل الآليَّة، وتراتُبيَّاتها الاجتماعيَّة القَبَليَّة والعائليَّة، ومواردها الطبيعيَّة المسلوبة وفَقْرِها المُدْقِع. جغرافيا آخِذة بالتَقَلُّص في كلِّ ساعة نتيجةً لسياسات مصادرة الأراضي التي اتَّبعتها حكومات الاحتلال المتعاقبة؛ وفي مقابلها جغرافيا أراضي الـ 48 بلسانها العبريّ الغريب ووفرة الماء والأرض وزراعة متقدِّمة، وصناعات حديثة مؤسَّسة على تكنولوجيَّات عالية؛ كيانٌ سياسيّ يهوديّ ديموقراطيّ قائم على مبدأ المواطنة، وجغرافيا آخِذة بالتوسُّع كلّ ساعةٍ على حساب أراضي الضفَّة الغربيَّة، وشهيَّة سلب ومصادرة لا شيء يُشْبع جوعَها.

عاشَ الفلسطينيّ على أرضه بَلْبَلة الأزمنة في كلِّ مرَّة انتقلَ

فيها بينَ جغرافيَّتَيْن: جغرافيا يعرفها وتشبهه في كلِّ تفاصيلها المحبوسة داخل فُقّاعة زمنيَّة قديمة، تُغازِلُهُ وتتفهَّم قِلَّة حيلة موارده وتَعِدُه بما يكفيه لو اقتنعَ واكتفى، وتَعِدُه بأكثر لو تَمَرَّدَ وثأر وجغرافيا لا يعرفها ولا تشبهه في أيِّ تفصيلةٍ فيها، جغرافيا تقتله وتسرقه وتنفيه وتَعِدُه بأشباه ذلك لو اقتنعَ واكْتَفى، وتَعِدُه بأكثر لو فَكَّرَ في تمرُّدٍ أو في ثورة. ملكت دولة الاحتلال ما يكفيها ويزيد من ترسانةٍ عسكريَّة تَوَّجَتْها بقدراتٍ نوويَّة، وكانت تلك مفردات خطابها مقابل الفلسطينيّ ودول المحيط أو الطَوْق، وكان على الفلسطينيّ أن يتمسَّك بكلِّ آلهةٍ يعرفها وأخرى لا يصدِّقها، وأن يصنع من فقره ومن قلَّة حيلَتِه ومن تجاهل محيطه العربيّ أزمته. أسطورةٌ مقابلة لوحشٍ راحَ يكبر في أرضه حتى ابتلعَها. لم تكنْ مهمَّة الفلسطينيّ سهلةً مقابل خطابٍ قادرٍ على زعزعة إيماناته. لاحَقَهُ زمانه الموازي في كلِّ زاوية، يُصَدَّق حينًا ويُكَذَّب حينًا آخر، يرضخ ساعةً ويقاوم ضعفه في أخرى، يدعو الله شتاءً ماطرًا يسقي أرضًا ما عادت له، وتارةً يدعو انحباسه في سمائِه، يُصَلِّي غضبًا إلٰهيًّا يهدم ما عَمَّرَ الاحتلال على أرضه، ثم ينهي صلاته ثم يُبدي إعجابه في بديع ما شَيَّدوا وعَمَّروا. ينزع عن دولة الاحتلال شرعيَّتها وقانونيَّتها، وفي الوقت نفسه، تُثير إعجابه ديموقراطيَّتُها وسلطاتها المستقلَّة، يتَّهمها ويدينها ويُجَرِّمُها إذا نامت على سريره وأكلت عشاءَه وأفسدت حصاده، وَيَنْدَهِشُ من عجيب قُدْرَتِها.

يحاول الفلسطينيّ بكلِّ قُواه تجاوز هذا الشعور أو إقصاءَه عنه، وأن يدفع عنه هذا الإحساس المتسلِّل بزَمانيْن مُوازِيَيْن على جغرافيَّته لما في إحساسه من تسليمٍ لواقعٍ أليم يحمل خسرانه

الأكبر لزمانه وللمكان، يخضع في عديدٍ من الأحيان لعناصر خطابٍ غالت في قوَّتها وسلطتها وسيطرتها، ويعترف بغربته عن المكان الذي ما عادَ يذكر رائحتَه أو يُمَيِّزُها، ولا يلاحظ مروره البطيء أو يبالي إنْ تَوَقَّفَ مُسْتَذْكِرًا وباكيًا يلعن ذاكرة مكانٍ تَنَكَّرَت لِوَعْيها الباطن والعميق، وبَدَّلَت في إيمانها وآلهَتِها، يصدِّق انتقاله الفيزيائيّ والمَشاعِريّ بينَ جغرافيَّتَيْن، يحاول تكذيب تصديقه أو تجاهله، ولكن تفشل محاولاتُه في كلِّ مرَّة، وَيَجْلِدُ نفسه على تصديقه كَذِبات المكان وزمانيَّات أوجاعه لا تزال حاضرةً فيه. وفي أحيانٍ أخرى يَلْتَصِقُ بأسطورته وكذباتها، يرفع تمرُّده عاليًا لا خطاباتٍ مقابلة تنفذ إليه، بل خطابٌ قديمٌ وحيد يستعيد مفرداته القديمة ويعلن سيادته على المكان والزمان، جغرافيا واحدة مُتَزَمْكِنة وحالة شعوريَّة ظَلَّت على حالَتِها ساعةَ الانتقال والمرور. يصرخ عاليًا ومُدَوِّيًا كالذي يريد سماع صوته، يردِّد خطابه الثوريّ ويُضيف إليه بعض كلام الأحبَّة، يتجاهل تفاصيل المكان الجديد يُصغي جيِّدًا، ينظر قريبًا وينبش عميقًا في ذاكرته فيستحضر مكانه وزمانه، يصرخ عاليًا ثانيةً: أنا سيِّد هذا المكان، أنا البحر والشاطئ، وكسرات الموج، أنا السماء والهواء وما حملَ الطير أنا السهل والمرج وقُطْعان الحمام، أنا الرمل والكحل وعيون الماء، أنا الصخر أنا النسر، أنا الزهر، أنا النحل، أنا الحجل، أنا الوادي، أنا السهل، أنا الساحل وأنا شيخ الجبل.

فزعتُ من تصديقي انتقالي الشعوريّ حينَ وصولي معتقل جنيد، بَدا في التصديق خيانةٌ واستسلامٌ وتسليمٌ بكذبة الجغرافيا

ثنائيَّة الهويَّة والانتماء، ووهم الفروق الزمانيَّة والثقافيَّة بين مدينَتَيْ عسقلان ونابلس مع فواصل النكبات. فزعتُ من أُلْفَتي للهواء والرائحة واصْطِفاف البيوت وأصوات الجنود التي لا زالت تملأ أَزِقَّة المدينة، أَفْزَعَني شعوري بأنّي أعود إلى مكانٍ يُشبهُني على خِلاف غربة الأمس، لكنَّ فَزَعي لم يَدُمْ طويلًا فلم يفصلْني عن جداري ومُنْقِذيْ سوى بضع ساعاتٍ نهاريَّة انتهت وصِرْتُ بعدَها في جوار جداريَّتي، وشُبّاكٌ مُطِلٌّ على حيّ رفيديا، انتظرتُ قدوم الليل كي أتوحَّد أنا وجداري مع إطلالةٍ وَفَّرَها شبَّاكٌ متواضعٌ على امتداد سريري العلويّ. أعددتُ قَهْوَتي، وَتَرَبَّعْتُ على سريري أَسْتَقْبِلُ مساءً بدأَ يغطّي شوارع الحَيّ. كلّ شيءٍ بدا قريبًا إلَّا الوجوه بدت بعيدة.

انْتَظَرَت مدينةُ نابلس تسليمها للفلسطينيِّين من قِبَل سلطات الاحتلال التي ظلَّت تمارس سياساتِها القَمْعيَّة تجاه سكَّان المدينة. استطعنا من داخل بعض الغُرَف مراقبة مشاهد التنكيل والملاحَقات التي تعرَّضَ لها السكَّان من قِبَل جنود الاحتلال وكذلك الاستماع إلى أصوات إطلاق النار باتِّجاه المتظاهِرين. عاشت الأرواح داخل المعتقل أشهر تَرَقُّبٍ، تخلَّلتها موجات إفراج شبيهة بتلك التي شَهِدْتُها في معتقل عسقلان ولكن بأعدادٍ أقلّ، وتخلَّلها أيضًا إضرابٌ عن الطعام في أيَّار 1995 عَبَّرَ فيه الأسرى عن قراءةٍ واضحة للمشهد السياسيّ واتِّفاقاتٍ راحت تستثنيهم وتُؤَبِّدُ أوجاعَهم. وطالبوا قيادتهم الفلسطينيَّة بالتمسُّك بمبدأ الإفراج عن جميع الأسرى. انتهى الإضراب بعد ثمانية عشر يومًا بفِعْل تدخُّلاتٍ خارجيَّة وتفاعُلاتٍ داخليَّة، ودونَ تحقيق أيّ

نتيجة. الحركات الإسلاميَّة كانت قد امتنعت عن المشاركة في الإضراب بسبب رفضها المبدئيّ لاتِّفاقيَّة السلام. مضتِ الأشهر ثقيلةً على الأرواح في غُرَفِها وعلى جدرانِها وفي ظلِّ أخبارٍ عن اقتراب تسليم المدينة للفلسطينيِّين. عَبَّرَتِ الأرواحُ عن قلقِها على مصيرِها، وَصَدَّرَت رَسائلَ عديدة لأصحاب القرار في الجانب الفلسطينيّ، وأخفت مشاعر الخَوْف الشديد الذي اعتراها، لكنَّ الخَوْف ظَلَّ حاضرًا وشاهدًا ومتربِّصًا في كلِّ ناحيةٍ من زوايا المعتقل.

قرابة سنةٍ ونصف السنة سأقضيها على شُبّاكٍ تقابلُه عائلةٌ نابلسيَّة سكنت بيتًا صغيرًا قَسَّمَتْهُ مربَّعاتُ شُبَّاكي الحديديَّة إلى مئة قطعةٍ صغيرة وأكثر، لم تُبَدِّلْ أو تُغَيِّرْ في جماليَّة المشهد واكتماله. عِشْتُ مع العائلة تفاصيلَ حياتها اليوميَّة، صَحَوْتُ باكرًا معها راقبتُ أوَّل إضاءةٍ داخل البيت. وجهٌ نسائيٌّ عديم الملامح يضيء مطبخًا صغيرًا ويتحرَّك بخطواتٍ قصيرة، أضواءٌ أخرى تصحو في بقيَّة أنحاء المنزل، طفلان يخرجان من بوَّابته في طريقهما إلى المدرسة، أُمٌّ تَصْعَدُ سَقْفَ منزلها تَنْشُرُ غَسيلَ أمسِ تحتَ أَشِعَّةِ الشَمْسِ، هُدوءٌ يسودُ البَيْتَ ولا حراكٌ يُزْعِجُهُ. أتركُ شُبَّاكي لأفعالي اليوميَّة الاعتياديَّة، ثم أعود إلى شبَّاكي ثانيةً، أرواحٌ فتيَّة في شوارع الحَيّ تُلاحِقُها مركباتٌ عسكريَّة، ومشاهدُ عديدة أخرى أعادت إلى ذاكرَتي تفاصيل أسطورةٍ غِبْتُ عن مفرداتها أكثر من عامَيْن، أنتظر قُدوم المساء واجتماع عناصر المنزل من جديد أظلّ معهم حتى انْطِفاء آخر ضوءٍ في المنزل. شاركتُ الأطفال ألعابَهم وجلستُ مع العائلة على مائدة العشاء، واستقبلتُ معهم ضيوفهم

حتى ثقيلي الظلّ منهم، واسْتَمْتَعْتُ وَإِيَّاهُم بأوَّل مذاق العنب وثِمارٍ أخرى زَيَّنَت شجراتُها مقدِّمة المنزل وجزْءًا من ساحَته الخلفيَّة. عِشْتُ معهم خَوْفَهم في كلِّ مرَّةٍ اقتربَ فيها الجنود من سور المنزل، وَتَنَفَّسْتُ صعداءهم بعدَ أن رحلوا، أسقطتُ على أرواح المنزل أسماءها وصفاتِها. ما تحبّ وما تكره، ما تقوله من نكاتٍ بريئة على طاولة الإفطار، ما تلبسه أوَّل أيَّام العيد وألوان الستائر في صالة المنزل، ما يقوله الزوج لزوجته وما تصدِّق من أقواله وما كَذَّبَت. بقيتُ على أفعالي هذه طوال فترة إقامَتي في معتقل جنيد، أنا وعائلتي الصغيرة تُفَرِّقُ بينَنا بعض التفاصيل اليوميَّة التي تنتهي دومًا أوَّل المساء لأعود إليها مشتاقًا، حتى جاءَ تشرين ليكتب سِفر خروجٍ جديد لا يزال على كتابته حتى يومي هَذا.

تشرين أوَّل 1995، موعد تسليم المدينة للفلسطينيِّين وخروج قوَّات الاحتلال منها، لكنَّها ستخرج برفقة قافلةٍ طويلةٍ من الوحوش الحديديَّة امتلأت بطونُها بأرواحٍ مَغْدورةٍ ومَنسِيَّة، ولا صوت لأوجاعِها. موعد انتهاء أسطورة، وسقوط ملائكة وبطلان آلهةٍ عديدة، موعدٌ مع روايةٍ تلفظ أنفاسها الأخيرة ولا شيء يُنْقِذُها، موعدٌ مع انتصار الزمان على المكان وأرواحٌ عادت تُصَدِّق كذبة الجغرافيا وتقسيماتها الزمانيَّة، وموعدٌ مع الخوف وأشباحُ نهاياتٍ وانقضاء شبيهة مدينةٍ عانقت أرواحها المحبوسة على أطرافها أشباهَ عِناق، ملأت مساءاتها رواياتٌ وأنصاف حقائق تَلَت عليها كلّ آيات التَمَسُّك، وَتَخَلَّت عنها ساعة اللقاء. فَتَّشَتِ الأرواح في حقائبها وعلى جدرانِه عن آلهةٍ تَلْتَصِق بها حينَ

خروجِها إلى تيهٍ جديد، خافت أكثر، فَتَّشَت ثانيةً في السُقوف وتحتَ الأَسِرَّة، هالَها مشهد النهاية وعَجْز الرواية القديمة، غابت عنها كَذِباتُها التي صَدَّقَتْ، وظَلَّ حاضرًا فيها موتُها الثقيل والقادم بِبُطْءٍ شديد، خافت وارتعبتْ، تَمَسَّكَت بِما وجدَتْهُ من آلِهة، آمَنَت وصَلَّت صَبْرًا وجَلَدًا يُنْجِيانِها، تَخَلَّت عن أُفُقِيَّتِها عَلَّها تخلص أو تنجو من موتٍ عموديٍّ قطعَ طريقها وأسكنَها خوفًا أقضَّ مَضاجِعَها. علت أصوات الوحوش الحديديَّة وزمجرتْ، اقتربتِ النهاية وملأت رائحتها غرفَ وأقسامَ المعتقل، واقتربت معها مُناجاةُ الأرواح آلهَتَها، كَبُرَ الخوف حتى صارَ إيمانًا وهبطت آلهة السفر الطويل تُواسي أرواحًا صَلَّت وناجَتْ. حملَ الأسرى معهم كلّ ما استطاعوا حملَه، وألقوا نظرةً أخيرة على جدرانهم وتجاهلوا شبه مدينةٍ يَئِسوا وعوداتِها الكاذبة وكَذَّبوا جديد روايَتِها تَعَلَّقوا تعلُّقًا أخيرًا يُعيد إليهم إحساسهم القديم بالجدار، بعد أن خَلُّوه متأمِّلين فراقه، وجدوا جدرانهم على حالتها الأولى وثابتة كالجدران لا تُخْلِفُ وَعْدًا، لا تَرُدُّ تَعَلُّقًا، لا تُدير ظهرَها لأحدٍ وتصدِّق إذا استقبلتْ.

جلستُ على سريري مستندًا إلى جدارٍ ما تركتهُ يومًا ولا خَلا بي، نظرتُ للمرَّة الأخيرة، إلى عائلتي الصغيرة، التي راحت تمارس أفعالها اليوميَّة الاعتياديَّة غير مكترثةٍ بالذي يحدث في الحياة المُقابِلة، أَعَدَّت مائدة الإفطار كما فعلت كلّ يوم، ذهبَ الأطفال إلى درسهم وَتَسَلَّقَتِ الأُمُّ سقفَها، لم يُؤَخِّرْ رحيلي في نبض بيتي الصغير ولا أَجَّلَ في أنفاسه، لم أُعاتِبْ ولم أُكْثِرْ في كلام الوداع. راقبتُ ما يحدث داخل المعتقل من نقطتي الثابتة

استندتُ أكثر إلى جداري، لا حديث بينَنا يُزْعِج وحدتنا وتوحَّدنا أرواحٌ كثيرة راحت تُلقي نظرات عتابٍ أخيرة على شبه مدينةٍ مع شبه ذاكرة، عيونٌ خائفة لم تجدْ بعد تعريفًا واضحًا لخوفِها فتركتْهُ لِشَأْنِه. كلّ ما فيّ كان جاهزًا للرحيل، تحدَّدت وجهة السفر إلى معتقل بئر السبع، ووجهاتٍ أخرى عديدة لبقيَّة الأرواح. حملتِ الوحوش الحديديَّة أرواحها الثقيلة، وتحوَّلت في لحظةٍ إلى مركبة سفر عبر الزمن، هذا ما أَفْشَت به وجوهٌ قَلِقة وخائفة من تَرْكِها جغرافيا إلى أخرى، صَدَّقَت بفعل قوَّة الحديد غُرْبَتَها عنها.

لم أَمْكُثْ في مُعْتَقَل بئر السبع إلَّا أشهرًا قليلةً، سأنتقل بعدَها إلى معتقل نفحة الصحراويّ لأبدأ فيه مشوارًا جديدًا مع نهاياتٍ مُفاجِئة.

«في السجن»

في السجن..
أَنْتَ اغْتِرابُ كُلِّ شَيْءٍ فيك،
بَعْض الذي تَقولُه
يُحَدِّثُ قَليلًا عَنْكَ وَقَد يَرْوي أخبارًا
لا تُصَدِّقُها
أَو صِرْتَ تُصَدِّقُها حينَ ثَقُلَت سنونك
وَتَصَدَّعَت حَواسُّكَ
حتى اخْتَلَطَ عَلَيْكَ المكان والوجوه وموسيقى
الأسماءِ مِن حَوْلِك
واختلاف الليل والنهار
واقتراب الجدار منك، لا تدري
أتى يُقَوِّمُ فيك أمرًا
أم جاء يقتلك!

في السجن..
أَنْتَ حَديثُ الناسِ عَنْكَ
لَيْسَ فيكَ ما يَسْتَحِقُّ الرِوايةَ إلَّا
ما نَقَلوهُ عَنْكَ في غِيابِكَ
أَنْتَ أَخْطاؤُهُم إذا أَخْطَأوا وإن
أصابوا
فهم..
لا مَكانَ لَكَ إذا تَفَرَّقَت أَشْياؤُهُم، ومتى
اجتمعوا
امْتَلأَ المكان بِضَوْضائِهِم، لا صَوْتَ يَعْلو
تَحْتَ صَوْتِ الضَجيجِ لا
صَوْتَ لَكَ.

في السجن..
تُوَدِّعُ صَباحاتٍ جاءت تَسْتَقْبِلُ وجهًا
غَيْرَكَ
وحين تُظْهِرُ لا يعنيك في عموديَّة الضوء
إلَّا اخْتِفاءُ ظِلِّكَ
واحْتِراق الأَجْساد قبلك واحتراقها
بعدك

ثم يَأْتي المَساء
لحظة الظلّ الأطول وآخر ساعةٍ
للشمس
ومقدِّماتٍ بطيئةٍ للظلمة وانتهاء
نَهارٍ أَثْقَلَكَ.

في السجن..
لا شَيْءَ يَشْهَدُ على حُضورِكَ، أَنْتَ لَسْتَ
هُنا
أَنْتَ بَعيدٌ عَن هُناك
وهناك ما عادَ يَذْكُرُ تَفاصيلَكَ الصَغيرةَ
وَلا عادَ يَشْتاقُ.
أَنْتَ بِلا عَلاماتٍ تَدُلُّ عَلَيْكَ..
متى وَصَلْتَ؟
كم تنوي المُكوثَ هُنا؟
هَل هَذا خَطُّ يَدِكَ وَأَيُّ الهُمومِ
تُدينُك؟
هَل هَذا أَنْتَ حَقًّا وَهَلْ ظَلَّ فيكَ
ما يشبهك؟؟!!

في السجن..
أَشْباحُ مَن أَحْبَبْتَهُم يَوْمًا وَعَلَّقْتَهُم صُوَرًا
على جُدْرانِكَ
لا تَشيخُ وُجوهُهُمْ وَتَشيخُ أَنْتَ.
وآخرون غادَروا خَبَّأْتَهُم بَعيدًا عَن أَوْجاعِكَ
فَلا يُزْعِجوا
وُجوهَ مَن ظَلُّوا
أَو يُثْقِلوا على نِسْيانِكَ إذا نَسيت
وَأَشْباهُ وُجوهٍ جَعَلْتَ لَها
مَلامِحَ وأسماءً ورغباتٍ قريبةً من جوعِك
تقفز من سريرها وتأتي على
عجلٍ
تُغازِلُ نَوْمَكَ.

في السجن..
اجْتِماعُ الخطايا والذنوب تلك التي أَجَّلْتَها
لِوُسْعِ الوقت وكثرة النوايا
أَوَّل امْرَأةٍ تَخونُها
يقينك أيّامك القادمة
نسيانك ربّك

أو تَذَكُّرُه
يأسك من الحبِّ، استسلامك لعبوديَّتك
وطنٌ قَلَّت مَطالِبُه تسكنه أو يسكنك
وخطايا قَرَّبْتَها إليك
قليلٌ من جميع ما أَجَّلْتَهُ يُواسيك
وَيُبَرِّرُ اسْتِغْفارَكَ.

في السجن..
مَجْهولٌ صِرْتَ تَعْرِفُه
حديثُك بَعْدَ ساعة، كَمِّيَّةُ المِلْحِ في
عشائك القادم ورفيقاتك أوَّل
كلّ ليلة
حصَّتك من الشمس
مزاجك قبل القهوة واحتمالاته
بعدها
وجوه زُوّارك، رائحة
انتظارك
على أيِّ جنبٍ تنام الليلةَ وكلَّ ليلة،
مقدار الهواء في رِئَتَيْكَ
مذاق الصباح بعد السيجارة الأولى وألوان

انزعاج مرآتك حين ترى أوَّل
كلّ يومٍ وجهك.

في السجن..
يَدان مُعَلَّقَتان، إحداهما لك ويدٌ تَكْتُبُ
عَجْزَكَ
عن تَعْليقِ انْتِظارِكَ على
أَوَّل مِشْنَقَة
عن مُواساتِكَ أُمَّكَ في غِيابِكَ
عن نِسْيانِها
عن وَقْفِ عَقارب الوَقْت عن
تَسْريعِها
عن هدم جدارك أو تركه يبنيك أو
يهدمك
عن نسيان امرأةٍ أحببتها
وكسرت قلبك
عن تَذَكُّرِ وَجْهِ أَبيكَ وَغُفْرانِكَ موته
وعجزك عن استرداد يدٍ كانت يومًا
يدك.

في السجن..
أَنْتَ كُلُّ ما تَحْتاجُهُ متى اسْتَقَرَّ فيكَ
أنت
وَسَلَّمْتَ بِأَنَّكَ تَعْرِفُ أَنَّكَ
لا تعرف، وأنَّ غدًا لا يقتصّ من يومك
وأنَّ خيولك في انتظارك لو
أنَّك نَظَرْتَ قريبًا
وتَوَقَّفْتَ عَن الفرار منك ومن جدارك.
أنت كلّ ما تحتاجه
توقَّف.
هذه ساعاتك وهذا نبضك وهذا الوجود إنْ
صَدَّقْتَهُ
كلّه لك.

في السجن..
يمكنك أن تكون ما تريد
آخرَ أنبياء الكذب
أوَّل رجلٍ صدَّق المسيح ومشى قبله على الماء
علاء الدين أو مصباحه أيُّهما تفضِّل!
فراشةً لا تعمِّر طويلًا

حبيبَ سكارليت في رواية «ذهب مع الريح»
أو سكارليت.
راقص فلامنكو من الأندلس
حصانًا عربيًّا مغتربًا
سوبر نوفا تردَّد قبل أن يموت
شُرْفةً تُطِلُّ على قمرٍ أو على امرأةٍ
أحلى وأبعد.
في السجن، يمكنك أن تكون كلّ ما تريد
بلا قيدٍ كَبَّلَك.

في السجن..
انْعِتاقُكَ مِن كُلِ ما سيأتي فَلا شَيْءَ
يأتي
وكلّ ما هو قادمٌ أنت.
أنت المكان وأنت الزمان
أنت وحدك.
في السجن أنت
صاحبُ كلّ شيءٍ ولا
شيء لك.

رَبّي

وُلِدْتُ لِأَبَوَيْنِ مُؤْمِنَيْنِ، آمَنا وصَدَّقا رَبًّا بَسيطًا في رِسالاتِه وخلت متطلِّباتُه من التعقيد، صَدَّقا صِفاتِهِ وأَسْماءَه كُلَّها القريبة منها والبعيدة، خاصَماهُ وَعاتَباهُ إِذا نِمْنا جوعًا لَيْلَنا، وَتَصالَحا مَعْهُ إِنْ تَأَكَّدا مِن عُمْقِ نَوْمِنا، صَلَّيا وصاما وَأَقاما ما اسْتَطاعا مِن بَقِيَّةِ الفَرائِضِ، أَضافَ أبي أَحْيانًا حَرْفًا أَو حَرْفَيْنِ على كلام رَبِّهِ وَتَجاهَلَ في كلِّ مَرَّةٍ مُحاوَلاتي تَصحيحه. لم يَفْرِضْ والِدايَ إيمانَهُما على أَرْواحِهِما الصَغيرةِ فِعْلًا تَقَدُّميًّا مِن أَبَوَيْنِ تَأَخَّرَ فيهما كُلُّ ما فيهما ما عَدا حبّهما لِأَرْواحِهِما الصغيرةِ، وَلِأُمِّي مع رَبِّها قِصَّةٌ جِدُّ غَريبة وَطَريفة في الوقت ذاته، فَقَد تَباينَت عَلاقَتُها مع رَبِّها بَيْنَ غَزَلٍ قَد يَبْدَأُ في أَوَّلِ اليَوْم أَو في نِصْفِهِ وكَلِمات حُبٍّ لم يكن لَدى أُمِّي الكثير منها وَلَكِنَّها كانت تكفيها وَرَبَّها، وَبَيْنَ عِتاباتٍ مُطَوَّلة اسْتَخْدَمَت فيها أُمِّي عِباراتٍ ومفرداتٍ قد لا تكون إيمانيَّةً لو دَقَّقْنا فيها، وَكانَ لدى أُمِّي مِنْها الكثير، وَكُنَّا اعْتَدْنا أنا وأَخَواتي وإِخْوَتي استفزازها فقط من أَجْلِ الاستماع لها وَلِعِباراتِها تلك في عِتابِها رَبَّها أَو استنكارها تَمْريرَهُ بَعْض الأَحْداث

والشخصيَّات الطارئة على حياتها، ونحيطُ بها مُسْتَمِعين حتى نَكادُ نَقْتُلُ أَنْفُسَنا مِن شِدَّةِ الضحك.

كَبرْتُ مَعَ صورةِ رَبٍّ رَسَمَ مَلامِحَها والِدي، ثم أَضافَ أولاد الجيرانِ مَلامِحَ أُخْرى وَرِثوها عَن أَهْلِهم؛ تَوَسَّعَت دائِرَةُ حَرَكَتي عن المُخَيَّم، وكذلك دائِرةُ مَعارِفي، فَأَضَفْتُ للصورةِ مَلامِحَ جديدة أُخْرى، وَهَكَذا حتى تَكَوَّنَت لَدَيَّ صورةٌ تَشَكَّلَت مِن قُصاصاتِ مَلامِحَ مُتَناثِرة لِرَبٍّ يُشْبِهُني بَعْدَ أَنْ أَسْقَطْتُ عَنْهُ كُلَّ ما تَعارَضَ مَع طُموحاتِ وآمالِ وَشَهْواتِ ومغامرات فَتًى عانَقَ فُضولَهُ، وَرَفَضَ كُلَّ أَنْواعِ القُيودِ. بَدَأَت طُقوسي العِبادِيَّةُ كَتَقْليدٍ لِما فَعَلَهُ أَبَواي، أَمِلُّ مِنَ التَكْرارِ فَأَتَوَقَّف. أُصَلِّي أُسْبوعًا أَو اثْنَيْنِ وَأَتَوَقَّفُ لِبَضْعَةِ أشهر. حافَظْتُ على عِبادَةِ الصِيام من سنِّ الثامِنة ولم أَتَوَقَّفْ منذها إِلَّا مَعْذورًا. قَلَّت صَلاتي مَعَ كَثْرَةِ أَعْوامي عِشْتُ مَعَ تلك المُصالَحة المُراهِقة مع ربِّي في انسجام تامّ، وَغَفَرَ لي كُلَّ أَخْطائي الصَغيرة، أَو هَكَذا جَعَلْتُهُ يفعل. كَبرْتُ قَليلًا وَكَبرَت أَخْطائي أَكْثَر وكذلك مَغْفِرة رَبّي لي. وَعِشْتُ مُراهَقةً سَعيدةً مع تلك المُعادَلةِ المُريحة، وَبَقيتُ على سَعادَتي تلك حتى بَلَغْتُ سن الخامسة عشرة حينَ قَرَّرَت إِحْدَى نِساء المُخَيَّم بِبَصيرَتِها الثاقِبَةِ أَنْ تَرى فيَّ مَشْروع رَجُلٍ سَيُعْجِبُها، فَراحَت تُبادِرُ بالكلام تارةً وتارةً بالإشارةِ، غازَلَت حينًا وَغازَلَت أَكْثَر حتى مَلَّتِ انْتِظارَ رَجُل يَتَأَخَّرُ في وُصولِهِ وَفي سنينِهِ، فَقَرَّرَت ذات يَوْم اسْتِعْجالَ أَو تَعْجيلَ قُدومِهِ وَتَفَنَّنَت في اسْتِعْجالِها، تاهَت حَواسِّي، تَبَعْثَرَت أَطْرافي، غَضِبْتُ، فَرِحْتُ، خِفْتُ مِن اكْتِشافاتي وَهَرَبْتُ. عُدْتُ بَعْدَ أَيّامٍ قَليلةٍ، تاهَت حواسِّي أَكْثَر، تَبَعْثَرَت أَطْرافي أَطْوَل غَضِبْتُ

جِدًّا، فَرِحْتُ أَكْثَر، خِفْتُ من مَزيدِ اكْتِشافاتي وَهَرَبْتُ ثانيةً أَسْرَع.

إِنَّهُ رَبٌّ جَديدٌ رُحْتُ أَكْتَشِفُهُ وَأَتَعَرَّفُ عَلَيْهِ وعلى مَعْروضاتِهِ عَلَيَّ، مَرْحَلةٌ جَديدة عَقَّدَت مُراهَقَتي بَعْدَ أَنْ نَزَعَت عَنْها بَساطَتَها وَسُهولةَ عَثَراتِها. رَبٌّ صارَ عَلَيْهِ أَنْ يَكْبُرَ أَكْثَر وَأَكْثَر وَأَنْ تَتَمَدَّدَ مَغْفِرَتُهُ وَتَتَوَسَّعَ بما يَتَناسَبُ مع مستجدَّاتي. لم تَكُنْ تلك مُهِمَّة صَعْبة، وسريعًا جَعَلْتُهُ أَكْبَر. مَرْحَلَةٌ جَديدةٌ سَتَجْعَلُ من ثماني سنوات قادِمةٍ مشوارَ حياةٍ لم أَكُنْ جاهِزًا لِفَهْمِ وَإِدْراكِ ما فيه من عَوالِم اكتشفتها، وَلَكِنَّها كانَت أَيْضًا ثماني سنوات جَهَّزَتْني لِمِشْوار حَياةٍ أَطْوَل قادم، وَظَلَّ رَبّي يُرافِقُني خطواتي في مُراهَقَتي وَسِنينِها المُتَأَخِّرة في شَبابي الثائر إِبّانَ انتفاضةِ الحَجارةِ وفي طريقي إلى سِجْني. إِنَّهُ رَبٌّ قَرَّرَ قَبْلَ بِدايةِ الزَمانِ والمَكانِ أَنْ نَهْبِطَ مِن سَمائِهِ إلى أَرْضِنا فَهَبَطْنا، تَخَلَّى عَنّا مَلائِكةً خالدين وَتَمَسَّكَ بِنا موتًا نموت، كشفَ عن عوراتنا ومَكامِنِ ضَعْفِنا وَدَسَّ بَيْنَنا مَن يَسْتَغِلُّها، حينَ تَحَدَّى نارًا أَوْقَدَها بِيَدَيْهِ وَسَلَّطَها عَلَيْنا ثم أَلْقَى على عَواتِقِنا إِطْفاءها في كُلِّ مَرَّةٍ تُشْعِلُ فينا حِقْدَها. لَيْتَنا هَبَطْنا وَحْدَنا بِلا مَخْلوقٍ مِن نارٍ يَتَرَبَّصُ بِكُلِّ نِيّاتِنا وَما اعْتَقَدْناهُ مَحْضَ إِرادَتِنا. إِنَّهُ رَبٌّ عَلَّمَنا الأَسْماءَ كُلَّها وَأَبْقَى على اسْمِهِ سِرًّا، حَرَّرَ فينا إِرادَتَنا وخطواتنا وَحَبَسَنا في جغرافيا ضَيِّقَة، حَدَّدَ لَنا مَقاصِدَنا وَسُبُلَ الوُصولِ إِلَيْها، حَدَّدَ لَنا أَنْبِياءَنا وَأَسْماءَهُم وَأَعْمارَهُم وما قالوه وما تَرَكوهُ لاجْتِهاداتِنا، تَدَخَّلَ في أَمْرِنا مَرَّةً أَو أَكْثَر ثم تَرَكَنا مَعَ آخِرِ نَبِيّ ذَكَّرَنا به، رَحَلَ النبيُّ مُسْرِعًا وَظَلَّ اللهُ في سَمائِهِ، وَبَقينا نَحْنُ بِلا يَدٍ إِلٰهِيَّةٍ تُوَجِّهُ وَتُسانِدُ وَتُحارِبُ بِمَلائِكَتِها وحجارتها، وَبِلا عِنايةٍ إِلٰهِيَّةٍ تُطْفِئُ نيرانًا أَحْرَقَتْنا، أَو

تُنْزِلُ مَطَرًا يَرْوي ما اسْتَفْحَلَ فينا مِن عَطَشٍ وَجوع. تَرَكَ اللهُ فينا إرادةَ الإيمانِ والتَصْديقِ، تَرَكَ فينا أَيْضًا حُرِّيَّةَ الإنْكارِ بِكُلِّ قِصَصِ السماء وتكذيبها، جَنّات وَنَبيذًا وَنِساء إنْ آمَنّا وَصَدَّقْنا، وَيْلًا وحديدًا ونارًا إنْ أَنْكَرْنا وَكَذَّبْنا.

في أَجْواء انتفاضةٍ حملت في طيَّاتها موتًا كثيرًا وتهديدًا لاحَقَ جيلًا كامِلًا، وفي ظِلِّ مُغامَرَةٍ من نَوْعٍ آخَر لا انْتِفاضةَ فيها إلَّا تِلْكَ التي تعتري جسدًا ساكِنًا بَعْثَرَت سُكونَهُ أيادٍ اجْتاحَتْهُ وَعَجَّلَت في نُضوجِهِ دونَ أَنْ يُسْأَلَ أَو يُسْتَشارَ، كُنْتُ في حاجةٍ لِرَبٍّ أَكْثَرَ قُرْبًا وَرَحْمةً وَغُفْرانًا. رَبٌّ يَهْبِطُ مِن سَمائِهِ وَيَسْكُنُ حاراتٍ ضَيِّقَةً ازْدَحَمَت بالجُنودِ وَرائِحةِ البارود وبأَرْواحٍ مُلاحَقة بَحَثَت عن مكانٍ تَهْرُبُ إِلَيْهِ؛ رَبٌّ يَقِفُ بَيْنَنا وَبَيْنَ رَصاصٍ مَزَّقَ أَعْمارَنا، رَبٌّ لا يَقْبَلُ أَمْواتَنا وَيُعيدُهُم إِلَيْنا لِيُقاتِلوا مَعَنا؛ رَبٌّ يَقِفُ على عتباتِ مَنازِلِنا وَيَدُقُّ على أَبْوابِنا فإنْ تَكَبَّرْنا وَأَوْصَدْنا قُلوبَنا دَقَّ ثانيةً وثالِثةً حتى نَسْتَجيبَ؛ رَبٌّ يَنْتَظِرُ دُعائي إذا تَأَخَّرْتُ وَيُلَبّي إنْ تَوَقَّفْتُ عَن الدُعاء؛ رَبٌّ يَعْرِفُ حاجاتي كُلَّها وَما نَسيتُ احْتِياجَهُ؛ رَبٌّ يُشْبِهُ رَبَّ أُمّي وَأَبي، لا يَغْضَبُ إنْ زِدْتُ في أَبْجَدِيَّتِه أَو عاتَبْتُهُ في وَهْني وَضَعْفي. لَم يَكُنْ الخَوْفُ دافِعي إلى رَبٌّ صارَ إِلَيَّ أَقْرَب، بَلْ حاجَتي إلى رِفْقَةٍ مِن خارِجِ هذا الكَوْكَب لا تَعْتَرِفُ بِقَوانينِهِ الطَبيعيَّةِ وَأَعْرافِهِ وتَقاليدِهِ وَثَقافاتِهِ المُتَنَوِّعة، رِفْقةٍ واسِعَة تَحْتَمِلُ أَخْطائي ولا تُصْدِرُ عَلَيَّ أَحْكامًا مُتَسَرِّعة، تَحْفَظُ السِرَّ ولا تُفْشيهِ لِأَحَد، لا أَخْجَلُ أَمامَها مِن مُمارَسَةِ أَسْوَأِ عاداتي، وَأُسْقِطُ في حَضْرَتِها كُلَّ أَقْنِعَتي وَزيفَ أَقْوالي، رِفْقةٍ إلٰهِيَّة لَيْسَ في قَوانينِها أَوْ جغرافيَّتها ما يَحُدّ أَو يُقَزِّمُ انْفِعالاتي

وانْدِهاشي من تَجارِبي، لا تَرْجُمُ وَلا تَجْلِدُ ولا تُهَدِّدُ وَلا تُثيرُ بي مَخاوِفَ لَسْتُ أَحْتَمِلُها أَو أُطيقُها. كُنْتُ في حاجةٍ إلى رَبٍّ يَقِفُ إلى جانِبي إذا تَخَلَّى عَنِّي الأَقْرَبون، رَبٍّ لا يَخْشى دُخولَ الأَماكِنِ الضَيِّقَة إذا تَعَذَّرَ عَلَيَّ تَحْليقي أَو انْعِتاقي منها، رَبٍّ يَمْسَحُ على صَدْري إنْ اخْتَنَقْتُ ويميط الأَذى عن قلبي إن اعْتَلَّ أَو انْكَسَر.

هَكَذا، صارَ رَبّي تَمامًا كما أَرَدْتُ لَهُ أَنْ يَكون: أَغْضَبُ إذا تَأَخَّرَ وأَنْتَظِرُ قُدومَهُ، أَحْمِلُهُ في كُلِّ حَقائِبي ويحملُني إن طالَ بي السفر، لا أُهاجر إلَّا إليهِ وإليه أَشُدُّ رِحالي كلّها. هَرَبْتُ إليه حينَ ضاقَتِ الأزقَّة وَأَغْلَقَ عَلَيَّ الجُنودُ، هَرَبْتُ إليه بَيْنَ الرَصاصةِ والأُخْرى، هَرَبْتُ إليه بَعْدَ تَشْييعِ الشهيد الأَخير، هَرَبْتُ إليه حينَ الاعْتِقال وَوَقْتَ الاعْتِراف وفي القاع وعلى السطح، هَرَبْتُ إليه في كُلِّ مَرَّةٍ ضاقَت بي الدُنْيا وتاهت فِيَّ السبل. أَسْكَنْتُهُ جِواري قريبًا مِنِّي، فَأَنا لا أسكن إلَّا الجدران، احْتَلَّ رَبّي مساحةً واسعة من جِدارِيَّتي يُزاحِمُ ويقاتل على كلِّ شبرٍ فيها، لا يَمَلُّ جِواري أَبَدًا، ولا يَيْأَسُ إنْ عانَدْتُ وَجادَلْتُ. بَقينا هَكَذا ثلاثَتُنا، أَنا ورَبّي، وضيق المَكان، على جِدارٍ واحدٍ وحالة تَناغُم صالحت بيني وبينَ وجودي الدائم والموقَّت، بينَ حياتي الفانيَة ومُؤَبَّدي الذي لا يَقْبَلُ نِهايةً أَو فَناء. رافَقَني هَذا العَيْشُ الآمِن والمتصالح وَمِن ثَباتِهِ خَلَقْتُ عَوالِمَ وَهَدَمْتُ أُخْرى، حَرَّكْتُ وَبَدَّلْتُ في مَواقِعِ النُجوم والكواكب، أَطَلْتُ في عُمْرِ الفُصولِ وَقَصَّرْتُ، فَتَحْتُ الأَبْوابَ جَميعَها في وَجْهِ زُوّاري ومتى شِئْتُ أَغْلَقْتُ. كانَ للناسِ رَبُّهُم، صَلّوا وَسَبَّحوا له، وَقاموا يَسْتَقْبِلونَ وَجْهَهُ أَوَّلَ الصُبْحِ وكانَ لي رَبٌّ أَحَبَّني وَأَحْبَبْتُهُ، أَسْتَقْبِلُ وَجْهَهُ في أَيِّ ساعةٍ أَشاء

ويغفر لي تَقاعُسي إذا صُبحَه نمت، رَبُّ إيمانٍ وَرَبُّ تَصْديق، رَبُّ الأَخْطاء ورَبُّ النَوايا الحَسَنة، رَبُّ الأغنياء والفُقَراء وَرَبّ المتوسِّطين، وَرَبُّ المكان والزمان وما قبلهما وما سَيَأْتي بعد رَبُّ الحِجارة والرصاص، رَبُّ الجنود وَرَبُّ المُلاحَقين، رَبُّ الحروب والهَزائِم والانتصار، رَبُّ الآباء والأُمَّهات وَرَبُّ الأَرْواح الصغيرة وَرَبُّ الحبيبات إذا بَقينَ وَرَبُّ الخائنات.

بَقينا ثَلاثَتُنا على مناجاتنا تلك في سطح جِدارٍ اعْتادَ صُحْبَتَنا وَظَلَّ على انْتِظارِهِ لَنا وَنَحْنُ في بَطْنِ وَحْشِنا الحديدِيِّ الذي تَعَمَّقَ في صَحْراءِ النَقَبِ الفلسطينيّ، ساعاتٌ قَليلةٌ تَفْصِلُ اجْتِماعَنا من جديد في مُعْتَقَل نفحة الصحراويّ، هَواءٌ جافٌّ مَلأَ صُدورَنا طَوالَ الطَريقِ، وَشُعورٌ غَريبٌ بَدَأَ يُطَوِّقُني، وحالةُ اغْتِرابٍ شَديدةٌ ضَيَّقَتِ الحديدَ أكثر، أَنْفاسي راحَت تَقْصُرُ وَتَكْثُرُ كُلَّما اقْتَرَبْنا من وِجْهَتِنا. عَجَزْتُ عن تَفْسيرِ حالَتي فانْتَظَرْتُ تَقَلُّباتِها، لكنَّها ظَلَّت على حالِها وَضاقَ الحَديدُ أَكْثَر. تَوَقَّفَتِ البوسطة عِنْدَ بَوَّابَةِ المُعْتَقَل وَخَفَتَتِ الأَصْوات.

فِرَاق

حَيَّت بُثَيْنُ قُبَيْلَ الصُبْحِ وارتَحَلَت / فَحَيِّ وَيْحَكَ مَنْ حَيّاكَ يا جَمَلُ

عَجِبْتُ دَوْمًا خلال قراءتي لشِعْرِنا الجاهليّ من غزيرِ مفرداته في جغرافيا صحراويَّةٍ قاحلة، تقلَّصت أبجديَّاتها الطبيعيَّة في رملها وَشَوْكِها وكثرة الشمس وقلَّة الماء. عجبتُ من عميقِ مشاعره ورقَّة إحساسه على الرَّغم من بداوته الخَشِنة، وقبيلته التي تثأر لبهيمَتِها بألف رَجُلٍ تقتله أو أكثر لو استطاعتْ. عَجِبْتُ من إيمانه وتَوَكُّلِه ومن آلهته التي يعجنُها إذا تَوَفَّقَ في صَيْدِه وحصاده، ويأكلها إن عَزَّ عليه الحصاد والصيد. وعجبت من قدرته على تمديد وتوسيع أبجديَّته المختصرة حين جعلَ لكلِّ اسم فيها مائة مرادفٍ ويزيد. فِعْلٌ عبقريٌّ لشِعْرٍ ظَلَمْناه حينَ ـ عن جَهالة ـ أسميناه جاهِليًّا. كيف كان للصحراء أن تملأ ذلك البدويّ الخَشِن بكلِّ ما امتلأَ به من رهافة الحِسّ وشفافيَّة الماء ولُيونة العشب؟! كيفَ تَوَصَّلَ إلى آلهته جميعها ولم يتوافر في طبيعتها إلَّا مظاهر قمعها وقهرها وبُخْلها ووفرةٌ في الجوع والعطش؟! هل كان في كثرة التفاصيل ضيقٌ للخيال؟ هل كان في أفقيَّة الصحراء ما أشعلَ في بَدَوِيِّنا

عَمودِيَّته فَحَلَّقَ في سمائِها؟ هل كان فيها ما يكفي من فراغاتٍ ونقصانٍ أوقدت فيهِ شَغَفَه في الأسئلة والبحث وملء الفراغ؟ هل كان في وَحْدَتِه في ترحالِه ما عَزَّزَ لديه أَنْسَنَةَ مَوْجوداتِهِ، فَأَنْطَقَ الليلَ والنهار والأقمار وخاطبَ ركوبَتَه وكلمته؟ كيفَ اخْضَرَّت قلوبٌ تَصَحَّرَت صدورُها؟ كيفَ كتبت نساءَها قصائدَ ثم راحت عارًا تَدْفِنُها؟ عجيبةٌ هيَ الصحراء في حِدَّةِ تَناقُضاتِها وَقُدْرَتِها على زَرْعِكَ وَخَلْعِكَ، على احتضانِك ونَفْيِكَ، على وَأْدِك وتخليدك على جدران مقدَّساتها. لقد دفنَ العربيّ مع بناتِه مخاوفَه وهواجسَه دفنَ فقرَه وفوارقه الطبقيَّة، وظَلَّ يدفن حتى تحوَّلت صَحْراؤُه إلى مقبرةٍ جماعيَّة، فيها أخفى كُلَّ ما أقلقَ وجوده، وعلى أطلال قبوره نَظَمَ آدابَه وشِعْرَه، وقالَ في نسائِه ما لم يَقُلْهُ أحدٌ قبلَه أو بعدَه.

كانون الثاني 1996، كُنّا على صمتنا بعدَ أن توقَّفتِ البوسطة أمام بوَّابة معتقل نفحة الصحراويّ، فُتحَ بابه الكبير وأغدقَ علينا ساعاتِ انتظارٍ طويلة، وتفتيشًا مُذِلًّا، ثم جمعَنا في قاعة الزيارات ننتظر توزيعنا على أقسامٍ وغرف. أربعة أقسامٍ على جدرانها تعلّق قرابة أربعمائة أسير في غُرفٍ ضَيِّقة وساحاتٍ تملّ الشمس ضيقَها فتغادرها سريعًا، صحراءُ تُحيط بالمعتقل من جميع اتِّجاهاته صحراءُ لا تنتهي وخلت سماؤُها إلّا من حقير الطير وأصوات طائراتٍ مقاتِلة تدرَّبت على قِتالِنا، وغبارٍ رمليٍّ جعلَ من أنفاسنا مهمَّةً شاقَّة. انتهى المساء ونحن جميعنا في غرفنا، ثماني أرواح اجتمعت حول أجسادها تتَّقي برد الشتاء، تعارفنا مطوَّلًا، قفزتُ إلى سريري العلْويّ، وشبَّاكٌ مُطِلّ على ساحةٍ خلفيَّة خلت من كلِّ شيء إلّا من رملها والغبار، وأسلاكٌ شائكة وأصواتُ كِلاب

الحراسة. جداري على حالِه ينتظر ترتيب أشيائي كي نتوحَّد ونعدّ سويًّا لصباحِنا الأوَّل. لكنْ كانَ علينا أوَّلًا أن نَجِدَ تفسيرًا لحالة الاختناق التي رافقتني في ساعات اليوم الأخير. نظرتُ إلَيَّ، وفي جداري بحثتُ عن ربِّي في كلِّ مساحاته فلم أجِدْه، لم أقلقْ لغيابه واختفائه، وَلَكِنِّي بحثتُ ثانيةً وعن قُرْبٍ، لم أجدْ إلَّا غيابه عن مشهد الجدار، نظرتُ إلى بقيَّة الأرواح التي تخلَّت عنها أشباه المدن والقُرى والمخيَّمات ودفنتها هنا في غبار الصحراء وتحت رمالها. دفنتها بعيدًا عنها، فلا يُقلق نومَها صراخُ الأرواح من أوجاعها. عُدْتُ إلى جداري الذي نفضَ عنه وعنِّي ربًّا لم أتَّهمه بشيءٍ من عجيب ما حَلَّ بِنا، هذا فراقٌ بيني وبينك، هذا ما امتلأَ به الجدار، ورحتُ أكرِّره ثالثةً ورابعة: هذا فراقٌ بيني وبينك.

سبعة أعوام قادمة، سأتخلَّى فيها عن ربٍّ رافقَني مشوارًا طويلًا وأُسْقِطُهُ عن جداري وعن تَعَلُّقي، وَأُسْقِطُ عَنِّي صلاتي وتسبيحي وَدُعائي وَأَسْقُطُ أنا على جِداري الثابت وَأَلْتَصِقُ بِهِ كما لم أَلْتَصِقْ من قبل. سبعة أعوام، سَأَهْجُرُ فيها رَبِّي وَرَحْمَتَهُ وَمُواساتَهُ وَسُكْناه ودعواتِه وتهديداتِه واقترابَه وابْتِعادَه، سَأَهْجُرُ كُتُبَهُ ورسالاته وأنبياءَهُ ورُسُلَهُ والصالحين من عباده، وجنَّاته ونساءها وحريرَ ملبسٍ ونعيمَ مُقام، سأهجر ناره وما ذَوَّبَ فيها من حديدٍ ومعادن أخرى. سأترك ربِّي ونداءاته ووقوفه على بابي وَسَأُغْلِق أبوابي جيِّدًا. وقرارات فراقٍ أخرى كثيرة رحتُ أنثرها على جداري غير عارفٍ بأسباب ذلك كلّه أو بدوافعه. عُدْتُ إلى إيماناتي الجاهليَّة في صحراءَ تعدَّدت فيها الآلهة، وَدَفَنْتُ فيها إيماني القديم، تخلَّيتُ عمَّا فيه من حياةِ ما قبلُ وما بعد وتمسَّكتُ

بجداري وكلّ ما فيه من حياة هنا، لا حياة خلفَ هذا الجدار أُفُقيَّةً كانت أم عموديَّة. أنا جداري وجداري أنا، له أُقَدِّمُ سنيني قرابين فلا يَمَلُّ رِفْقَتي أو يَتَخَلَّى.

لم يكنْ معتقل نفحة أقلّ تَطَرُّفًا من صحرائه في مزاجه وانفعالاته وانعكاس ذلك على مزاج وانفعالات مَنْ سَكَنَهُ مِنْ أرواح. فرغم أنَّ التنظيمات كانت قد خَفَّفَت من قبضتها وصرامة قوانينها وتحكُّمها في تفاصيل حياة أرواحها نتيجةً لتوقيع اتِّفاقيَّات السلام مع دولة الاحتلال، وبروز ذلك أكثر عند فصائل الحركة الوطنيَّة التي فشلت في الإجابة عن تساؤلات الأسرى وإحباطاتهم بعد تخلِّي قياداتهم عنهم، إلَّا أنَّنا وجدنا الأرواح تعاني صرامةً وخشونةً قديمة ظهرت علاماتها لمجرَّد وصولنا، وَتَطَلَّبَنا الأمرُ أشهرًا عديدةً حتى نجحنا في تليين الأرواح الصحراويَّة وساعدَنا على ذلك شغفُ وحاجةُ الأرواح البسيطة لمزيدٍ من الحرِّيَّات وتخفيف الخناق، وساعدَنا كذلك استسلام كبار الأرواح للرياح الرَطِبة التي جَلَبْناها معنا إلى صحرائِهم، كُنّا جميعًا في حاجة ماسَّة لفضاءٍ أكبر ممَّا وفَّرته تلك الغرف الضيِّقة والمزدحمة.

كثرت مساحاتُ الخَرْبَشَةِ على جداري، خصوصًا بعد نفيي وإقصائي لأيِّ وجودٍ إلٰهيٍّ عنه، وكنتُ بحاجةٍ لتلك المساحات في وسط الضيق والازدحام اللذين طَوَّقا يومي، وكان للصحراء فعلها المضادُّ والمُعاكِس، وسريعًا طَوَّعَتُ أنفاسي لِكَمِّيَّات الغُبار التي غَصَّ بها الهواء، وصارَ نومي ممكنًا تُرافِقُهُ أَصْواتُ الكِلابِ بلا تَوَقُّف، وما عادت تُزْعِجُ أو تُعيقُ خطواتي كَثْرَةُ الأقدام في ساحات الشمس وساعاتها، وَتَعَلَّمْتُ أن أَقْبَلَ بلا كثيرِ اعتراضٍ

حَقيقَةَ أَنَّ الصحراءَ تكونُ دومًا صاحِبَةَ الكلمةِ الأخيرةِ. أمَّا جداري فكانَ فوقَ أيّ ظاهرةٍ طبيعيَّة، ولم تخضع جوانبه لتقلُّبات المناخ، وما هَمَّه فراقُ ربِّي طالَما بقيتُ على التصاقي به، ربَّما فَضَّلَ عودتي إلى جاهليَّتي لما فيها من وثنيَّةٍ تعدَّدت فيها درجات الإيمان وأسماء المؤمنين وما آمَنوا به، وكعبةٍ ضَيِّقة احتملت جدرانها كلّ آلهة العرب لا تنافر بينَها ولا إقصاءٌ أو تكفيرًا أو تقتيلًا على الهويَّة.. أو أعجبه أنِّي بدأتُ أحيا كما عاشَ أسلافي من العرب الجاهليِّين وسط صحرائهم، أبحث عن حياةٍ في داخلي بعد أن انعدمت في الصحراء كلّ حياةٍ ممكنة، أزرع بِلا ماء وأحصد الغبار صباحَ مساء، أخلق من الرمل آلهةً تقبل كلّ أنواع الإيمان وَأَقْتُلُها إن خلت صحرائي من دمٍ أسفكه، أعاشر كلّ نساء القبيلة ونساء من جاورنا من قبائل، وأخون لا أخشى معاقبةً، فلا يعاتَب سيِّدٌ في عَبْدِه، أَثْأَرُ لِجُرْحي إنْ عَمَّقوا سُيوفَهُم، لا أُصالِحُ ولا أسامح ولا عيونٌ تكفيني إن جَرَحوا عيني، أُغازِلُ مِنَ الطَيْرِ حَقيرَها، وأكتب في اعْوِجاجِ الجِدارِ أَلْفَ قَصيدَةِ اعتدال، أُكَذِّبُ كلّ الأنبياء فلا دين يغريني إلَّا دين قَبيلتي، أَقْتاتُ إذا جُعْتُ وَأَطْعَمُ وَإن قتلَني جوعي، وأطوفُ حولَ جداري، وأعلِّق عليه ما أبدعتُ في نَظْمِه من كلام الحبّ وحديث الحروب.

مَرَّ عامٌ وأكثر على وجودي في معتقل نفحة، أنا وجداري لا ثالثَ لنا، عاشتِ الأرواحُ يومَها كأنْ لا غدَ ينتظرها، تذكَّرت حياتها في عيون زوَّارها، ونسيت عند نهاية كلّ زيارة. عادت إلى غبارها ورملها، صَلَّت وصامَت ونامت، وشاخت فيها روايتها القديمة، فما عادت تأتي على ذِكْرِها إلَّا قليلًا وإن فعلتْ. بكت

وطنًا تعلَّقَ بأشباهها وتخلَّى عنها. نَجَوْتُ أنا وجداري من عواصفَ رمليَّةٍ وبَرْدٍ صحراويٍّ لا يَرْحَمُ هَشاشةَ عظامنا، وَبَقينا على قديم أساطيرنا وكَذِباتنا، وشارَكَنا في ذلك عديدُ أرواحٍ نجت هي الأخرى وثَبَتَت على روايتها وزادت مِن تعلُّقها القديم. ظننتُ أنَّ رتابَتي ستظلّ أبدًا ولا أقدار تزعزع أو تخلُّ بتوازُني، وبقيتُ على ظَنِّي ذاك أمارس أيَّامي ولياليَّ حتى جاءَ آذار حاقدًا، حَمَلَ أُمّي إلَيَّ وأَجْلَسَها أمامي في غرفة الزيارة. لا شيء في وجهِها يشبهها، سكتت وسكتَ كذلك من رافقَها من قُرْبى دَمي. لاحظتُ غياب أبي عن المشهد. سألتُ أمِّي عنه، سكتت ثم بكتْ.. وماتَ أبي.

سقطتُ عن وعيي في غرفة الزيارة، صحوتُ على سريري مساءً، رأيتُ أصابعي وقد امتلأت دمًا سبَّبته لكماتي للحديد الفاصل بينَ بكاء أُمِّ حبيبها وبينَ بُكائي أبي. نسيتُ كلّ ما قالته قبلي أرواحٌ فقدت عزيزَها عن تصديقٍ يتأخَّر وصدمةٍ تؤجِّل الوجع والألم، كان الوجع حاضرًا بكلِّ ما فيه من وجع، لا شيء يُؤَخِّرُه أو يُؤَجِّلُه، بَلَّلَ المَساءَ بُكائي أبي وبَلَّلَني، سقطَ رأسي على الجدار، أَخْرَجْتُ أبي من قَبْرِه وَأَجْلَسْتُه أمامي على سريري وَرُحْتُ أُقَدِّمُ له اعتذاراتي. أَعْتَذِرُ منك يا أبي عن مَوْتِك وعن حياتك، وعن أَرْضِك وما نسيت زراعته فيها، عن نَفْيِكَ عن بيت نَتّيف، عن الخيمة والغُرْبة وَقِلَّةِ الحيلة، عن فَقْرِك وجهلِك وَحَبْسِكَ عواطفك. أعتذر منك يا أبي عن كلِّ مرَّةٍ لم أُقَبِّلْ فيها وجهك، عن كلِّ مرَّةٍ أثقلتُ فيها على عَجْزِكَ، عن كلِّ مرَّةٍ لُمْتُك فيها ولا ذَنْبَ لك، عن كلِّ مرَّةٍ خَجِلْتُ فيها من فراغ يديْك وعن

عَرَبَتِكَ المُعَوْجَّة، عن كُلِّ مَرَّةٍ نادَيْتُكَ فيها أبي ولم أقُلْ ربِّي، عن كلِّ حَديثٍ قَصُرَ بينَنا وأحاديثَ أخرى لم نُطِلْ في عمرِها أكثر عن كلِّ مرَّةٍ أزعجتُ خلوَتَكَ مع أمِّي عن قصدٍ وعن دون قصد. أعتذر منك يا أبي عن تَجاهُلِكَ لي في زيارَتِنا، وعن كلّ ما أردتَ قَوْلَه ولم تَقُلْه. أعتذر عن مفاجأتي بموتك وعن غيابي عن غسلك وعن تشييعك وعن دفنك وعن استقبالي مَن جاءَ يقول فيكَ كلامًا طيِّبًا بعدَ رحيلك. أعتذر عن بكائي وأنِّي لا أبكيك أكثر، عن جاهليَّتي، فكيفَ وبماذا أدعو لك؟ عن وَثَنِيَّتي وَقِطَعَةِ نَقْدٍ لا أملكها أَضَعُها على عَيْنَيْكَ في عُبورِكَ الأخير فَلا تَتَأَخَّر.

اعتذرتُ لأبي عن أشياءَ أخرى كثيرة لم أُسَمِّها، ولكنِّي تَذَكَّرْتُ أيضًا كُلَّ لَحْظَةٍ جميلةٍ جمعت بينَنا أو قَضَيْناها سَوِيَّةً. ماتَ أبي الذي عَلَّقَ كُلَّ أحلامه على كاهلي، وعَلَّقْتُها أنا على الجدار. ماتَ أَبي ولا زِلْتُ أرى حَنينَهُ على وجهه في كلِّ مرَّةٍ زُرْنا قريته المهجَّرة والمسلوبة. ماتَ أبي دونَ أن يودِّعني، وكم كنتُ في حاجةٍ لوداعه. ماتَ أبي على لَوْمِهِ وَعِتابِهِ لي قَبْلَ أَنْ أُفَسِّرَ لَهُ غيابي أو أَجْعَلَهُ يُصَدِّقُ دوافعي والأسباب. قالت أُمِّي إِنَّهُ كانَ يَنامُ باكيًا كُلَّ ليلةٍ بعيدًا عن عيونها وعن عيون أرواحها، لكنَّه لم يبكِ أمامي قَطّ! أمَّا أنا، فبكيتُ أبي كما لم أبكِ أحدًا قبلَه ولا زِلْتُ أبكيه عَلَّهُ يرضى أو يسامح ويغفر، وأقول له كلامًا أعرفه عن الحبِّ، وأخبره عن رواياتنا القديمة وأسطورة الأرض وأنَّنا زرعنا ما يكفي من أشجارٍ تُظَلِّلُ مَن يُقاتِلُ وتُطْعِمُه إذا جاع وإنْ ماتَ قامت وَقاتَلَت مَكانَهُ؛ وأُخْبِرُه عن قريته عن شَوْكِها الذي صارَ أطول منِّي، وأنَّه لا يَزالُ فيها تينُها وَلَوْزُها، وَأَنَّ شَجَرَةَ

الخَرُّوب الكبيرة التي كانت تُظَلِّلُنا كُلَّما تَسَلَّلْنا معه إلى القرية لا زالت واقِفَةً على حالِها وَتُظَلِّلُ أكثر؛ وَأُخْبِرُهُ عن أُمِّي بَعْدَهُ، وأنَّها تَزْدادُ حلاوةً كُلَّما ازدادت سِنًّا، وأنَّها تَرْفُضُ أن تَموتَ لأنِّي خَوَّنْتُها لو تفعل.

إنَّ أكثر ما تحتاج إليه حينَ تُفْجَع في عزيزٍ لك هو عُزْلَةٌ تَرْكُنُ إليها، فيها تُشْفى في هدوءٍ أو تموت في صمت، وهي آخر شيءٍ يمكن لغرفةٍ ضيِّقة ومزدحمة أن توفِّره لك. كان عليَّ أن أجلس مُنْصِتًا لأرواحٍ كثيرة رأت في أثقالها عليَّ في حُزْني واجبًا دينيًّا وإنسانيًّا، فانهالت عليَّ بأسئلةٍ كثيرةٍ وغريبة عن أبي، عن عمره عن مرضه، عن آخر مرَّةٍ رأيته فيها وماذا قالَ لي.. ثم تَلَت في أُذُني كلّ آيات الصبر وأحاديثَ نبويَّةٍ عن الدعاء والاستغفار وحتميَّات الموت. انتظرتُ انتهاء الأسئلة ورحيل السائلين كي أَعودَ إلى جداري، وأنظر عن حزنٍ إلى وجودٍ خَلا من أبي وَأُقَرِّرُ أَيَّ وُجودٍ هُوَ، وَهَلْ أَلْعَنُهُ أَمْ أُعانِقُهُ وَأُصالِحُهُ؟ كانَ على جداري مساحاتٌ فارغة متوافرة بكثرة بعد رحيل ربِّي عنها، فجئتُ بِرَبٍّ ماتَ قبلَ أيّام وَدَفَنْتُهُ على جداري، ورحتُ أقرأ عليه آياتٍ صَدَّقَها وما عادت تعنيني، وأدعو له بحياةٍ أخرى أَطْوَل لا فقر فيها ولا غياب، وقد أدعو له بامرأةٍ أخرى تكون على قدر جمال أُمِّي، إن كان ذلك مُمْكِنًا وإن قَبِلَت أُمِّي.

عامٌ وأكثر، فارقتُ فيها ربًّا لا يموت، وآخر مات ولا يزال موته على وَجَعِه الأوَّل، لا يهدأ ولا يرحم، ولا يموت.

انتفاضة الأقصى

تخلَّلتِ الأعوام بينَ 1993 و2000 محطَّاتٌ تفاوُضيَّة فلسطينيَّة ـ إسرائيليَّة، وتَعَنُّتُ إسرائيل في تنفيذ اتِّفاقيَّاتٍ مُوَقَّعة وتَنَصُّلِها من استحقاقاتها، إلَّا أنَّ ذلك كُلَّه لم يمنعْ حصول حالةٍ من الاستقرار عاشَتْها الأرواحُ داخلَ المُعْتَقَلات. استقرارٌ وتَطَوُّر في أحوالها المعيشيَّة، لم تشهدهُ الأرواح داخل المعتقلات طوال عُقودِها السابقة. خَفَّفَت إدارةُ سُجونِ الاحتلال من قَبْضَتِها الحديديَّة، وسَهَّلَت في إجراءاتِها، وتَعاطَت بإيجابيَّةٍ أكثر مع طلبات الأَسْرى. لم ترَ الأرواحُ في ذلك مُواساةً كبيرة لآلامِها وخَيْباتِ آمالِها عقب التَخَلِّي عنها، إلَّا أنَّها اسْتَغَلَّتِ الأجواءَ الجديدة لانتزاعِ مزيدٍ من الإنجازات، كان لها الأثرُ الواضح على تَفاصيلِ حياتِها اليوميَّة. كانت مُواساتُنا الوحيدة في اعتقادِنا بأنَّنا سنكونُ آخر جيلٍ فلسطينيٍّ يتعلَّق على جُدْران الغياب في مُعْتَقَلات الاحتلال، اعتقادٍ عَزَّزَ فينا شُعورَنا بإنجازٍ حَقَّقْناهُ في أجواءٍ غابت فيها الإنجازات وتَبَعْثَرَتْ، وَتَعَطَّلَت روايةٌ جديدة ظَنَّ أصحابُها أو أرادوا تَصْديقَ ما فيها من كذباتٍ لم يُحْسِنوا صياغة مُفْرَداتِها.

نحنُ أيضًا أَرَدْنا أن نُصَدِّقَ أنَّ أبواب المعتقلات أُغْلِقَت علينا ولن تطرق بابها أرواحٌ جديدة تُعيدُنا إلى مشوار التَعَلُّق من بدايته أردنا مَوْتًا هادئًا وسريعًا لا تُزْعِجُ أنفاسُه الثقيلة أصواتَ حياةٍ تَخَلَّيْنا عنها حينَ أدارت ظهرَها لَنا. أَكَلْنا أكثر ونِمْنا أَطْوَل، كَبرْنا وشِخْنا، أنهى بَعْضُنا محكوميَّاته وفارقَ جدراننا، وأرواحٌ فرديَّة كَذَّبَتِ الرواية الجديدة، فظَلَّت على حربِها تُقاتِلُ وتُقْتَلُ، وفي أحيانٍ أخرى اعْتُقِلَت وجاءت تُقْلِقُ مَوْتَنا.

فشلت كلّ محاولات إحياء روايةٍ حُكِمَ عليها بالموت يومَ وِلادَتِها. حاولَ الفلسطينيّ كلّ جهد وقَدَّمَ تَنازُلاتٍ أكثر من طاقَتِه واحتمالِه، زادَ المُحْتَلّ في تَعَنُّتِه وتنصُّله، أصواتٌ مُعارِضة فلسطينيَّة فَجَّرَت أجسادَها في وجه المحتلّ، أصواتٌ مُعارِضة إسرائيليَّة ذبحت المُصَلِّين في ساحات المساجد، وأشكال اعتراضٍ أخرى تنوَّعت وتَلَوَّنَت لدى الطَرَفَيْن. راقبَ الأَسْرى من عمق موتهم على جدرانهم، عن كثبٍ وبقلق، عمليَّات التحوُّل داخل المجتمع الفلسطينيّ. على جداري وبِلا رَبٍّ يُسَهِّلُ أو يُساعِدُ في إعطاءِ تفسيراتٍ لِما يحدث، ورَبٍّ آخرَ عَجَّلَ في مَوْتِه، حاولتُ أنا أيضًا قِراءة الأحداث بتَجَرُّدٍ وبعيدًا عن غضبي وإحباطي واتِّهاماتي، وكانت صورةُ المشهد قد تَعَقَّدَت كثيرًا بفِعْلِ أشباه تطبيقاتٍ لأشباهِ اتِّفاقيَّاتٍ شَوَّهَت مَعالِمَ الأرض تاريخيًّا وجغرافيًّا. عَجَّلَ الفلسطينيّ في انتقالِه من حالته الثَوْرِيَّة إلى المدنيَّة دونَ سابِقِ تجهيزٍ أو إعْداد. أخفى تَحْتَ جديد ما شَيَّدَهُ مُفْرَداتِ الرواية القديمة، ولم تَنْجُ مِن جديده حتى المعتقلات، التي بدلًا من تخليدِ أوجاعِها في الذاكرة حَوَّلَها إلى سُجونٍ تُسَجِّلُ أوجاعًا من

نوعٍ جديد، وتُلْغي أوجاعًا قديمةً كأنَّها لم تَكُن. تَخَلَّى عن اقتصاد المُقاوَمة والصُمود، وتَبَنَّى اقتصاد السوق الذي جعلَهُ رهينةً وتابعًا لاقتصادِ دولة الاحتلال. وَزَّعَ الفلسطينيّ بِطاقات دعوةٍ جماعيَّة إلى مِهْرَجانٍ مَسائيّ يحتفلُ بالحياة، ويكتب مَرْثِيَّةً طَويلةً في المَوْت، وأشعلَ النارَ في آخِرِ صفحات أُسْطورَتِهِ القديمة.

واصلَ الاحتلالُ تَنَصُّلَهُ من الاتِّفاقيَّات، وخَلَتِ الأفعال الفلسطينيَّة من ردودٍ مُناسِبة عَدا عن بعض الهَبّات السريعة التي انتهت سريعًا دونَ أن تُعَدِّلَ في مَسار الأحداث أو تُقَوِّمَ في نَهْجِ التَفاوُض. تابعَ الأسرى مُجْرَيات الأحداث بِقَلَق، رغم عديد ما سكنتهم من مَخاوِفَ على مَصائِرِهم. اعْتَدْتُ أن أُشارِكَ في ندوات تحليلٍ سياسيّ عَديدة عَبَّرْتُ فيها عن خَوْفي من جيل فلسطينيٍّ جديد أطلقتُ عليه لَقَب «جيل أوسلو»، وقعَ تحتَ تأثيرات خِطاباتٍ جديدة بَدَّلَت في أُسْطورَتِهِ القديمة، وقَدَّمَت لَهُ أخرى جديدة سَتُقْصيهِ رغمًا عنهُ عن مَسار تَطَوُّرِه الطبيعيّ في ظِلِّ احْتِلالٍ ظَلَّ رابضًا على صَدْرِ أرضِه، وبدلًا من مقاومَتِهِ كردِّ فِعْلٍ طبيعيٍّ سيستجيبُ إلى دعواتٍ للحياة امتلأت بها الخطابات الجديدة خطابات رواية كتبَ فيها أربابُ الخطاب كلّ ما نَسوهُ عن فنون الحياة، وراحوا يستذكِرونَهُ من خطاباتٍ محيطة، ومُحيطه أبعد بعدَ أن رَحَّلوا كلّ ما عَرَفوهُ عن مهارات الموت القريب إلى ذُيولِ خطابهم وروايَتِهم.

عَجِبْتُ من إمكانيَّة الحياة دونَ شَبَحٍ للموت يُبَشِّرُ بنهايَتِها مَوْتٍ تَراجَعَ بعضَ خطواتٍ للوراء وانسحبَ شبه انسحابٍ من جغرافيَّة الفلسطينيّ، وجلسَ على قارِعةِ حياتِه ينتظرُ فرصةً قادمة

تُعيدُ لَهُ شَبَحيَّتَهُ التي بَنى عليها أسطورته التوراتيَّة؛ عَجِبْتُ من ذاكرةِ الفلسطينيّ التي اغتسلت بِكُلِّ درجات الماء وارتدت غريبَ الروائح والتَفاصيل؛ عَجِبْتُ من لَهْفَتِهِ على الحياة واستعجالِهِ الأيَّام والساعات واختصاراتِهِ للطُرُق؛ وعَجِبْتُ من أَنْفاسِهِ التي تَعِبَت وقَصُرَت وقد كانت بالأمس فقط أقوى وأطول من جروحاتِه ومن طرقاته الوَعِرة. لم يَكُنْ في أشباه الاتِّفاقيَّات ما يجلِبُ اكتمالًا لأشباه المُدُن، بَل زادت في اشتِباهِها وعَمَّقَتِ الفَوارِقَ بينَها وبَيْنَ قُراها، وما تَعَلَّقَ على أطرافِها من مُخَيَّماتٍ ظَلَّت على حالَتِها الأولى، امتلأتِ الرواية الجديدة بمُفْرَدات العَيْش والحياة، بينَما ظَلَّ المَوْتُ واقِفًا ومُتَحَفِّزًا على هَوامِشِها العريضة على عكسِ روايَتِنا القديمة، وسَرْديَّات الموت فيها، وهوامش أعرض امتلأت بالحياة وبالاحتفالاتِ بها. وقد ساهمتِ الرواية الجديدة أيضًا في إضْعاف الهويَّة الوطنيَّة الجامعة، وتعزيز الهويَّات الفرعيَّة والعائليَّة والمحلِّيَّة، والاختلافات في البُنى الاجتماعيَّة والاقتصاديَّة بينَ الضفَّة الغربيَّة وقطاع غزَّة، مِمّا فاقَمَ في الفروقات الهُوِيَّاتيَّة بينَ شَطْرَيْ الرواية، تِلْكَ الفروقات التي تولَّدت نتيجةً لسنواتِ احتلالٍ طويلة، وعَجْز الخِطاب الجديد عن جَسْرِ الهُوّات بينَها، فراحَ يُغَذِّيها بما حَمَلَهُ من ازدواجيَّاتٍ ونَزْعاتٍ انفصاميَّة.

شَهِدَ العام 2000 آخرَ محاولةِ إحْياءٍ للعمليَّةِ السِلْمِيَّةِ، فشلت سريعًا وفشلت معها كلّ الرواية الجديدة، وفَقَدَ رُواتُها وكَتَبة الخطاب فيها القدرة على جَعْلِ الفلسطينيِّين يُصَدِّقونَ ما جاءت بها من كذباتٍ عن الحياة وعن مُصالَحاتٍ بينَ الزمان والمكان، وعن مَوْتٍ انْسَحَبَ إلى الخطوط الخَلْفِيَّة، وعن عَدُوٍّ تَخَلَّى عن خُرافاتِهِ

وتَرَجَّلَ عن وُحوشِها. ولم يَكُنْ في خطابِ قادةِ الشعب الفلسطينيّ إلّا خُمْس رواية ما كانت تَرْقى إلى كمال الأسطورة القديمة خُمْسٌ في الأرض والجغرافيا، خُمْسٌ في التاريخ وفي مَكانِهِ وَزَمانِه خُمْسٌ في الأوجاع وخُمْسٌ في البداياتِ وفي قُرْبِ النهاية. وتَخَلّوا عن أخماسِها الباقية وهيَ كلّ الحكاية، البَحْرُ والشاطِئُ والسماء هي البداية وهي كلّ النهايات، وتَمَسَّكوا بمَجْزوءِ روايةٍ تخلّى عنهم عندَ أوّلِ كِذْبة لم يُصَدِّقها أحد. وعاشَ الفلسطينيُّون على إثْرِ ذلك انفصامًا في الرواية أدخلهم جميعًا في ثُقْبٍ أسود تاريخيّ، تنازعت الروايَتانِ وحاربَ الدينُ التاريخَ وجغرافيا الرواية الجديدة، وتَفَجَّرَ في تَفاصيلِها قاصِدًا قَتْلَها. ولم يَدُمْ الأمرُ طَويلًا حتى قَفَزَ المَوْتُ من عَريضِ ما احتُلَّ من هَوامِش، تَوَسَّعَت أكثر في غَفْلةٍ عن الفلسطينيّ الذي غَرِقَ في نزاعاتِهِ الداخليَّة على حَقّ الرواية واحتِكارِ ما فيها من حَقائقَ ومُتَخَيَّلات، قَفَزَ المَوْتُ وأَطَلَّ بخُطْواتِهِ يحملُ جسدًا ثَقيلًا جاءَ يُعْلِنُ سيادَتَهُ وفَوْقِيَّة روايَتِه، أخفى تحتَ رِدائِهِ المَدَنِيّ عَسْكَرِيَّةً أَتْخَنَت فينا تَجْريحًا وتَقْتيلًا، مَشى مِشْيةَ الواثِقِ والغارِقِ في أُسْطورَتِه، والمُكَذِّبِ لخُرافاتٍ عن ساحاتٍ تَوَسَّطَت بَيْنَ الأرضِ والسماء، ومَخْلوقاتٍ خُرافيَّة حملت نَبِيَّها وَقُبَّةً صَخْرِيَّةً تحتَها صَلّى أنبياءُ اللهِ وَسَجَدوا شاكرين، وجاءَ يُبَشِّرُ أيضًا بأَلْفِيَّةٍ رابعة جَدَّدَ فيها اللهُ وَعْدَهُ واختيارَهُ لَهُ سَيِّدًا لِهَذِهِ الجغرافيا، وَسَيِّدًا على التاريخ ورواياته القديمة والجديدة، وسَيِّدًا على حَقيرِ ما خَلَقَ الله من أقوامٍ قَبْلَهُ وبَعْدَهُ.

أيلول عام 2000، اكتملت كلّ عناصرِ الانفجار، وتَشَظَّت مُفْرَداتُ الرواية الجديدة في وُجوهِ أصحابِها، وغادرَ المَوْتُ

هَوامِشَهُ واحْتَلَّ صُدورَ الصفحاتِ من جديد، تَنَكَّرَت ساحاتُ المسجدِ الأقصى لِذَلِكَ الدُخول الغريب والثقيل والمُدَجَّج بالخُرافات، انتفضت في وَجْهِهِ واغتسلت بدماءِ المُصَلِّين، وأعلنت تَمَسُّكَها بقِصَصِها القديمة. فاجَأني المشهدُ وأنا أُراقِبُهُ من عميقِ جداري، تَحَوَّلَتِ الشوارعُ المُحْتَلَّةُ سريعًا إلى ساحاتٍ حمراء راحت تغتسلُ وتُسْقِطُ عنها سبع سنواتٍ عِجاف، امتلأت بوُعوداتٍ كاذِبة وبجغرافيا تَشَوَّهَت أكثر وبنهاياتٍ تاريخيَّةٍ لم تُطْلِقْ بَعْدُ كلمَتَها الأولى. رأيتُ جيلًا كفرَ وكَذَّبَ بكلِّ ما صَدَّقَهُ أو جَعَلوهُ يُصَدِّقُه، رأيتُ حنينَهُ إلى جاهليَّته وقَبيلَتِهِ وإلى ثاراتِهِ القديمة، رأيتُهُ يُقاتِلُ ويُقْتَلُ، رأيتُهُ يغنم وَيَتَكَّسب، رأيتُهُ يصدِّق ويكذِّب، رأيتُه في ثُقْبِه الأسود عالِقًا بينَ رِوايَتَيْنِ ما عادَ يُمَيِّزُ بينَهُما، أصابَتْهُ حُمَّى الفَوْضى في صَميمِ حَواسِّهِ، قاتَلَ لا يعرفُ عن أيِّ جغرافيا يُقاتِل، فلا حدودَ لِمَوْتِه إذا مات. قاتلَ لا يعرفُ أيّ تاريخٍ يُقاتِلُ فقد غابت عن تواريخِهِ أُفُقِيّاتُ المكان وعموديَّةُ الزمان، وقاتلَ لا يهمّه عن أيِّ تاريخٍ يكتب وقد خلت ثُقوبُه السوداء من البداياتِ والنهايات، وغاصَ هُوَ في دَوائِرِها. قاتَلَ الفلسطينيّ غاضِبًا. قاتَلَ غَضَبَهُ ومَنْ أَغْضَبَه، قاتَلَ حيرَتَهُ وضَياعَ نصوصه الواضحة، قاتلَ التاريخ والجغرافيا، قاتَلَ في اللامكان واللازمان، لا تعنيه تَواقيتُ مَوْتِه أو في أيِّ أرضٍ يموت، قاتَلَ أشباهَهُ وأشباهَ مُحَوِّطاتِه، قاتَلَ لا يُصَدِّقُ إلَّا قَتْلَه وعَظيمَ أوجاعِه بعدَ مَوْتِه، حَفَرَ في ذاكِرَتِهِ واستحضرَ أغانيَ موتٍ قديمة عن حياةٍ أَقْدَم، كتبَ أغانيه الجديدة وماتَ أكثر، لقد أكلَ الفلسطينيّ من لَحْمِهِ كما أكلَ الجاهِليُّ من لَحْمِ آلِهَتِه حتى شَبِع.

قاتَلَ (جيل أوسلو) كما لم نُقاتِلْ من قَبْل مُكَذِّبًا كلّ ما حَلَّلْناه وتَوَقَّعْناه، تخلّى عن كلِّ الخِطابات وتَمَسَّكَ بمَقْدِسِهِ وَقِبْلَتِه الأولى، فيها يموت ومنها يُبْعَث إلى السماء، في حين هربت النُخَب إلى كُتُبِها وكُهوفِها، وتوقّفت عن غَزْلِ الخِطابات، وتركت جيلًا كامِلًا بِلا بوصلة يَسْتَدِلُّ بِها. قاتَلَ جيل الانتفاضة الثانية وَحيدًا بِلا ملائكةٍ تحرسه أو عِنايةٍ إلٰهيَّةٍ تُنَجِّيه من سماءٍ امتلأت بأشباحٍ حديديَّةٍ مَزَّقَت أشلاءَهُ، قاتَلوا كالأنبياء وأخطأوا كآخِرِ الخَطّائين، لَجَأوا إلى شَبيهات المُدُن يأكلونَ جوعَهم ويأمنونَ لَيْلَهم فَغُلِّقَت في وُجوههم أبوابٌ كثيرة، لم يكنْ في شبيهات المُدُن ما يسدّ جوعَهم بعدَ أن مَلَأَها الخَوْف، فأغلقت عليه ونامت وإيَّاهُ على رَصيفٍ واحد، لم يكنْ فيها وَلَوْ بَقايا خِطابات احتضانٍ واحتواءٍ وحمايةٍ لأرواحِها الفاعِلة والمُقاتِلة، أو خِطابات عملٍ شعبيٍّ مُقاوِم، فعملتِ الأرواحُ وقاتلت بِمَعْزِلٍ عن جَماهيرِها في المُدُنِ والقُرى والمُخَيَّمات. لم يقتحم (جيل أوسلو) البيوت من دَواخِلِها، لم يزرعْ فيها نَواياه أو ما خَطَّطَ لإنجازِهِ، فقد قاتَلَ غاضِبًا ومُتَوَجِّعًا وناقِمًا وما هَمَّهُ على أَيِّ شَكْلٍ ينتهي بِهِ الغضب والوجع والنقمة. وظَلَّ جيلُ الانتفاضة على قِتالِهِ لا يتوقَّف. راقَبْنا من على جِدارِنا حَرْبَهُ، لا شيءَ عَرَفْناهُ قارَبَ أو شابَهَ ما شَهِدْنا. رأينا دولة الاحتلال وقد امتلأت خَوْفًا شَلَّ فيها كلّ ما اعْتادَتْهُ من رَتابةٍ في الحياة، جَرَّبَت كُلَّ أنواعِ القَتْل ولم تُجْدِها نَفْعًا، مارست كلّ أشكال الإرهاب الفرديّ والجماعيّ، حاربت مَنْ قاتَلَ ومَنْ لا يُقاتِلُ، حاربتِ الشوارع والبُيوت، حاربتِ الأرزاقَ وسُبُل العيش وحاربتِ النِساءَ والشُيوخَ والأطفال، واخْتَرَقَ الرَصاصُ جَسَد

محمَّد الدُرَّة بعدَ أن مَزَّقَ حواجِزَ أبيه الجسديَّة التي حاولت مَنْعَ قَتْلِه، وقَتْلٌ آخرُ كثيرٌ وأَشَدّ بَشاعةً لم يَرْدَعْ جيلًا قَرَّرَ أن يموت.

على الجانب الآخر من الكوكب، بَنى بعض سَلَف الإسلام قاعدةً لَهُ، حَلَّقوا على مَتْنِ حَداثةٍ كَفَّروها، فَتَهَدَّمَت أبراجٌ وتبعثرت مَقَرّات، وأعلنَ العالَمُ حربَهُ وأُعِدَّتِ الجُيوش وامتلأَ الكَوْنُ بخِطاباتِ الثأرِ والانتقام، انْضَمَّ كلّ مَن تَطَرَّفَ فيهِ جوعُهُ وفَقْرُه، دينُه ومَذْهَبُه أو إحباطُه وتهميشُه إلى رايةٍ إسلاميَّة حملت خِطابًا هامِشِيًّا يُشْبِهُها، وراحوا جميعًا يُقاتِلونَ ويُقْتَلون باسْمِ دينٍ شَحَّت فيهِ رُخَصُ القَتْلِ وأُذونات الحروب، ازدادَ المشهدُ على الساحة الفلسطينيَّة تعقيدًا، وكأنَّ آلات القَتْلِ المحلِّيَّة ما عادت تَكْفي لِقَمْع جيل الانتفاضة، فانضمَّت إليها آلاتٌ أَشَدّ فَتْكًا وَقَتْلًا وخطابات ثأرٍ تطرَّفت فيها كُلّ عَناصِرِ الخِطاب، وصارَ على جيلٍ ضاقَ بحِساباتِه المحلِّيَّة والإقليميَّة ـ فأدارَ لَها مَوْتَه، أن يَتَّقي شُرورَ حِساباتٍ كَوْنِيَّة ما كانَ لِيَتَحَمَّلَ اتِّساعَ مُؤامَراتِها. وغابتِ النُخَبُ من جديد عن مَشْهَدٍ تَعَقَّدَ أكثر. مُحاوَلاتُ تهدئة ومشروعاتُ هُدْنة كلّها باءت بالفشل. قاتَلَ الفلسطينيّ أكثر، لا تَرْدَعُهُ عالَمِيَّةُ ما يُحاكُ ضدَّ مَوْتِه، وأوجعَ في عدوِّه قدر ما استطاع. تَعِبَت دولةُ الاحتلال قَتْلَها، اجتاحت ساحاتِ وشوارعَ أشباهِ المدن، حاصرت كبير الرُواة في مُقاطَعَتِه، لاحَقَت وطاردت كلّ روحٍ مُقاتِلة، قتلت واعتقلتْ، أخمدت كُلَّ نارٍ مُمْكِنة أو احتمالات اشتعال، وعادت إلى احتلالِها القديم. جلسَ الناسُ في بُيوتِهم إلى جانِبِ خَوْفِهم، خَفَتَت كلّ الأصوات وظَلَّ صَوْتٌ وحيدٌ يصرخ من حِصارِه لا أحدَ يُنْجيه، زادَ الاحتلالُ في حِصارِهِ

كبير الرُواة، وَضَيَّقَ عليه الخِناقَ أكثر، لكنَّه لم يتوقَّف عن صُراخِهِ ومُقَدَّساتِه، تَعِبَ من الصُراخ وتَعِبَ صُراخُه، ضَيَّقوا عليه أكثر يَئِسوا انتظارَ مَوْتٍ يُسْكِتُ صُراخَهُ، فقَتَلوه.

كُنّا وَجَدْنا مُواساةً في تصديقِنا ختمَ تَعَلُّقِنا على الجُدْران تغريبةَ تَعَلُّقٍ طَويلة، وكم كُنّا ساذجين حينها!

أَلَم

«يستطيعُ الإنسانُ تَحَمُّلَ كُلِّ أصنافِ الوجع
ما عدا الوجع الذي لا يفهمه»

(نيتشه)

لَيْتَنا كُنَّا آخر مَنْ يتعلَّق على الجدران! كُنَّا قد سَلَّمْنا بنومِنا العميق واستسلمنا لأقدارٍ صنعتها أيادٍ متردِّدة وغير واثقة، ورُحْنا نُصَلِّي خاتمةَ أحزانٍ وتعَلُّقٍ تُعَجِّلُ في قُدومِها. كم كنَّا ساذجين! كنتُ قد غادرتُ صحرائي إلى معتقل عسقلان حينَ بدأت أفواجُ المُتَعَلِّقينَ الجُدُد طريقَها إلى جُدْرانِنا، كَثُرَت الاعتقالات وغَصَّت أقسامُ التحقيق والمعتقلات بآلافِ الأَسْرى الوافِدين. لم يكنْ هناك ما يكفي من جدران، فأُعيدَ افتتاح جدرانٍ قديمة تستوعبُ موجاتٍ لا تنتهي مِن أرواحٍ جاءت تتعلَّقُ أَوَّل جدرانِها. ولأسبابٍ جغرافيَّة وأخرى ديموغرافيَّة، تمَّ ترحيلي أنا وعديد الأرواح إلى مُعْتَقَل نفحة الصحراويّ.

في العام 2002، أعادت مصلحة سجون الاحتلال افتتاح

أقسام المُعْتَقَل القديمة التي كانت قد أغلقتها قبلَ سنواتٍ قليلة تمَّ اختياري إلى جانب بعض الأرواح القديمة من أجلِ تجهيز تلك الأقسام من جديد، واستقبال الوافدين الجُدُد، وتسهيل فاتِحات تَعَلُّقِهم. تَوَزَّعْنا على الغُرَف الفارغة بعدَ أن جَهَّزْناها بكلِّ ما يلزم، وجلسنا ننتظر أَوَّلَ قُدوم يأتي. كانَ عَلَيَّ أن أخرج من سباتي العميق على جداري، وأن أتخلَّى عن تَوَحُّدي ووحدتي ورَتابة تَفاصيلي. خَرَجْتُ بِلا رَبٍّ أَعْبُدُه وبِلا أَبٍ يُعَوِّضُ غيابه ومع أُمٍّ قَرَّرَت دولة الاحتلال منعها من زيارَتي، ومع طاقاتٍ كانت تكفيني تَعَلُّقي. خرجتُ من سُباتي حاملًا معي روايَتي القديمة وجداري ورَوْعة تَعَلُّقي وتسليمي، وأطنانًا من الرِضا والقَبول ومثلها من النيَّات الحسنة والطَيِّبة، ونصفها من الجهوزيَّة والاستعداد لمرافقة أرواحٍ جديدة وأخرى مخضرمة في أوَّل أوجاعها الجديدة وآخِر جروحاتها الطريَّة.

أَيُّ الأوجاعِ تطعَنُ فينا أعمق، جديدُها أم تلك التي تَقادَمَت وتَعَوَّدْنا وأَلِفْنا صَداها فينا؟ ما الذي يُوْجِعُنا أكثر، ما تَخَلَّيْنا عنه أم ما تَمَسَّكْنا به ونتمسَّك، حضورنا في هذه الحياة أم غيابنا عن حياةٍ أخرى محتملة؟ هل يُوْجِعُنا فراق حبيباتنا لَنا أم يوجعنا أكثر أسماءُ وصفاتُ عُشّاقٍ يأتونَ بَعْدَنا؟ أينَ تنتهي حدود أوجاعِنا وهل يَظَلُّ فينا شيءٌ بعدَها؟ كيفَ يسكنُ جزأنا جرحٌ وتَتَجاهَلُه بقيَّةُ الأجزاء؟ متى يَطْوي جُرْحٌ جُرْحًا وهل حَقًّا تُطْوى فينا جروحاتنا؟!

إذا أصابَنا جُرْحٌ في روحِنا أو في الجسد، فإنَّ أوَّل ما نستشعره هو الوجع ـ هذا الخلل العضويّ الذي يُشَوِّشُ فينا وَعْيَنا، ويُقَلِّلُ من قدراتِنا على نظمِ أجسادِنا وتحديدِ أدوارِها

الوظيفيَّة، يُقْلِقُنا تمرُّد أجسادنا علينا وخَلْقُها إرادةً خاصَّةً بها بعيدةً عن إرادتنا، تنتصب إذا شاءت وتنهار إذا بَدَّلَت في رَأْيِها، تنامُ على أيِّ جَنْبٍ تريده وتُبْقينا على حافَّةِ نومِنا، وتشفى على وتيرَتِها أو تموتُ إنْ ضاقت بِنا ومَلَّت صُحْبَتَنا الثقيلة.

إنَّ الأوجاعَ تظلّ ممكنة، لكن الذي لا نُطيقُهُ هو عذاباتُها والذي يخلق العذاب هو انتظارنا لانتهاء أوجاعِنا. الانتظار يجعل الأوجاع ترتقي إلى مستوى الأَلَم، وهو ما لا نستطيعه ونعجزُ عن مُداواتِه، لأنْ لا دَواءَ يُقَصِّرُ فينا انتظارَنا، ففي حين ينحصر فينا الوجع في اختلالٍ عضويّ يطرأ على أجسادنا يستولي الأَلَم على وَعْيِنا ويُجَمِّدُه. نجلس على أطراف أوجاعِنا، نُصَلّي انتهاءَها نرقُبُها في حركَتِها البَطيئة، ونقتل ساعاتِها بغَريب الطُرُق والوسائل، تتعطَّل فينا كلّ أشكال حياة ما بينَ الوجع، وأحيانًا تنتفي ولا يظلّ فينا إلَّا أوجاعُنا. هَكَذا، وعن طريقِ الانتظار يَتَسَلَّلُ الألم إلى وَعْيِنا وَيُؤَبِّدُ فينا عذاباتِنا من جروحِنا، فَلا تَعودُ مُمْكِنة أو مُحْتَمَلة. وفقط إذا توقَّفنا عن الانتظار، وعانَقْنا أوجاعَنا مُلْتَصِقين، نُصْبِحُ قادرين على طَرْدِ العَذابِ عَنّا وَإِنْقاذ وَعْيِنا من أَلَمٍ يتملَّكه، فالجُروحُ تكرهُ إنكارَنا لَها وانتظارَنا انتهاءَها، ونَفْضَنا عنْ أجسادِنا كلّ عَلامةٍ أو نَدْبَةٍ خَلَّفَتْها علينا، فتُطيلُ في عُمْرِها وتُؤَخِّرُ شفاءَها، وتلعنُ انتظارَنا وإنكارَنا لها وغربَتَها عَنّا.

كانَ في تعلُّقي على جدار الشَبْح في أقسام التحقيق عذابٌ لا يُحْتَمَل، وكانَ صاحَبَ ورافَقَ تَعَلُّقي وشَبْحي صَوْتُ موسيقى كلاسيكيَّة صَمَّت آذانَ كُلِّ مَنْ تَعَلَّقوا مَعي وَشُبِحَت أجسادُهم. طريقةٌ أخرى وجدَ فيها المُحَقِّقون وسيلةً في كَسْرِنا، لم يكنْ فينا

ما يُنْجي أسماعَنا من صُراخِ جُمَلٍ موسيقيَّةٍ شديدة التعقيد على مزاجِنا الشرقيّ الغارق في أرباع النغمات وفي مقاماتٍ هَذَّبَت صُراخَنا. لم تُسْعِفْني صلواتي انقطاعَ التَيَّار الكهربائيّ وَلَوْ لساعة ألتقطُ فيها استماعي، فَقَرَّرْتُ الاستمتاع بالموسيقى على الرَّغم من غَرابَتِها وجهلي بِها، كانت الموسيقى تَصْلُحُ لرقصاتٍ لا أُتْقِنُها لَوْ أَنَّها تهدأُ قليلًا. نسيتُ جهلي بفنونِ الرقص الصالونيّ، وتجاهلتُ صراخ الموسيقى، اخْتَرْتُ من النساء الأجمل بعدَ أن نزعت عنها نصف ما غَطَّت به أسرارَها، وبدأنا رقصتنا في ساحةٍ نائية على كوكبٍ بعيدٍ في زمنٍ لم يبدأ بعد. بَدَّلْتُ في شَريكاتي في الرقص ونزعتُ مزيدًا من الثياب. لا زِلْتُ أندهشُ من نزعاتِنا الذكوريَّة واقتحامِها شَديدَ ما يعترينا من أزمات. هَكَذا، عانقتُ موسيقى كُلِّفَت بإزعاجي حتى كَسْري، وتوقَّفتُ عن انتظاري انقطاع أنفاسها حتى صارَ في بدايَتِها في كلِّ يوم دعوةٌ للرقص مع جميلةٍ تَعَطَّفَت وقبلت دعوتي، ولم تُزْعِجْها وَقَاحَتي في اختيار الثياب ونزعها عنها لاحِقًا.

رافَقَني هَذا التَصالُح مع أوجاعي من جروحاتي طوالَ سبعةٍ وعشرين عامًا، وما كنتُ لِأَنْجو من جروحات القَيْد والضيق لَوْلا تَصالُحي ذاك. إنَّ الأشياء هيَ ما نُريدُهُ لَها أن تكون «فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ، إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا». لم أقل ما قالَتْهُ السَحَرة لفرعون مصر، بل حملتُ حكم المؤبَّد من قاعة محكمة الاحتلال وعُدْتُ بِهِ مُثْقَلًا إلى زنزانَتي في قسم العزل، ما كانَ مؤبَّدي لينتزعَ منِّي حياةً وَدَّعْتُها على جدارٍ أسود في أَقْبِيَةِ التحقيق زَرَعْتُ مؤبَّدي على جداري لا أُحاكِمُه ولا أُنازِعُه، أسكَنْتُه إلى

جانب جراحاتي الأخرى، رأيتُ فيه حُكْمًا على حياةٍ سابقة ولا تعنيه قادِمات أيَّامي ولا يعنيها. رأيتُ فيه جُرْحًا أُضَمِّدُهُ ولا أنتظرُ شفاءَهُ، أُعانِقُهُ لا أَمَلُّه أبدًا، أَسُبُّهُ وألعنه لعنةَ متخاصِمَيْنِ لا عَداوةَ بينَهُما، وأصالِحُه فيرضى سريعًا كالذي تمنَّى مُصالَحَتي.

«مُؤَبَّد»

مُؤَبَّد!
يا لِقَساوةِ الحُروف واخْتِزالِ اللُغات
طول السفر
مُؤَبَّد!
ميمُ المسافة
واوُ الوُقوف
باءُ البداية
دالُ الدهرِ
مُؤَبَّد!
المسافةُ بيني وبينَ أنا المُسافر والمُغادِر
سفح القمر
الوقوفُ بينَ يَدَيَّ في الساعةِ آلافِ المَرَّات
ويُدْهِشُني الغياب

بدايةٌ من الماضي تأخذُني إلى القديم وأعودُ
مُثْقَلًا بالأسئلة
ودهرٌ لا يروي الهزائم، كُلُّ أمرِهِ انتصارٌ
وكُلُّ فِعْلي انسحاب.

مُؤَبَّد!
رخصةٌ للقتلِ لا تقتل، سيفُها من الورق
ومن سنيني
مَجازٌ في بطشِهِ وفي قهري
مُجازٌ يحترف تنويري، فلا
أجهل.
من جاءَ هُنا أَوَّلًا واستبعلَ المكان
والساعة ومن يظلُّ أخيرًا
ودرجات الحرارة في ساعةِ الشمس
وخلفَ الشمسِ وفي قُبورِنا
إذا مُتْنا.
مُؤَبَّدٌ يُقَرِّرُ مَنْ يفنى
ومن يستقلُّ حافلةً بعدَ انتصافِ الليلِ
ويأتي هُنا
ينامُ ساعةً طويلةً، يصحو، ويَلْعَنُ ما

كَتَبْناهُ عن الصبر
على الجدران.

مُؤَبَّد!
حِكْمٌ بأن أَظَلَّ حَيًّا ولا أموتُ قبلَ
موعدي
إلَّا صدفة
وعن غيرِ قصدٍ، حِكْمٌ بالحياةِ
طويلًا
لا أَيْأَسُ فَلا يحقُّ لي، لا أتجاهل ولا
أَخْرُجُ من جسدك،
لا أستبدلُ الأسماءَ بغيرِها ويظلُّ الجدارُ
جدارًا
والقَيْدُ
وحارِسي الجنديّ
والمُؤَبَّد
وهُنا الطويل المُمِلّ
والسماءُ السقفُ
والبابُ الأزرقُ الثَقيل
والفيزياءُ

والكورونا
وشخيرُ الأرواحِ
والكوابيسُ المُزْعِجة.

مُؤَبَّد!
مكانٌ خَلْفَ المكانِ لا يُطِلُّ أحد.
هُنا يأتي
المُتَهَوِّرونَ
والقَلِقون من تَبَدُّد الأحلام والنبوءات
المُتَصَوِّفونَ
وحُرّاس الغابة والخَوارِجُ والحَشّاشون وأحفادُ الذينَ
ماتوا واقِفين
وواقِفات
المُعَذَّبون
والمَحْرومونَ وأبناء الخيام وتُجَّار الكلام والذينَ
يكذبونَ بِلا تَوَقُّف
والكاذِبات.
هُنا
يأتي صُنّاع المَرايا والساهِرونَ والذينَ يحفرونَ
القُبور على أسطح المنازل

والقابِضون على الأسرار
والسابحونَ في نِصْفِ الساعةِ القادمة
والسابِحات.
هُنا في المُؤَبَّد
تبدأُ الحكاية مِنَ السطرِ الأخير، وصلتُ هُنا
قبلَ شُروقِ الشمس
ولا زالت لا تُشْرِق، قلتُ في عِشْريني
جُمَلًا بسيطةً
وتوقَّفتُ بعدَها عن صَكِّ الحُروفِ والأرقام
لا شيءَ يَكْبُرُ في المُؤَبَّد
إلَّا المُؤَبَّد
لا أحدَ يَرْثي موتَهُ، فكُلُّنا لا يموت
لا نقولُ في يومِنا غيرِ الذي
قُلْناهُ
كُلُّنا
كُنَّا
وكُنَّا
ولا ندري متى نكونُ، جئتُ هُنا
مُسْرِعًا
ليسَ في حَقائبي سِوى بعض الصُوَر القديمة

وجُرْحًا طَرِيًّا
وصلاةَ امرأةٍ عَجوزٍ هيَ أصلُ الحكاية
ومُخَيَّمًا
أَبَّدَ فيَّ عُقْدةَ التهميش.

هُنا في المُؤَبَّد
ترتدي الجدرانُ ظِلَّها متى تشاء
وتخلعُ من تشاء عن
ظِلِّهِ
تنامُ زِنْزانَتي قبلي
كأنِّي الذي
يحرسُ!
ويشيخُ حارِسي الجُنْدِيّ وأنا لا
أَكْبُر
تتوقَّفُ الأيَّامُ عن عَدِّها
وأتوقَّف
يتسمَّر الإيمان في مكانِهِ، لا يرقى ولا
يهبط
تتعدَّدُ الأربابُ
والأبوابُ

والأسبابُ.
هُنا في المؤبَّد يتجاهلُ الوُجودُ
غياب الشمس في موقعِها والأقمارَ وكانونَ
الأَوَّل والثاني..
وأنا أحملُ يومي
والشتاء القادم
ورقمي المتسلسل
وصورَتي في بطاقةِ التشخيص.

مُؤَبَّد!
يعطيكَ كُلَّ الوقتِ ويأخذُ وقتَكَ
كُلَّه
يدعوكَ إلى رِفْقةٍ
طويلةٍ
مع الأسماء التي تتكرَّر
والوجوه
يُثْقِلُ عليكَ في حضورِهِ، وإذا غابَ
لا يقيمُ لكَ وزنًا.
يَداهُ
مُلَطَّخَتانِ

بعَجْزِكَ واستلابِك وعَطَشِك.
مخلوقٌ
من الأزل، متفوِّقٌ عليكَ أنتَ الموقَّت
باقٍ بعدَكَ.
يشهدُ على مرورِكَ القصير
ويُطْلِقُ على أوجاعِكَ أسماءً
مُزَوَّرة

مُؤَبَّد!
أوَّلُ ما يظهرُ على وجهي في المرآة
أوَّل من يأكلُ من صحني
أوَّل العابثين بأقداري، أوَّلُ أوجاعي
إذا تألَّمتُ
أوَّلُ حديثي حينَ أعرف
أوَّلُ من يهزأ بانتصاري متى سَهْوًا
ظننتُ
أوَّلُ من يقرأ انفعالي
أوَّلُ المُشَيِّعينَ متى نَوى قتْلي وإذا
مِتُّ.
مُؤَبَّدٌ في كامِلِ عافِيَتِه

مرصوفٌ كالأحجيات
غدًا يأمرُ باعتقالي مجدَّدًا ويجلسُ على
كرسِيِّهِ في غرفةِ التحقيق
يقرأُ عَلَيَّ لوائح اتِّهامي.

أنا المُؤَبَّد
الآن وبعدَ انتهاءِ الآن وفي كُلِّ آنٍ
سيأتي.
عندي وافرٌ من الآن، من يُطْلِقُ النارَ
على وقتي
من يُطْلِقُ سَراحَ الساعةِ
من يُخْرِجُني من دائرة الوقت
ومتى يشفى جداري من دُوارِ البحرِ؟

أنا المُؤَبَّد
لا شيءَ فِيَّ يقتربُ من نهايَتِهِ
أو يبدأ.

في السِجْنِ، يُمْكِنُ للأَلَم أن يُقَيِّدَ فيكَ كُلَّكَ وأن يغرسَكَ عميقًا في تكتونيَّات حَبْسِك، يمكنه فَصْلَكَ عن ذاتِك وعن أَناواتِكَ وَكَأَنَّ لا ذاتَ لك، أو طَعْنَكَ في قديم جُرْحِك إن تقادَمَت فيكَ جروحاتُك، ويمكنه أن يَصْلُبَكَ نازِفًا ولَا أحدَ يُقَدِّسُ فيكَ نَزْفَك. في السجن، إذا استقَرَّ فيكَ الجُرْح وَوَقَفْتَ على حافَّتِه تنتظرُ سُقوطَكَ عنه تكون قد أَبَّدْتَ عذابك وشرَّعتَ بابَكَ لِأَلَم لا طاقةَ لك به، يمكن للأَلَم أن يُعَلِّقَكَ على سقفِ يومِك فلاً لَيْلَ ولا أقمارَ ولا نجمات، يمكنها أن تشُلَّ فيكَ كلّ متغيِّر، ولا يستقرّ عندَكَ إلَّا جُرْحُكَ وعذابٌ لا يعنيه انتظارُك، يَصْطَفُّ الأَلَمُ أمامَكَ إذا قُمْتَ مُصَلِّيًا ويسجدُ قبلَكَ يدعو رَبَّكَ بَقاءَهُ بعدَك، يَسْبِقُكَ إلى نومِك، يصحو ساعةً قَبْلَك، يغسلُ بِلا ماءٍ وَجْهَك، يُعِدُّ لَكَ الإفطار وفنجان شايك أو القهوة إنْ كُنْتَ تُفَضِّل، يرتدي ثيابَك يحترقُ معكَ في ساعةِ الشمس، يتوسَّط كلّ أحاديثِك مع أرواحٍ جاءت تمشي إلى جانِبِك احتراقَها، يَسْبِقُكَ إلى غُرْفَةِ الزيارة وَيُفْشي لِأُمِّكَ عن كَذِباتِك، يستقبل معك زائرتك كلّ ليلة، ومعًا

تمزّقانِ عنها ثيابَها، وتمارسان كلّ أنواع العنف والشُذوذ على جسد بَتولٍ في تجاربه.

في السجن، يُشَوِّهُ فيكَ الألم كلّ أفعالك، ويتبرأ منك إذا مرَّةً وَقَفْتَ عاريًا على سقفِ مرآتِك!

يقول حِكْمَت: «تستطيع أن تقضي في السجن عشرين سنة أو أكثر شريطةَ أن لا تَسْوَدَّ فيكَ الجوهرة النائمة تحت ثَدْيِك الأيسر»[1]. ليتَ الأمرَ كانَ قلبيًّا فقط، كنَّا احْتَمَلْنا جميعًا سِجْنَنا إنَّ الأمرَ مَوْضوعُ وَعْيٍ مَحْض وموضوعُ قرارٍ نَتَّخِذُهُ وَنُعَرِّفُ به مُحيطاتِنا، ونُسْقِطُ عنهاً كلّ ما عَلِقَ بها من معانٍ ومقاصدَ ونُلْبِسُها ما نشاء من مُفْرَداتٍ وعناصر خطاب. نستطيع احتمال كلّ أصناف الوجع إذا عانَقْنا وقَبِلْنا وسَلَّمْنا وجودَهُ فينا، إنْ تَوَقَّفْنا عن الانتظار وغَيَّبْنا عن وَعْيِنا تصديقَنا حِدَّةَ الأوجاع. إنَّ استشعارَنا أوجاعَنا وحدَهُ لا يكفي بَلْ يلزمُنا فَهْمُها وتحديد أصنافِها وعُمْقِ كلّ وجعٍ منها، ورسم مسافاتٍ واضحة بينَنا وبينَها، فَلا نُفارِقُ أو نَتَنَكَّرُ نُعانِقُ حينًا ونتمسَّك، وحينًا نتخلَّى ليسَ بقصد التَخَلّي والخلاص. إنَّ لكلِّ جرحٍ حكايةً يلزمُنا من أجلِ فهمِها اقترابٌ كثيرٌ والتِصاق وقد يلزمُنا أحيانًا بعضٌ من الابتعاد يُوْقِظُ فينا رومانسيَّاتِنا فلا نعودُ نرى في جروحِنا أوجاعَها فقط، بل نَعي فيها معاني ما قبلَ وما بعدَ الوجع.

في السجنِ، لا معنى للجِدار إنْ لم نرَ فيهِ ما قبلَه وما بعدَهُ وَبَقينا على تَمَسُّكِنا به لا نتخلَّى، ولا معنى للجدار في السِجْن إنْ

(1) ناظم حكمت: شاعر تُرْكي.

صَرَفْناهُ عَنّا وتَعَوَّذْنا من ذِكْرِهِ، وحَمَدْنا الله إذا ذِكْراهُ غابت فينا وتبخَّرت في ساعةِ الشمسِ خيالاته.

رأيتُ في السجنِ أرواحًا قضت عقديْنِ وأكثر دونَ أن تلتصق بجدارها وَلَوْ لساعة، عَمِيَت عنهُ وأبصرت كلّ حياةٍ خَلْفَهُ؛ لم يَتْرُكِ الجِدارُ على أجسادهم علاماتٍ تُذْكَر أو تُرى عَدا تجاعيد شَوَّهَ بها وجوهَهم. وسمعتُ أرواحًا أخرى قضت معنا في السجنِ عقديْن وأكثر وتحرَّرتْ، فكانَ أوَّلَ خطابِها نَفْضُها غُبارَ السجنِ عنها. واللهِ ما عاشوا سجنَهم يومًا ولا تَعَلَّقوا، حَزِنْتُ على مَنْ عَمِيَت أبصارُهم وأغضَبَني خطاب نافِضي الغُبار، أيُّ حكايةٍ سَيَرْوونَها وليسَ في جُروحِهم أيُّ حكايةٍ تُرْوَى.

شباط 2002، كانَ زمانُ نُزولي إلى الأقسام القديمة في مُعْتَقَل نفحة الصحراويّ. رافَقَني في النُزول بعضُ قُدامى الأرواح التي أبدتِ استعدادَها تَرْكَ تَعَلُّقِها القديم وبدء مرحلةِ تَعَلُّقٍ جديدة مع جديدِ الأرواحِ التي بدأت تتوافَدُ إلى المعتقل، لم تَمْضِ إلَّا بضعة أيَّام حتى امتلأتِ الأقسامُ الأربعة بأوجاعٍ جديدة وجراحاتٍ طريَّة. أعددنا الغُرَف وجَهَّزْناها بما يلزم، أعددنا برامج تنظيميَّة لم نُكَثِّف أو نُعَقِّد في تَفاصيلِها رحمةً بالأرواح الجديدة، ولإعطائِها مساحةً تلتقطُ فيها أنفاسَها بعدَ طولِ مُلاحَقاتٍ أرهقت أجسادَها قبلَ وصولِها إلينا. ما كانَ باستطاعَتي استقبال ومساعدة الأرواح الجديدة وأنا على تَعَلُّقي القديم. كانوا بِحاجةٍ إلى تَعَلُّقٍ يشبههم ولم يكنْ في تَعَلُّقِنا ما يشبه جديدَهم. ولأنَّ التجارب لا تُوَرَّث ولأنَّ لكلِّ روحٍ حكايةً منها وبها ستُحَدِّد طبيعة علاقتها مع جدارِها، اخْتَرْتُ أن أُرافِقَ الأرواح في طريقِها من بدايَتِها عَلِّي

أُسانِدُ أو أُساعِدُ أو أُجيبُ عن أسئلةٍ تعذَّرت عليها إجاباتها وأقولُ لهم ما أعرفه عن الجدار ولا أخصُّ جداري. كانت علاماتُ الثُقْبِ الأسود ما زالت ظاهرةً عليهم، قَفَزوا إلى جدرانِهم من أرضٍ عَلِقَت بينَ روايَتَيْن، صَدَّقوا من هذه وصَدَّقوا من تلك حتى اختلطت عليهم الروايتان.

كانَ جيلُ الانتفاضة الأولى ومن سبقه من أجيالٍ قاتلت أصحابَ روايةٍ كتبتها نُخَب الحركة الوطنيَّة الفلسطينيَّة، وكانَ في روايَتِها عن الأرض بعض الكونيَّات وكثيرٌ من الإقليميّ والمحلِّيّ ما جعلها تُشَكِّلُ فضاءً سياسيًّا وثقافيًّا جامعًا للكلِّ الفلسطينيّ بينَما كان الخطابُ الإسلاميّ حينَها هامشيًّا ولم يُشَكِّلْ أيَّ نوعٍ من أنواع التحدِّي لخطاب الحركة الوطنيَّة. حَفِظْنا جميعًا تفاصيل روايَتِنا، فتناغَمَت إلى حَدٍّ كبير خطوات الأرواح الفاعلة والمُقاتِلة. أمَّا جيل الانتفاضة الثانية، فقد نشأَ في فضاءٍ تَشَرْذَمَت فيهِ الحركة الوطنيَّة وظهرت على الساحة قُوى التيّار الإسلاميّ التي قاتَلَت وانتزعت اعترافًا جماهيريًّا بخِطابِها وروايَتِها، اختلطَ على الفلسطينيّ نتيجةً لذلك فضاؤُهُ، وسقطَ في ثُقْبٍ أسود تنازعت فيهِ روايَتانِ متناقِضَتان عن تاريخ وجغرافيا أرضٍ ما كانت لتحتملَ أكثر من رواية.

راقبتُ الأرواح الجديدة عن كَثَب، أرواحًا بَتولة تَحَرَّشَ الجدارُ بأجسادِها بِلُطْف، وتَخَشَّنَ في تَحَرُّشِهِ في أحيانٍ أخرى. مُحاوَلاتُ تَشَبُّثٍ عُذْرِيَّة وانزلاقٌ كثيرٌ ومؤلمٌ في أحيانٍ عديدة، لم أَتَدَخَّلْ إلَّا في حالات انزلاقٍ تطرَّفت حتى خشيتُ على أصحابِها رهبةَ السُقوط، ولم أُمْعِنْ في تَدَخُّلي بل أبقَيْتُه على قليلِه، بينَما

غالَت بعضُ الأرواحِ القديمة في دَفْعِها واستعجالِها تَشَبُّثَ وتَعَلُّقَ الأرواح الجديدة رغبةً منها في تَثْبيتِ حالةٍ من الاستقرار داخل الأقسام والغُرَف. عاندت الأرواحُ الجديدة دَفْعَها واستعجالَها وأَصَرَّت على إيجاد سَبيلِها وطريقِها على وَتيرَتِها ودونَ دَفْعٍ من أحد، تعلَّقت كثيرًا وسقطت أكثر، قامت وتعلَّقت من جديد وكتبت على جدرانِها بأبجديَّتها هيَ، كَتَبَت ما عَرَفَتْهُ وجَرَّبَتْهُ وكَتَبَت ما بعثرَها وأضاعَ فيها روايَتها. لم تَرُق الكتابة الجديدة للأرواحِ القديمة فمارست كلّ أنواع التدخُّل، وسادت حالةٌ من التَنافُر ستَدومُ سنواتٍ طويلة قادمة. كتبت الأرواحُ الجديدة بكلِّ اللغات ولم تَكُنْ قراءَتي لها سهلة أبدًا، كتبت بفوضى ما عاشَتْهُ في ثُقوبِها السوداء وصَدَّقَت انتظامَه، بَحَثَت لها عن حَيِّزٍ في جدرانٍ امتلأت بالأرواح القديمة، زاحمت حَيِّزَها وحَقَّها في شَغْلِ المكان وإنْ ضاق، وبحثت عن اعترافٍ بكلِّ ما رَوَتْهُ وجاءت ترويهِ وتكتُبُه على الجدران القديمة رافَضَةً كلّ محاوَلةٍ لتهميشِها.

بقيتُ على مُراقَبَتي ومُرافَقَتي تَعَلُّق وانزلاق الأرواح الجديدة استطعتُ في مرَّاتٍ عديدة سَماعَ ارتطامِها إثْرَ السُقوط. قُلْتُ كَلامًا عامًّا كثيرًا في الوجع والألم عَلَّ شيئًا في حَديثي يُضيءُ ولو زاويةً واحدةً مُظْلِمة في حَيِّزِهم، أو عَلَّهُ يساعِدُها على فَهْم الأَلَم فأُوَفِّرُ عليها عَذابًا كثيرًا. قُلْتُ كثيرًا في الالتصاقِ والتَمَسُّك والتَخَلّي بَدا كَلامي أعجميًّا للعديد منها، في حين أَنْصَتَت أخرى باهتمام جعلَني أُصَدِّقُ نَفْعَ حديثي وجَدْواهُ. قُلْتُ كثيرًا عن الرواية القديمة وتعلُّقها ووضوح ما فيها من أوجاع. قُلْتُ كثيرًا آخر عن بَتوليَّةِ تَعَلُّقِهم واشتباه الأَلَم فيه. عَرَفْتُ أَنَّ أنفاسي لا تكفي بُعيدَ مشوارِ

مَنْ جاؤوا وتَعَلَّقوا إلى جانبي، فبدأتُ بترتيبِ أوراقي التي بَعْثَرَها قُدومُهم كي أستعيدَ رَتابَتي القديمة، نجحت مَساعِيَّ سريعًا وصِرْتُ وأنا على جداري الثابت أكثر قُرْبًا من مشهد التَنافُر بينَ قَديمِنا والجديد وتَجَلِّياتِه في سَنَواتٍ ستأتي.

خُذْ جُرْحَكَ إلى أيِّ طَرَفٍ لأيِّ سَماءٍ تَشاء، واضْرِبْ به عُرْضَ كُلِّ ما فيكَ مِن جسد. تَموتُ أنتَ إنْ ظَلَّ جُرْحُكَ واعيًا. دَعْهُ يمت أو يَنم، ولا تُزْعِجْ بانتظارِكَ نَوْمَه، كَذِّبْ فيهِ كلّ ادِّعاءات الألم فالأوجاع كالأحلام تُصْبِحُ حقيقةً لَوْ صَدَّقْناها، كُنْ أعمق من جُرْحِك وأكبر، لا تَكُنْ على هامِشِه وَلْيَكُنْ هامِشَك. دَعْ حياتَكَ قَبْلَهُ يَهَبْكَ ألفَ حياةٍ أخرى ومثلَها احتمالاتٍ للوجع. لَسْنا أوجاعَنا، نحنُ خَلْقٌ كثير قبلَها وكُلُّ خَلْقٍ بعدَها، لا تَقَعْ في غَرام جُرْحِك ولا يُغازِلَنَّكَ دَوْرُ الضحيَّة، جروحُكَ أنتَ صاحِبُها فَلا تُنْكِرْ قرارَكَ جُرْحَك، في السجنِ أنتَ سِجْنُك، وسِجْنُكَ بَعْضُهُ أنت، إنْ سَقَطَ أبوكَ فالْتَقِطْهُ، إنْ فارَقَتْكَ مَنْ تُحِبّ فَلا بَأْس ولا تُصَدِّقْ فراقَها إذا حَقًّا أَحَبَّتْكَ؛ إذا جاءتْكَ أُمُّكَ زائرةً فاسْقُطْ في حَضْرَتِها لا تَتَرَدَّدْ، تِلْكَ أوجاعُك، فَتَعَلَّمْ عظيمَ وجعِك واقتربْ لا تَخْشَ اقترابًا فكُلُّ أوجاعِكَ مُمْكِنة إلَّا تلكَ التي لا تفهمُها.

مَرَّت الشهورُ بِبُطْءٍ شديد، ومن غيرِ سابقِ إرادة ظهرَ اللهُ مُجَدَّدًا على جداري، وكانَ قد سبقَ ظُهورَهُ محاوَلاتُ غزلٍ قديم مُتَبادَلة داعبت روحي، تَقَدَّمْتُ باتِّجاهه خطوةً وتراجعتُ أخرى وبقيتُ على تَرَدُّدي حتى ظهرت حبيبةٌ كنتُ حملتُها طفلةً على أكتافي قبلَ دَهْرٍ ونيِّف، ودفعت بي إلى حُضْنِ رَبِّي من جديد وكانت تلكَ مقدِّمةً لمشوارٍ جديد أُغادِرُ فيهِ الصحراء إلى العُشْبِ

تاركًا ورائي جاهليَّتي المتنوِّرة، أغادرُ إلى معتقل هدريم المُقام على أراضي قرية أُمّ خالد المُحْتَلَّة في وسط فلسطين، وسأغادِرُ بِمَعِيَّةِ رَبّي الذي عادَ بعدَ غيابٍ أَطَلْتُهُ، لنبدأَ معًا مشوارَ تَعَلُّقٍ جديدٍ سيُفاجِئُنا نحنُ الاثْنَيْن.

أُمّ خالد

لم تُعْجِبْ وَقاحَتي حاكم مُعْتَقَل نفحة الصحراويّ خلال جَدَلٍ جمعَ بينَنا، سببُه نشر مقالةٍ مُسيئةٍ للأَسْرى في إحدى الجرائد الإسرائيليَّة، فقَرَّرَ قَمْعي بنَقْلي إلى مُعْتَقَل هدريم المُخَصَّص والمُعَدّ لاستيعاب أرواحٍ مُشاغِبة أثقلَ تَمَرُّدُها على مصلحة سجونِ الاحتلال. أُطْلِقَ على قسم ثلاثة في مُعْتَقَل هدريم اسم (القسم الحِصْن أو القسم الخزنة) لشِدَّةِ إجراءات الأمن فيه إلى درجة أَنَّ إدارَتَهُ ملأتهُ بكاميرات المُراقَبة التي تكادُ تُسَجِّلُ حتى أنفاس الأرواح داخل غُرَفِها. بالإضافة إلى أجهزة تَنَصُّت رُكِّبَت داخل الغُرَف تُسَجِّلُ كُلَّ ما يُقالُ بينَ جدرانِها. القسم مُكَوَّنٌ من طابقَيْن تقاسَما أربعين زنزانةً صغيرة، في كلِّ زنزانةٍ ثلاثةُ أَسِرَّة على مساحة تسعة أمتار، وتُحيطُ السجنَ مساحاتٌ واسعة من بَساتينِ الحمضيَّات، وتفصله عن البَحْر بضعة كيلومترات فقط، ولا يَتَسَنَّى للأرواح رؤيةَ هَذا المُحيط الأخضر والأزرق بسبب سُفْلِيَّة القسم. كان في اقتصار الزنزانة على ثلاثة أرواح ما ناسَبَ طبعي المتوحِّد، ووجدتُ في انتقالي فرصةً جيِّدة لمزيدٍ من الوقت

أُخَصِّصُهُ لنفسي، وهوَ ما افتقرتُ إليه في باقي المعتقلات التي غَصَّت بالأرواح قديمِها وجديدها. وعلى الرَّغم من الظروف الصعبة والقاسية التي عانى منها القسم بسبب تَجَبُّر إدارَتِه وميولِها العنيفة آنَذاك، إلَّا أنَّني فَضَّلْتُ عَيْشي فيهِ بسبب ما مَنَحَني إيَّاه من ساعاتٍ طويلةٍ أقضيها وحيدًا مع جداري وفضاءٍ جاهزٍ ومستعِدٍّ لترتيبي مُكَوِّناتِهِ بأَيِّ طريقةٍ أحببت وعلى أَيِّ شَكْلٍ أردتُه.

على بُعْد ثلاثين مترًا من قسمِنا ـ الخزنة، وكجزءٍ من معتقل مُرافِق لهدريم، أُطْلِقَ عليه اسم (هاشارون)، خُصِّصَ قسمٌ للأَسيرات الفلسطينيَّات، سمحت المسافة القريبة الفاصلة بينَ القسميْن تبادُل أطراف الحديث في حالات الضرورة. القسم كانَ قريبًا إلى درجةٍ استطعنا سماع صراخ الأَسيرات في كُلِّ مرَّةٍ تَعَرَّضْنَ فيها للتنكيل من قِبَل حُرّاسِهِنَّ الجنود، صراخٍ كانَ يدفعُنا في كُلِّ مرَّةٍ إلى مُواجهةٍ مع سلطات المُعْتَقَل انتهت عادةً إمَّا بقَمْعِنا وإمَّا بتسويةٍ وضعت حَدًّا لحالةِ التنكيل بالأسيرات. قاومت الأسيرات سياسات القَمْع، واستطعْنَ في أغلب الأحيان فَرْض حالةٍ من الاستقرار على ظروفِهِنَّ المعيشيَّة، وكانَ دَوْرُنا يأتي مُسانِدًا وداعِمًا لمطالِبِهِنَّ.

لم يُمارِسِ الاحتلال عنصريَّةً جنسيَّة، فقد ساوى في فَتْكِهِ وَقَهْرِهِ بينَ الرجالِ والنساء، وظَلَّتِ النساءُ الفلسطينيَّات عُرْضَةً لِشَتَّى أنواع الاضطهاد والضغوطات. وتحتَ شِعارِ مُساواةٌ في القَهْر مُساواةٌ في التَصَدِّي والمُقاومة، أَصَرَّتِ المرأة الفلسطينيَّة على نَيْلِ حَقِّها في المقاومة والمشاركة في كلِّ الفعاليَّات النضاليَّة والثَوْرِيَّة، وكانَ عليها في سبيلِ ذلك أن تُواجهَ مجتمعًا ذكوريًّا

مُحافِظًا أغلقَ عليها كالذي يُخفي عَوْراتِه ومَواطِنَ ضَعْفِه. بدأتِ المرأة الفلسطينيَّة مشوارَ تحرُّرها من قيودِها الاجتماعيَّة، واسْتَغَلَّت ما وَفَّرَهُ الخِطابُ الوطنيّ المُقاوِم من فضاءاتٍ جديدة فَوْقَ عائليَّة حتى نجحت في كَسْرِ عديدٍ من القيود أَثْقَلَت عليها وهَمَّشَت دورَها، وجَمَّدَت ما فيها من طاقاتٍ هائلة وقدراتٍ كامنة. بدأَ مشوارُها ثقيلًا وبطيئًا، واقتصرَ في بدايَتِهِ على ممارسة أدوارٍ نضاليَّة مُساندة وغَيْر مُباشرة، ثم طَوَّرَت من أدوارِها أكثر تدريجيًّا لكي تصبح في غُضونِ سنواتٍ قليلة عنصرًا فاعلًا ونشطًا ومُباشَرًا في أفعالِ المقاوَمة، فاخترقتِ الصُفوف، تَقَدَّمَت بَعْضها وتوسَّطت أخرى.

لقد شَكَّلَت نكبة 1948 انعطافةً حادَّة ومؤَسِّسة في الرواية الفلسطينيَّة، وكانت المرأة قد اكتفت مُجْبَرةً بتقديم شهاداتٍ سماعيَّة عن الأحداث، بينما احتكرَ الرجل تَفاصيل الرواية. رَوَت عن الرجل الفلَّاح، أو العامِل، التاجر، المُقاتِل، المُعَلِّم، أو العاطل عن العمل وعن الحياة، استمعت إلى رواياتِه وروت عنهُ انتصارًا إذا انتصرَ، روت هزيمَتَهُ إذا خَبَّرَ عنها ولم يُخْفِها تحتَ ما تَمَزَّقَت عليهِ من ثياب، رَوَت عنهُ وفرة حصادِه إنْ أفلحَ في فِلاحَتِه، وفَقْرَهُ إذا ابتلعت أرضُه عزيزَ ما زَرَعَهُ فيها، رَوَت صِدْقَهُ وكثيرَ ما صَدَّقَت، رَوَت خَوْفَهُ وغيَّبت عن الرواية أَنَّها رَأْسُ مَخاوِفِه، رَوَت نَكْبَتَهُ في أرضِه وفي رِزْقِه وفي بطالَتِه، رَوَت صُلْحَهُ مع رَبِّه واتِّكالَه، رَوَت تسليمَهُ بخَساراتِه وإنْ عظمت، رَوَت تصديقَهُ كُلَّ أسفارِ الخُروج، وروت خَيْمَتَهُ وما عَلَّقَ عليها من مَفاتيحَ نُسِفَت أبوابُها فَلا فَتْحٌ ينتظرُها ولا انتصار. ازدادَ

الفلسطينيُّون في العام 1967 نكبةً على نكبتهم الأولى وما عادوا يملكونَ ما يَرْوونَهُ، فبَدَأوا بِغَزْلِ روايةٍ جديدة. رفضتِ المرأة الفلسطينيَّة ممارسةَ دورِها القديم، وبدلًا من تسجيلها شهاداتِها السماعيَّة لرواية الرجل راحت تصنعُ روايَتَها، كتبت حربَها وقَتْلَها إذا قتلت، كتبت غضبَها إنْ انتهكوا فيها روحَها والجسد، كتبت فَقْرَها وجوعَها، كتبت كِذْباتِها وما أجمعَ عليه رجال القبيلة من كذبات، كتبت أولادَها من عادَ منهم ومن دُفِنَ في غيابه، كتبت حبيبًا لَها أو أكثر، كتبت على الجدران في المُخَيَّم في القرية وفي أشباه المُدُن، كتبت بَيْتَها وما تَهَدَّمَ، كتبت إخلاصَها إنْ أخلصت وقَلَّلَت من تَفاصيل الخيانة رحمةً بِمَن خانت، رَوَت سَيْرَها والتعب وكتبت سِجْنَها حينَ تَعَلَّقَت جدرانَها.

عَزَّزَتِ الانتفاضة الأولى من دَوْرِ المرأة الفلسطينيَّة أكثر فوقفت إلى جانب الرجل وفي أحيانٍ كثيرة أمامَهُ في كلِّ ساحات النضال، تمرَّدت أكثر على المنظومات الاجتماعيَّة السائدة وكثيرٍ قُيودِها، خرجت من بيوتٍ ما عادت آمِنة، وحَطَّمَت أبوابًا أُغْلِقَت عليها، لكنَّها لم تمنعْ عنها بَطْشَ الاحتلالِ وَقَتْلَه، قاتَلَت واسْتُشْهِدَت واعْتُقِلَت، فعلت أكثر في انتفاضة الأقصى وقاتلت حتى فاجأت بعظيم قدراتِها وتضحياتِها، وتقدَّمت طَوابيرَ مَنْ فَجَّروا أجسادَهم فِي وَجْهِ البطش وفي بطنه وفي رأسه، كتبت مشوار تعلُّقٍ طويل على جدران المعتقلات حيثُ روت أسطورتَها وسطَّرت في ساحاتها أروع صور الصمود، وصبرت على ضيقِ السجن وتنكيل السجَّان، ولا زالت تفعلُ إلى يومِنا هَذا.

اعتقلت دولةُ الاحتلال منذُ العام 1967 سبعةً وعشرين ألف

فلسطينيَّة بينَ امرأةٍ وصبيَّةٍ وقاصِر، اعتقلتِ الأمَّهات والجدَّات واعتقلت الأَجِنَّة في الأرحام، حيثُ شَهِدَت زنازين الاعتقال صُراخَ وِلاداتٍ ثَقُلَت بِها الأرحامُ بعد أن كَبَّلَها القيدُ والحديد وأنهكَ جدرانَها شديد التَعَلُّق والشَبْح، شهدت أسيراتٍ وَلَدْنَ أطفالَهُنَّ وأبْقَيْنَ عليهم داخل زَنازينِهنَّ، أرضعنَ حَوْلًا كامِلًا شاركت باقي الأسيرات في الاعتناءِ والسهر والقلق، ومارسن أُمومةً محبوسةً في دَواخلهنَّ، حِكْنَ المَلابِس وصَنَعْنَ بعضَ الدُمى، حَمَلْنَ الأطفالَ في ساعةِ الشمس وظلَّلْنَ وجوههم بالتعب، قصصن على أسماعهم ما حَفِظْنَهُ من قصص ما قبلَ النوم، وقُمْنَ لَيْلَهُنَّ إنْ أَزْعَجَ الأطفالَ ضيقُ المكان. ثم ينتهي عامٌ سُمِحَ فيهِ للأسيرة الأُمّ احتضانَ طِفْلِها الذي وَلَدَتْهُ، يقتربُ منها الحُرّاس الجُنود، تتمسَّك بطفلها وَتَزْرَعُهُ على صَدْرِها، يقترب منها الجُنودُ أكثر، تغرسُ أصابِعَها في جسدِ طِفْلِها فَلا يسقطُ في أيديهم، يَمُدُّ الجنودُ أيديهم أَطْوَل، يُعْلي صُراخَ الطفلِ انغراسُ أصابعِ أُمِّه وبُكاؤُها، تبكي الأُمّ وتصرخ أعلى، تَنْضَمُّ باقي الأسيرات إلى قافِلةِ البُكاء، لا شيءَ يَرْدَعُ الجنود، تغيبُ عن المكان كلّ آلِهةِ الرحمة، تَسْتَجْدي الأُمُّ ساعةً أخرى على صَدْرِ طِفْلِها وتُقْسِمُ بكلِّ ما آمَنَت به أن تتخلَّى بعدَها، ساعةً واحدة أخيرة، لا شيءَ يُقْنِعُ الجنود، تَيْأَسُ الأُمّ إيمانَها فتُخاطِبُ رَبَّهم أو أيّ شيءٍ يُصَدِّقونه، يزيدُ صراخها ويعلو على طفلِها عَلَّ ذلك ينجيهما، لا رَبَّ للجنود، تستسلمُ الأيدي والأصابع ويستسلمُ الصراخ، يتوقَّف الطفل عن بُكائِهِ الذي أتعبَهُ، تُعانِقُ باقي الأَسيرات أُمًّا استسلمت قُواها وسَلَّمَت ابْنَها، ينتصرُ الجُنود.

وجدتُ في القسم ـ الخزنة ضالَّتي، وجدتُ مساحاتٍ أكبر تَلاءَمَت وَتَواءَمَت مع نزعاتي الفردانيَّة وحاجَتي إلى ساعةٍ أكثر أقضيها مع نفسي، وساعَدَني أيضًا تَأَثُّر الأرواح بالمكان الذي فرضَ عليها كثيرًا من الأفعال الفرديَّة على عكس ما يحدث في الغُرَف المزدحمة في باقي المُعْتَقَلات حيثُ يكونُ التَنَفُّس فيها فِعْلًا جماعيًّا. عَزَّزَتِ الأفعالُ الفرديَّة فردانيَّة العديد من الأرواح داخلَ القسم دونَ أن يُؤَثِّرَ ذلك على شكل الحياة الجماعِيَّة ومظاهرها، وعزَّزت في أرواحٍ أخرى نزعاتِها الانطوائيَّة، فأغلقت عليها أبوابَها طيلةَ ساعاتِ اليوم. انتظمت أيَّامي سريعًا وكذلك ساعاتي مع جداري، وكانَ في ساحةِ المعتقل الواسعة ما يكفي ويزيد من ساعات الشمس. حملَ الشتاءُ هُنا أمطارًا كثيرة شَحَّت عَلَيَّ في الصحراء، وَفَّرت بعضُ النَوافذ إطلالاتٍ صغيرةً على مساحاتٍ خضراء ذَكَّرَتْني بتعاقُب الفصول وبأنَّ الربيعَ لا يَزالُ حاضرًا، وكان في أجواءِ الغرف ما يسمحُ بمزيدٍ من ساعات القراءة، أو النوم لمن يشاء. وفَّرَ لي القسم كلَّ ما احتَجْتُهُ، وختم وُصولي إليه عشرةَ أعوامٍ من التعلُّق على الجدران المزدحمة كنتُ في حاجةٍ بعدَ انتهائِها إلى فُسْحةٍ هادئة أستعيدُ فيها بعضَ أنفاسي.

أيَّار 2004، عَطَّلَت آمالي سياساتُ إدارةِ المعتقل التي زادت في قمعِها وبطشها حتى يئست الأرواح من حوارِها معها، فقرَّرت خَوْضَ إضرابٍ عن الطعام، خُضْنا الإضرابَ مُنْفَرِدين وَبِلا مُسانَدة من أيٍّ من المعتقلات؛ وفي محاولةٍ لِكَسْرِ الإضراب، نقلت إدارةُ المعتقل بعضًا من الأَسْرى كنتُ واحدًا منهم. أكملتُ الإضراب في معتقل بئر السبع، وبقيتُ على إضرابي حتى قَرَّرَت الأرواحُ في

معتقل هدريم وَقْفَ إضرابِها عَقِبَ وعوداتٍ بتحسين ظروفهم المعيشيَّة. بقيتُ في معتقل بئر السبع حتى آب 2004، الذي شهد إضرابًا جماعيًّا عن الطعام شاركَ فيه كلّ الأَسْرى الذي انتهى بعدَ ثمانية عشر يومًا دونَ أَيِّ إنجازٍ يُذْكَر. جدالٌ جديدٌ مع حاكم المعتقل يتسبَّب في نَقْلي عَوْدَةً إلى معتقل هدريم بداية العام 2005. وجدتُ القسم وقد تحسَّنت ظروفُه قليلًا عن السابق ما سَهَّلَ عَلَيَّ تَعَلُّقي وانشِغالاتي بنفسي؛ لكنَّ ذلك لم يَدُمْ طَويلًا فقد تمَّ نَقْلي في نهايةِ العام ولأسبابٍ مُشابِهة إلى معتقل نفحة الصحراويّ، ثم نَقْلٌ جديد إلى معتقل بئر السبع، ثم عَوْدةٌ ثانية إلى هدريم في العام 2006. ستستمِرُّ إلى موعد كتابة هذه السطور.

عُدْتُ إلى هدريم حامِلًا مَعي مَأْساةَ انقسام زادَ في تَمَزُّق جسد الرواية الفلسطينيَّة، وفاقَمَ في أزمةِ الجغرافيا والتاريخ وبَعْثَرَ في الزمانِ والمكان. ارتدى كُلٌّ من الخِطابَيْنِ الوطنيّ والإسلاميّ جغرافيا مُشَوَّهة، وراحَ يكتبُ عليها تاريخَيْنِ مُتَوازِيَيْنِ لَنْ يُكْتَبَ لَهُما لِقاءٌ أبدًا إنْ تَمَسَّكَ كُلٌّ بِروايَتِه.

عُدْتُ مع مخطَّطاتي القديمة متمنِّيًا تحقيقَها هذه المرَّة، وألَّا تُزْعِجَ نَواياىَ مُفاجَآتٌ تُؤَجِّلُها أو تُعَطِّلُها، تمنَّيتُ!

ربيع؟

انقسمَ الفلسطينيُّون على أنفسهم جغرافيًّا وتاريخيًّا وزمانيًّا وعاشوا في الضفَّة المحتلَّة في عزلةٍ تامَّة عن قطاع غزَّة المُحاصَر. تغلغلَ الانقسام سريعًا إلى المعتقلات وانقسمت الحركة الأسيرة عاشَ أسرى حركة فتح في أقسامهم التي تقاسموها مع بقيَّة الفصائل الفلسطينيَّة عدا حركة حماس. وهكذا، انفصلَ أسرى حركة حماس الذين أخذوا معهم أغانيهم وأناشيدهم، وأخذوا معهم رواية السماء وربّهم الواثق، أخذوا معهم ما عرفناه عنهم وما أحبُّوا فينا وما كرهوا، أخذوا معهم تاريخهم القديم وصلواتهم ووجوهًا تُشْبِهُ كلّ ما فينا من تجاعيد، أخذوا معهم ساعةَ شمسهم إلى شمسٍ أخرى بعيدةٍ عن حَريقِنا، أخذوا معهم صفوف المصلّين وخطبة الجمعة وما أطالوهُ من دعاء، واختاروا قِبلةً أخرى بعيدةً عن أصنامنا، وظَلَّ قِسْمُ الخزنة المعتقل الوحيد الذي عاشَت فيه كلّ الفصائل الفلسطينيَّة بتوافق، على الرَّغم من الاختلاف، ولا تزال.

يتميَّز قسم الخزنة بقدرته الهائلة على قتل الساعات وتفتيت

الأسابيع إلى قطعٍ صغيرة، يَكادُ اليومُ فيه يَأْكل غَدَه واليومَ الذي يليه إذا اشتدَّت فيه شهيَّتُه، ولا يكادُ يومي يبدأ حتى ينتصف أغفلُ عنه قَليلًا فيُلاقيني عند آخِرِه وقد ارتدى بيجامته السوداء يتثاءب ملءَ فمه. ويتميَّز القسم أيضًا برحابة صدره رغم بسيطِ ما فيه من جسدٍ تتصرَّف الأرواح التي تسكنه رغم اختلافها بما يتناسب ورحابة صدره تلك، واجتمعَ فيه الرأيُ والرأيُ الآخر، تَظَلَّلَت تحت سقفه الإسمنتيّ كلّ مواضيع الإيمان ـ الإلٰه الواحد ومشتقَّاته، كلمات السماء ومفردات الأرض، الإيمان والتكذيب الرواية القديمة وما جَدَّ عليها من إضافاتٍ أو نقصان؛ واجتمعت فيه أيضًا كعبةٌ وأصنامٌ وحجارةٌ سوداء وأخرى تلوَّنتْ. ومن صفات القسم أيضًا جُدْرانه التي تفرض على أرواحها المتعلِّقة اتِّخاذَ الموقف اتِّجاهها، وتمنع عنها أيَّ شكلٍ من أشكال الحياد فإمَّا تتخلَّى أو تتمسَّك، تكره أو تُحِبّ، تتعلَّق أو تظلّ على انزلاقها. وعلى عكس غيرها من الجدران التي تعطي الفرصة لأرواحها تحييدَ وجودها عنها فتعيش الأرواح في معزلٍ عن جدرانها، تمارس حياتها كأن لا جدران. تفرض جدران الخزنة وضوحًا في المواقف، وتحاسب وتفصح عن ردود أفعالها وقتما وكيفما تشاء. في الخزنة، الجدار شريكٌ في كلِّ المواقف وشاهدٌ على المشاعر والأحاسيس، وقاضٍ على الأفعال وأنصافها ويحاكم إنْ توقَّفت في الأرواح أفعالها، في الخزنة، جدارٌ أبيض يتَّسخ سريعًا إن أهملتَهُ، ويردّ بِلا تأخُّرٍ فيملأ يومك بكآبةٍ لا تُطيقُها، ويتَّسع إن ضاقت بك الدنيا وأحاديثُ أهلها، ويَضيق إن غلبت عليكَ حاجاتك لوحدةٍ تُعيدُ فيها حساباتك نفسك.

تعاقبت السنواتُ سريعًا، وفيها ازدادَ تعلُّقي تعلُّقًا، وتناغمت موسيقاي الداخليَّة مع رقص الجدران البيضاء، بوادرُ شَيْبٍ بَشَّرَت بأربعين اقتربَ، وأسود عاشَ خريفًا سارعَ في تَساقُطِه. أُمّ عادَ إليها مشوار زيارتي، فأقبلت عَلَيَّ تُعَوِّضُ ما فاتَها من كذباتٍ جديدة حَضَّرْتُها لها بعنايةٍ فائقة، ظَهْرٌ تآكَلَ وانحنى قليلًا بِفِعْل ظواهرَ طبيعيَّة من قَبيل التَعَلُّق والانزلاق والاحتكاك، وبفعل ظواهر أخرى فوقَ طبيعيَّة تراكمت حتى ثَقُلَتْ، مثل الجوع والعطش، الفقر وإغراءات التطرُّف، الحروب وشيوع الموت وسهولته، اللجوء وشواطئ بحارٍ امتلأت بجثث الأطفال والنساء خطاباتٍ قوميَّة تحت إنسانيَّة، كوكبٍ يتأهَّب للسقوط، بشريَّةٍ صدَّقت أُلوهتها حتى النهاية، فانتهى فيها الإيمان، ورَبٌّ أَجَّلَ عِقابَه إلى موعدٍ مجهول فزادوا في قتلهم فينا، وتَعِبْنا نحن طولَ الانتظار.

حملت سنوات بين 2006 ـ 2010 كمِّيَّاتٍ هائلةً من الإحباط الكَوْنيّ، حيث تخلَّلها أزماتٌ اقتصاديَّة عالميَّة في العام 2008، فزادت في أوجاع الفقر. دولٌ كثيرة وقفت على حافَّة الهاوية ومنها التي سقطت عميقًا، حالةُ غليانٍ شعبيٍّ في أوساط الشعوب العربيَّة أنذرت بانفجاراتٍ قريبة، أجيالٌ عربيَّة وشابَّة متوسِّطيَّة الطبقة تبنَّت خطاباتٍ جديدةً بعيدةً عن أبويَّة الأنظمة الحاكمة وبيروقراطيَّتها المتعفِّنة، خطاباتِ حقوقٍ مسلوبة ومُواطَنة مُغَيَّبة وطبقاتٍ مليونيَّة شفَّافة وغير مرئيَّة. أمَّا فلسطينيًّا، فقد أَدَّى اغتيال الرئيس ياسر عرفات في العام 2004 إلى بروز نخبةٍ سياسيَّة قديمة هَمَّشَت دورَها الهالة العرفاتيَّة، تقدَّمت تلك النخب وقدَّمت خطابًا تخلَّى عن خيار المقاومة، وحصرت كلّ خياراتها في خيار

التفاوض ومقاومةٍ سلميَّة قيلت عن خجل ولم تُمارَسْ ولو في أدنى أشكالها. استغلَّت دولة الاحتلال فقرَ الخطاب والفِعْل الفلسطينيَّيْن، وأغنت في بطشها وفي تعميق سيطرتها وسلبها للأراضي وبناء المزيد من المستوطنات وتوسيعٍ لا يتوقَّف للمستوطنات القائمة على حساب أراضٍ فلسطينيَّة. توقَّف الفعل الفلسطينيّ على عمليَّة إحصاءٍ يجريها أسبوعيًّا لأعداد المستوطنين الجدد، يرافقها خطاب تمسّكٍ بخيار المفاوضات التي جرَّبها مرارًا دون أيّ نتيجة تُذكر سوى استفحال سياسات القتل والسلب، هذا إلى جانب تعزيز حالة الانقسام الفلسطينيّ في ظلِّ غياب نوايا حقيقيَّة للمصالحة لدى الطرفيْن.

فاجأني ربيع العرب الذي بدأ في تونس، ثم اخضَرَّ في عواصم عربيَّة أخرى. رأيتُ شعارات خطابنا القديم تتحوَّل إلى قضايا وإلى ساحاتٍ امتلأت بشبابٍ عربيٍّ ثائر، يصرخ حرِّيَّته ويُسْقِطُ أنظمةً قديمة انتهى دورها التاريخيّ الذي عَطَّلَ فينا تاريخنا وشَلَّ فينا كلّ معاني التقدُّم والازدهار والحداثة. تفاءلتُ خيرًا كثيرًا، وكنتُ على يقينٍ بأنَّ على المواطن العربيّ أن يحقِّق وطنيَّته أوَّلًا، وأنَّ عليه الانتهاء من همومه المحلِّيَّة كي يصبح بعدَها قادرًا على الاعتناء بهمومه القوميَّة وعلى رأسِها قضيَّة فلسطين، وإعادتها إلى رأس أولويَّات العمل السياسيّ العربيّ وكذلك الشعبيّ. فَرِحْتُ بجيلٍ أنهى عقودًا طويلة من اللامبالاة والتسليم و«خَلِّيها على الله»، وكتبَ فاتحةً جديدة لدستورٍ سياسيٍّ اجتماعيٍّ متقدِّم على سابقه. فرحت بتقدُّم النساء صفوف الحراك الاجتماعيّ والثوريّ وخروجهنَّ من تحت عباءة الرجل ومظلَّة العُرْف والتقليد. فرحتُ

بِتَقَدُّمِيَّة الخطاب الشبابيّ وحداثة مفرداته، وخروجه عن النصوص القديمة والباهِتَة والمُغَبَّرة. وفَرِحْتُ بأجواء التفاؤُل في فضائِنا العربيّ بعدَ قرونٍ من الإحباط، دفنت فينا مكامن الإبداع وأَقْصَتْنا عن رَكْب حضارةٍ سارعَ في خطواتِه حتى غابَ عن أنظارِنا وأسماعِنا ووعينا.

امتدَّت الخضرة من ساحات العواصم العربيَّة حتى وصلت إلى ساحات السجون التي استبشرت خيرًا بما يحدث عربيًّا وبأخبارٍ عن قُرْب تَوَصُّلٍ لصفقة تبادل أسرى بينَ حركة حماس ودولة الاحتلال. كَثُرَت الأحلام وبدت آفاق التحرُّر قريبةً جدًّا الكلّ ينتظر ويعدّ ساعاته الأخيرة على الجدار وفي ساعة الشمس وفي كلِّ زاويةٍ غاب فيها السجن أو ظلَّ حاضرًا، من جديد وجدتُ نفسي في حاجةٍ لِثابِتي الوحيد أستندُ عليه، تحرَّكت كلّ الأشياء حولي وكذلك الأرواح قديمُها وجديدُها، الكلّ رأى في صفقة التبادل فرصة خلاصٍ من تعلُّقهم على الرَّغم من تأكّدهم على اقتصار الصَّفقة على بضع مئاتٍ من الأسرى فقط، والكلّ عاش حالةً من الخوف والقلق من خيبات آمالٍ قد تطالهم وتُبْقيهم على تعلُّقهم.

اخْضَرَّت ساحات التحرير في أُمّ الدنيا مصر، أُسْقِطَ فرعونٌ قديم، بنى له ولسلالته ولحاشيته القريبة أهرامًا جديدة تُخَلِّدُه بناها فوقَ أوجاع المصريِّين وفَقْرِهم وفوقَ آمالهم وأحلامهم، بناها فوقَ أصواتهم وحراكهم إذا تحرَّكوا وفوقَ عشوائيَّاتهم واختناقهم. اخْضَرَّت السماء، وامتلأَ الغيم ببشارات التغيير وبدايات عهدٍ جديد في بلاد العرب الغارقة في قديمها القديم. ازْدَدْتُ تفاؤُلًا

فها هي كذباتنا تتحقَّق وكذلك نبوءَتُنا عن سقوط الأنظمة العربيَّة الرجعيَّة وولادة نهضةٍ تأخَّرت كثيرًا. قفزت شعاراتنا القديمة عن الجدران واحتلَّت ساحات المدن العربيَّة، صرتُ أكثر ثقةً بالرواية القديمة وإنَّنا كُنَّا صادقين حينَ كَذَبْنا كِذْباتِنا. لم تَكُنْ أسطورَتُنا خرافة، وها هُمْ أبطالُها يملأون الساحات ولا خوف يُعيدهم إلى جمودِهم القديم، وها هُمْ يصنعون أقدارَهم بأيديهم محوِّلين اتِّكالَهُم إلى إراداتٍ وأفعال.

تشرين الأوَّل 2011، وصلت أخبارُ تَوَصُّلٍ لاتِّفاق تبادُل أسرى بينَ حركة حماس ودولة الاحتلال. أسرعَ الجميع إلى غرفهم، الكلّ يستَلّ مذياعه ويتأكَّد صدق الأخبار، محطَّات راديو محلِّيَّة تُعْلِن نيَّتها بَثّ قوائم الأسماء المُفْرَج عنها، تعطَّلت في الأرواح كلّ حواسِّها عدا حاسَّة الاستماع، قرَّبت المذياع إلى آذانها أكثر، أغانٍ عاطفيَّة وأخرى وطنيَّة تسبَّبت في شتم كثير طال أقرباء المُذيعة وأصحاب المحطَّات، إعلاناتٌ متكرِّرة لمستحضرات التجميل وغيرها لِسِلَعٍ منزليَّة، سَبّ وشَتْم وانتظار أوراقٌ وأقلامٌ وأيادٍ مُتَحَفِّزة لتسجيل اللحظة. غابت الوجوه عن الذاكرة وحضرت الأسماء فقط، الكلّ يستحضر أرواحه القريبة والصديقة ويرتِّبها بحسب أولويَّات قلبه ووجدانه، ويقيس حجم خساراته في حال سقطت إحداها من قوائم الأسماء، أرواحٌ قديمة وضعتها انتماءاتها التنظيميَّة على مُفْتَرَق طرقٍ سيحدِّد مصير تعلُّقها الطويل، وأرواحٌ لم يمضِ على تعلُّقها سوى بضع سنوات أخافها جديد تعلُّقها وإمكانيَّة سقوط أسمائها من القوائم لصالح من أمضوا عقودًا من التعلُّق.

أرواحٌ قديمة وأخرى جديدة، منها من قضى أكثر من عقديْن مُعَلَّقًا على جدرانه ومنها من قضى بضع سنوات فقط، آلافٌ من الأرواح وصفقةٌ ستشمل بضع مئاتٍ فقط. بدت لي أولويَّات حركة حماس واضحةً في اختيار الأسماء المُفْرَج عنها، وإنَّ قديم تعلُّق الأرواح لن يعني بالضرورة ضمان الإفراج عنها، أسرى حماس أوَّلًا بغضِّ النظر عن الأقدميَّة. حقيقةٌ مؤلمة، ولكنِّي استطعتُ تقبُّلها وتفهُّم دوافع الحركة. عُدْتُ إلى مشاهد إفراجات العام 1994، وعرفتُ أنِّي أمام سيناريو مشابِهٍ تمامًا. لكنْ لا زالت لديَّ وسائلي القديمة وجداري الذي أنقذني مرَّةً، وفي وسعه إنقاذي ثانيةً. بصوتٍ خالٍ من أيِّ علامات انفعال، راحَ المذيع يتلو أسماء المُفْرَج عنهم، أسماءً كثيرة أعرفها وأخرى جهلتها تمامًا، أصوات صراخٍ وهتافات داخل الغرف لا زالت الأسماء تُتْلى، لم يُعْفِني يقيني غياب اسمي عن القوائم من حالة توتُّرٍ وقلقٍ اجتاحت تَعَلُّقي. خفتُ قليلًا وزدت من تشبُّثي، لا يمكن لي أن أسقُطَ، فليسَ من مكانٍ أسقط إليه. ردَّدت عبارتي هذه كثيرًا علِّي أُصدِّقُها. توقَّفتِ الأسماء وليسَ من أسماءٍ بَعْد، وُزِّعَت كلّ بطاقات الدعوة، احتفلت الأسماء عاليًا ثم سكنت فجأةً، منطقةٌ متوسِّطة جلست فيها كلّ الأسماء، أخرسَ المدعوُّون فرحتهم دعوتهم للحياة، وأنكر الباقون حزنهم. الكلّ يختار كلماته بدقَّة فلا يوجع مدعوّ من تخلّف ولا يفسد متخلّفٌ احتفالَ المدعوِّين.. هذا يوقف ابتسامته عند طرف فمه، ويبحث عن زاويةٍ خالية يحيي فيها ما يقتله من ابتسامات، وذاك يبتسم مهنِّئًا ويبحث عن زاويةٍ مظلمة لا يرى فيها عديدَ ما سكنت وجههُ من أشباحٍ فَشِلَ في إخفائِها.

قابَلْتُ جداري، وقُلْتُ لنفسي بصوتٍ مَخْروس: قد تَخَلَّيْتَ فلا تتمسَّك، هذه أوجاعُك فاحتَمِلْها ولا تغتَلْها فيقتلك ما فيها من ألم. عُدْتُ إلى أوَّل جداري ووداعي للدنيا، بصوتٍ مخروس ثانيةً رحتُ أقول، امْتَطِ كُلَّ ما لديك من خيولٍ وما أبدعت في تصويره من مخلوقاتٍ خرافيَّة. أبوكَ ليس هنا، وأُمُّك اعتادت خيانات بقائك بعيدًا. لن يُبْكي أحدًا تَمَسُّكُكَ بالجدار، فقد مَلُّوا من البكاء ومن لعناتهم لكَذِباتك التي لا تنتهي، ولا تسقط فليس من حياةٍ في السقوط أو فيما ورائه. اقْفِزْ عن كلِّ ما فيك من جدران واسْقُطْ على جدارِك أنت، لم تختبرْ رَبَّك قَبْلًا، فلا تبدأ الآن، بريءٌ ربّك من كلِّ اتِّهاماتك وأقدارك وأوجاعك، لا شيء يُغْنيك عن تخلِّيك، ماتت كلّ ذكور القبيلة ولم يبقَ إلَّا أنت فانتصب. أُمُّك لا تزال تغنِّي في أُذُنِك (ظريف الطول) وعن نساءٍ تنام في حضنك حتى أوَّل الصباح، أُمُّك تَعِدُ بكلِّ لقاءٍ أنَّها لن تموتَ أبدًا ما دامَ تَعَلُّقُكَ باقيًا.

بقيتُ على خطابي، أنا الوحيد، في حين بدأت أرواحٌ قديمة وجديدة تُلَمْلِمُ أوجاعها في حقائبَ صغيرة وَفَّرَتْها منظَّمة الصليب الأحمر المسؤولة عن تنفيذ الاتِّفاق. لملمت الأرواح أيضًا بعض ثيابٍ عَلِقَت بها رَوائحُ مألوفةٌ يأنسونَ بها في ساعاتهم الأخيرة في ظلِّ الجدار وفي طريقهم بعيدًا عنه، أحاديثُ كثيرةٌ في الساعات الأخيرة والكلّ تمنَّى لو تنتهي سريعًا فَتَنْتَهي معها بَلْبَلَةُ المشاعر والأحاسيس، ولكي يَبْدَأَ بَعْدَها المدعوُّون احتفاليَّتَهم بالحياة ويعودُ أصحابُ الجدرانِ إلى جدرانهم.

هذا وَجَعٌ أفهمه، واجهتُهُ سابقًا قبل قرابة عقديْن وحملتُهُ

كالذي يحمل أثقالهُ، ولكنَّه كان أشدَّ وطأةً هذه المرَّة. تلك أرواح رافقت تَعَلُّقي مِن أوَّله، أعرف أسماء أوجاعها وما لقَّبت به فرحاتها المؤجَّلة، تلك روايتي القديمة وآلهة كذبٍ صدَّقت مثلي كذباتها، أعرف ما تُفَضِّلُهُ من أطباقٍ على مائدة الإفطار، وأعرف كيف تشرب قهوتها، أعرف أوصاف ما تخيَّلوه من حبيبات وأعرف ربيع كلّ روحٍ منها وما خلَّف الخريف على وجهِها من ذكرياتٍ بعيدة. شيءٌ يشبه الشعور بالغُربة سكن فيَّ طوال أسابيع شتائي، كانت تلك غُربة أرواحٍ لا غُربةَ مكان حتى صار مروري أمام بعضِ زنازينها يصاحبه سماع أصواتٍ من كانوا فيها، فأُسارعُ في خطواتي كي لا أتوقَّف. كانَ عليَّ أن أستعينَ بكلِّ إيماناتي وَثَوابِتي كي أحافظَ على اتِّزاني، وطردِ شعوري بالاغتراب وإيجاد سبل تَواصُلٍ مع الأرواح الجديدة. تَطَلَّبَني الأمر وقتًا أطول وجهدًا أكبر من الذي بذلتُهُ قبل عقديْن من الزمن، ولكنِّي نجحتُ وعدتُ إلى تعلُّقي بكاملِ لياقتي واتِّزاني.

ظلَّت بلاد العرب على حالتها، دمٌ كثير وموتٌ أكثر. ربيعٌ متلعثمٌ ومتعثِّر، ثوراتٌ تُسْرَق من أصحابها وبزّاتٌ عسكريَّة خُلعت عنها هزائمُها وجلست تحكم، خطاباتُ تخويفٍ وخلقُ أعداءٍ نصفهم وهميُّون، غَزلٌ متبادلٌ مع أعداء الأمَّة وتواطُؤٌ وتآمرٌ على فلسطين التي غرقت أكثر في انقسامها، ونُخَبٌ سياسيَّة فلسطينيَّة تمسَّكت أكثر بخيارها الواحد المُفاوِض مقابل عدوٍّ تخلَّى عن كلِّ أشباه خطابات السلام، وغازلته أكثر روايته القديمة عن أرض إسرائيل الكبرى. تبخَّرت أحلامٌ كثيرة، ودخلت المنطقة العربيَّة في دوَّامة عنفٍ وفوضى غير خَلَّاقة، وظَلَّ الفلسطينيُّون على

حالتهم المنقسمة عاجزين عن مواجهة مخطّطات دولة الاحتلال.

اعْتَدْتُ غيابَ أرواحي القديمة التي انتهى تعلُّقها وتحرَّرت من قيدها، وبحثتُ عن قواسمَ مُشْتَرَكة لم أنتبهْ إليها سابقًا مع الأرواح الجديدة. زادت مصلحة السجون في سياستها القمعيَّة، وكثَّفت من هجماتها على مقدَّرات الأسرى وإنجازاتهم، وحالةُ تَرَهُّلٍ أو شبه شللٍ في صفوف الأسرى، وعجزٌ عن مقاومة الهجمة عزَّزتها حالة الانقسام في صفوفهم. بقيتُ على اتِّزاني وثباتي حتى قَرَّر رئيس السلطة الفلسطينيَّة محمود عبَّاس خوض مغامرةٍ تفاوضيَّة جديدة في العام 2013، مغامرةٍ ستكلِّفني غاليًا، وتضعني مرَّةً ثالثة في مواجهةٍ مع هواجسي، ثباتي واتِّزاني، ومع إيماني وتصديقي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الدفعة الرابعة

ما حدث في الـ 2013

كانَ الرئيس الأميركيّ أوباما قد فاجأ العالم بانتخابه رئيسًا للولايات المتَّحدة في العام 2008. وعلى عكس سابقه، قدَّم خطابًا متصالحًا مع الشرق أكَّد عليه حينَ جعلَ من مصر وجهةَ أولى زياراته الخارجيَّة. وكما فعلَ سابقوه من رؤساء أميركيِّين ولكن بنوايا طيِّبة أكثر، جعلَ من القضيَّة الفلسطينيَّة واحدةً من القضايا التي أولاها اهتمامًا ورغبةً في التوصُّل إلى حلٍّ تاريخيٍّ يُنهي صراعًا قديمًا، فشلت كلّ الإدارات الأميركيَّة السابقة في التوصُّل إليه. أحاطت بالرئيس صاحب البشرة السوداء إدارةٌ بيضاء متوغِّلة في دعمها لإسرائيل وفي إصرارها على الاستمرار في ضمان تقدُّمها وتفوُّقها اقتصاديًّا وعسكريًّا على حساب محيطها العربيّ، ممَّا قلَّل من فرص نجاح أيّ محاولة يقوم بها الرئيس أوباما لإنهاء الصراع الفلسطينيّ الإسرائيليّ. انتهت ولاية أوباما الأولى دون أيّ إنجازٍ يُذكر، انْتُخِبَ ثانيةً في تشرين الثاني 2012، ومارس مباشرةً بعد انتخابه ضغوطًا على الطرفيْن

الإسرائيليّ والفلسطينيّ في سبيل إعادتهما إلى طاولة المفاوضات. نجحتِ الضغوطات، ووافقَ الطرفان على العودة للتفاوض. استمرَّت المفاوضات طيلة تسعة أشهر على ورقة عملٍ أعدَّها الفريق الأميركيّ برئاسة وزير الخارجيَّة كيري. تضمَّنتِ التفاهماتُ الأوَّليَّة تعهُّدًا فلسطينيًّا بعدم التوجُّه بطلبات انضمام لأيٍّ من المنظَّمات الدوليَّة خلال أشهر التفاوض، يقابله تعهُّدٌ إسرائيليّ بالإفراج عن الأسرى الذينَ تمَّ اعتقالهم قبل توقيع اتِّفاقيَّة أوسلو في العام 1993، وعلى أن تقوم إسرائيل بتقسيم المُفْرَج عنهم إلى أربع دفعات يفصل بين الواحدة والأخرى شهران فقط. مائة وعشرون أسيرًا قديمًا هم كلّ ما تَبَقَّى من أرواحٍ قديمة مضى على تعلُّقها على جدرانها بينَ عشرين وثلاثين سنة، وتوزَّعت في مساكنها على المعتقلات كافَّة، واجْتَمَعَ منها في معتقل هدريم ثلاث عشرةَ روحًا. كان على جسدي ما يكفي من علامات ذكَّرتني دَوْمًا بضرورةِ تحكُّمي بانفعالاتي وبعدم تركي لمواقعي الثابتة ولمُربَّعي الآمن. كانت كلُّ الإغراءات عظيمة، وأوراق الدعوة لِحياةٍ ما بعدَ الجدار ملأت الأجواء، دَفَنَت الأرواح الجديدة أوجاعَها وجاءت تُبشِّرُ وتُهنِّئُ بنهايةِ مِشْوارٍ طويلٍ، وغَطَّى فرحها واحتفالها بنا على قلقنا الذي برَّرَتْهُ انتكاساتٌ قديمة وعديدة، ورأينا ما خَبَّأُناه من فرحٍ على وجوههم، وأراح يقينهم بعضًا من توتُّرنا وضعف إيماننا.

هذا آخر جبلٍ تصعده يا سيزيف، فَأَسْقِطْ عن جسدك صَخْرَتَكَ، تنفَّسْ كثيرًا انتهاء اللعنات فيك وانتهاء نزولك المؤبَّد! ها قد استوت فيك الأرض، فتمدَّدْ وتوسَّعْ. أنت كلّك خلف

الجبل فاسبقْ ظلَّكَ وتخلَّ عن وزنك. لقد أضاعت آلهتك كلّ مذكّرات اعتقالك، فاغفرْ أنتَ ما أضعته من ربيع عمرك. أنت آلهتك الآن يا سيزيف، وحُصَّتُك من الفصول لم تنقضِ بعد. خُذْ ساعةَ شمسك وما أضاءت من ظلمات، خُذْ خريفك والشتاء، خذ كلّ احتمال حياةٍ قادمة، ودَعِ القلق لأشباحٍ خلَّفْتها وراءك، خُذْ عقودك الاجتماعيَّة وما قطعتَهُ على نفسك من عُهودٍ بالوفاء، خُذْ ألفَ ظلٍّ للوجع، خُذْ معك كلّ أطياف الوقوف وخُذْ معكَ سقوطك واللقاء.

وأشياءَ أخرى قُلْتُها لنفسي ولم أُصَدِّقْها، وكأنَّ ألفَ حاجزٍ حال بيني وبين تصديقي لها، ولم يُجْدِني كثيرُ تكرارها وإصرار الأرواح الرفيقة على يقينها. نهاية تعلُّقي شيء في التصديق بدا غير معقول وساذجًا وَمُتَهَوِّرًا، هذه ليست المرَّة الأولى التي أقف فيها على حافَّة الجرف، أستمع إلى حديث المَوْج ونداءاته وإغراءات البحر، وفي كلِّ مرَّةٍ أغرق في يابِسَتي لا ماءَ يُبَلِّلُ خيباتي أو يغسل عن وجه أُمِّي غبار انتظارها الطويل. أَتَحَوَّلُ إلى كتلةٍ صخريَّة يحفر فيها الجدار عمره، ويغريني اختباري لِرَبِّي من جديد، وتداعبني فكرة التخلِّي عن قَبولي وتسليمي.

اقتربْنا من آب موعد الإفراج عن الدفعة الأولى. الأرواح القديمة تُضاعف من أفعالها اليوميَّة وتُضيف أخرى جديدة، الأيَّام تكاد تتوقَّف على الرَّغم من دَفْع الأرواح لها. لا شيء في الساعات يستعجل فينا فراقنا زمنًا موازيًا طاغيًا في وقته، ثقيلًا في وزنِه. ملعونةٌ هي المناطق الوسطى بينَ الحياة والموت، بينَ العطش والارتواء، بينَ الحرِّيَّة والتحرُّر، بينَ حبيباتنا وإعجابنا

بأخريات، بينَ الجدار والسماء. ملعونٌ هذا الاشتباه في وسطيَّاتنا اللامَوْقِفيَّة: في جرحنا حتى يشفى، في انتظارنا حتى ينتهي، في عمرنا حتى يبدأ، في صبرِنا حتى ينفد، في سِجْنِنا حتى نُعْتَق، في موتِنا حتى نُبْعَث، وفي رَبِّنا حتى نُوعد. أيَّامٌ كثيرة قضيتها بين التخلِّي والتمسُّك، أتأرجحُ، لا شيء يوقف ارتباكي. هذا مكانٌ جرَّبْتُه وخبرتُه أكثر من مرَّة وأعرف كلّ زواياه المظلمة، ولا شيء فيهِ يُفاجئُ جُهوزِيَّتي واستعدادي، فلماذا إذنْ تُداعبني أشباه الدعوات للحياة؟ وكيفَ تكوَّنت هذه المسافة بيني وبين جداري دون أن أنتبه؟ صارت صخرتي أثقل، وبدا الجبل أعلى وأقرب بات يخيفني الصعود في أوَّل كلِّ يوم، وتحرَّشت بي رغبة التخلِّي والاستسلام! ما الذي سيبقى منك يا سيزيف إنْ خلَّيت صخرتك وصدَّقت عموديَّةَ الأرض؟ كيف تتوقَّف عن تشاؤمك الذي لم يخذلك يومًا وتُصَدِّق أشياءَ لم تحدث بعد؟ وإلى أيِّ قاعٍ تسقط إن تخلَّيتَ عن جدارِك؟ لا توجد منطقة وسطى بينَكَ وبين جدارك، وليس في الوسطيَّة إلَّا حيادُ المتردِّد وجبن الخائف وليسَ فيها إلَّا غياب المواقف الواضحة والثابتة، فإمَّا جدارك وإمَّا قَفْزًا قفزًا في كلِّ اتِّجاهٍ حولك.

أُعْلِنَت أسماء الدفعة الأولى المُفْرَج عنها. روحان قَديمَتان مُتْعَبَتان لَمْلَمَتا سنينهما في حقيبتَيْن صغيرَتَيْن، إحداهما روحٌ غزِّيَّة سمراء وجهتها البحر وقطاعٌ مُحاصَرٌ ومُظْلِم، والثانية وجهتها مدينة المسيح التي لم تشعر يومًا بغياب أرواحها عنها، ولم تطفئ ولو شمعةً واحدة في شجرة الميلاد حدادًا على طولِ الغياب. عبثت الفرحة بالأرواح داخل القسم، الكُلّ راحَ يُهَنِّئ ويُقَبِّل، ويقول

بضع كلمات وداع أخيرة في تَعَلُّقٍ. أدهشتهم قدراتُه على كتم انفِعالاته ودَفْنِها عميقًا، راقبت الأرواح الجديدة وداعنا رفقتنا القديمة، وجاءت تبشِّر بالدفعة القادمة وبانتظارٍ لن يطولَ. تلاشت فجأةً تلك المسافة القصيرة التي شَقَّتها الأسابيع الأخيرة بيني وبينَ جداري، وتلاشت كذلك أشباهُ حياةٍ داعبتني وتحرَّشت بي حتى أقلقت توازُني. قلت كلمات وداعي الأخيرة، ورَكَضْتُ مسرعًا إلى الجدار. صخرتي في مكانها أسفل الجبل. احمِلْ صخرتك يا سيزيف فلا شيءَ يشبه الوصول سِوى جهد المحاولات. كلّ مرَّة هي مرَّتك الأخيرة، وكلّ جبلٍ هو صعودك الأخير، فخُذْ معكَ موقفك القديم ولا تتوسَّط.

كان علينا، نحن الأرواح القديمة، انتظارُ شهريْن حتى موعد الإفراج عن الدفعة الثانية. توقَّفتُ عن توقُّعاتي تمامًا، وعادت إلى أيَّامي صبغتها الاعتياديَّة؛ وكيلا أستجيب لأيِّ نداءاتٍ جانبيَّة أغرقتُ نفسي في عشرات الكتب، وقرأتُ من كلِّ ما توافر من مادَّةٍ مكتوبة. عاودتُ الاستماع لأغانٍ عاطفيَّة عن فرحات لا تَخُصُّني، وعن أوجاعٍ أبديتُ اتِّجاهَها قدرًا بسيطًا من التضامن. قلَّصت من أعداد زُوَّاري الليليِّين واكتفيتُ بزيارةٍ واحدةٍ أو اثنتيْن ودعوتُ من زارني أو زارتني إلى سفرٍ بعيد كي لا أُثْقِلَ على جداري. حاولتُ تجاهلَ وداع الأرواحِ لي وأنا لا أزالُ بينها أكثرت من كلام الفراق واشتياقٍ سيأتي وأنا على تعلُّقي لم أُفارق بَعْدُ أحاديثَها الصباحيَّة. زَوَّجَتْني مرَّةً ثانية واختارت أسماء من أدعوهم إلى زفافي، بعضها دعاني للإكثار من صلاتي وتسبيحي وبعضُها الآخر دَعاني إلى مُغامراتٍ عاطفيَّة لا صلاةَ فيها ولا

تسبيح. كانت تلك أحلامَ الأرواح الصغيرة والمستحيلة، ورأت في تحرُّري تحقيقًا لكلِّ ما تعطَّل فيها من أحلام. كانت أحلام الأرواح كثيرة وأنا لم أخلدْ إلى فراشي بعد، وكان عليَّ الاستماع إلى غريبها وطريفها على الرَّغم من أنِّي لم أرَ إلَّا استحالَتَها. كنتُ عاجزًا عن التصديق، فأنا من جيلِ آلهةِ الكذب ومن جيل أحلام لا تتحقَّق. فاستمعتُ إلى أحلام الأرواح، ومارستُ ما أُتْقِنُهُ جيِّدًا من مهارات الكَذِب. تَزَوَّجْتُ ثانيةً لمن أرادَ، وأكثرتُ من زياراتي لبيوت الله ومن تسبيحي لمن استبشر فيَّ خيرًا لدينه. قفزتُ من سريرٍ إلى آخر، وغازلتُ ما استطعتُ من نساءٍ لمن شاخت فيهِ بُتولَتُه، وكذبات كثيرة وأخرى استعنتُ بها طيلةَ الأسابيع المتبقِّية حتى موعد الإفراج عن الدفعة الثانية.

تشرين الأوَّل 2013، أُعْلِنَت أسماء الدفعة الثانية، وكانت حصَّة قسمنا منها خمس أرواح قديمة. مرَّةً ثانية عِشْنا جميعًا مشهد الوداع ومواساة الأرواح الجديدة لمن تأجَّلت فرحتهم لدفعاتٍ قادمة. أنا على صعودي للجبل وصخرتي على انتظارها انزلاقي وتسلُّقٌ جديدٌ. بدأتِ الزيارات العائليَّة تأخذُ طابعًا ثقيلًا وموجعًا، فاقمته أسئلة أُمِّي عن أسباب تأخُّري عن فرحاتها التي جَهَّزَتْها وزَيَّنَت بِها زوايا بيتها، عن السرير الجديد الذي ابتاعتهُ عن صديقاتِها اللاتي استجابَ اللهُ لدعواتهنَّ آخر كلّ صلاة فَجْريَّة، وعن تأخُّري عن صدرِها وعن عينيْها اللتَيْن توقَّفتا عن تمييز وجهي حتى انصهرت ملامحي. لم تتوقَّفْ أُمِّي عن أسئلتِها حتى حَوَّلَتْها إلى اتِّهامات: ما الذي يُبْقيكَ على تَعَلُّقِكَ يا ابنَ أُمِّك؟ فُتِحَت كُلُّ بَوّاباتِ السماء إلَّا بَوّابَتك أنت، مَلْعونَةٌ صَخْرَتك

وملعونةٌ رؤوس ما تَسَلَّقْتَه من جبال. كيفَ تحتمل انتظار أُمِّك وإلى متى تتجاهلُ احتضارَها؟ رفاقك بالأمس قالوا بأنَّك بخير وأنا لا أُصَدِّقُ كذباتهم عنك، استقبلتهم عند عتبات وصولهم عَلَّني أَشْتَمُّ فيهم رائحةً تشبهك، قَبَّلوا رأسي وقَبَّلوا يديّ وأنا أريدُ أن أُقَبِّلَك، أبدعوا في تقليدهم كلامك ومشيتك، ولكنَّهم ليسوا أنتَ. قُلْتَ لي أن أُكْثِرَ من الدعاء ففعلت، قُلْتَ لي أن أَثِقَ بِرَحماتِ رَبِّي فوثقْت، قُلْتَ لي ألَّا أموتَ فتمسَّكتُ، وقلتَ إنِّي رفيقة مشاويركَ كُلِّها فلماذا عن مشواري تخلَّفت؟ متى تنتهي فيكَ كذباتك يا ثمرةَ البطن وضيق الرحم وجفافَ الصدر؟ متى تكُفُّ عن تصديقك صبري؟ أُمُّكَ أَجَّلَت كُلَّ النهايات المُمْكِنة، فمتى تبدأ فيَّ أنت؟ يا آخِرَ الأوجاع التي أذكرها وتلك التي نسيت أنتَ صخرةُ أُمِّكَ وأنتَ الجبل، طريقُ المسجدِ صارت أَطْوَل وأُمُّكَ ما عادت تَجِدُ سَبيلَها إليه.. أَيُّ سادِيٍّ أنجبت لي! ألا ترحم أُمًّا مَزَّقَها غيابُك.

جمعت أُمِّي كلّ لوائح الاتِّهام التي أَعَدَّتْها طَوالَ عقديْن من الوجع، وجاءت تنثرُ غبارَها في وجهي، جمعت مَرْثِيَّاتِها في الزمان وفي المكان وجاءت ترثي حضوري الغائب، جمعت أشلاءها في جغرافيَّاتي التي تَبَدَّلَت وتنوَّعتْ، جمعت مَسيرَها وما خلعتهُ عنها من بقايا خجل تعلَّقت على حواجز التفتيش، جمعت انحناءاتِ ظَهْرِها وقليل ما أبصرته عيْناها، جمعت رُفات أبي واحتمالاتِ مَوْتِها، جمعت كُلَّ أشباحي التي رافقتها وَحْدَتَها وجمعت أيضًا كُلَّ عبارات العِتاب وجاءت مُسْتَسْلِمةً بِلا راياتٍ بيضاء بَشَّرَت باستسلامِها، وظلَّت على عتابها لي ويأسها انتظاري

حتى خارت قُوايَ وانعدمت إجاباتي. قفزتُ عن جداري وحرَّرتُ قَيْدي، وسَلَّمْتُ يأس أُمِّي دفاعاتي كلّها. ارتديتُ ثياب عودتي إليها، ووقفتُ عِنْدَ نهايات انتظارِها، غَزَلْتُ معها أغاني لقائنا ورَتَّبنا معًا سريري الجديد. عُدْتُ إلى كذباتي القديمة، أشهرٌ قليلة فقط يا مزيونة ليسَ هذا أوان استسلامك بعد، مَسيرٌ أخير وتنتهي الطريق، وغيرها من كذبات صَدَّقَتْها أُمّي حتى تَوَقَّفَت عن عِتابِها وانسحبت الرايات وتراجعت الأسئلة. صَدَّقَت أُمّي للمرَّة الألف وأكثر كذباتي عليها. عادت إلى بيتِها وأشباحي نامت عندَ آخِر الطريق، وعَلَّقَت أحلامها على لافِتَةٍ عريضة. ودعت ربَّها للمرَّة الأخيرة، وصَلَّت لصباحٍ جديد.

نهاية كانون الأوَّل 2013، في سبيل إرضاء الرأي العامّ في دولةِ الاحتلال، عَمدَت إسرائيل إلى بناءِ مئات الوحدات الاستيطانيَّة الجديدة مُقابل كلّ دُفْعة أسرى أفرجت عنها. ثمنٌ باهظٌ لم تَبْذِلِ الأرواح القديمة جُهْدًا كبيرًا في تجاهله فلا يقتل فيها فرحتها. أُعْلِنَت أسماء الدفعة الجديدة أربع أرواح قديمة قالت كلامًا كثيرًا في وداعِها لَنا، وَقَلَّلَت في خِطابِها ما تعلَّقت عليهِ من جدران. بقيت دفعةٌ رابعة وأخيرة: ثلاثون روحًا قديمة. التعلُّق وفرصة واحدة أخيرة، مفاوضات عقيمة بينَ الطرفيْن الإسرائيليّ والفلسطينيّ، وانحياز أميركيٌّ فاضحٌ للموقف الإسرائيليّ، يرافقه ضغوطات سياسيَّة على الطرف الفلسطينيّ من أجل ابتزاز أشهرٍ إضافيَّةٍ من التفاوض. تثاقلتِ الأيَّام والأسابيع في مرورها على انتظار الأرواح الثلاثين الأخيرة، ثلاث أرواح منها في القسم الخزنة وأنا رابعهم. زادَ الشتاء من بُرودةِ

الانتظار، وكادَ أن يُجمِّده لدى عائلات الأرواح. دَفَّأت كذباتي الأخيرة شتاءَ أُمِّي التي جلست على نهايةِ كلّ ساعة. أمَّا أنا فَزِدْتُ في تَعَلُّقي الذي عزَّزته مخاوفي من مُفاجآتٍ سيِّئة رأيتُها قادمة بخطواتٍ سريعةٍ وواثقة. قُمْتُ صباحاتي كُلَّها وحملتُ صخرتي وضربتُ موعدًا مع رأس الجبل. شباط يلفظ أيَّامه الأخيرة علامات التوتُّر كانت بادية على وجوه المرشَّحين لموعدٍ قد يكون الأخير مع حياة ما بعدَ الجدار. دولة الاحتلال تُبْدي تَماطُلًا في الالتزام باستحقاقات الاتِّفاق، غياب ردودٍ فلسطينيَّة مناسبة. صارَ التوتُّرَ على أَشُدِّه، وغدًا موعد الإفراج عن الدفعة الرابعة والأخيرة.

آخرةٌ مُبَكِّرة. هذا ما ذَكَّرَ به المشهد الذي عاشته الأرواح الثلاثون المُؤَبَّدة على جدرانِها. يومُ حِسابٍ، إمَّا حياةٌ بعدَهُ وإمَّا تعلُّقٌ على جدارٍ من نارٍ يبدأ من أوَّله. كانت تلك آخِرة بلا علاماتٍ صُغْرى أو كُبْرى سبقتها أو قدَّمت لها، وَبِلا فرصةٍ للأرواح القديمة لصلاةٍ أخيرة أو دُعاءٍ يشفع لَها أو تَوْبةٍ تمحو خطيئةً قَديمةً. شَريطُ حياةٍ توقَّف عند نقطةِ تفتيشٍ نزعت عنهُ كُلَّ تفاصيله، وبدأت تحاكمه وتسخر من عريه ومن خوفه بوّابة العبور؛ وأسئلةٌ قديمةٌ وأخرى جديدة عن ذاكرةٍ باهتة لأحداثٍ شبعت موتها، الله على الطرف الآخر ويفصلنا عنهُ موتٌ أو حياة. أنا وجداري على نقطة التفتيش جسدانِ عاريانِ من كُلِّ شيء أحتمي به تارةً وتارةً يختبئُ ورائي، نَزيدُ من التصاقنا مع كلِّ خطوةٍ ونؤكِّد على عهودنا القديمة، نُعْلِنُ عن جاهزيَّتِنا وتخلِّينا وعن تمسُّكنا بهُنا وبالآن، كنَّا قلنا صلاتنا الأخيرة قبل عقديْن من

التعلُّق، كنَّا تصالحنا مع خطايانا ولم يكن على أجسادنا إلَّا أجسادنا وأطلال جراحاتٍ ما عادت تعني صاحِبَ السؤالات عند نقطة التفتيش. يمكن للمؤبَّد أن يكونَ صخرةً ثقيلةً تعدم فيك كلّ فرصةٍ لقيامةٍ أو بعث، إذا توقَّفت فيك حافلة الحياة عند نقطة تفتيشٍ قديمة حافظت على ذاكرتها ولم تُتلف بعدُ ملفَّاتك القديمة يمكنه أن يكون جبلًا يرفض أن ينحني أمام تعبك، ويمكن للمؤبَّد أن يكون أيَّ شيءٍ يريده إن تركته يختار سبيله دون أيّ اعتبارٍ لك ودون أيِّ تدخُّل منك يُغَيِّرُ في خلقه وتكوينه، يمكنه أن يكون كلّ الأشياء أو يصبحَ كبقيَّة الأشياء إنْ أنت جعلتهُ كذلك، فالأشياء هي ما نريدها أن تكون.

أنا وقيْدي ومؤبَّدي وقفنا ثلاثتنا عند آخر مفترق للطرق، نظر كلٌّ منَّا للآخر لا يدري يتمسَّك أو يتخلَّى، يزيد في قبضته أو يذهب كلٌّ في طريق. إنَّها ساعة انتهاء الأشياء والأسماء والأقدار. إنَّها الساعة، لا شيءَ بعدها يشبه ساعات ما قبل[1].

جاء غدًا ولم تأتِ معهُ أيَّة بِشاراتِ إفراج، تخلَّت إسرائيل عن التزاماتِها وتمسَّكت بالأرواح الثلاثين. عُدْنا مع أجسادِنا وكلّ ما عليها من علاماتٍ مشبوهة تفحَّصها الجنودُ عن قُرْب، أغلقوا في وجوهنا كلَّ فرصةٍ للهروب بأرواحِنا إلى زمنٍ آخر ينهي فيها تعلُّقها. عدنا إلى جدراننا، وانتظرنا ساعة الشمس القادمة.

لم ينجُ أدونيس من أنياب وحشه، ظَلَّ معه على نزيفه، سقط الصيَّاد وانتصرت الفريسة ولم ينهش الوَعْلُ من جسد أدونيس بل

(1) إله العالم الآخر.

أبقاهُ في نزفه البطيء، صلَّى أدونيس صلاته الأخيرة وتعلَّق على جدارِ موته. وصَلَتْ[1] أفروديت متأخِّرة. لم يبقَ من أدونيس إلَّا جسدُه البارد ودمٌ لا يزال ساخنًا. بكت أفروديت وغزلت من خيوطِ الدم زهورًا حمراء. راقبَ بلوتو غزل أفروديت خيوط حبيبها الحمراء، ثم قال كلمته: ربيعٌ وصَيْفٌ كلّ سنة تُبْعَث فيهما يا أدونيس، وتمارسُ كلّ أفعالِك الأرضيَّة. خريفٌ وشتاءٌ أُعيدُكَ فيهما إلى العالم الآخر لتموتَ كما يموتُ نباتُ الأرض بعيدًا عن جداري وتعلُّقي ومؤبَّدي. راقَبَ بلوتو عَوْدَتي، ورَتَّبَ ما رَتَّبَهُ من أقدار. ومن يدري، قد لا تتأخَّر أفروديت هذه المرَّة وينجو نزيف الدم!

من على جداري، رَتَّبَ رَبِّي إلٰهُ العوالم كلّها مَوْعِدًا جديدًا في مكانٍ ما على كوكب الأرض. وُلِدَت إلٰهةٌ جديدة، وُلِدَت بعيدًا عن نزفي وعن جداري، وُلِدَت وفي ذاكرتها البعيدة صورةُ وَعْلٍ قديم. كَبُرَت قليلًا وتتبَّعت خيوط الدم، حملت أبجديَّتها الغريبة وسافرت إلى جغرافيا تشبه أسرارَ أبيها وأُمِّها. سكنت بعيدًا عن جداري بِضْع نبضاتِ قَلْب، حملت أوَّل خيطٍ للدم وبدأت تَغْزِلُ لي وَمِنّي رَبيعها والصيف خريفي والشتاء. اسمها نَنّا آخر آلهةٍ للحُبّ، ولي قِصَّتي معها.

---

(1) أفروديت: آلهة الجمال في الأسطورة اليونانيَّة.

الجزء الثاني

أنا، قَلْبي وضيق المكان

نَنّا

حدث كُلُّ شيءٍ في فُسْحةٍ زمنيَّةٍ ضَيِّقة قبلَ موعد الإفراج عن الدفعة الثالثة وقبلَ الأخيرة، ترتيبٌ إلٰهيٌّ أعجزُ عن تفسيرِهِ أو سَبْرِ نَواياه. كنتُ على تَعَلُّقي بجِداري أُقاوِمُ إغراءات القَفْز والتَخَلِّي وأبحثُ عن كَذِباتٍ تريحني من إلحاح أسئلة أمِّي التي أثقلت عليَّ ساعاتي في وقتٍ كنتُ فيهِ في أَمَسِّ الحاجة إلى زمنٍ مُغيَّبٍ لا يعنيه تعلُّقي. أخذت الأرواح الثلاثون القديمة خيباتها، وراحت كلٌّ منها تبحثُ عن زاويتها القديمة والمألوفة فيها تُداوي جرحًا عميقًا وجديدًا، لم أبحثْ طَويلًا ولم أَتَعَجَّلْ شفاءَ جُرْحي وهذَّبتُ كثيرًا من توقُّعاتي. دفعةٌ ثالثة تلكَّأت في وصولها وأنا غارقٌ في قراءاتي أتجاهل تعذيبها للوقت وجلدها للانتظار.

على الجهة الأخرى من الكوكب، خطت نَنَّا خطواتها الأولى وأمسكت بطرف أوَّل خيطٍ للدم، سبق تشرينها تشريني، وُلدت في إحدى دول المتوسِّط وَبَشَّرَت وِلادَتُها بِصَحْوةِ جيلٍ كامل من آلهة الكَذِب على الشاطئ المُقابِل للبَحْر، جاورت أساطيرَ قديمة خبَّرتها عن آلهةٍ لا زالت تسكن أحياءَ المُدُن، وتعقد اجتماعاتٍ

يوميَّة تُديرُ فيها شؤون الأرض والسماء، آلهةٍ بأسماءٍ غريبة لا تُشْبِهُ أبجديَّةَ أبيها، آلهةٍ عَمَرَت آلاف السنين وتشهد رسوماتها وتماثيلها العارية التي تملأ المدن على شبابها الخالد وعلى حكيم تجاربها. كَبُرَت سنين نَنّا قليلًا، وكأيِّ طفلةٍ لم تَنْجُ من تعقيدات ألكترا قرَّبت وجدانها من أبيها أكثر. لم تُفْصح المدينة عن غرابتها وصدَّقت نَنّا قصص بعض الآلهة الشابَّة التي خلت من التفاصيل الصعبة والمعقَّدة، وتجاهلت تلك التي فاقت خيالها حديث الولادة والتحليق. أثار اندهاشها تنوَّع اللسان داخل بيتها الصغير وأثار دهشتها أكثر تبدُّل الجغرافيا في كلِّ مرَّةٍ فشل والداها في حبس حنينهما إلى ذاكرةٍ قريبة حملت شواهد حُبٍّ قديم، فسافرا إلى الشاطئ المقابل يجدِّدان عهودًا قديمة مع الزمان ومع المكان. رأت نَنّا الوجه الآخر للبحر، لاحظت ظلًّا آخر للأزرق وتذوَّقت مطبخًا شرقيًّا حادًّا في طباعه وفي روائحه، التقت بِجَدٍّ سبعينيٍّ حاور اهتمامها ببعض أكوابٍ من الشاي زاد في سُكَّرها واستمعت دونَما اهتمامٍ أو فهمٍ لحديث الجدَّات عن نكباتهنَّ.

حملت نَنّا كلّ ما استطاعت من روائحَ وألوانٍ وصور وعادت إلى تماثيلها العارية وساحاتٍ قديمة كانت استقبلت في عزيزِ أيَّامها وجوهَ الفاتحين وقد عادوا مثقلين بانتصاراتهم، ساحاتٍ استقبلت بولس الرسول ومن رافقهُ من مؤمنين، واستقبلت أحرارًا من الشرق ناموا في بطون السفن وأفاقوا عبيدًا لأهل الشاطئ المُنْتَصِر، لم تكن نَنّا قد عرفت بَعْد تاريخ ساحات روما، ولم تهتمّ بثارات الشرق من غربٍ أثخن في انتصاراته، فلم يعد في ساحات المدن ما يُذكِّر بعدائيَّتها القديمة. كَبُرَت في نَنّا سنونها

أكثر، ملَّ والداها الاستماع لقصص الآلهة الغريبة، وزاد فيهما الحنين لقصص آلهةٍ أشدّ غرابةٍ لكنْ مألوفةً أكثر. إثنا عشر عامًا من الغربة وطلب العيش أعلنت استسلامها، ملأت حقائبها وعادت إلى شاطئها المتوسِّط القديم. عادت نَنّا من أجل كوب شايٍ أخيرة أعدَّها جَدُّها قبل أن يلفظَ أنفاسَهُ الأخيرة، عادت إلى ساحاتٍ خلت من التماثيل والرسومات، وعجَّت بقاماتٍ ووجوهٍ تُشْبهُ صُوَر أبيها القديمة، عادت إلى هواءٍ تسلَّل ليلًا من شاطئ يافا وسكن قريبًا من نافذة غرفتها، عادت إلى لسانها الأُمّ وتلعثمت كثيرًا وطويلًا، ثم أضافت إليه لسان من باغتوا الأرض واستوطنوا فيها، أبجديَّةً معقَّدة لطفلةٍ ما كانت تجاوزت بعد عامها الحادي عشر، أبجديَّةً اختلطت فيها أربعة ألسُنٍ وجغرافيَّاتٌ وثقافاتٌ متعدِّدة كانت نَنَّا قاسمها المشترك الصغير. انتهت السنون المدرسيَّة وخيط الدم لا يزال في طرفه، واتَّسع قلب نَنّا وداعبت فراغاتُه رغباتِ أنوثةٍ طاغية، خلت الساحات من خيولٍ بيضاء وفرسانٍ أتقنوا كلام الحُبّ بلغاتِه الأربع، يئست نَنّا ساحاتها القريبة والضيِّقة والخالية من تماثيل آلهة الحُبّ والجمال، غادرت بيتها وانتقلت إلى المدينة الكبيرة لتعيشَ في غرفةٍ طُلَّابيَّةٍ قريبةٍ من الجامعة وتفوَّقت في درسها، وظلَّت على بحثها فارسًا تأخَّر في استجابته لدعواتها.

لم تُقْنِعْ نَنّا محاولاتُ خيولٍ مراهقةٍ في فروسيَّتها وبدائيَّةٍ في مُغازلاتها، خيولٍ خلت أجسادُها من جروح الانتصارات ومن أوجاع الهزيمة. أرادت نَنّا شيئًا مختلفًا عن الذي وفَّرته بديهيَّة الحياة وشخوصها، يئست مجدَّدًا وبقيت على درسها حتى انتهى.

شهادةٌ في إعادة الحقوق لمن ضاعت حقوقهم، شهادةٌ صدَّقتها جامعةٌ شُيِّدَت على أرضِ شَيْخٍ عَجوزٍ استأنس بأرضه حتى جاء من يسرقها ويبني عليها دولته التوراتيَّة. وانتهى درس نَنّا وحفظته جيِّدًا، وحفظت ملامح ذلك الشيخ العجوز الذي مات دونَ أرضِه، غادرت المدينة الكبيرة وعادت إلى ساحات بلدتها الضيِّقة لتبدأ من هناك أولى حروبِها القانونيَّة أمام قضاءٍ جعل من محاكمه وسيلةً لشرعنة جرائمه. حاربت كثيرًا وفرحت بانتصاراتها الصغيرة، زادت مواجهتها قضاءَ دولة الاحتلال من وعيها بالظلم وجعلت من سؤال الهويَّة عند نَنّا سؤالًا ملحًّا، عزَّزت سياسات دولة الاحتلال اتِّجاه الأقلِّيَّة الفلسطينيَّة في إلحاح الأسئلة، وقفت نَنّا على مسافةٍ قريبةٍ من كلِّ الإجابات، كادت تصدِّقُ اقترابَها لولا صراخي الذي علا فانتبهت لخيط الدمّ، التفتت في كلِّ الاتِّجاهات، حدَّدت سريعًا وجهة الريح، قطعت تذكرة سفرٍ باتِّجاهٍ واحد نحو الصوت ونحو الوجع، ركبت أوَّل ريحٍ مواتية وتتبَّعت خيوط الدم التي تناثرت بين حاراتِ وأزقَّةِ المدنِ والقرى المهجَّرة وتلك التي بقيت، هبطت أسفل الجدار بين الدفعة الثالثة والأخيرة حيث انتهى خيط الدم، وحيثُ بدأت أوَّل محاولاتها وقف نزيفه.

رافقت سنين نَنّا الأولى بعد عودتها إلى بلدتها داخل الأراضي المحتلَّة عام 1948 أخبارٌ وحكاياتٌ عن جرحٍ قديم تناقلت أخباره أحاديثُ عائليَّة في كلِّ فرصةِ اجتماع، حدَّثوها عنهُ كثيرًا، قرأت عنهُ وله هنا وهناك. جرحٌ عمره ثمانيةٌ وعشرون عامًا حديديًّا. سكنت تفاصيل الجرح وجدان نَنّا، تورَّطت فيه أكثر

وظلَّت على تورُّطها حتى قرَّرت عيادة الجرح وكشف اللثام عن حقيقة صاحبه، كأنَّها تقطع هذه المسافة لأوَّل مرَّة، بدت الشوارع ضيِّقةً فجأةً، تعمَّقت في نَنّا انفعالاتها، اقتربت من مُعتقل هدريم أوقفت مركبتها قريبًا من الجدار، خيط الدم صار دافئًا أكثر، لم يُطل الجنود في أسئلتهم عن أسباب الزيارة، أصبحت نَنّا داخل الجدار، قطعت مسافة أمتارٍ قليلةٍ غصَّت بالأبواب والقضبان وأنفاس الجنود. إشارةٌ من الجنديّ المرافق باتِّجاه غرفةٍ صغيرة حملت الرقم ستَّة، دخلت نَنّا وجلست على كرسيٍّ بلاستيكيٍّ أبيض يُقابِلُها لوحٌ زجاجيٌّ فصلها عن جرحٍ سيأتي بعد دقائقَ قليلة ويجلس هو الآخر على كرسيِّه الأبيض في الجهة المقابلة للوح الزجاج. عاد الجرح إلى القسم، وحدَّث عن صبيَّةٍ جاءت تعوده. استمعتُ لانفعاله من الزيارة المفاجئة، وعُدْنا إلى انتظارنا موعد الإفراج عن الدفعة القادمة. عادت نَنّا بعد أسبوعٍ لزيارةٍ أخرى خبَّرها الجرح عن جراحٍ أخرى تُرافقُ نَزْفَهُ. انتهى أسبوعٌ آخر جاءت نَنّا تُمْسِكُ بِيَدِها طرف خيط الدم، زارت الأوَّل ثم زارت جرحًا ثانيًا، وجلست على كرسيِّها تنتظر جرحًا ثالثًا وأخيرًا.

ارتديتُ ملابسي سريعًا، وتأكَّدتُ من سلامة وجهي بعدَ الحِلاقة، قطعتُ أمتارًا قليلة برفقة الجندي حتى وصلنا إلى الباب المُقابِل للغرفة رقم ستَّة، فتحَ الجنديُّ الباب، تَأَكَّدَ من دخولي وأغلَقَهُ ورائي.

رحمةً بالجدرانِ يا صبيَّة، كانت تلك كلماتي الأولى وغير المسموعة، لكنَّ هَمْسَ الجدران كان مسموعًا جيِّدًا فهي لم تشهد من قَبْلُ حضورًا مُشابهًا في سطوته وفي أُنوثَته. جلستُ على

كرسيّي الأبيض تقابلني نَنّا على كرسيِّها في كامل أناقتها، لم يمنع عنِّي الحاجز الزجاجيّ روعة الحضور ودهشة المشاهَدة. وجهٌ لا يُفْصِحُ عن مكنوناته ولا يخبرك بأيِّ شيءٍ ولا يقدِّم معلوماته مجّانًا، وجهٌ يدعوك للإبحار والغوص والبحث، ولا يُرْضي غروره إلَّا انقطاع أنفاسك، عليك أن تحفر عميقًا وأن تبحث بين تقاسيمه عن ملايين التفصيلات الصغيرة. وجهٌ يلزمك للوصول إلى حقيقته ألفُ خارطة طريق، وعليك أن تستعين بكلِّ آلهتك، فلا تيأس أو تتوقَّف عن البحث، ويظلّ وجهها لُغْزًا يُقلق فيك رجولتك ويُسْكِنُ فيك ثقتك بنفسك في أدنى منازلها.

ثمَّة وجوهٌ تسلِّم مفاتيحَ ألغازها قبل أن تُنهي جملتها الأولى فلا يتبقَّى منها في لقائك القادم معها إلَّا نُسخٌ باهتة عنها، ولا يعود هناك ما يُثيرُ فيك غريزةَ البحث أو القلق أو توتُّر ما قبلَ الاكتشاف، تلك وجوهٌ بإمكانك خلال نظرك إليها أن تنتبه إلى كلِّ تفصيلةٍ أحاطت بها، إلى لون الفستان وتَناقضه مع أحمر الشفاه إلى تسريحة الشعر واحتكاك الأقراط بمنتصف العنق، إلى تفاصيل مكان وألوان الجدران وعلوِّ السقف وعدد أشعَّة الضوء الساقطة على طاولةٍ جمعت بينكما، وتفاصيلَ أخرى عديدةٍ تسمح لك تلك الوجوه بمراقبتها بدقَّة، وثمَّة وجه نَنّا.

لم يكن في الجهة المقابلة إلَّا وجه نَنّا، غابت كلّ التفاصيل غاب الزمان وغاب المكان، وظلَّ وجهُ نَنّا، تبخَّرت إحداثيَّات الحاضر وذكريات الماضي وما فيها من أصواتٍ وصُوَر، هذا وجهٌ لا يُبشِّر إلَّا بالتعب إنْ أنتَ فيه تورَّطت، وجهٌ لا يمكنك تجاهُلهُ وإنْ أغمضت عينيْكَ، وجهٌ جَمَعَ بين تناقضات الشرق والغرب

واختار له صفاتٍ مركَّبة حتى صار كالأُحجية. جلستُ على كرسيّي الأبيض أقابل وجه نَنَّا.

ـ مرحبًا.

ـ أهلًا.

ـ اسمي ناصر.

ـ قالوا لي.

ـ حقًّا!

ـ اعتقدتُني سأُقابِلُ رَجُلًا عَجوزًا.

ـ أنا كذلك.

تحدَّثنا عن السجن قليلًا وعن انتظارنا دفعة الإفراج الأخيرة دفَّأت الأجواء داخل الركن الصغير الذي جمعنا، وذاب ثلجٌ كثير شجَّعني ذَوَبانه على الإدلاء بأوَّل اعتراف.

ـ هل أعترف بشيء؟

ـ طبعًا.

ـ قلتُ لنفسي في طريقي إلى هنا، إن كانت جميلةً بقيتُ وأطلتُ، وإن كانت على عكس ذلك قصَّرت وانسحبتُ بلباقة بعد الجملة الرابعة.

ـ وماذا اكتشفت؟

ـ كانت تلك جملتي المائةِ ولا أزال جالسًا (مع ابتسامة ماكرة).

علت وجهها ابتسامةٌ لم تُسلِّم كثيرًا من انطباعاتها عن صراحتي المفاجئة، أثار إعجابي استقبالُها صريح ما قلته، تصرُّفٌ

عبَّر عن نُضوجٍ من امرأةٍ لم تتجاوز بعدُ عامها السابع والعشرين زاد ذلك من فضولي الذكوريّ، فتجاوزتُ بتطفُّلي ما يسمح به إتيكيت اللقاء الأوَّل، وسألتها:

ـ كيف ترين العالم يا نَنّا؟

تفاجأت من سؤالي، وبدت عليها علاماتُ توتُّر من حار في إيجاد جوابٍ سريع.

ـ ما الذي تقصده بالضبط؟

كانت تلك محاولةً لكسب الوقت والبحث عن إجابةٍ تنقذها تصرُّفٌ ذكيّ.

ـ قصدت في سؤالي: من أيِّ منظارٍ ترين العالم، من مدرسةٍ متشائمة أم أخرى قزَّمت ما فيهِ من هُمومٍ وأوجاع؟

ـ أراهُ كما هو.

قلنا كثيرًا عن أوجاع الدنيا وعن فقرائها ومعدوميها، قلنا عن الحروب وعن الإرهاب وعن الاحتلال في أرضنا، تبرَّعت بمعلوماتٍ بسيطة عن مهنتها في القانون وبمعلوماتٍ بسيطة أكثر عن محيطها الاجتماعيّ. انتهتِ الزيارة ولدى كلينا رغبةٌ في حديثٍ أطول. فتح الجنديّ الباب، خرجت نَنّا، وفتح جنديٌّ آخر الباب من جهتي أنا ورافقني عودةً إلى القسم. استبدلتُ ثيابي بأخرى مريحة أكثر، فكَّرتُ مُطوَّلًا بنصف الساعة التي جمعتني بِنَنّا، ثم عدت إلى تعلُّقي وانتظاري. مَرَّ قُرابة شهرٍ، عادت نَنّا لزيارةٍ ثانية وثالثة، زدنا فيهما في حديثنا عن كلِّ شيء، عن والديْها وإحدى عشرة سنة من الغربة، عن طفولتها في ظلِّ آلهةٍ

رومانيَّة قديمة، عن زيارتها إلى فلسطين، عن جدِّها وقُربها إليه وعن تفاصيل عودتها إلى آلهة بلادنا. تحدَّثنا عن المخيَّم وعن اللجوء وعن الأحلام وعن انتظارنا آخر فرصةٍ للحرِّيَّة.

زادت نَنّا من وتيرة زياراتها حتى صارت أسبوعيَّة، لم تعد لقاءاتنا تكفي أحاديثنا فاتَّفقنا على إضافة عنصر الرسائل نكمل عن طريقها أحاديثنا، التي تشعَّبت وتعمَّقت أكثر. تنصَّلت دولة الاحتلال من التزاماتها ورفضت الإفراج عن الدفعة الرابعة وبقيتُ أنا على تعلُّقي بجداري. زاد نزفُ الدم وازدادت في أصابع نَنّا خيوطه. ظلَّت على غزلها، وبقيتُ أنا على نزفي أنتظر زيارتها القادمة وأوَّل رسالاتها. كُنْتُ عدت إلى احتضانِ مؤبَّدي وتصالحي من جديد مع تعلُّقي الذي رفض كلّ احتمالٍ للسقوط. وكالذي يبدأ اعتقاله من أوَّله، جمعتُ قُواي وحملتُ صخرتي لا جبلَ يَصُدُّ في إصراري على الوصول، وعدت إلى جرحي النازف أرفض انتظار شفائه وأقبل أوجاعه كما هي.

صارت خطواتي أسرع ما أثارَ عجب مرافقي الجندي، أغلق الجنديّ الباب ورائي، لم تكن نَنّا قد وصلت بعد، جلستُ على كرسيّي الأبيض أنتظر وصولها، وقفتُ، وصلت نَنّا!

ـ تأخَّرتُ عليك؟

ـ لا، وصلتُ قبل قليل.

ـ أنتَ منيح؟

ـ الآن، نعم.

ـ هل ستظلّ واقفًا؟

ـ بل سأجلس.

جلسنا وملأت ركننا الصغير لحظة صمتٍ قصيرة.

ـ ما الذي يُعيدك إلى هنا يا نَنّا؟

ـ لا أفهم.

ـ ما الذي يُعيدك إلى كلّ هذا الوجع؟ فالآلهة لا تدخل إلى الأماكن الضيِّقة. حاولت لكنَّها فشلت، واستسلمت لحُمّى الكلاستروفوبيا[1].

ـ لستُ إلٰهة يا ناصر.

ـ كيف تعرفين؟

ـ أنا هنا، ألم تقل إنَّ الآلهة لا تدخل إلى الأماكن الضيِّقة؟

ـ بلى قلتُ ولكن قد تكونين إلٰهةً لا أعرفها.

ـ وكم تعرف منها؟

ـ الكثير.

ـ وهل تصدِّقها جميعها؟

ـ أصدِّق تلك التي تخاطبني ولا تتعالى عليَّ في خطابها.

مرَّت ساعة ونصف الساعة، ناقشنا فيها عديدًا من أمور الدنيا وأخبار الآلهة، اقتربت نهاية الزيارة.

ـ نَنّا صِفي لي ما مَرَرْتِ به من مساحاتٍ خضراء.

ـ ضروري الإحراج؟

ـ لماذا؟

---

(1) الكلاستروفوبيا: رهاب الأماكن الضيِّقة.

ـ لأنَّني لم ألتفت، ولكنِّي أعدك بأنِّي سأصفها لك في الزيارة القادمة.

قلتُ ما أقوله دومًا في نهاية كلّ زيارة جمعتنا: سوقي بحذر يا نَنّا، وردَّت نَنّا كما تردُّ دومًا، سأفعل.

غابت نَنّا أسبوعيْن، ما الذي يحدث لي وما الذي أفعله بالضبط، وما هذا الذي يغازل ساعتي بِلا توقُّف؟ كيفَ تحوَّلت الأيَّام إلى ثقيلة فجأةً!؟ أين ذهبت زائرتي كلّ ليلة؟ وما هذا الانتظار الجديد الذي لا أفهمه ولا يشبه في شيءٍ انتظاري القديم؟ وصلت أوَّل رسالات نَنّا.

2014/5/13

صديقي ناصر

سألتني ذات يوم ما الذي يأتي بِكِ إلى هنا؟ لِمَ تعودين؟ أأنتِ مازوشيَّة؟ الآلهة بذاتها لا تدخل إلى هذا المكان. جئتُ إلى هذه السطور لأُجيبك وأُجيب نفسي على هذه التساؤلات. ذات يوم آذاريٍّ في أواخر الشتاء، جئتُ إلى هذا المكان والتقيتُ للمرَّة الأُولى بأحدهم، قال: إنَّ من أكثر الأشياء التي يحبّها المناظر الطبيعيَّة (landscape). هل تعلم أنَّ هذه ليست من الأمور المتداولة في عالمنا اليوم لكي تُحَبّ أو يُقال عنها إنَّها من المفضَّلة لدينا، في حينه لم أفكِّر بكلِّ هذا.

اليوم، كُنْتُ في طريقي إلى قريةٍ مجاورة تُدعى جت المثلَّث إنَّها قريةٌ ترتفع على تَلَّةٍ مُحاذيةٍ لجدار الفصل العنصريّ، وتقابل

قريتَيْ زيتا وباقة الشرقيَّة في أراضي 1967. وأنا متَّجهةٌ شمالًا ترتفع جبال السامرة وقُرى متعدِّدةٌ تعتلي هذه الجبال، وتظهر اليوم على غرار أيَّام أخرى بعدَ أن أمطرت السماء مياه البَرَكة، وأزالت كلّ الغُبار الذّي يمكن أن يُعكِّر صفاءَ هذا المنظر ليبدو كلوحةٍ مرسومة. وتبيَّن يا صديقي أنَّني من مُحبِّي المناظر الطبيعيَّة دون أن أشعر، أُحبُّها بفطرتي دون أن أشعر بهذا الحبّ ودون أن أستمتع به.. وهنا يكمن الفرق، فأنت تشعر بهذا الحُبّ وتعلم وتُقَدِّر ما هي قيمته، أمَّا أنا فأُحبُّ ذلك دون أن أعلم ما هي قيمة الأشياء من حَوْلي، لقد تغيَّر في عالمنا مفهوم الحُبّ وكذلك قيمة الأشياء، فنحن نعيش في زمن الفيسبوك والهواتف الذكيَّة والتكنولوجيا المتطوِّرة وفي زمن (كل شّيءٍ متوافر) و(كبسة زرّ). لكي نفرح بحُبِّنا للأشياء علينا أن نلتقطها بين أيدينا ونمسك بها ولكي ننجح في ذلك على الأشياء أن تكون ثلاثيَّة الأبعاد حتى يتسنَّى لنا الإمساك بها.

أعيش بمكان وزمان وباء المادِّيَّات، والتَنصُّل من هذا المرض هو أمرٌ صعب وتحدٍّ بحدِّ ذاته، يتنافس الجميع ليكونوا الأفضل والأكثر تَمَيُّزًا ماديًّا وظاهريًّا حتى غدوا جميعهم متشابهين في منافستهم هذه. فقدت الأشياء قيمتها، ووُضعت لها تسعيرةٌ جديدة من الصعب تجاوزها، ولا يعلم الكثيرون أنَّ الأشياء الجميلة وأسباب السعادة هي في متناول الجميع. ولم أكنْ أعلم هذا أيضًا ولكنِّي اكتشفته على يدك، وأنا منذُ الآن سأستمتع بالمناظر الطبيعيَّة الموجودة من حولي، وسأستمتع بمحبَّتي لها وسأعلم من الآن أنِّي أُحِبُّها وتكفيني معرفة هذا الحُبّ لأتذوَّق

طعم السعادة ولو لثوانٍ قليلة، حتى لو كان حُبًّا لشيءٍ بديهيٍّ كهذا، فالحُبّ لمجرَّد الحُبّ هو جمالٌ بحَدِّ ذاته، وهذه ليست سوى نقطة صغيرة من بحر كلماتك في لقاءٍ آذاريٍّ لم يتجاوز الساعة. أَفَهِمْتَ الآن ما الذي يُعيدُني إلى هنا؟ ربَّما هذا أمرٌ بسيطٌ بنظرك، فأنت تعلم وتدرك قيمةَ الأشياء، أَمّا أنا فضَعُفَت لديَّ هذه القدرة على المعرفة وأحتاج لتحصينها. فقط من يفتقد الأشياء يشعر بقيمتها. أمَّا أنتَ فلا تملك هَذا الإحساس بالنقص وهذا ما يجعلك تتساءل عن أسباب تكرار مجيئي إلى هذا المكان. فلا تخف، أنا لستُ مازوشيَّة، أنا طبيعيَّة في واقعٍ غير طبيعيٍّ، وأحتاج إلى معرفة أشخاص فوق طبيعيِّين أمثالك لكي أحافظ على توازن طبيعتي.

سعيدة جدًّا بمعرفتك ـ نَنّا

بدأتُ مباشرة بعدَ قراءتي للرسالة كتابة ردٍّ سريع فيهِ حذَّرتُ نَنّا من مخاطر التورُّط في أوجاعٍ مُسِنَّة لا تورِّث إلَّا التعب، كنتُ رأيتُها تستمع لإجاباتي عن أسئلَتِها، غاصَت في التفاصيل بِلا خشيةٍ أو رهبة، لا تستعجل إجابةً ولا تُقاطِع إن بالَغْتُ في جرعة توصيفاتي لحياة الأرواح خلف القضبان وعلى الجدار. تلك صبيَّةٌ قضت أربعة أعوامٍ دراسيَّة في مدينةٍ كبيرة في شقَّةٍ صغيرة تستأنس بالأرواح كما اعتدت أن أصف حياتها تلك خلال دراستها الجامعيَّة وابتعادها عن محيطها العائليّ والآمن. عدتُ إلى قراءَة الرسالة ثانيةً، تخلَّيت عنها لبضعة أيَّام، ثم قرأتها ثالثةً وفيَّ رغبةٌ للمزيد من كلماتها.

معنى الاشتياق

وقفتُ أمام مرآتي دقائقَ أكثر من المعتاد، عدتُ على حلاقتي ثانيةً، تأكَّدتُ من ملابسي وتسريحة شعري، وجلستُ بعدها على سريري أنتظر قدوم مرافقي الجنديّ. حرتُ في تفسير توتُّري الزائد وفي تجهيزي لجملةٍ افتتاحيَّة أبدأُ بها حديثي مع نَنّا، وأنا لا أفعل هذا عادةً، بدت ملامح التعجُّب واضحةً على وجه مرآتي في كلِّ مرَّةٍ عدت للوقوف أمامها أتأكَّد من هيئتي. وصل الجنديّ خطواتٌ أسرع، بابٌ يُفْتَح، وأنا على كُرْسِيّي الأبيض تُقابِلُني نَنّا في الجهة الأخرى، تأنَّقت أكثر وبدا جليًّا أنَّ إحداهنَّ خصَّصت وقتًا أطول من وقتي أمامَ مرآتها. لم أدقِّق كثيرًا فيما ارتدتهُ من ثياب، لأنَّ ذلك لم يكن ممكنًا في حضرة ذلك الوجه الذي التفتت إليه جدران الركن الصغير..

ـ واو.

ـ هل يعجبك؟

ـ أكيد.

ـ شكرًا.

ـ عُدْتِ.

ـ أَلا أفعل دَوْمًا.

ـ عنيدة.

ـ ألم تَكُفَّ أنتَ عن عِنادِك؟

ـ أخشى عليكِ إن غرقتِ في أوجاعنا.

ـ متى تكفّ عن مخاطبتي كامرأةٍ ضعيفة؟

ـ أنا لا أفعل ذلك ولا أقصده.

ـ بلى تفعل وتقصد، وليتك تتوقَّف عن خطاب أعوامك المتعالية على صِباي.

ـ ولكنّي شابٌّ عجوز.

ـ لا لستَ كذلك، ولا شيءَ في سنينك يخيفني.

سبقتني نَنّا إلى زنزانَتي وجلست على سريري تراقب عودتي وتبعثُري في كلِّ اتِّجاه، لم يساعدني أيّ فعلٍ من أفعالي اليوميَّة على تجاهل حضورها وسُكناها في يومي، امتلأَ جداري بأخبارٍ عنها وبملامحَ وجهٍ صرتُ أحفظه جيِّدًا. موقفٌ خيانيٌّ ومتآمر من جدارٍ عاش ارتباكي ساعةً بساعة. مرَّت الأيَّام على مهلها حتى وصلت من نَنّا ثاني رسائلها:

صديقي ناصر

إنَّها الساعة 22:14، مساء يوم الجمعة 30/ 5/ 2014

بعد قليل سأخلد إلى النوم، لأنَّ غدًا ينتظرني يومُ عملٍ شاقٍّ

وطويل. التفتُّ من حولي في غرفتي الصغيرة، التي وكما سبق وأخبرتُك، لا يملأ فراغها سوى سريرٍ ومكتبةٍ صغيرة وأخرى أكبر، وشهادةِ تقديرٍ على الحائط، وكذلك علم هذا الوطن الذي أرهقك ولكنَّك لا تزال تعشقه. كوْني عدتُ دون رسالةٍ منك كنتُ مضطرَّةً أن أقرأ رسالتك لصديقتي ماجدة، فقد أصبح لا يهمّني الشخص المقصود بقدر ما يهمّني ويكفيني أن تكون هذه كلماتك ليكون وقعُها عليَّ مختلفًا عن الكلمات الأخرى، ولا أجامل. سأخبرك أنَّ تلك التي انتقلت للعيش في شقَّةٍ واحدة مع الأرواح والأموات هي أكثر الناس خوفًا من الموت، وهي لم تنتقل سوى مؤخَّرًا لهذه الغرفة المنفردة لأنَّها تخاف الوحدة، ولم تغادر سرير والدَيْها إلَّا بعد أن تعلَّمت الإنجليزيَّة؛ لأنَّها تخاف الوحوش واللصوص وحتى بابا نويل. إنَّ تلك التي تدَّعي أنَّها انتقلت للعيش في شقَّةٍ واحدة مع الأرواح والأموات يا ناصر، انتقلت لرؤية الجمال عبرك، فلا شكل الطبيعة ولا الألوان ولا الحياة تمتَّعت بهذا القدر من الجمال قبل انتقالي هذا، أظنّك من انتقل للعيش في تلك العيون التي أصبحت ترى الجمال بمنظارٍ جديد. لا أظنّ أنَّ من يكون الدافع لرؤية الحياة والجمال يمكن له أن يكون من جماعة الأموات أو الأرواح، فأنت ذاتك وفي السياق نفسه تقول إنَّ الرجل لا يموت أبدًا ما دام حاضرًا في ذاكرة امرأة! فيا سيِّد التناقضات، كيف لك أن تكون من الأموات وأنت تسكن وتستقرّ في عينيْها؟ فلا تحاولْ إخافتي بالأرواح والأموات وسأنام الآن قريرة العين، ولكنْ قبلها سأعترف لك باعترافٍ صغير. أظنَّ أنَّ تجربتي الفقيرة مع عالم الرجال هي سبب ذلك

الجواب السطحيّ على سؤالك عن الحياء عند الرجال. نعم يا ناصر، أنا حتى الأمس ظننتُ أنَّ الرجل لا يخجل في حضرة الآخرين، وكنتُ أحبّ صورة الرجل المليء بالثقة والقوَّة، ولم أتصوَّر يومًا أنَّ ارتباك الرجل في حضرة امرأةٍ يزيده جاذبيَّة وسأخبرك في وقتٍ لاحقٍ عن سبب هذا الاكتشاف.

كنت أودّ الاستمرار في الكتابة، لكنَّهم دَرَّسونا في الحقوق عن حقِّ المُشْتَبَه به في التزام الصمت وحقِّه في الامتناع عن إدانة نفسه، وأظنّني حتى الآن قد أدنت نفسي بما فيه الكفاية!

تصبح على خير وجمال
وعلى حبٍّ وألوان
على حياةٍ وأحياء
على قُوَّةٍ وحرِّيَّة..
رعاكَ الله وحفظك من كلِّ سوء.

تلك التي ادَّعت أنَّها انتقلت للعيش في شقَّةٍ واحدة مع الأرواح والأموات.

(نَنَّا)

أخذَ انتظاري صبغةً أسبوعيَّة، فإمَّا زيارة تزيد في حيرَتي وتورُّطي في وجه نَنَّا، وإمَّا رسالةً تدفعني إلى كتابة ردٍّ سريع أحذِّر فيه نَنَّا من شدَّة الاقتراب، وأُبقي الباب مفتوحًا أمام كلِّ اقترابٍ ممكن. كتبتُ ارتباكي وفوضى عواطفي، كتبتُ رغبتي في رؤيتها وفي قراءتها، وكتبتُ خوفي من عظيمٍ يقترب جَهِلْتُ أسرارَه. كتبتُ بحذرٍ شديدٍ ومشبوه، وأثار ما بين سطوري الريبة والشَكّ ليس في نَنّا فقط بل فيّ أنا أيضًا، تنكَّرتُ في كتابتي لما خالجني من أحاسيس مختلطة ولم أُفْصِحْ عنها في أيٍّ من رسائلي، أمَّا نَنّا فكانت أقلّ حذرًا منِّي، وكتبتْ تقول في رسالةٍ ثالثة:

لن أُراوِغ، وسأتكلَّم بشكلٍ واضح. لن أنعتك بالصديق بل سأناديكَ بعَزيز، فالصداقة عادةً تكون دالَّةً للزمن، أمَّا المعزَّة فقد تولد بلحظة، وفي لحظةٍ أعلنتُ فيها نيَّةَ الاجتياح متسلِّحًا بكلماتك، خانتني كلماتي وهجرني عقلي وكلّ سلاحٍ ممكن وبقيتُ كالمقاتل الأعزل. ومع ذلك، فإنَّ قوانين الفيزياء لا

تُخطئ، ويبقى العلم هو الآمر الأوَّل والأخير. وكما يُقال بأنَّ لكلِّ فعلٍ ردَّ فعلٍ مساويًا له في المقدار ومعاكسًا له في الاتِّجاه. وهكذا، مع غضب انقطاع الزيارة بشكلٍ مفاجئ، خرجتُ مع جرعةٍ زائدة من الطاقة وكنتُ مضطرَّةً لتفريغها بهذا الحبر حرصًا منِّي على سلامة من يحيطونني.

عزيزي ناصر، أن أكون المقصودة في كلماتك الأخيرة هو أمرٌ يدعوني للفخر والاعتزاز من بضع كلماتٍ استطعتُ أن ألمس كم أنت شخصٌ غنيٌّ وعبقريّ الكلمة والإحساس، أنتَ طفلٌ بريء، شابٌّ شقيّ، رجلٌ شهمٌ، ومناضلٌ مسؤول وعاشقٌ رومانسيٌّ في آنٍ واحد.. لديك قدرة استثنائيَّة على رسم الجمال بكلماتك، وإيصال حبّك للأشياء على الرَّغم من كلِّ الظلام الذي يحيطُنا. وهذا على الأرجح ما جعلَني أَشُكّ في لقائِنا الأوَّل أنَّك تبلغ من العمر 44 عامًا وإصراري على أنَّك أصغر جيلًا، فمن يتوقَّف عن الحُبّ يتقدَّم سنًّا، وأنت لا زلت تملك قدرةً استثنائيَّة على الحُبّ. ولأنِّي أُحِبُّ الاستفادة (لمفاهيم رأسماليَّة بحتة) وإفادة الآخر، أحتاج كثيرًا لأن تكتبَ أكثر حتى أستطيع إيصال كلماتك للخارج، وحتى أنشر هذا الوباء وكيلا أكون الحالة المرضيَّة الوحيدة. أنا بعد كلّ مرَّةٍ أقرأُ فيها كلماتك، أو بعد كلِّ زيارةٍ لك، أشعر بأنِّي أكثر نضوجًا، وتتعمَّق معرفتي بالأشياءِ حولي، وبهذا أُدينُ لك كثيرًا.

لا أملكُ قدراتٍ لغويَّة كتلك التي تملكها، وهي لا تفي لوصف المرحلة البوست ناصريَّة التي أمرُّ بها الآن، فأنت تملك العمق والإحساس، الحكمة والقوَّة، الإرادة والحرِّيَّة والخيال

والحسّ الرومانسيّ والرجولة، وقلَّ ما تجتمع كلّ هذه العوامل أو الصفات في شخصٍ واحد! ومن هَذا الباب تستوقفني.

عزيزي، بقيَ شيءٌ واحدٌ ينقصك، وأنا أفهم أنَّ الكمال لله وهو أن تقتنع بأنِّي لستُ مازوشيَّة، وأنَّ هذه ليست سوى ردَّة فعلٍ لفعلٍ قويٍّ وعظيم، سأُخبرك عنه في وقتٍ لاحق، لأنَّني أطلتُ عليكَ كثيرًا.

أُحَذِّرُكَ بأنَّني عنيدةٌ جدًّا، ووعدُك بالقيام بجولةٍ في بيت لحم لا يزال قائمًا وأنا سأنتظر، وإنْ كان لهذا أن يكون حلمًا في الوقت الحاضر، فإنَّك مضطرٌّ ومجبرٌ لتعدني بأن يكون هذا الحلم مشتركًا بيننا.

شريكَتُك بالحلم...

بشراكة مفروضة عليك عنوةً

نَنّا

أمَّا أنا، فبقيتُ على مراوغتي على الرَّغم من تورُّطي الذي راحَ يكبُر حتى أحاطَ جدراني جميعَها، أعجبني انتظاري المختلف وكأنِّي لم أبدأ بالأمس فقط مشوار مؤبَّدي من جديد. كتبتُ أكثر وخاطبتُ نَنّا بكلِّ اللغات غير المباشرة، أحذِّر تارةً وأغازلُ قدومها في أخرى. غاب سؤالي عن الذي أفعله، وظلَّ وجهُ نَنّا الجواب الحاضر والوحيد.

رأيتُ نَنّا تغادر زيارتنا كالتي تُنْتَزَعُ منها عُنْوَةً، حاربت كلّ

دقيقةٍ من أجل الاستماع لبضع كلماتٍ أخرى، ولم أبخل أنا في كلامي. هدَّمْتُ بعد كلّ لقاءٍ معها جسرًا أو اثنيْن بيني وبينَ حياتي قبلها، لم يكن ذلك قرارًا بل كان انصياعًا لاجتياحٍ أكبر منِّي هَزَّ في وجودي نصف معارفه القديمة. انتبهت الأرواح حولي لسيل الرسائل القادمة من نَنّا وكذلك انتبه الجنود، لكنَّ أحدًا لم يقل شيئًا، أمَّا نَنّا فكانَ لديها الكثير تقوله في رسالةٍ جديدة...

2014 /6 /7

عزيزي ناصر

هذه كتابة لي تعود إلى شباط 2010، كنتُ في تلك الفترة أزدادُ قناعةً بأنَّني لن أجد يومًا ذلك الشخص الذي أريد أن أتقاسمَ معهُ العمرَ والأيَّام والأحلام، اخترقت ثقتي ادِّعاءات صديقاتي بأنَّني صعبة الإرضاء، وأنَّ عليَّ التنازل قليلًا في متطلِّباتي. والصراحة، أنِّي منذُ تلك الفترة قطعت على نفسي وعدًا بأن لا أترك لمثل هذه الاتِّهامات أن تؤثِّر عليَّ وعلى قراراتي وقناعاتي، ونسيتُ بأنِّي قمتُ بهذه الكتابة حتى ذكَّرتْني بها شذا في حديثٍ دارَ بيننا حول يافا وبحرها، فذهبت أنبش في صناديق ودفاتر الذكريات باحثةً عنها. لا أدري لماذا! ولكنِّي أشعر برغبةٍ شديدة في إرفاق هذه الكتابة الصغيرة دون أن أُعلمك بها مسبَّقًا والحقيقة أنَّني أُراوغ، فأنا أعلم ما هيَ أسباب هذه الرغبة، ولكنِّي أتعمَّدُ إخفاءها لأنَّني أتجنَّب التورُّط نوعًا ما.

(ها أنا يا بحرَ يافا)

تسلَّلتُ من بين كلِّ ما يُحيطُني، جئتُكَ بمنتهى السرِّيَّة وكأنَّه لقاءٌ غير مشروع، وكأنَّني أرتكبُ خطيئة. وكيف لا يكون لقاؤنا من الخطايا! جاءني نداؤك صباحًا، كنتُ نائمةً وإذْ بأشعَّة الشمس تدغدغُ وجهي متسلِّلةً من شبّاكي الذي أعتبرهُ نافذتي إلى الجنَّة. كانت أيَّام المطر مثقلةً وطويلة، ولم آتِ إليك، فقد خشيتُ أن أراكَ هائجًا، لذا لبَّيْتُ نداءَ الشمس على الفور، تركت محاضراتي وصديقاتي وهاتفي وكلّ شيءٍ يمكنه أن ينتهك حرمةَ هذا اللقاء. أحبّ أن أراكَ بأجملِ صورة، فأنتَ الأمل الوحيد الذي بقي لي لإيجاد تلك الروح التي ستحلِّقُ بي بعيدًا، فأمتنعُ عن زيارتك في أيَّام الشدَّة كي لا أفقد هذا الأمل. ها أنا أتيتك بنيَّةٍ مسبقة للاستسلام، لتستحوذ عليَّ كما لم يفعل أحد، وأنا على يقين أنَّه قريبًا سيقطع أحدهم دربي، أحدٌ يشبهك ويأخذني إلى تلك الآفاق البعيدة التي تمتدُّ أمامي الآن. لا تسخر منِّي، فأنا أحيانًا أشعر بالتيه ولا أعودُ أفهم من أكون! هل أنا حالمة؟ هل أنا متطلِّبة أم

أنَّني صعبة الإرضاء، أو ربَّما أكون تائهة أو واقعيَّة أو بسيطة؟ لا أعلم.

ما أعرفه فقط هو أنَّني أريده أن يكون مثلك، وجوده يبعثرني وأمواجه تجتاحني من بُعْد، وفقط إن أردته بإرادتي يُطْلِقُ العنان لأمواجه لتصل إليَّ وتُلامسني، تاركًا لي بكلِّ روحٍ رياضيَّة قرار تحديد إلى أيِّ عمقٍ أريد أن أصل.

أريدُه أن يكون عميقًا مثلك وأن تكون ثروته في أعماقه غامضةً، أستكشفها تدريجيًّا ويُبقي على الإثارة سيِّدةً للموقف. يكشف من أوراقه واحدةً تلوَ الأخرى مستمتعًا بإثارتي ودغدغة هواجسي. ها هو صوت أذان العصر يرتفع من جامع البحر مضيفًا على هذا المشهد رونقًا آخر، تتلقَّى أمواجه صوت الأذان وتتفاعل معه، على الرَّغم من كلِّ المعالم الصهيونيَّة التي فرضت نفسها من حولك، فيصدر هذا السحر الخاصّ من تداخل الأذان بِلَهاث أمواجك، وحتى إن لم تستجبْ للنداء وتقوم للصلاة يبقى هذا الإيمان القويّ الذي يجعلك تستوعب كلّ نداء للصلاة لتُصْدر هذا الجوّ السحريّ الذي يُضْفي على المكان الكثير من الطمأنينة والراحة.

أريده أن يكون مثلك، ذا شاطئٍ شرقيٍّ حتى لو كانت نَسائمه غربيَّةً، لونُه من لون هذا التراب، وقسماتُ وجهِه تشبه وجه هذه الحجارة التي يتقن لُغتها ويُدرك جنونها، أريده شامخًا كمئذنة هذا الجامع القديم والصامد على الرَّغم من غربة الأشخاص الذين يحيطون به، أريد أن يكون كأجراس تلك الكنيسة التي ترافق غربتَه.

يا بحرَ يافا، ستبقى رمز هذا الأمل الذي يُبقيني مع يقيني أنَّني سأجدُه أين ما كان، وسيكونُ معجزتي وألوان حياتي ورسّامَها، وسأكونُ أنا اللوحة، وسأهمسُ في أذُنِه سرًّا أبديًّا حين أقول له (فقط أنت ستكتشفُ نقاط ضعفي، ولك أترك لنفسي العنان، وأتعرَّى أمامك من كلِّ قوَّةٍ ادَّعيتها لأغوص في أعماقك مستسلمةً وأغرقُ حتى آخر أنفاسي).

عزيزي ناصر، أكشفُ أمامك أنت فقط نقاط ضعفي، فأنت حالتي الاستثنائيَّة. أتمنَّى لك يومًا سعيدًا وهادئًا كذلك اليوم الذي كنت فيه على شاطئ بحر يافا، يومًا مليئًا بالأمل كيومٍ آذاريٍّ ذي مفاوضاتٍ التقيتُ فيه بروحٍ جميلة كانت كنسيم البحر في حياتي. بوادرُ تورُّطٍ باديةٌ عليَّ ولا أريدُ إخفاءَها، ولا تستغرب ـ ننّا.

يا لَها من مُنازلةٍ مستحيلة! كيف أنافس عرّاب يافا وإشبينها في توفير إجاباتٍ لصبيَّةٍ في أوَّل عشرينِها وقفت تقابل الموج تكشف أمامه عميقَ أسرارها، وهل سيحتملُ جداري تعقيداتٍ جديدةً فوق تعقيداته؟! هذا الجدار الذي حجب عنِّي كلّ مظاهر للحياة دفاعًا عنِّي، وحجبني عنها رغبةً في صحبةٍ سهَّلت عليه قضاءه وحيدًا ليالِيَ طويلة وموحشة، وكيف لرجلٍ جداريّ الهوى أن يقفَ في وجهِ بحرِ يافا بكلِّ مكنوناته وأعماقه وما فيه من احتمالات لا تنتهي لإجاباتٍ على أسئلة نَنّا؟ ولماذا سكنني هذا الغرور حين جعلت منِّي نَنّا منبعًا للأجوبة، وتخلَّت عن بحرها وعن كلِّ ما حَمَلَهُ الموج من إمكانات!؟ هل عرفت نَنّا أيَّ مسؤوليَّةٍ ثقيلةٍ ألقت بها على كاهلِ رجلٍ أنهكَ قُواه ثقيل صخرته؟

18/ 6/ 2014، جلست نَنّا على كرسيِّها. بقيتُ على صمتي مأخوذًا بسلطة وجهها. وجهٌ يعطيك ألفَ دافعٍ للحياة، ويمنع عنك موتَكَ وإن تمنَّيْتهُ.. ثم تكلَّمْتُ وتكلَّمْتُ كثيرًا. نَنّا على أناقتها المعتادة، وأنا على تجاهلي أيّ تفصيلةٍ خارج حدود وجهها، تكلَّمت كالتي تخفي سرًّا عنها وعنِّي، قلتُ:

ـ ما الذي جاء بكِ اليوم؟

ـ هل أزعجك قدومي؟

ـ لا، لكنَّ موعدنا في الغد.

ـ أعرف.

عُدنا إلى أحاديثنا الطويلة عن كلِّ شيء، تحدَّثنا عن يافا وعن بحرها، وأخفيتُ عن نَنّا ضياعي وغروري، وأخفيت أيضًا ثقيل ما حمَّلتني من أسئلة. حدَّثتني عن آخر دعوةٍ قضائيَّةٍ وُكِّلَت بها وعن فرحتها بدعواتِ رجلٍ عجوز أعادت له جزءًا من حقِّه فرحتُ معها وفرحتُ أكثر منها. قاربت الزيارة على الانتهاء وقفت نَنّا ونظرت إليَّ كالتي تَراني، ثم سألت فجأةً:

ـ هل تريد أن تعرف لما جئتُ اليوم بدل الغد؟

ـ أكيد.

سكتت قليلًا، نظرت إليَّ كثيرًا.

ـ لأنِّي اشتقتُ لك.

فتح الجنديّ الباب من جهة نَنّا وغادرتْ، بقيتُ واقفًا أجمعُ حروفَ ما قالتهُ في أبجديَّةٍ أفهمها. قاطع الجنديّ مشروعي

اللغويّ ورافقني إلى زنزانتي. غادرت نَنّا إلى شاطئها مع أسئلتها القديمة وتركتني أغرق في عميقِ أعماقي، عرفت نَنّا ما قالته جيِّدًا واختارت توقيتها وزمانَها، أطلقت سهمها الأوَّل، وغادرت قبل أن تتأكَّد إنْ كانت أصابتني في مقْتلٍ أم أنَّها اكتفت بخدشي وترك علامةٍ واضحة تذكِّرني أن أظلَّ حيًّا حتى زيارتها القادمة. بدأت نَنّا غَزْلها خيوط دمي النازف، فعلت ذلك على طريقتها، من يلومُ إلٰهةً في غَزْلِها! اشتياق، كلمة حدوديَّة تُلاقيك عند قمَّة ضياع الاتِّجاهات فيك، تدعوك إلى كلِّ شيءٍ وقد تفعل عكس ذلك تمامًا. موقفٌ متوسِّطٌ لا يليق بامرأةٍ تطرَّفت فيها الأسئلة، ولا يُسْعِفُ رَجُلًا تأبَّدت فيه جراحاته حتى أزعج نزفه تسرُّع أشباح الموت في قضاءِ أمرِها.. هناك ألف طيفٍ للاشتياق، فأيّ تأويلٍ له يخلِّصُني من أسبوع انتظارٍ كنتُ لا أزال أستكشف معانيه وكيف أصدِّق انتصاري على البحر وليس في يابستي إلَّا الجدار وروايات قديمة شاخت مفرداتها! ولماذا أتصرَّفُ بحياديَّةٍ وأنا مَنْ تحرَّش وبخشونةٍ أحيانًا بأسئلة نَنّا طوالَ شهورٍ مضتْ؟ لم أتوقَّف عن أسئلتي حتى وصلت رسالة من نَنّا تقول:...

الجمعة 20/ 6/ 2014

غرفتي الصغيرة، تحت سقفي الأبيض الذي رسمنا عليه معًا خطوط أوقاتٍ خياليَّة أمضيناها سويًّا على نغماتِ مقطوعة عودٍ يعزفها الثلاثيّ جبران، يرافقها صوت محمود درويش الذي يلامسُ أعماقَ روحي، ليتركني وإيَّاك في جنَّةٍ عرفتُ بعض ملامحها قبل أن تأتي أنت ودون أن تعلمَ لتُكْملَ كلَّ ما يمكن إكماله. هذا

الانسجام بين مقطوعةٍ أحبَّها قلبي منذُ زمنٍ بعيد وبين عبثك في خيالي الحديث يبهرني لدرجةٍ تجعلني أشكُّ أنَّك كنت دومًا هناك مرسومًا على هذا السقف، وشيءٌ ما حالَ دون رؤيتي إيَّاك. وإذا أردت أن أكون شجاعةً أكثر، وبما أنَّك لست أمامي الآن وأنا أكتبُ هذه الاعترافات الغبيَّة، سأُخبرُك بأنَّ وجودك لا يقتصرُ على هذا السقف، فأنت ترافقُني في كلِّ مكانٍ وموقف.. أمرُّ بجانب آثار قرية الطنطورة لأرى بقايا جرحٍ لم يلتئمْ بعد لأراهُ مشابهًا لجرحِ قرأته في عينيْك ذات مرَّة. أمرُّ على الكرمل الذي احترق بالنيران فأرى الجمالَ الذي كان وسيظلُّ على الرَّغم من سوداويَّةِ الحاضر، فأراك، أرى ألوان الوردِ في حديقةِ البهائيِّين لأتأكَّد بأنَّك أفضلُ الرسَّامين والملوِّنين في حياتي، أرى البحر فأُحسُّ كم أنَّك تُتْقِنُ إغراقي، أزور قاقون المهجَّرة لنحيي ذكرى سقوطها وننشدَ النشيدَ الوطنيّ الفلسطينيّ على أراضيها، وأحمدُ اللهَ ألف مرَّةٍ على نعمة النظّارة الشمسيَّة التي خبَّأتْك عن أنظار الآخرين في دمعٍ تجمَّع في عيْنيّ وأنا أراك كجبال السامرة شامخًا، وأشعرُ بلمساتكَ اللطيفة على وجنتيّ، لمساتٍ بعثْتها مع نسمةِ هَواءٍ وكأنَّها أُرْسِلَت لأجلي أنا فقط في هذا المكان.

ناصر، لا تضحك. فأنا أُصْغي لتوصياتك عندما أفتح خزانتي، لكي أنتقي الملابس التي سأرتديها قبل زيارتي لك، مع العلم أنَّك جعلتَ من الأمرِ صعبًا عندما قلت لي يومًا: إنَّ (الأبيض يليقُ بك). وأتذكَّرُ الآنَ كيف تجرَّأتُ وأخبرتُكَ بأنِّي اشتقتُ لك، ولا أدري إن كنتَ ستحكمُ عليَّ وكيف ستحكم لكنَّه ليس سِرًّا كما حاولتُ أن أُظْهِرَهُ وإنَّما هي الحقيقة التي لا أُجيدُ

ولا أُريدُ أَنْ أُجيدَ إخفاءَها. كلُّ ما في الأمرِ يا ناصر وببساطة هُوَ أنَّك وعلى ما يبدو أتقنت إغراقي ولم أُجِدْ السباحةَ لأعودَ إلى أَوَّلِ البحر ـ نَنّا.

ها هي نَنّا تخاطبُ فيَّ كُلِّي، وترسم قصَّتي مع الجدران والسقوف، وكان ذلك تعلُّقها الأوَّل على جداري القديم. مرحبًا بكِ يا نَنّا إلى عالم أهل السماء، هل لا زلتِ تُجيدين التحليق أم أنَّكِ قضيتِ وقتًا طويلًا على الأرض حتى صدَّقتِ قانون الجاذبيَّة؟!

لأنِّي أُحبُّكِ

24/ 6/ 2014، قرأت نَنَّا جيِّدًا ساعات انتظاري وقصَّرت في قدومها يومًا. أغلق الجنديّ الباب ورائي، نَنَّا على كرسيِّها ترقُبُني، وتحاولُ قراءةَ وجهي، أنا على صمتي. أخرجتُ قصاصةَ ورقٍ كنتُ أخفيتُها عن الجنديّ المُرافق في طريقي إلى رُكْنِنا الصغير، ألصقْتُ قُصاصةَ الورق بالحائط الزجاجيّ كي تقرأَها كتبتُ في القُصاصة أسألُ نَنَّا:

ـ قلتِ في الزيارة الأخيرة أنَّكِ اشتقتِ إليَّ، هل تعرفين معنى الاشتياق في لغة أهلِ السماء؟ قرأت نَنَّا سُؤالي، نظرت إليَّ مباشرةً وأشارت برأسها نعم. سكتْنا، لا يعرفُ أيُّنا يبدأُ بالكلام:

ـ لا تهتمَّ بمشاعري اتِّجاهَك، فقط قل ما تشعر به.

ـ ليتَ الأمر بهذه السهولة يا نَنَّا!

ـ قلْ أيَّ شيء، أنا ناضجةٌ وقويَّة بما يكفي لتحمُّلِ كلِّ إجابةٍ ممكنة.

ـ نَنَّا، انظُري إليَّ جيِّدًا.

ـ أنا لا أفعل إلَّا هذا منذُ أشهرٍ يا ناصر، أنظُرُ إليكَ.

ـ ليس لديَّ ما أعرضُهُ عليكِ إلَّا عُمْري وقيْدي ومؤبَّدي.

ـ أعرفُ ثُلاثيَّتك هذه، وآتيك على الرَّغم منها وآتيك من أجلها.

ـ أخشى عليكِ التورُّط في هذا الكمّ الهائل من الوجع.

ـ لا تخشَ عليَّ، ليس وأنا معك.

ـ ولكنِّي أخشى عليكِ منِّي.

ـ ناصر، توقَّف عن دفعي عنك، وقُل شيئًا.

ـ ماذا تُريدينني أن أقول؟

ـ قل ما تشاء، قُل أيّ شيء.

حدَّثتُ نَنَّا عن أشياءَ راحت تكبرُ فيَّ رغمًا عنِّي، عن لقائنا الأوَّل والثاني والتاسع، عن سُكْناها جداري وعن تورُّطي في وجهها، عن انتظاري زيارتها، عن الساعات الثقيلة، عن مراقبتي لها وهي تقترب منِّي وعن رغبتي في اقترابِها أكثر وعن خوفي من الاقتراب، حدَّثتها عن خشيتي عليها منِّي ومن سجني ومن صباها مقابل ما تقدَّم فيَّ من سنين.

ـ لماذا كلّ هذا الخوف عليَّ؟

لم أتنفَّسْ قليلًا ولم أبحثْ عن إجابةٍ تنجِّينا نحنُ الاثنيْن ولم أفحص احتمالاتي، ولم يكن هناك وقتٌ لأيِّ شيءٍ بين سؤالها وبيني.

ـ لأنِّي أحبُّكِ.

أربعةُ عقودٍ ونصف العقد، قضيت نصفها أمام جدارٍ عظَّم فيَّ أزمة اللجوء والمخيَّم، تجاهلتني كلُّ حياتي المحتملة في الطرف الآخر منه، حياةٌ شفّافةٌ في حاراتِ مخيَّم أصابتها كلُّ لعنةٍ توافرت في نواميسِ آلهةِ الغضب، طفولةٌ جاعتْ حتى شبعت جوعًا، أَبٌ هدم الفقْرُ رجولتهُ حتى انحنى، وأمٌّ حفرت في الفقرِ بئرًا حتى تيبَّست أطرافُها ثم تكسَّرت، مراهقةٌ خائفةٌ ومتردِّدة ومعطَّلة، صبيٌّ تحرَّشَت بارتباكه بعضُ نساءِ المخيَّم، وكتبنَ على جسده كلَّ ما كتبنَ من ميولِ عصيانٍ وتمرُّد، ومارسنَ على صباه ما تطرَّفْنَ في نسجه من خيالٍ جامحٍ كانت قد كبَّلته رجولةٌ غارقةٌ في ذكورتها.. ثم شبابٌ تعلَّمتُ فيه جميع أصناف الكذب، وكيف أجعل من كذباتي أسطورةً تُحكى وتغنَّى. سنونَ جامعيَّةٌ زادت من وعيي غرَّبتني عن مكانٍ غَرِقَ في مشتبهاته، ولم يوفِّر فرصةً ذكَّرني فيها إنكارهُ لي ولروايَتي.

أمَّا نصف عقودي الثاني، فقضيتُها خلفَ جدارٍ وقعَ في غرامي وفي جرحي، التصقَ التصاقَ المحبّ وغازلَ كالعاشقين في أوَّل عشقهم، أكلَ من لحمي ومن عظمي، تمدَّد وتقلَّص على هواي، ولم يعاند في مرَّةٍ أو قاوم انغِراسي في مساحاته. عاتب إنْ تهذَّبت في تعلُّقي، وسامحني إذا اشتدَّت فيَّ رعونتي، تحمَّل التحام الأوجاعِ على سريري وإزعاجها قيلولته عند كلِّ ظهيرةٍ وظلَّ ساهرًا حتى نامَ آخر جرحٍ جاءَ يبكي نزيفي، اختلطت عليهِ اللغات والأجناس والأرباب، واختلطت عليه الحبيبات وروائح العطر وبقايا ثيابٍ خلَّفنها على سريري، حلَّل العديد من غريب أفعالي وأوَّل كثيرًا في آيات التحريم، حجبني عن الحياة وحجب الحياة

عنِّي، ترفَّق في جلْدهِ ضَعْفي إذا ضعفْت، وقام أوَّل الصبح يُعِدُّ لي أوَّلَ ساعةٍ في الشمس. تنبَّأَ جداري قبلي قدوم نَنَّا، راح يعدُّني للقاءٍ من عالمٍ آخر، من عالمٍ حجبني عنه دهريْنِ وأكثر وحجبه عنِّي، ظننْتُ على سذاجتي أنَّ سنيني خلف جدارِ المخيَّم كانت قدرًا مقصودًا جهَّزني بعنايةٍ إلٰهيَّةٍ فائقة لما انتظرني من تعلُّقٍ على جدارٍ ثانٍ أبَد تعلُّقي. وبقيتُ على ظنِّي حتى جاءت نَنّا وجلست على كرسيِّها الأبيض خلف جدارٍ زجاجيٍّ ثلاثِيّ الأبعاد. انزع عنك صخرتك يا سيزيف، فقد تسطَّحت فيك جبالك كلُّها. واخرج من جرحك يا أدونيس فإنَّ نزفك لم يبدأْ بعدْ.

لأنِّي أُحبُّكِ، قفزت معانيَّ ما بين السطور وما خلف الجمل حتى صارت قدرًا مُكوِّنًا، غيَّرت في تفاصيل المشهد داخل ركننا الصغير أنا ونَنَّا. وليتها اكتفت بما غيَّرت من معالم في ذلك المشهد، فلم يعد في وجودي كلِّه شيءٌ إن كان في أرضي أو في السماء إلَّا وارتدى وجهًا جديدًا لم أعرفهُ قبلًا.. هذي بلادٌ أخرى في زمنٍ آخر وفي طبيعةٍ تشكَّلت في لحظتنا هذه.

لأنِّي أحبُّكِ، جلست عازفةُ التشيلو إلى يساري، جلست بفستانِها الأحمر الملوكيّ، تسلَّق ذراعُ التشيلو صدرها وراحَ يداعبُ الرقبةَ بنُعومةٍ لا تليقُ بعزفهِ. لم تخجل صاحبة الصدر بالكشف عن ساقيْن رُخاميَّتيْنِ بل بالغت في كشفها مما زادها حضورًا وزادني أنا اضطرابًا. عزفت دون إذنٍ منِّي أو حتى سماع رأيي كأنَّها تعزف لها هي، عزفت غير مباليةٍ بذوقي أو بمزاجي الشرقيّ العتيق، عزفت كالتي قرأت تاريخ استماعي كلَّهُ، عزفت على أوتاري وكلَّمت موسيقاها الغربية لحظة ارتباكي وتوتُّري. لم

أخبر نَنَّا عن الذي يحدث، وأبقيته سرًّا بيني وبين صاحبة الصدر. لم أخاطر بكشف ما رأيتُه وسمعتُه، فقد لا تستوعبُ نَنّا جُنون ما غزلتهُ من خيوطٍ، لم يكن في الموسيقى أو في صاحبتها ما ألهاني عن دهشتي بِنَنَّا، صرنا سريعًا جزءًا من المشهد على طرفيْ لوح الزجاج. لم تكن تلك موسيقى صوَّرت ما يحدث، فقد حرصت نَنَّا على إحضارِ موسيقاها معها، بل كانت موسيقى شريكةً وشاهدةً على ما يحدث وما يُقال.

لأنّي أُحبُّكِ، وقفت بطلةُ الفيلم أمام من تحبُّه، سألتْه عن أخباره وخبَّرت عن حالها في غيابه. كان جرحه طريًّا حتى لوَّن صفحات الكتب التي اصطفَّت في رفوفهِ، يعيشُ حبيبُها بين الكتُب يبيعُها، ثم يعود إلى منزله ينتظر يومًا جديدًا. كانت كسرت قلبه مرَّةً دون قصدٍ منها وراح هو يعالج جرحه في ركنه المكتبيّ الصغير. عادت وعادت معها مخاوفُهُ، كان قد تخلَّى عن تعلُّقهِ بها وتمسَّك بآخر فرصةٍ تُنجِّيه، وقفت تقابلهُ تُحيطُها الكتب، يئست من تجاوبِه مع غَزْلِها خيوطَ دَمِه، فحاولت مرَّةً أخيرة حين قالت:

I am just a girl standing ـ

In front of a boy asking him to love her ـ

«أنا مجرَّد بنتٍ تقف أمام ولد، وتطلب منه أن يحبَّها»! لا أدري كيف، ولكنْ حضر هذا المشهد الهوليوديّ من فيلم بعنوان: (Notting Hill)، ورافق مشهدنا أنا ونَّنا خيالٌ متفائل، فقد انتهى المشهد بنهايةٍ سعيدة. كان ذلك غزلُ نَنَّا وما رافقها من موسيقى هو من أحيا هذا المشهد في هذه اللحظة في هذا الركن خلف هَذا الجدار.

لأنّي أحبُّكِ، تحوَّلت كلّ الجدران حولي إلى شفَّافة حتى كشفت عن كلِّ أسرارها، لا شيء يحجب عنِّي أو يحجبُني. رأيت الجنود خلف الجدران، مركبةَ نَنَّا إلى جانب السور، مساحاتٍ خضراء نسيت نَنَّا كثيرًا أنَّها موجودة، جدارَ فصلٍ عنصريٍّ قريب شمالَ ضفَّةٍ محتلَّة، حواجزَ تفتيشٍ في كلِّ مكان، هواءَ بلادي مع رائحته العتيقة، صبايا وصِبْيةً بلا مستقبلٍ منظور، أشباهَ حرِّيَّاتٍ توزَّعت كالوعود الكاذبة لكنَّ الجميع يصدِّقها. ورأيت أيضًا طرقاتٍ كلَّها تأخذني إلى بيتِ نَنَّا، رأيتُ بقايا قرى دُفنت تحت ما شيَّدهُ الاحتلالُ من قرى وبلدات، ورأيت مدنَ البحر والشاطئ.. فتح اللهُ كلَّ بوَّابات بساتينهِ، هَذا ما تخلَّيتَ عنه ورحتَ تتعلَّقُ جدارك. هذه نَنَّا أمامك. اخرج من جروحك القديمة وازرع على شفتَيْها زرعًا جارحًا جديدًا. هذه نَنَّا أمامك تطلبُ منكَ أن تحبَّها، ويْحكَ! كيف تؤخِّر فيك خطواتك والقبلات، أيُّ عجزٍ هذا الذي سمَّر فيك أفعالك. مدَّ يدًا أو أكثر. هذا آخر وأجمل عرضٍ تقدِّمه لك الدنيا، فقد جمعت فيه كلَّ الذي نسيتهُ والذي لا زلت على ذكرى معه.

لأنّي أحبُّك، نظرتُ ورائي، عاد التعلُّق والانزلاق، عاد الضيق والاختناق، لا شيء يُحْجَبُ عنِّي أو يحجِبُني، فتح اللهُ بوَّابات جحيمه كلَّها، لا شيء ينجِّيني الآن من احتراقي في نَنَّا سقطْتُ عن جداري فسقطَ عَنِّي، تخلَّيت عن تمسُّكي فتخلَّى عنِّي فتحَ الجدارُ الزجاجيُّ كلَّ عيْنٍ أغلقتها، وما كنتُ لأصمد وقد جاءتني الدنيا بأفضلِ وأجملِ وأحلى ما فيها وأجلستْها أمامي. تلك نَنَّا، إغراءات السماء والأرض وما بينهما، فيها من كلِّ ما

حَرَّمَ الله وأنبياؤُه وفيها حلالُ كلِّ ما تحرَّم. نَنَّا طريق المصَلِّين إلى السماء وجواب الأسئلة كلِّها.

لأنِّي أحبُّك، جلسنا كلانا ـ كلٌّ على كرسيِّه نتأكَّد سلامة أرواحنا، قلنا في الحبِّ كلامًا كثيرًا، وفعل الحبُّ فينا أكثر. ظلَّ وجه نَنَّا الثابت الوحيد والأكيد في كلِّ ما كشفت عنهُ شفافية الجدران، لقد صارت نَنَّا يقيني الوحيد وملجأي الآمن بعد أن تخلَّيْت عن جداري وتركته وحيدًا. أخبرتُ نَنَّا عن عازفة التشيلو وعن المشهد من (notting hill)، وأخبرتُها عن أشياءَ أخرى كثيرة، وأبدعت نَنَّا في تفاعلها مع جنوني.

ـ أحبُّكِ.

ـ أحبُّكَ أكثر.

ـ ليت هناك أكثر يا نَنَّا، كنتُ أضفتُ وغرقْتُ.

ـ سأغوصُ أنا فيك أعمق.

ـ سأشتاقُ إليكِ.

ـ أنا أيضًا.

ـ لا أريدُ أن أُغادِر.

ـ وأنا أريد أن أبقى هنا أبدًا.

ـ قولي للزمن أن يتوقَّف.

ـ سأفعل.

ـ سوقي بحذر يا نَنَّا.

عاد بي مرافقي الجنديّ إلى القسم ـ الخزنة، إلى شفافيَّة الجدران وتخلِّيها عن حجبي وحمايتي، رافقتْني نَنَّا في كلِّ خطوةٍ

كالتي عرفت حاجتي رفقتها، سبقتني إلى زنزانتي وجلست على سريري، أعدَّت قهوتي وأشعلت معي سيجارةً أولى.. تلك نَنَّا آلهةُ الأماكن الضيِّقة وآلهتي أنا.

فشلت في مقاومة قلمي والورق، كلّ ما فيَّ أراد أن يكتب لِنَنَّا، ويقول: هذا أنا يا نَنَّا وليس لديَّ غير أنا وقيْدي ومؤبَّدي أردت أن أكرِّرها مرَّةً تلو الأخرى على أسماع نَنَّا، أردت أن أتأكَّد أنَّ هذا ما رأته وجلس أمامها على كرسيِّه الأبيض. كتبتُ لها أقول:

ـ آمَنْتُ..

أنا الحَيُّ المَيِّت وأَنا الحُرّ السجين وأَنا الشابّ في مُنْتَصَف الأربعين، وأنا الشهيد في جَنَّتي لا خَمْرٌ ولا حورُ عَيْن.

ـ آمَنْتُ..

باللهِ رَبِّ القَيْدِ والسَلاسِل، ورَبِّ الجوع والحروبِ والزَلازِل ورَبِّ الأحياءِ والأموات، ورَبِّ الفُقَراء ورَبِّ المُتَوَسِّطين.

ـ آمَنْتُ..

بالرسالاتِ كُلِّها، السماويَّة منها والأرضيَّة، وإنّي قرأتُ القرآنَ والتوراة والإنجيل، وإنِّي حملتُ مع موسى وصاياهُ العشرة والعشرين.

ـ آمَنْتُ..

بكُرَوِيَّةِ الأرض وخطوطِ الطولِ والعَرْض، وأَنَّ الفُصولَ أربعة، وأَنَّ زنزانَتي مُرَبَّعة، وأَنَّكَ يا رَبُّ خَلَقْتَني في

عُجالةٍ من ماءٍ وطين.

ـ آمَنْتُ..

أَنَّ مُؤَبَّدي لم يبدأ بَعْد، وسمائي بَرْقٌ وَرَعْد
وأَنَّ أُمّي تَوَقَّفَت عن العَدّ، وأَنَّ أَبي ماتَ مقهورًا
لا صَلاةَ ولا عَزاءَ ولا مُشَيِّعين.

ـ آمَنْتُ..

أَنَّ فلسطين عِشْقي وجَزائِري ودمشقي، وأَنَّ اليرموك عِتْقٌ
وأَنَّ العَوْدة حَقّ، وأَنَّ القُدْسَ محبوسةٌ في عُيونِ
السُكارى والمُصَلّين.

ـ آمَنْتُ..

أَنَّ النساء قَوّاماتٌ على الرجال، وأَنَّ حَوّاء بريئةٌ مِن
نَفْيِنا من جَنَّتِنا، وأَنَّ أقدارَنا من صُنْعِ أَيْدينا، وأَنَّ
التُفّاح حَلالٌ وأنا أَوَّلُ الآكِلين.

ـ آمَنْتُ..

أَنَّ الحُدودَ بِدْعة، وعنصريَّةَ اللَوْنِ والجِنْسِ ضَلالة، وأَنَّ
مَحاكِم التفتيش باطِلة، وأَنَّ حُرِّيَّةَ القَوْلِ والفِعْلِ حَقٌّ وخُلُقٌ
ودين.

ـ آمَنْتُ..

بِخُضْرةِ العُشْبِ ولَذَّةِ الشُرْب وَدَهْشةِ الحُبّ وَرَوْعةِ الرَبّ
وأَنَّ وُعودي ماءٌ وظِلّي فضاء، وأَنَّ تَغْريبَتي تَرْنيمة
الأَسْرى وَصَلاة اللاجئين.

ـ آمَنْتُ..

أَنَّ جدرانَ الزنزانة حقيقة، وأَنَّ قَيْدي حديدٌ، ومعصمي جليدٌ وأَنَّ زائِرَتي شرقيَّة الملامح لا تَنْسى وَلا تُصالِح، وأَنَّها وُلِدَت من رحمِ تشرين.

ـ آمَنْتُ..

أَنَّ فَقْري غِنى، وعُزوبَتي اشتياقٌ، وَيُتْمي شَظِيَّةٌ، وأَنَّ الذي يأخُذُني إلى أبي لَيْلًا بُراق، وأَنَّكِ يا أُمّي إذا مُتِّ قَبْلي تَخونين.

ـ آمَنْتُ..

بأنَّ الذي يرقُد في صدري طِفْلٌ، وأَنَّ كَسْرَ القُلوبِ قَتْلٌ، وأَنَّ الحُبَّ يأتي أَوَّلًا ويبقى مُطَوَّلًا، وأَنَّ التي أَحَبَّتْني مرَّةً نَسِيَت.

وَيْحَكِ كيفَ تنسين!!

لم يكن لديَّ ما أقدِّمه غير الذي عرَّفت به نفسي، كلماتٌ ومشوار تعلُّقٍ طويل، وحكاياتٌ عن جدرانٍ قديمة وأخرى جديدة. لم أجدْ في نَنَّا حبيبةً فقط. بل وجدت فيها رفيقةَ مشوارٍ ودَرْبٍ وشراكةٍ في قضايا وهموم مشتركة، كنَّا أغنيناها نقاشًا وبحثًا في لقاءاتنا الأسبوعيَّة وفي مكَاتباتنا، وكان على كلماتي أن تكفي نَنَّا وكذلك مشاركتي إيَّاها روحيًّا في ساعاتها وأيَّامها. سكنتُ في كلِّ مكانٍ وطأتْه وسهرْتُ على نومها، جلستُ إلى جانبها في كلِّ مرَّةٍ صدَّقت وحدتها وصدَّقت غيابي، قبَّلتها أوَّل كلِّ صبحٍ وشربنا

قهوتنا معًا، قبَّلتها منتصف النهار وعدت أوَّل كلِّ ليلةٍ أكمِّلُ ما بدأناه، أردت أن أتأكَّد من حضوري في يومها تمامًا مثل تأكُّدي من حضورها في ساعاتي كلِّها، غابت الجغرافيا وغابت الحدود وما عدتُ أجتهد في استحضار نَنَّا، فقد نزلت في زنزانتي وقرَّرت أن لا فراق، وما كنت لأقبل إلَّا حضورًا مُماثلًا في حياتِها.

2014 /6 /28

حبيبي ناصر

غدًا هو أوَّل أيَّام رمضان، أحسستُ برغبةٍ شديدةٍ في تهنئتكَ، مع العلم أنَّنا لم نتكلَّم يومًا على الصيام، لكنَّ الجرح الأوَّل أخبرني أنَّك تصوم رمضان وتصلِّي أيضًا. هذه المعلومة أفرحت قلبي، فقد صرتَ تعرفُ الآن كم أحببتُ انسجام بحر يافا مع الأذان، وبتَّ تعرف أيضًا مَنْ هو بحرُ يافا في حياتي، وتنتابُني رغبةٌ أيضًا بتهنئة خالتي مزيونة، وربَّما يعودُ هذا لمعرفتي بشدَّةِ حبِّك لها وإعجابِكَ بها، فأنا عندما أُحدِّثُها أشعرُ بأنَّني أتواصلُ معك، وأحتضنُ صوتها وسخاءها بالدعوات بكلِّ حَواسِّي.

2014 /7 /2

ها أنت تحت سقفي الأبيض وأنا أُحضِّرُ نفسي لاستحضارك لنقضي وقتًا معًا، ولو للحظاتٍ تليقُ بالسحر الذي يطوف حولنا لَمْ يدركْني النعاس حتى الآن، فلا زلت أسترجعُ كلَّ ما حصل في لقائنا وأن أستوعب قُدرتك على احتوائي وإقناعي حتى النخاع أنا

لا أستوعبُ كيف باستطاعتك الاعتقاد أنَّ بإمكانك أنْ تسبِّب لي الأذى أو الألم.. مثلُكَ يا ناصِر لا يمكنه إيلامي، فليست تلك طبيعتك. اليوم قمتُ بقِراءةِ: (آمنت) أمام أمِّي التي لا تعرفُ عنَّا بعد، وكان انطباعها إيجابيًّا بقوَّة. حسنًا، بدأتُ أشعرُ بالنعاس وأظنُّني سأنام مباشرةً، إذا اقتربت تُغطِّيني قد أهمسُ في أذنك عن مقدار تورُّطي فيك، وأنَّني لن أتوقَّفَ عن حبِّكَ أبدًا.

2014 /7 /3

جلستُ مَساءً بين أفراد عائلتي أستمعُ لأحاديثهم، لكنِّي لم أُنْصِت حقًّا، كنت على اجتياحكَ تفكيري في تلك اللحظات. حاولتُ استعادة تلك الفرصة التي تَمَعَّنْتُكَ بها قبل أن تخبرني أنَّك كنت تنوي أَنْ نبقى على حالتنا تِلْكَ لِمُدَّةِ خمس دقائق. شعرتُ بالضيقِ والندم، لأنِّي لم أتمعَّنك أكثر، ولأنِّي لم أستسلمْ لعيْنيْكَ. وكلُّ ما أشعر به الآن هو رغبتي بالاستسلام، وسيكون هذا درسًا لي كي لا أشعر بالحرج في المرَّة القادمة. تصفَّحْتُ الفيسبوك وكانت الأخبارُ سيِّئة وخصوصًا خبر استشهاد الطفل «محمَّد أبو خضير». بحثتُ في الحاسوب عن فيلم notting hill، وبعد جُهْدٍ بسيط وجدتُه. سأترُكُكَ الآن، ونلتقي بعد قليل.

كَلامٌ في الحُبّ

استبدلتُ نَنَّا بالأسماءِ كلِّها، صارت أنا نحنُ، وأخذت الأفعال الفرديَّة في أبجديَّتي صفاتها الجمعيَّة، قمنا متأخِّرًا وغسلنا وجوهنا، أعددنا قهوتنا الصباحيَّة وقفزنا عن الإفطار لما فيه من ازدحام يقلقُ هدوءَ الصباحات، جهَّزنا ثيابَنا ثم عدنا ووقفنا أمام المرآة نُرضي عن أنفُسنا ونُعِدُّها لاستقبال بقيَّة اليوم، قرأنا الجريدة التي زادت أخبارُها من إحباطنا من كثرة القتل والجوع والتهجير سيجارةٌ ثانية نحرقُ بها إحباطنا، خرجنا إلى ساعة الشمسِ واستمعنا إلى آخر تفسيرٍ لأحلام الأرواح في الليلة الماضية أسهبنا في تحليلاتنا السياسيَّة والاجتماعيَّة وقدَّمنا عديدًا من الأفكار التقدُّميَّة التي لم ترق لبعض الأرواح المحافظة، تركنا الأرواحَ تُعيدُ تفسيرات أحلامها إلى متفائلة أكثر، وتمعن في جلدها لنا ولحداثويَّةِ المكان والزمان، احترقنا وحدنا في ساعة الشمس حتى تسمَّرت أجسادُنا أو ما كشفناه منها، نَنَّا كشفت أكثر. انتهت ساعة الشمس ورجعنا إلى زنزانتنا، شاركنا أرواحنا الرفيقة بآخر المستجدّات وجلسنا نهدأ قليلًا، قرأنا في السياسةِ أو في التاريخ

أو في الأدب، شاهدنا فيلمًا مملًّا عن الحرب العالميَّة الثانية، ثم ساعة شمس أخيرة قبل غروبها، وبعدها عودةٌ إلى الزنزانة.

كانت ساعة الشمس الأخيرة قد انتهت، صرت ونَنَّا على سهرِنا ننتظرُ وجبة العشاء. أكلنا بسرعة وبلا شهيَّة، وانتظرنا انشغال الأرواحِ الرفيقة داخل الزنزانة في شؤونها الخاصَّة حتى نصير وحدنا من جديد. لم يتبقَّ في جداري ولو بقيَّة من رحمةٍ قديمة، كأنَّه يثأر من خيانتي تعلُّقي، رأيتُ من خلاله كلَّ حياةٍ ممكنة أو محتملة، وزاد هو في تلوينه للمشاهد المعروضة. دبَّت الحياة في كلِّ جانبٍ خلف جدراني الشفّافة، وصار ليل ونهار ونشطت شموسٌ وتكاسلت أقمار. أرواحٌ تشبهنا في خلقها انهمكت في سباقها ساعاتها، شوارعُ ومركبات لا تكفُّ عن مشيها، ومساحاتٌ خضراء تقلَّصت أمام وحوشٍ إسمنتيَّة علت وتجبَّرت.

لا شيء يحجبني بعد، كان هذا انتقامُ جداري. خفت، لكنِّي لم أعتذر. أدار جداري ظهرهُ ولم يشفع لي عندهُ أكثرُ من عشرين عامًا من التعلُّق، عاتب وهَدَّدَ:

ـ كيف تسقط؟

ـ تعبت.

ـ هل صدَّقت ما ورائي؟

ـ أصدِّقُ نَنَّا.

ـ حملتك ألف عامٍ ويومًا.

ـ أَلَمْ تشبع من لحمي بعد!

ـ احمل صخرتك يا ناصر، فليس ورائي إلّا الجبل.

ـ وأنا لا أرى أمامي غير نَنَّا.

ـ هذه ليست كذباتك القديمة، كيف تؤمن؟

ـ هل رأيت وجه نَنَّا؟!

توقَّف جداري عن الكلام، وكان ذلك حديثنا الأخير، لم يخاطبني بعدها. تودَّدت كَثيرًا وطويلًا، ولكنَّ جداري ظلَّ على صمته وعلى انتقامه.

خلف الجدار الشفّاف أيقظ اللهُ كلَّ مخلوقاتهِ حتى الميِّتة منها وتلك التي انقرضت، أعاد للطبيعة أصولها، أعاد لها زلزالها وبركانها وفيضان النهر فيها، زاد في الموت بطشه وتواقيته الغريبة والمشبوهة، امتلأتِ السماء بالوحوش الحديديَّة والمخلوقات العجيبة. خفت مجدَّدًا، وشتمت الطرقات وزحمة السير في كلِّ مرَّةٍ غادرتني نَنَّا إلى سيَّارتها، ولعنت الأخويْن رايت ووحوشهما الحديديَّة التي ملأت السماء إذا فكَّرت نَنَّا بسياحةٍ بعيدة. خفت على نَنَّا من كلِّ شيء، ما كنت لأحتمل فكرة أن يصيبها مكروهٌ ولو صغر. لم يتوقَّف جداري عن معاقبتي، زاد في كشوفاته عن مكنونات ما وراءه، وزدت أنا في احتراقي في نَنَّا. كانت نَنَّا منبع خوفي، ولكنَّها كانت أيضًا مربَّعي الآمن ومصدرًا لقوَّتي، كانت شكِّي وكانت يقيني وكانت البحر وكانت الشاطئ، هربتُ منها إليها وصارت معركتي الأخيرة فيها. قرَّرتُ أن أنتصر، فلا يُهزمُ عاشقٌ نامت نَنَّا ليلًا على صدره وأفاق هو في عيونها.

بقيت أنا وَنَنَّا على لقاءاتنا الأسبوعيَّة في ركننا الصغير ترافقنا عازفة التشيلو. لم أجهر بكلِّ مخاوفي أمام نَنَّا، كنت بحاجةٍ لمزيدٍ من الوقت أستكشفُ فيه ملامحَ ساحة معركتي الجديدة والأخيرة، وكنت على ثقةٍ تامَّةٍ بانتصاري. أنا لم أنتصر في معاركي كلِّها، ولكنِّي لم أهرب يومًا من مواجهةٍ اختارتني أو اخترتُها، وفي معركتي من أجل نَنَّا أنا منتصرٌ حيًّا ومَيِّتًا أنتصرُ لكن ذلك لم يمنعني من تحذيراتي نَنَّا أو خشيتي عليها. ما أهمَّني قتلي، ولكن أهمَّني قتلها أو قتل ما علَّقتُه من أحلامٍ على الجدار الزجاجيّ.

ـ ما الذي تلبسه (تقصد عازفة التشيلو)؟

ـ لم أنتبه.

ـ باستطاعتك أن تنظر.

ـ متأكِّدة؟

ـ نعم.

ـ تلبس فستانَها الأحمر.

ـ وماذا تعزف؟

ـ شيئًا جديدًا، ولكنَّه يليق بنا.

ـ ذكيَّةٌ أيضًا.

ـ هل تغارين؟

ـ من كلِّ شيءٍ تراهُ أو تَلْمَسُه.

ـ أنا لا أرى سواكِ.

ـ ينقصك أن تفعل.

ـ جميلةٌ حتى حين تهدِّدين.

ـ أنت من جعلني كذلك.

ـ لا تغلقي كلَّ الأبواب يا نَنَّا، كيف ستهربين؟

ـ عدنا إلى هَذا ثانيةً!

ـ وثالثة.

ـ ليتك تيأس.

غزلت نَنَّا مزيدًا من الخيوط، تحدَّثت عن حياة ما بعد. بنت لنا بيتًا، واختارت ألوان الزهر في حديقتها الصغيرة، أعدَّت أطباقًا شهيَّة، خفَّفَت من الإضاءة في غرفة الطعام وتركت لي اختيار الموسيقى، اختارت فيلمًا رومانسيًّا نشاهده، أسقطت رأسها على صدري، بكت عند مشهد الفراق، وكانت بكت في مشهد اللقاءِ أيضًا. قامت تتأكَّد من نوم سلمى وأحلامها الصغيرة طبعت على وجهها قبلةً، وعادت تغازل تعبي بقبلاتٍ تبدأ بها ليلتها. غزلت نَنَّا غزلًا كثيرًا، أزعجها التصاقي بركننا الصغير وتحليقي في فَضائه الواسع الضيِّق، أردتها أن تراني أنا وقيْدي ومؤبَّدي وأن لا تغفل عنَّا ولو للحظة. هذا أنا وهذه هويَّتي وهكذا أعرِّف وأُقدِّم نفسي. لم تكن أحلامها جديدة، فقد سبقها جداري الشفَّاف وعرض أمامي تفاصيل كلِّ حلم محتمل، لكنِّي تجاهلتُ عروضه وتخلَّيت عن احتمالاتها وتمسَّكت بنَنَّا حقيقةً واحدةً وأكيدة، وكفتني نَنَّا شبيهات حقائقَ تفنَّن الجدار في رسمها وتسويقها، أردت من نَنَّا أَنْ تراني أنا لا احتمالاتي القادمة

والكامنة، ورأيتُ في قفزها إلى ما بعد هروبًا من هنا ومن الآن خفت على نفسي لكنِّي خفت عليها أكثر.

2014 /7 /3

حبيبي ناصر

لا أصدِّق متى أصل البيت وألبس بيجامتي وأعدو إلى سريري، وأشعل الحاسوب وأشغِّل فيلم (notting hill). لولا رمضان كنت دعوتك إلى مشاركتي طَبَق البوبكورن.

على فكرة، نسيت أن أضع في الرسالة الأخيرة صورة حمزة مرورُهُ في لقائنا الأخير لم يكن عاديًّا بالنسبةِ لي. شعرت بالضيق لأنِّي لا أستطيعُ أن أزور قبره في مثل هذا اليوم وإخباره عمَّا رَأَيْتُهُ في عينيْك عندما رأيتَ الصورة التي جمعتكما، وعندما طلبتَ منِّي أن أطلب من شذا أن تخبره بأنَّك مشتاق، أظنُّني أحبُّ حبَّك له. أنا في عملي الآن، فتوقَّف عن النظر إليَّ هكذا فإنَّك تلهيني. الساعةُ الآن 14:13 في البيت، جهَّزتُ الفيلم. هل أُهيِّئ لك مكانًا إلى جانبي؟ لكْ رجاءً بدون إزعاج.

الساعة 16:31 انتهى الفيلم، وحاليًّا لا أقوى على الكلام سأقول فقط إنَّك أجمل ما حدث لي بل أجمل من كلِّ ما تخيَّلته يومًا، أنا منفعلة ولا أقوى على الكتابة، أنا بحاجةٍ فقط لأن أقولَ لك كم أحبُّك. لا أدري إن كنت قد توقَّعت مسبقًا إلى أين سيأخذني هذا الفيلم، ولكنِّي وصلت بعيدًا، تذكَّرت كلَّ تفاصيل لقائنا الأوَّل. ينتابني أحيانًا إحساسٌ بأنِّي أريد استيعاب كلِّ ما

فيك بكلِّ قوَّتي، وأن أجمِّد الوقت وأنا معك، وأن أجعلك تشعر براحةٍ كافيةٍ كي تتوقَّف عن طلبك منِّي بالابتعاد وإعادة النظر، وأن أترُك لنفسي بابًا للهروب. لا أدري لماذا لا تستوعب مدى سعادتي بأنِّي أخيرًا وجدتك، فلا تترك الجدران والأسلاك تربك هَذا الحلم. أريدك أن تتيقَّن بأنَّه مهما طالت الرحلة فإنِّي معك وأنتظرك. متى ستُدرك يا ناصر بأنَّك الشخص الذي انتظرتُهُ منذ ولدت، وأنَّ أيّ حديثٍ عن أيِّ هروبٍ يصيبني بالاختناق. أبكي كُلَّما تذكَّرت طلبك ذاك، أنا أحتاج أن أردِّد اسمك دون أن تخاف أو تخشى عليَّ؛ فسعادتي معك ولن أجدها مع غيرك. لقد توقَّفت عن البحث يا ناصر، لقد وصلت.

حبيبتُكَ نَنَّا

عجيبٌ أمر الحبّ وعجيبةٌ قدرته على اختصار الطرق الطويلة، والجمع بين عوالم أرضيَّةٍ وأخرى سماويَّة، هذا التعمير والتجسير والتخضير في صحراءَ زجاجيَّة خلت من مائها والتراب. عجيبٌ أمر الحبّ، هدي المؤمنين وأقصرُ الطرقِ إلى الله، تصير أحلى وأجمل، ترقص الألوان على نغماتك، يكبر فيك تصالحك وتسامحك، تغفر لمن أخطأ فيك أو أخطأَك، تغوص لا تخشى اغتراقًا، تحلِّق وإن سقطت فإلى أعلى، تقترب إليك أكثر وتلتصق، لا تخشى ازدحامًا، تصغي إلى حديث المرايا وتُصدِّقُها، تُخاطبك عُلْيا مخلوقات الله وتخاطبك أدناها، تتَّسع المساحات الخضراء وتنسحب الصحراء خطوتَيْن إلى الوراء، لا يعود قَيْدٌ ولا سلاسل، يُعطِّل الحبُّ فيك مخاوفك وخشياتك

ويُعوِّضك تكذيبك، جدرانك وسقوطك بعد تعلُّقٍ طويل.

حين تحبُّ، تَتَهَدَّمُ فيكَ جُدْرانٌ وَسُقوف، ويسقُطُ ظلُّكَ واقِفًا، وَتَحْتَلُّ يَداكَ قَيْدَكَ.

حينَ تُحِبُّ، ينزلُ الله إلى سَمائِهِ الأولى. يضعُ يَدَهُ على يَدِك، وَيُصَلِّي عليكَ صَلاةً أخيرة.

حينَ تُحِبُّ، أنتَ زَمانُكَ وأنتَ المَكان، لا شَيْءَ يَحُدُّكَ، لا شيءَ ضِدَّكَ، لا شَيْءَ قَبْلَكَ ولا شَيْءَ بَعْدَكَ.

حينَ تُحِبُّ، تَنامُ مُكَلَّلًا وَتَصْحو مُهَلَّلًا، مَلِكٌ لَيْلُكَ غَزْوٌ وَصُبْحُكَ انتصارٌ، وَلَكَ في كُلِّ شاطئٍ حبيبة.

حينَ تُحِبُّ، أنتَ المُهَلْهِلُ المُتَصالِحُ المُتَسامِح الغافِرُ العاشِقُ الشارِبُ الغارِقُ الفارِس، وَكُلُّ السُيوفِ سَيْفُك.

حينَ تُحِبُّ، تَغْدو المُهَرْطِقَ الفَرَزْدَقَ الخارِجَ الداخِل العَبَّاس الأُمَيَّة الفاطِمة، وفيكَ مِنْ كُلِّ صَدْرٍ قَبيلة.

حينَ تُحِبُّ، أنتَ اكتِمالُ المَدينةِ والريفِ والخَيْمةِ، أنتَ اللاجِئُ النازِحُ السابِح والمُتَسَلِّل، وأنتَ العائدُ مِن نَكْبَتِكَ.

حينَ تُحِبُّ، يمتلئُ صَدْرُكَ عُشْبًا، تَكْبُرُ أنتَ فيكَ رَبًّا، تَشيخُ متأخِّرًا، وتكتبُ في مَوْتِكَ القَصيرِ مَرْثِيَّةً طَويلة.

حينَ تُحِبُّ، تَغْتالُكَ الكلماتُ في أَوَّلِ كُلِّ سَطْرٍ، تُحَيِّيكَ النقاط والفَواصِل، وَيَشُدُّكَ الاستفهام إذا سُؤالُهُ أَثْقَلَكَ.

حينَ تُحِبُّ، يَعودُ إليكَ صَوْتُكَ، تتنازَلُ جُروحُكَ في عَدِّها وَإِنْ شُفيتَ غَزَلَت لَكَ نَنًّا جُروحاتٍ جديدة.

نَنَّا في لباسها الأبيض، غار منها الخيال فتخلَّى عن صحبتنا أبيضٌ قصيرٌ جاء يختبر من جديدٍ طول صبري واحتمالي. يليق بكِ الأبيض قلت لها مرَّةً، فجاءت تعاقب بالأبيض احمرار وجهي وعجزي عن المقاومة.

ـ اقتربي يا نَنَّا.
ـ هل أقف؟
ـ أجل.
ـ هكذا؟
ـ لا، اقتربي أكثر.
ـ ناصر، أنا خائفةٌ وقد لا أحتملُ اقترابًا.
ـ قلت إنَّك لا تخافين وأنت معي.
ـ أذكر.
ـ اقتربي أكثر، ولا تصدِّقي الزجاج الجدار.
ـ أنا لا أصدِّق إلَّا إيَّاك.

لم يفصلني عن وجه نَنَّا إلَّا أنفاسنا التي أحرجت الزجاج حتى تعرَّق خجلًا.

ـ اللّهُمَّ صَلِّ على سَيِّدِنا مُحَمَّد.
ـ توقَّفْ.

ـ ماذا بِكِ؟

ـ زاد خوفي.

عدنا إلى صمتنا، أنا ووجه نَنَّا وجدارٌ شفّافٌ بارٍ لا يُصدِّق تجاهُلَنا له. ها هو وجه نَنَّا بكامل أناقته وعُريِّه، هبطت ملائكةٌ من سمائها، علَّقت ثيابها على أقرب غيمةٍ، ونزلت تسبحُ عاريةً هنا في وجه نَنَّا.

رافق جداري تعلُّقي الجديد، قرأ رسائلي وتطفَّل على رسائل نَنَّا. عاد زوّاري الليليُّون حاملين همومَهم، تفاجأوا بنَنَّا، تستقبل وجوههم قبلي. حمل كلّ زائرٍ أو زائرةٍ همًّا أو قضيَّة، وجاؤوا ينشدون تضامنًا أو مشاركةً. لم يُبْقِ جداري على كشفٍ إلَّا وألقاه على سريري، ينتظرُ عودتي من لقاءاتي مع نَنَّا كي يعرض صورًا ولوحاتٍ تزيد في خوفي وقلقي عليها، وكادت مقاومتي له تغدو مستحيلةً لولا مواقف نَنَّا التي زادت تطرُّفًا وشدَّةً في إصرارها على مشاركتي مشواري. عدت بعد كلّ لقاءٍ معها أكثر قُوَّةً، تقلَّصت هواجسي ومخاوفي، وتعاظمت قدراتي على تجاهل شفافيَّة الجدران وانكشافي على تفاصيل حياة ما وراء وما بعد. كانت نَنَّا كلّ ما أردتُه، لقد عرضت عليَّ الدنيا أجمل ما لديها وما عاد في جعبتها ما يغريني، عرف جداري هذه الحقيقة جيِّدًا، لكنَّه ظلَّ على عناده، ولم يستسلم بسهولةٍ ولم يتوقَّف يومًا عن محاولاته.

2014 /7 /12

حبيبي

مرفق مع الرسالة كلمات الأغنية التي تحبُّها من فيلم (notting hill). أؤمن يا ناصر بأنَّ الله يحبّني كثيرًا، فالرجل الذي أحبّه لا يشبه أحدًا غيره، هو يتقن الحبّ ولكن بلهجته الخاصَّة، ولا يعتمدُ لهجاتٍ سابقة، ولا يترك لي مجالًا للشكِّ بأنَّه يقلِّد أحدًا، بل أنا على يقين بأن لا أحدٌ سواه يُتقن الحبّ كما يفعل هو. إنَّه يحتويني بنظره ويقنعني بكلِّ كلمةٍ ينطق بها، إنَّ ربِّي لم يخلق لي حبيبًا سواه على هذه الأرض، إنَّه يحبّني كما أردتُ تمامًا، وأبهر كلّ السيناريوهات التي رسمتها في خيالي عن الحبّ. جاء فوق كلّ التوقُّعات والأحلام، وأصبحَ المحرِّك لحياتي، هذا الرجل وبدون حضوره الجسديّ يقوى على إمدادي بكلِّ هذه الطاقة، ويتقن الرجولة إلى درجة أنَّه جعلَ من نفسه مرآةً لي.

يا الله! ما الذي فعلتهُ لأستحقَّ هذه الهبة، أحمدُ الله كلَّ لحظةٍ لأنَّه أكرمني بك، أشعر يا ناصر أنَّ كلمات هذه الأغنية كتبت لي أنا، وفي كلِّ مرَّةٍ أستمعُ إليها يجتاحُني هذا الإحساسُ بأنَّك تخاطبُني وتلامس روحي، وأنَّك تجعل منِّي يا سيِّد التناقضات أضعفَ وأقوى مخلوقةٍ على وجهِ هذه الأرض.

عادت أمِّي تقلقني مجدَّدًا بِأسئلتها، جاءت إلى كلِّ زيارة تتوقَّع منِّي أخبارًا تُريحها، عزَّزت زياراتُ رفاقي من الأرواح المحرَّرة لأُمِّي من هذه الأسئلة. أكثرت أُمِّي من عتابها ربّها

تأخُري عنها، وجاءت بِكُلِّ زيارةٍ تُعاقِبُ ربَّها الصغير، وتوقظ لديهِ مخاوف وهواجس ظَنَّ أنَّه دفنها عميقًا. تعبت من عودة الأسئلة. أنا هنا يا مزيونة ولا إجابات لديَّ تريح فيك لياليكِ الطويلة مشواري لم ينتهِ بعد يا أُمِّي وما عدت أحتمل أسئلتك. بكت مزيونة وشاركتها أخواتي البكاء، وقسوتُ أنا عليها أكثر. أنا لم أمُت بعد يا أمِّي، وسجني ليس مقبرةً تأتون إليها تبكون وتنعون سكَّانها، توقَّفوا عن دفني وعن بكائي بكلِّ زيارة، هذا أنا ولا زلتُ على حبِّي لكم لم أتوقَّف، وهذه أنفاسي عُدُّوها إذا شئتم وهذا صدري يعلو ويهبط. فزعت أمِّي من حديثي وكذلك أخواتي، فقرَّرنَ دون أيِّ تنسيقٍ مسبَّقٍ التوقُّف عن سؤالي وحبس أسئلتهنَّ في مكانٍ لا أراه، وبدأت زيارتي تأخذ صورتها القديمة والمريحة.

أخبرتهنَّ عن نَنَّا، تغيَّرت الوجوه في لحظةٍ، واستُبدل الأحمر أصفر كانَ استولى على الوجوه، وطرد منها كلّ علامةٍ للحياة. «قلبي كان حاسس»، قالت أمِّي، وكانت قد حدَّثت نَنَّا في أكثر من مناسبة، وكانت قالت فيها كلامًا طيِّبًا كثيرًا. تلك حبيبتي يا أُمِّي، وهي حبيبتي أنا أيضًا، قالت مزيونة.

السابعة مساءً، الأربعاء ـ الثالث من رمضان 2019 م / 1440 هـ. وصلنا من الصليب الأحمر خبر وفاة والدة الأسير كمال يحيى. تريدني الأرواح أن أرافقها إلى زنزانته لنقل البشرى الفاجعة. انتظرنا حتى أذان المغرب كي نعطي كمال فرصةً لإنهاء عطشه وجوعه، ثم دخلنا زنزانته. عدنا بعد ساعة.

هل بشَّرْتم مرَّةً أسيرًا بموتِ أُمِّه؟!

هل بشَّرتم مرَّةً أسيرًا بموت أمِّه؟! أنا فعلت، وليست مرَّتي الأولى. انتظرنا كمال حتى أنهى إفطاره الرمضانيّ، دخلنا زنزانته بخجل، تمامًا كما فعلت ملائكة الموت حين اقتحمت فراش أُمِّه. قاومت أُمّ كمال موتها، وأغلقت الباب في وجه زوَّارها الملائكة لكنَّهم دخلوا. طلبت وقتًا إضافيًّا حتى الزيارة القادمة، نظرت في عيونِ زوَّارها، عيدٌ واحدٌ أخير ثم عودوا، طلب منِّي كمال بعض الثياب ولم أجهِّزها بعد، عودوا بعدَ شهرٍ، يكره كمال تأخُّري عن طلباته ولا أطيق روحي إنْ أنا عليه تأخَّرتُ، عودوا بعد شهر نسيتُ في زيارتنا الأخيرة أن أحفظَ كلّ ما خلَّفته على وجهه أربعة عشر عامًا من الحديد، عودوا بعدَ شَهْرٍ، أحبّه مرَّةً أخيرة وأدعو له بكاءً قصيرًا بعد موتي. غطَّت ملائكة الموت وجهها، وقضت أمرها سريعًا خشية أن تتردَّد.

دخلنا إلى زنزانة كمال، غطَّيْنا وُجوهَنا كي لا يرى فيها جنازةَ أُمِّه، جلسنا صامتين. أنهى كمال غسيلَ الأطباقِ الفارغة جلس إلى جانبي يسأل عن صحَّتي. بدأتِ الوجوه المغطَّاة حديثًا

قصيرًا وعامًّا عن حتميَّة الموت، ثم خصَّصت في حديثها صبر كمال وجَلَده. نظر إليهم باستغراب، تحدَّثوا أكثر. من الذي مات؟ سألني كمال، أمّك؟ أجبته دون أن أتأخَّر أو أتردَّد، لم أُغطِّ وجهي الخجول، ولم أنتظر شهرًا أو زيارةً أخيرة قادمة. تأخَّرت ثيابك يا كمال، ولا عيدَ يُنهي فيك صيامك الحديديّ الطويل. غطَّى كمال وجهه، لم يفعل ذلك خجلًا، عانق الحديد ودفن وجهه بين يديْهِ، بكى حتى اختنق وبلَّل الحديد وجهُهُ. حدَّثناه عن رَبٍّ رحيم أخذ قبل ساعةٍ أُمَّه، لم يستمع كمال لنا ولا أظنُّه سمع حديثنا. يَمّا، ظلَّ كمال يصرخ أُمَّهُ ويُعانقُ حَديدَهُ.

هل بشَّرتم مرَّةً أسيرًا بموت أُمِّه؟! أنا فعلت ولن تكون مرَّتي الأخيرة. ترفَّقْ أيا ملك الموت، ترفَّقْ فوالله ما أخذت منَّا أخذًا أعزّ علينا من هذا.. ترفَّقْ أَيا ملك الموت. ترفَّقْ، نِعْمَ الآخذ ونعمَ المأخوذ.

لا زالت لديَّ حكايتي أرويها، أين وصلنا؟ عند مزيونة التي فرحت بحبيبة ابنها. تُرى هل كانت أُمِّي ستفرح هكذا لو بشَّرتْها إحدى حفيداتها برغبتها الارتباط بأسيرٍ قضى ربع قرنٍ خلف القضبان، ومرشَّحٍ لربعٍ آخر أقسى وأطول؟!

جسد

تخلَّيْتُ عن تعلُّقي.. هكذا يفعل العشق، ينقلنا من تعلُّقٍ إلى آخر لا يشبهه، يُعيد كتابة ماضينا ويغيِّر من مواقع الحروف ويستبدل كلماتٍ بأخرى. يُجيب على عديدٍ من علامات الاستفهام التي أجَّلنا العناية بها، يُعيد إلى الحياة أحداثًا دفنَّا تفاصيلها ويهمِّش أخرى صدَّقنا مركزيَّتها. يدوِّر العشق فينا كلّ الزوايا والمربَّعات، ويلقي بنا في مركزِ حركةٍ دائريَّةٍ كأنَّها حلقةٌ صوفيَّةٌ فلا نعود نعلم ماهيَّة أحاسيسنا أو إدراك حقيقِها من وهمها. ندورُ لا ندري متحرِّكين كنَّا وسط ثابتٍ أم أنَّنا ثابتٌ وكلّ ما حولنا يدور! يغيِّر العشق خطابنا مع ربّنا ويقرِّبُنا إليه، ويقرِّبُه إلينا لا تفصله عنَّا كتبٌ أو دفاترُ أو آياتٌ متشابهات، نُصغي إلى أصواتنا الداخليَّة. تُحدِّثنا الكائنات ونسمع حديثها، تنحني لنا الأغصان حين مرورنا إنْ وُجِدَت وإنْ خَلا منها الجدار رسمناها وزدنا عليها أوراقها والثمار. نتصالح مع كلِّ خلافاتنا واختلافاتنا. نظلّ على دورانِنا في حلقتنا الصوفيَّة حتى نُدرك أخيرًا أنَّنا جزءٌ من كلِّ شيءٍ حولنا، نتناغم في موسيقانا وفي رقصنا، نهذِّب أخطاءنا فلا نعود

نخجل إن أخطأنا، نلتمس لغيرنا الأعذار إن تعذَّرت عليهم ونغفر بعد كلِّ اعتذار، نألم إنْ جَرَّحت الأيَّام انتظار منتظِرٍ ونبكي عليه إذا يَئِسَ من الانتظار، وندعو إلى مائدةِ عشقنا كُلَّ قلبٍ غاص في انكساره، وَنُضَمِّدُ جُرْحَهُ حتى يشفى أو يموت.

في السجن، نعيش نحن الأرواح في غنًى عن أجسادنا فليس في الأجساد إلَّا ثقيلُ حملها واستجاباتها لقوانين طبيعيَّة تُحِدُّ من قدرتها على الدوران والتحليق والسباحة في محيطٍ من الغيمات. ليس في الأجساد إلَّا الجوع والعطش والتعب. تأكل كي تبحث عن شهيَّةٍ مفقودة وروائحَ قديمةٍ تذكّرها بزمانٍ ومكانٍ غرقا عميقًا في قعر الذاكرة؛ تشرب، لا شيءَ يروي فيها العطش، وتتعب من عديم أفعالها. تصدِّق جهل الحواسّ واضطرابها وتفسيراتها الغيبيَّة للوجود وللغياب، حواسٌّ بلا مواضيع تشغلها فتُلبسُ الأجساد مواضيع لا موضوع فيها؛ تتكلَّم بلا توقُّفٍ أو فواصل؛ ترقص على أيّ موسيقى فتزيد من بعثرتها وضياع خُطاها؛ تتألَّمُ بلا جرحٍ يمزِّق نومَها، وإذا نامت لا يعنيها حديث الليل أو على أيِّ صبحٍ تفيق أحلامها؛ تغتسل، لا شيء في عُرِيِّها يزيد في دفء الماء أو في حريقه؛ تعتلُّ وتتعافى على وتيرتها الضيِّقة وقد تموت بلا علَّةٍ نفهمها. وتظلُّ الأرواحُ على استغنائِها عن أجسادها، فيعيش الطرفان في حالةِ انفصالٍ متَّفقٍ عليها تنغمس الأجساد في عالمها السفليّ وتظلّ الأرواح على تحليقها وإنكارها كلّ محيطٍ فيزيائيٍّ من شأنه اعتراض عفويَّتها وانطلاقها. ولا يثقلُ طرفٌ على آخر ولا تدخُّل ولا اعتراض إلَّا بما يضمن حالة السلم الأهليّ بين العالمَيْنِ.

في السجن، تفقد الأجساد موضوعها وغايتها، ولا يكون الاعتناء بها إلّا لضمان عدم إثقالها على الروح، فأيّ حاجةٍ لنا نحن الأرواح بأذرعٍ لا تعانق إنْ استقبلت أو ودَّعت، لأيدٍ لا تمتدّ حين الحاجة إليها، لأصابعَ لا تفكّ أزرار ثوبٍ أخفى أسراره جيِّدًا.. أيّ حاجةٍ لنا لشفاهٍ لا تستقبل شفاهًا جاءت تحترق على طرف ألثامنا، وما حاجتنا لأرجلٍ وأقدام توقَّفت عن مسيرها وعلَّقت مشاويرها إلى مستقبلٍ مخطوف! تلك أجسادٌ غرقت في أُمِّيَّتِها وَجَهالَتِها بلا لغةٍ أو خطابٍ أو معانٍ، فهي تصدِّق إقناعها نفسها برعشةٍ ليليَّةٍ مفاجئة لا يبقى منها حين تصبح إلّا ذكرى مشوَّشة عنها، أو في رعشةٍ أخرى نهاريَّةٍ ومقصودةٍ ومسروقةٍ عن الأعيُن ومكتوم صوتها. في السجن، تصبح الأجساد وجبةً تأكلها الجدران ولا تشبع فتعود تأكلها من جديد، تتحوَّل الأجساد إلى موضوعٍ مملٍّ ومثيرٍ للشفقة، تكبر وتشيخ وتهرم وتفقد كلّ شهيَّةٍ للحياة، وتذكِّرنا بقيودنا، فلا شيءَ فينا سوى أجسادنا يقبل التقييد ويخضع لمعادلاتٍ أرضيَّةٍ امتلأت بعمليَّاتٍ تعانقت حتى تشابهت.

ـ ناصر، أظنُّني محض أنت!

ـ وأنا متأكِّدٌ أنِّي بعض أنتِ.

ـ متى تأتي لتُنْقِذَني؟

ـ مِمَّن!

ـ منك أنتَ، من غيابك ومن حضورك.

ـ لا تغلقي الباب يا نَنَّا.

ـ بِحَقِّ إيماناتك كلّها لا تبدأ.

ـ لكنّي أنا الغياب وأنا الحضور.

ـ لماذا تُخيفُك أحلامي؟

ـ لماذا يخيفك واقعي؟

ـ لا أُنْكِر خوفي وقلقي.

ـ اهرُبي يا نَنَّا فلا زِلْتِ تستطيعين.

ـ والله، لا أهرب منك إلّا إليك.

ـ سيقتلني عنادُكِ يومًا.

ـ وهل كنت تفضِّلُ قَتْلًا آخر؟!

ـ إذن، لا تصدِّقي هذا الزجاج.

ـ مرَّةً ثانيةً، أنا لا أصدِّق إلّا إيّاك.

حين نعشق تعود إلينا أجسادنا، في العشق بعثٌ وقيامةٌ للأجساد، هذا ما علَّمتني إيَّاه نَنّا وصدَّقْتُه وصدَّقَهُ جسدي الذي راح يتمَرَّدُ على تجاهلي له، وعلى تحليقي الذي لا يتوقَّف بعيدًا عن تفاصيله البدائيَّة والبهيميَّة في بعض الأحيان. لم أكن جاهزًا بعدُ بمشاركة جسدي بنَنّا وفي حضورها، امتنعْتُ عن ذلك ورأيتُ فيه شيئًا من السقوط إلى قاعٍ لا يملكُ ما يلزم من مفرداتٍ تَليقُ بروحانيَّةِ اجتماعي أنا ونَنَّا. بقيتُ على تحيُّزي لعالم السماء وخطابِه وأبجديَّتِه، خطاب جعل نَنَّا تُمْسِكُ بطرف أوَّل خَيْطٍ للدم. وبقيتُ على محاولاتي جَعْلَ نَنَّا تُصَدِّقُ غزلها الذي غَزَلَت، مُدركًا تمامًا أنَّ كِلَيْنا لن يحتمل عجز جسديْنا عن الارتقاء إلى مستوى حديث الأرواح، ما كُنّا لننجو نحن الاثنيْن لو أنَّنا تورَّطْنا في لغةٍ جسديَّةٍ محضة تحكمها جدرانٌ إسمنتيَّةٌ وأخرى زجاجيَّة. لم يكن

في لُغةِ أهل الأرض سوى مفرداتٍ تتحارب وتتنازع وتقتل بسببٍ وبدونه، مفرداتٍ تجورُ وتُهَجِّرُ وَتَغْدُرُ بعدَ أن شرَّعَت عُذْرَها والخيانة، وما كنت لأَرُدَّ بالإيجاب أن أحبّها لو أنَّني رأيت أمامي امرأةً من نساء الأرض. نَنَّا جاءت من عالمٍ آخر ليس بالأرضيّ هذا ما قالته عودتها المتكرِّرة إلى الجدار، واستماعها للأرواح ولأوجاعِها ولحديثها الغريب القادم من أعلى، وهذا ما قاله أيضًا اهتمامها بهمومٍ كونيَّةٍ أكبر من محلِّيَّاتنا.

الساعة 11 : 21

2014 /7 /22

ناصر يا قدري، أنا في المكتب والعمل لا ينتهي. استحضرتك سريعًا، والدقائق التي تسبق قدومك صارت أجمل ما يحمله يومي. أنا أخشى أن أنقلَ لك أشياءَ قد تتجاوز مدى جاهزيَّتي لقولها، لذلك أكتفي بقولي إنِّي نسيتُ متى أحببتك وكيف، حتى صار يبدو لي أنَّ حالتي هذه معك أزليَّة. وصلتني رسالةٌ منك، وما أن بدأتُ بقراءتها حتى غمرني إحساسٌ غريبٌ في معدتي. لا يمكنني وصف انفعالي من الرسالة... فهنا كانت أصابعك تكتبُ لي، لقد صار الصندوق الذي أخبِّئ فيه رسائلك قِبْلَتي التي أزورها يوميًّا. أعدك يا ناصر أنِّي لن أعدل عن حُبِّي لك ولو بقيتَ في سِجْنك مدى الحياة. الليلة ستنام رسائلك تحت مخدَّتي. سأكون غدًا ببيتكم، البيت الذي تحفظ جدرانه صوتك ورائحتك وبصمات روحك، سأرى الغرفة التي استقبلت رأسك

نائمًا منتصف كلّ ليلة، سأعبر بوَّابة بيتٍ ستُفْتَح قريبًا لاستقبالك بعد غيابك الطويل، سأكون هنا أستقبل وجهك. سأنام الآن وأنا متأكِّدةٌ أنَّك في طريقك إليَّ. تقترب أكثر وتضُمُّني قريبًا إليك وتهمسُ في أُذُني (لا تقلقي فأنا معك حتى الصباح)، سأسوق بحذرٍ غدًا وسأمرّ من الطريق المقابلة للسجن عَلَّكَ تلامس مروري أو تشعر به!

بعد أيَّام وليلة، هدأت نفسي الآن وصار باستطاعتي إطلاعك على تفاصيلِ زيارتي لمخيَّم عايدة. في البداية، كان عليّ اختيار هديَّةٍ لمزيونة، كانت تردَّدت في ذهني مقولتها إنَّه لم يبق هناك صبرٌ في مخيَّم عايدة لأنَّها أكلته كلّه، فقرَّرتُ أن أشتري لها نبتة صبرٍ من مشتلٍ قريبٍ من هنا. لاقاني أخوك عبد الفتَّاح عند مدخل المخيَّم، شعرتُ فجأةً بالبرد. وصلتُ إلى بيتكم والتقيتُ بجميع أفراد الأسرة، كنتُ كَلَّمْتُهم جميعًا سابقًا إلَّا أنَّ لقاءهم كان له مذاقٌ مختلفٌ. عادت مزيونة من صلاتها في الجامع. أسرعتُ إلى تقبيلها، وردَّت بالدعاء وبعباراتٍ من مثل يا حبيبتي يا عمري نَوَّرْتِ المخيَّم. قرأتُ لمزيونة رسالتك لها بالعيد، بكت أخواتك، أمَّا مزيونة فأخذت الرسالة وقبَّلَتْها. داخل المنزل، عاد إليَّ الإحساس بالبرد، كدتُ أشتَمُّ رائحتك وكم أحسستُ في لحظتها بأنِّي أريدك الآن هنا معي! دخلنا إلى غرفتك فانهمرت كلّ الدموع التي حبستُها، هنا كنتَ تنام وهذا سقفك، تُرى من كان يشاركُك رسمك عليه، وهل كُنَّ كثيرات وهل أحببتهنَّ بالطريقة نفسها! سأُخبرك بالمزيد حين نلتقي قريبًا.

حبيبتك نَنَّا

لم تتوقَّف نَنَّا عن مخاطبتها جسدي، فعلت ذلك وبكلِّ الطرق، وكانت لديها طرقٌ كثيرة وعجيبة. فعلت ذلك حين تكلَّمت وكيف، حين اختارت ثيابها، حين قرَّرت إطالة شعرها لأنِّي طلبتُ منها ذلك، حين تَمَنَّعت عن طلباتي المتكرِّرة برفع شعرها كي ينكشف لي وجهها بكلِّيَّتِهِ، حين جلست وحين القيام حين عبَّرت عن احتجاجها على اهتمامي بوجهها على حساب اهتماماتٍ أخرى بذلت جهدًا في تقديمها. لم يكن باستطاعتي تجاهُلُ وَجْهِها وحضوره واكتشافاتي الجديدة في كُلِّ لقاءٍ جمعَنا في رُكْنِنا الصغير.

ـ ارفعي شعرك يا نَنَّا.

ـ لا أُريد.

ـ بخيلة.

ـ طَمّاع.

ـ كيف تجرؤين على إخفاء بعض وجهك هكذا!

ـ لا تَقُلْ لي إنَّك لم ترَ أجمل منِّي.

ـ قد لا تكونين أجمل النساء، لكنِّي أكيد أنَّكِ أجملهنَّ.

ـ لن يساعدك تحايلك هذا.

ـ توقَّفي عن بُخْلِك ولملمي شعرَكِ.

ـ حسنًا، ولكنِّي أحتاج إلى دبُّوس.

ـ ارتَجِلي.

(أخرجت نَنَّا قلمًا من بين أوراقها، لملمت شعرها وقيَّدته بالقلم فاضحةً جميعَ وَجْهِها).

ـ يا الله!

ـ ناصر.

ـ فَدَيْتُكِ بالروح والجسد يا نَنَّا.

ـ أفديك بكلِّ ما هو أغلى.

تمنَّيتُ لو أنَّ الملائكة السابحة تغادرُ وجهَ نَنَّا، فلم يكن في حضورها إلَّا تشويهٌ للمشهد.

ـ ليت الملائكةَ تغادرُ وَجْهَكِ يا نَنَّا.

ـ ليتك تبقى.

ـ لا تُصَدِّقي غيابي يا نَنَّا.

ـ أريدك معي.

ـ والله.. لا أفارقك ولو ساعة.

ـ ناصر، أريدك معي أحتاج إليك.

لم تكن نَنَّا قد أدركت بعدُ إحياءها وبعثها لجسدي الأرضيّ. جسدٌ تحكمه قوانين فيزياءٍ لم ترحم فيه ولو ذرَّة واحدة، ومارست عليه سنواتِها... وفصولها وجدرانها وحديدها وزجاجها، نزعت عنه غيابه وتهميشه، وجعلت منه موضوع احتياجٍ واشتياقٍ وانتظار. صار على جسدي أن يُجيب على أسئلة نَنَّا واحتياجاتها صارَ عليَّ أن أزرع صدري في كلِّ مكانٍ تُسْقِطُ فيه نَنَّا رأسها، أَنْ أَمُدَّ يدًا إذا ضاقت بها المساحات، أن تُرافقها خطواتي أوَّل كلّ طريق، أن أراها وهي تقف أمام مرآتها، أن أستمع لحديثها المسائيّ، أن أُقَبِّلَها قبلَ النوم وبعدَه، وأن أخاطب أنوثتها

المتوقِّدة وجسدها المتمرِّد والمتورِّد. ظهرَ جسدي بكامل فيزيائه ومادِّيَّته وعجزه وقلَّة حيلَته، راقب نَنَّا من خلف الزجاج واستمع مطوَّلًا لحديثها، لكنَّه ظلَّ على صمته وجموده لا يُحَرِّكُ ميِّتًا. مارس جسدي فيزياءه بلا رحمةٍ بي أو بنداءات نَنَّا، وتجبَّر في ضعفه وعجزه، وتغوَّلَ في تنكُّرِه لصبيَّةٍ جلست أمامهُ تطلبُ قُرْبَه.

حملْتُ جسدي إلى زنزانتي وكان ثقيلًا ومنهكًا، راقب مرافقي الجنديّ خطوات جسدي الثقيلة والمتردِّدة، وراقبَ ضياعه وتبعْثُرَهُ طوال مسافةٍ مترِيَّةٍ قصيرة بدت في حينها أطول من أنفاسي ومن عمري. لم ترحمني الجدران في شفافيَّتها، راقبتُ نَنَّا تغادر ركننا الصغير، تركبُ سيَّارَتها وتلعن كلّ صوتٍ قريبٍ أزعجَ حاجتها لبكاءٍ طويل. عادت إلى جسدي وظائفه، ففي العشقِ تشتعلُ الأجساد فلا نعودُ نستطيع إطفاءها، نهرب إلى أرواحنا علَّها تُنقذنا حريقًا فاق قدراتنا على إطفائه. حضرت نَنَّا سريعًا وملأت المكان، جاءت مُنْقِذَتي بعد أن رأت حاجتي إليها. هكذا غدت نَنَّا، سفينتي إذا أبحرتُ وريحي إذا نويتُ تحليقًا، شاطئًا أرسو إليه ويابسة تنهي فِيَّ دوارَ بحرٍ فتكَ بأنفاسي، جدارًا يحجب عنِّي كلّ ما تكشَّفَ وأقلق أيَّامي وساعاتي، سقفًا أُخَرْبِشُ على بياضه هواجسي، سبيلي إذا تاهت بي الخطى وحَلْقةَ ذِكْرٍ إذا توقَّفت الأرض عن الدوران.. وغدت نَنَّا أيضًا جوابي إذا حِرْتُ في أسئلَتي، وسُكْنايَ إذا غَرَّبَني عنهُ المكان.

حبيبي 10/ 8/ 2014

مشتاقةٌ مشتاقةٌ مشتاقةٌ. قبلَ قليل، وجدتُ رسالةً في صندوق البريد. كم تُتْقِنُ الحضور في أكثر لحظاتي ضَعْفًا! امتنعتُ الليلة

عن استحضارك كي لا تَراني في ضعفي، بَكَيْتُ كثيرًا، ولكنّي هنا الآن لأُوضِّح ما فشلتُ في توضيحه سابقًا.

أنا أتعهَّد أمامَ الله أنَّك الرجُل الوحيد الذي سيسكنني جسدًا وقلبًا وروحًا، أتعهَّد بأنَّ القادم حمزة ولا قادم يسبقه، أتعهَّد أن لا حياةَ لي إلَّا معك، وأنّي سأبقى على العهد ولو طال مشوارنا مئة عام. أقسم أنَّك حياتي وحبيبي وأنَّك تسكنُ روحي وقلبي وأنَّك قريبًا ستسكن جسدي ونتقاسمُ أنا وأنت ذات السقف الأبيض، وأتعهَّد بأنّي لن أخشى ولن أخاف شيئًا وأنا معك سوى قلقٍ أو ضيقٍ قد أسبِّبه لك. أحبّك ويبكيني حُبّك فرحًا وأحبّك إلى درجة السعادة أَلَمًا، وأحبّ كلّ تناقضات هذا الحبّ. لقد صارَ وجودك نصّي المقدَّس وحبّك سُنَّتي وشريعتي، وصرتُ أنا بأعلى درجات إيماني، ولا أطلب من الله سوى أن يجمعني بك وطنٌ ألجأ إليه تاركةً لنفسي أن تنام على صدرك وتضيع بين يديْك، وسأكون لك الأرض لتعود أنت إلى فلّاحك القديم.

أنا أعشقك وأعشق ناصر الرجل وناصر الإنسان وناصر القضيَّة. أفكِّر أحيانًا بلقائِنا الأوَّل بلا حواجز تُفَرِّق بيننا، فلا أستطيع تصوُّر ردَّة فعلي، هل سأكتفي بالسلام عليك ومصافحتك كما يتطلَّبنا العُرْف والتقليد أم سأُلقي بنفسي بين يديْك غير عابئةٍ بعُرْفٍ أو تقليد؟ هل فكَّرتَ بهذا مثلي؟ قبلَ يومَيْن، ذهبتُ إلى مدينة طولكرم واخترتُ لنا خاتميْن من فضَّة كان الله في عَوْنِك يا ناصر من حبسٍ إلى حَبْس، مؤبَّدك القادم في انتظارك، وليسَ لديَّ أيُّ نيَّةٍ في أيّ إفراجٍ مُبَكِّرٍ وإن حَسَّنْتَ في سَيْرِك أو في السلوك.

حبيبتك أُمّ حمزة

عجيبٌ أمرُ أهل العشق، كلّه خير! لو آمَنوا شهدَ الله وأنبياؤه والملائكة على إيمانهم ولا يكفرون، لو ناموا فلهم صباحاتهم الخاصَّة عليها يقومون؛ إذا جاعوا لا يأكلون، يلعنون أجسادهم ويحمدون الله على كلِّ يدٍ امتدَّت وذراعٍ عانقت وشفاهٍ قَبَّلَت وأقدام مشت وصدورٍ هي مسقط رأسٍ للحبيبات؛ إذا صَلُّوا قصَّروا وأطالوا ولَوَّنوا في كلام الدعاء؛ إذا ماتوا لا يموتون ولا أحد يُصَدِّقُ حياتهم، لا يكذبون ولا يصدِّقون إلَّا كذباتهم أصنامهم من ورقٍ وأعلامهم راياتٌ وشعاراتهم ثورة صِدْقٍ مخمليَّة. ما عدتُ أرى من خلال الجدار إلَّا صورة نَنَّا وما أحاطتها من كائنات، فاقَ جسدي على جسدي وقد تغيَّرَ وبَدَّلَ في حالاته، وعادت إليه موضوعاته تُهَرْوِلُ كالتي تستعيضُ زمنًا ضائعًا. صَدَّقَ جسدي غَزْلَ نَنَّا وغزلها، كان عليها فقط أن تُبدي ملاحظةً صغيرة حتى ينشغل جسدي في رَهْن ساعاته باستنطاق يدٍ قالت نَنَّا إنَّها مغرمةٌ بها أو وَجهٍ قالت فيه شعرًا بسيطًا ومباشِرًا أو فَم قَدَّسَت تقبيله أو صدرٍ جاءت تغفو عليه منتصف كلّ ليلة. لم تبخل نَنَّا على جسدي بملاحظاتها مُلقيةً على كاهلي جهدًا إضافيًّا ووقفاتٍ أطول أمام المرآة.

عادَ إليَّ جسدي وعادَ معه القَيد والحديد، عاد معه ارتطامي بالجدار في كلِّ مرَّةٍ نويتُ تحليقًا بلا خريطةٍ آمنة للفيزياء المحيطة، عادت معه احتمالات الوهن والشيخوخة وعصيان الأعضاء إذا تعبت أو مَلَّت وتيرتي المتسارعة، عادت معه رغباتي التي توحَّشت في سباتها وخسرت كثيرًا من أخلاقها، عادت غرائزي الأوَّليَّة وشوقها للاكتفاءِ وجَلْدُها إنْ تأخَّرت عليها

كفايتها. كلّ ما فيّ من جسدٍ راح يصيحُ نَنَّا، هنا والآن، لا ساعةَ انتظارٍ أخرى ولا تأجيلٍ ولا توفيرٍ ولا تأخُّر، كلّ فعلٍ من أفعالي صار نَنَّا وكلّ غيره صار مضيعةً للوقت والجهد. لجأتُ إلى نَنَّا كلّ ما بطشت فيَّ الجدران وتغلغلَ في يدي قيدي، كتبتُ لها دونَ توقُّفٍ وما عادَ خلف الجدار من شيءٍ أو أحدٍ سواها، وحللتُ أينما حَلَّتْ، وفي كلِّ مكانٍ وطأتْه بَنَيْتُ لي خيمةً عَلَّقْتُ على عتباتها ثيابي وأحلامي، رغباتي واشتهائي لها ولقُرْبِها. فها هي نَنَّا تقسم وتتعهَّد وتلقي بكلِّ قرابينِها إلى نهري، تبكي وتبكي كثيرًا.

بَكَت نَنَّا حتى فاضت جنباتي ورحتُ أغرقُ في مياهي أنا وجسدي الثقيل، بكت نَنَّا وراحت تشتري حبسَها وحبسي. تخلَّت عن آلهة روما القديمة، وبحثت عن آلهةٍ كنعانيَّةٍ تشبهها في الرواية وفي التفاصيل وفي جغرافيا الأرض، بحثت عن (إل) في السهول والهضاب، ألقت التحيَّة على (بَعْلٍ) عندَ جبل الكرمل وهوَ ينشر الخصوبة أينما حَلَّ ونزل، عرَّجت على أُمِّه (يم) خالقة الكون والتقت بعشيرة زوجة بعل والمخلوقة من ضِلْعِه، وظلَّت نَنَّا على بحثها وتقصِّيها، فلم تكنْ قد وجدت آلهتها الضالَّة بعد. كانت عناة[1] مشغولةً بترتيبها خطوبتها القادمة والمستعجلة، وكان على نَنَا أن تنتظر، انتظرت طويلًا، انتظرت عمرًا كاملًا، حَلَّقت وأبحرت من شاطئٍ إلى آخر، جابت مدنًا وشوارع، وقرأت كلّ ما كُتِبَ على لافتات الطرق. لقد أرادت نَنَّا أن تُحَسِّنَ غزلَها، وألَّا تتركَ فرصةً لأقدارٍ أخرى قد تتدخَّل أو تُعيق غَزْلَها.

---

(1) عناة: آلهة الخصوبة عند الكنعانيّين.

تَطَلَّبَني الأمرُ جُهْدًا مُعَقَّدًا حتى استطعتُ إدخال محبس الخطوبة الذي ابْتاعَتْهُ نَنَّا، أَبْقَيْتُهُ قريبًا وَرُحْتُ أنتظر قدومَها. وصلتْ، أخفيتُ الخاتم عن مُرافِقي الجنديّ، عَجَّلْتُ في خطواتي وكذلك فعلَ مُرافِقي، وصلنا. بابٌ يُفتَح، نَنَّا على وِقْفَتِها مع ابتسامةٍ ملأت وَجْهَها، أَخْرَجْتُ الخاتم من مَخْبَأِه ورحتُ أَلُفُّ به إِصْبَعي.

ـ أقبل حبسي يا نَنَّا.

ـ ألا تخشى نَدَمًا؟

ـ أندم على كلِّ حياةٍ قبلك.

ـ أظنّني سَأُرْهِقُكَ حُبًّا.

ـ ليتك تفعلين.

ـ أنا بِكَ أحلى وأجمل يا ناصر.

ـ بل كنتِ كذلك دومًا، ألا تصدِّقين حديث المرايا؟!

ـ أُصَدِّقُهُ الآن وقد صرتَ أنت مرآتي.

ـ هل قرأتِ ما حَفَرَتْهُ وداد على المحابس؟

ـ قرأت.

ـ أنتِ خاتمة أمري يا نَنَّا.

ـ وأنتَ البداية.

إلى هنا يأتي العشَّاق إذن، إلى عالم مسحور، يأتونَ بأجسادهم وأرواحهم وأسحارهم. إلى هنا يأتي أصحاب الطريقة للقاءِ ربِّهم، فلا أحدٌ في المدينة يصدِّق حديثهم للقائه إذا حدَّثوا

هنا، لا تعنيك شفافيَّة الجدران فليسَ وراءها ما تَحْجُبه أو تحجبه عنك. هنا، تتناغم الأرواح والأجساد فلا تنافُر أو تضادّ. هنا أنت كلّك حاضرٌ وموجود، ولا وجود غيرك، أنت ومن اخترته من رفقةٍ أرضيَّةٍ وسماويَّة. أيّ غَزْلٍ غَزَلْتِ يا نَنَّا!

2014 /8 /14

حبيبُ نَنَّا

ناصر، أقول وبكلِّ ثقة: إنَّني لستُ غاضبةً بشأن تعطيل الإفراج عنكم، وأنا أعلم بأنَّك لن تقبل بأيِّ تسويةٍ تستخفّ بتضحيات شعبنا حتى لو كان ذلك على حساب اجتماعنا معًا. قلتَ في لقائنا الأخير إنَّني وفي ليلةِ العيد بادرتُ بتقبيلك، سلوكٌ جريءٌ منِّي لا أدري إن كان صحيحًا! وقلتَ أيضًا إنَّني أحسنتُ تقبيلَك مع أخذك بالاعتبار كونها قُبْلَتي الأولى. هل يزعجك لو سَأَلْتُك عن تَجارِبك السابقة! لك حرِّيَّة الإجابة أو الامتناع. أريدك فقط أن تَضُمَّني إليك بكلِّ ما أوتيتَ من حبٍّ دون أن ترحمَ عظام صدري، ودونَ أن تترك لديَّ أيّ إحساسٍ بحدود جسدي.

22/ 8/ 2014، وصلنا خبر وفاة شاعرنا سميح القاسم وقصف غزَّة لا يزال على حاله وقتله، فعلى من نبكي؟ هذه كلمات أخيرة كتبها القاسم وهو على فراش موته (أنا لا أحبّكَ يا مَوْت / لكنِّي لا أخافك، وأُدْرِك أَنَّ سريرك جسدي وروحي لحافك / وأدرك أنِّي تضيق عليَّ ضفافك / أنا لا أحبّك يا موت لكنِّي لا أخافك). ابْقَ معي يا ناصر ولا تغادرني أبدًا، ولا تطلب منِّي أن أبتعد. قد تكون أنت مستحيلي وقد تكون قدري المحتوم

وفي كلتا الحالتيْن سأكون معك. أنت بدايتي وأنت النهاية ولا شيء غير ذلك، ويمكن أن يصلَكَ في أيِّ وقتٍ خبر وفاتي من جرعة حبٍّ زائدة، سامحني لأنّي كنتُ ثقيلةً في لقائنا الأخير.

نَنَّا

نَنَّا صدَّقت غَزْلَها وصارت تروي روايةً تشبهني، وَتَقُصُّ عليَّ لقاءاتٍ من عالمٍ ما بعد، وتُخبرني عن أقدارٍ محتومةٍ عن حبسها وحبسي، ثم تعود تعلِّق غزلها على بوَّابة الغد واحتمالاته. نَنَّا تختبر غزلها أقدارها وأقداري، وتحسب احتمالاتها وإمكاناتي. فعلت نَنَّا ما فعلته أيّ تشرينيَّة فاجأتها قدرة الشرق على التبدُّل والتلوُّن والتطرُّف، فتلَوَّنَت وتبدَّلَت وتطرَّفَت، وما كانت لتُسَلِّمَ لأقدارٍ غير تلك التي كتبتْها.

كتبت نَنَّا كثيرًا، وملأت رسالاتُها ساعاتي. كتبت يقينها ورفضت أيّ ظلٍّ للشكّ الذي تتبَّعت خيوطه في رسائلي إليها. أزعجها تحليقي الدائم، وعنادي في كلِّ مرَّةٍ حاولت الهبوط بنا إلى عالمٍ أرضيٍّ لم أُصَدِّق يومًا حقيقته. كانت نَنَّا حقيقَتي الوحيدة.

تشرين

أعادت لي نَنَّا جسدًا بتولًا في معاركه وفي تجاربه، فالعشق كالولادة يُعيدنا إلى أوَّل السطر، إلى أوَّل الكتابة، نفعل كلّ شيءٍ لأوَّل مرَّةٍ، بكاؤنا وصراخنا، أوَّل مشينا وأوَّل تعثُّرٍ وسقوط، ولا تعود معارفنا القديمة تفيدنا في شيء، ولا أثر لذاكرة أجسادنا كما عرفناها. مشوار تعلُّم جديدٍ يبدأ، تُصاحِبُهُ محاولاتُ مواءمةٍ معقَّدة يسبِّبها تعلّقنا بذاكرتنا القديمة التي ترفض شطب كلّ ما فيها هكذا كأنَّها لم تكن. أَوَلسنا جميعنا حصيلة معارفنا وتجاربنا؟! فما بالُ ذاكرتي إذن وما بال جسدي يتوتَّر مقابل نَنَّا، ويبحث عن ردود فعلٍ مناسبة؟ أرجف إذا اقتربنا، أنوي تقبيلها وكأنِّي أفعل ذلك لأوَّل مرَّة. يغيظني تبعثر أصابعي وأنا أفكّ لغزًا يكشف سرًّا دفينًا من أسرارها، تُفاجئني مبادراتها في حضورها واجتياحها لي. أتلعثم إذا همست في أذني بعض كلام الحبّ أو عَبَّرَت عن نوايا خبيثةٍ استهدفت جسدي، صارت تتقن التحليق ولا هَمَّتْها جاذبيَّة الأرض أو فيزياء المكان. أخشى انتباه الأرواح حولنا والتفاتها نحونا ونَنَّا على حالتها وطبيعتها كأنْ لا أرواح غيرنا، وتسبقني

بخطوةٍ أو أكثر إذا دَعَوْتُها للرقص، وهي من تختار عادةً موسيقانا المُرافِقة.

ويحَ جسدي! ليسَ أنا من يتعثَّر أمام قبلةٍ ويفقد إحساسه بالاتِّجاه، فهذا سرٌّ أعرفه وأفشيته مرَّاتٍ عديدة، ليس أنا من تفاجئه امرأةٌ بحضورها أو يخجل أو تخونه كلماته. ما الذي يَشِلُّ فيَّ ذاكرة جسدي التي عرفت نَنًّا عنها كثيرًا من تفصيلاتها، عرفت عن حياتي السابقة وعن تجاربي قبلها، عرفت عن الخدوش والندبات، عن مواقع الجروح وأسباب نزولها، وعن نساءٍ لم يعمرنَ على جسدي طويلًا لكنَّهنَّ أَثَّرْنَ عميقًا. قصيرةٌ هي ذاكرة الأجساد وفقيرةٌ أوجاعها وإن عمقت.

ـ هل أحببتَ إحداهنَّ، ولا أقصد متجاهلتك؟

ـ لا.

ـ ولكنَّك...

ـ نعم.

ـ كيف تفعل ذلك بلا حُبّ؟!

ـ ليسَ الأمرُ مُعَقَّدًا.

ـ أي.

ـ إنَّها أبجديَّةٌ مختلفة، ولكنَّنا نتعلَّم إتقانها.

ـ وهل أتقنتها؟

ـ ولديَّ شهادات مصدَّقة وعميقة، ولا زالت كالوَشْمِ على جسدي.

ـ لا أظنّني أريدُ أن أَعْرِفَ المزيد.

ـ يمكنك سؤالي المزيد.

ـ هل تريدني أن أسألَك؟

ـ وهل ستُحْدِث إجاباتي فرقًا؟

ـ لا.

ـ أنا أَفوقُكِ بتولةً يا نَنَّا، إن كان يهمّك.

(ابتسامة رِضا على وجه نَنَّا أو هكذا فَسَّرْتُها أنا).

ـ ماذا؟

ـ لا شيء، أحبّ فكرة أن أكون تجربتك الأولى.

ـ ويرضي غروري أو أكثر أن تكوني أنتِ تجربتي الأخيرة.

جميلٌ أن تُصيبَك امرأةٌ في صميمك ولا تكتفي بِخَدْشِكَ أو التحرُّش بِعُذْرِيَّتِك، أن تصلَ إلى قاعِك الأخير ولا يرضي غرورها قشورك وما ادَّعيْته من علاماتٍ فارقة.. امرأةٌ تقرأ فنجانك وترسم خطوطًا وتغزل بعضها، امرأةٌ ثملت بعد فنجانك الأوَّل وتركتكَ بلا مزاج واضح يفسِّرك.. امرأةٌ تأتيك رغمًا عنك، لا تستأذن ولا تدقّ بابًا، ولا يعنيها إن كنتَ جاهزًا، ولا تعطيك فرصةً لارتداء ثيابك أو مواقفك أو ردود أفعالك، وإن فَعَلْتَ نَزَعَتْها عنك أو مَزَّقَتْها، وأعادت ترتيبَكَ من جديد.. امرأةٌ لا يمكنك تَوَقُّعها، وإن اجتهدتَ في قراءة نواياها، فهي تملأ سطورك بعلامات استفهامٍ وسؤالٍ، وتغيّرٍ في تموقع النقاط والفواصل. امرأةٌ تشرينيَّةٌ في تقلُّبها وتبدُّلها، وتُعَرِّضُكَ في ساعةٍ يتيمةٍ إلى فصول عامك الأربعة، وتَعِدُك ولا تأتي وقد تأتيك بلا

ميعاد. وكأنَّها جاءتكَ تقول:

على ميعاد

جئتك بالأسرارِ. كُنْ جاهزًا
حَطِّمْ قَبْلي ما تشاء من المرايا، وانثُرْ غبارك الكونيّ
في قلب غيمةٍ أو أكثر.
والعنْ ما تشاء من الأقدار وافضح ذكورتك عندَ بابِ
كلّ تاءٍ وتجاهَلْ رَجاءها المستسلم
ولا تكنْ من الراحمين

جئتك كالبحر. كُنْ عاريًا
اخلعْ عنك موروثك الجاهليّ الثقيل، أو ما تَبَقَّى، صَدِّق
حديث السماء أو لا تُصَدِّق. عانق
كلّ ما رَوَتْهُ أثينا من خرافاتٍ تحبّها، أو كُنْ ماردًا
إسبرطيًّا ماتت كلّ الحدودِ على حدِّ سيفه..
وإن شئتَ كنْ ما شئت، لا يعنيني فيك حديث السابقين

جئتك كالوعد، أنا وأنت
أبناء تشرينَيْن، أحفاد الزَنْبَق، وأوراقٌ ترفض كلّ ظلٍّ للسقوط
روحان محمولَتان على صَدْرِ مَوْعِدَيْن
أبيضُ كاميكازيّ احْتَرَف الموتَ على صدرك، وأسودُ ليليٌّ

ينتظر
أن يشَرِّبَكَ قهوةً صباحيَّةً مُرَّة
وإن شئت حَلّينا بالقُبَل.

جئتك كالطيف، كُنْ غمامةً
اغفرْ لكلِّ تاءاتك ما خَلَّفَتْهُ على جسدك المغدور من
جراحاتٍ
لا تَفْقَهُ الجروحُ نِعْمةَ النسيان.
قَرِّبْ إليك جدارك أكثر، لا مكانَ للمكانِ في المكان. ودَعْ ما
سبقني إليك من فصولٍ وأعوام.

تشرين الأوَّل الحكاية، تشرين خريف الانتظار
تشرين الأَزَل

جئتك بالصراخ، كُنْ عنيدًا
أجمل الأصوات صراخ لا
لا إلٰهَ إلَّا الذي يسكن وَجْهَكَ حينَ تراني
لا صلاة إلَّا بكاء الأصابع
على بوَّابات أسراري، كنْ عنيدًا
لا قيدَ إلَّا الذي تُصَدِّقُه
لا تسبيحَ إلَّا احتضارُ لاءاتك
وصوتها المَقْتول على فَمي.

جئتك مُكَلِّلةً، مُدّ يَدًا
انزعْ عن وجهي انتظاره الأبيض، وصَلِّ كما صلَّيتَ دائمًا على محمَّد.
لا تُخْجِلَنَّكَ نظرات أهل السماء

قَرِّبْ إليك وجهي أكثر، أنا قبلَك يا سيِّدي، مريم. قَرِّبْني إليك أكثر

أنا امرأةٌ بلا ماضٍ فلا يهمّك

وازرعْ حاضرك عميقًا في دمي

جئتك بالغفرانِ، أَكْثِر

من خطاياك، وانزعْ عن هذا الوجود صلاته، وصيامه. لا تُصَدِّق

فيكَ حُسْن النوايا

فأنا امرأةٌ شرقيَّة الهوى، تشرينيَّة المزاج، ونوايا تشريني في تشرينك لَوْ شئتَ، جدُّ آثمة.

جئتك كالشمس، هل ترى

خطوط الضوء على جسدي، وسمرة البحر في غيابك ولهفتي؟ عَجِّلْ

في قدومك ما استطعتَ

لا تسكنُ الشمسُ جسدًا مرَّتيْن، وأنا يا سيِّدي، ثلاثينيَّةٌ، فدَعْ الكلامَ والمقدِّمات لمناسباتٍ قادمة.

يا وَيلَ جسدي في نَنَّا! أين ادِّعاءاتي، جروحاتي، وأينَ نسائي ومغامراتي؟ غابت مواضيع جروحي فغابت الجروح واختفتْ، وكأنَّها شُفيت أو ماتت ولا إشارة تدلُّ عليها أو تُذَكِّرُ بها. وأين مساءاتي المتعرِّقة والرطبة ودقائقي المسروقة في زاويةٍ معتمة أو خفيفة الإضاءة؟ كان عليَّ أن أُسلِّمَ بجاهليَّة جسدي وضرورة تنويره من جديد. راقبتُ حديث نَنَّا وما تطرَّف في جسدها من لغاتٍ أعرفها وأخرى أعجميَّةٌ، وكانت هي تستكشفُ

جسدها من خلال أفعالي وردودها، وتتقدَّم إذا تراجعتُ وتَسْتَوْقِفُني إذا اسْتَعْجَلْتُ خُطُواتي.

حِرْتُ كيفَ أستقبلُ ميلاد نَنَّا! وكيفَ أهديها، وماذا؟ وهل أكفيها إن أهديتها؟ وهل في الهديَّة ما يكفيها، وأيُّ هديَّةٍ قد تكفي؟! بأيِّ عطيَّةٍ تُقابلُ من وهبكَ عمرَكَ وجسَدَكَ وحروفَ أبجديَّتِكَ الجديدة؟ من حوَّل دورانَكَ حول نَفْسِكَ إلى صوفيَّةٍ حملَتْكَ إلى أعلى، ومن أطلقَ العنان لجُدْرانِكَ وراح يحميكَ مِن شفافيَّتِها حتى صارَ جدارَكَ الثابت الذي أعادَ إليك توازُنَكَ!

تشرين الأوَّل 2014

حبيبي وأحلى ما حصلَ لي. ها قد انتهى يوم ميلادي وأؤكِّد لك أنَّه كان من أجمل الأعياد. شكرًا على الهدايا وخصوصًا الثوب المُطَرَّز، وصلتني باقةُ الوردِ ثم مررْتُ بصندوق البريد لأجد رسالَتَكَ وفيها بطاقةُ المُعايدة التي كتبت عليها (كلُّ عامٍ وأنا حبيبُكِ وعساكِ قريبًا تَسْكُنين بقيَّة أصابعي). كيف استطعتَ أن تَصِلَني بهذه الدقَّة؟! بكَيْتُ كثيرًا من شدَّة الانفعال. وقد صارت لديَّ سعادة تكفيني عمري كلَّه، وأراني أتلمَّسُ طريقي إلى صدركَ، أَهيمُ في تفاصيلِ وجهِكَ قليلًا وأتأخَّر، لكنِّي أصلُ دائمًا وأرقُدُ على صدركَ بسلام. وليتني يا سَيِّدَ أموري كلِّها ألتَحِمُ بك روحًا وجسدًا! ها أنا أتهَوَّرُ وأُحبُّ تهوُّري فيكَ، فكلُّ ما فيكَ يجذِبُني ولا أستطيعُ انتظارَ اللحظة التي تُحقِّقُ فيها أجسادنا لقاءها الأوَّل. والآن، أريدك أن تتوقَّف عن تحايلك وتُخبِرَني عن تفاصيل لقائنا الأوَّل، وأعني كلّ التفاصيل، حسنًا.

حبيبتُكَ نَنَّا

بشَّرت ولادةُ نَنَّا بتشرين تمامًا كما يفعل الزنبق على جُرْفٍ قريبٍ من شاطئ البحر، يُطلُّ على أوَّلِ كَسْرٍ للموجِ ولا يلتفتُ إلى أسماء السفن ووجهاتها. يبشِّر الزنبق بخريفٍ أصفرَ لم يقرِّر أن يسقط بعد، ويحافظ على تعلُّقه حتى الساعة الأخيرة. بَشَّرَت نَنَّا بتشرين الأوَّل وعقدت موعدًا مع تشرينيَ الثاني، وانتظرتهُ.. يرافقها البحر والشاطئ والزَنْبَق، وغزلت قدومه على مهلٍ وَتَأَنٍّ وعلَّقت في خزانةِ أثوابِها ألوانَ ما بعدَ الأصفر.

ـ يجرحني هذا الأبيض في كلِّ مرَّةٍ تلبسينه.

ـ إن شئتَ أستبدله.

ـ إن فعلتِ ألُمْ وأُعاتِبْ وأغضبْ.

ـ حَيَّرْتَني.

ـ هذا الأبيض يرفض أن يموت.

ـ وهل تقتله حقًّا؟!

ـ بل أنثره في كلِّ صَوْبٍ ممكن.

ـ وبعد؟

ـ يعودُ من نثره قصيدةً.

ـ ليست هذه بعدُ التي قصدتُها.

ـ تلك بعدُ قد لا أحتملُ ما بعدها.

ـ بخيل.

ـ بل جبانٌ يخشى إذا أحسنَ في وصف ما بعد.

ـ . . . تتهَرَّبُ كعادتِكَ وتختبئُ خلفَ خِطابِكَ العذريّ.

ـ ألا تخافين قتلي وقتلك؟!

ـ وهل مِن قَتْلٍ في الحُبّ يا ناصر!

ـ كلّ القتل يا نَنَّا.

صارَ عليَّ أن أَنْبِشَ في ذاكِرةِ جسدي أعمق، وأن أَحْفُرَ فيها بالأيدي والأصابع، فما كنتُ لِأَنْجَحَ في مواجهة هذا الاجتياح بجسدٍ بلا تجربةٍ أو أكثر، تُعينُهُ على فهم هذا الجديد المتوقِّد والقادم بكلِّ شبابه وعنفوانه. حملت نَنَّا كلّ فاكهةٍ محرَّمة نضجت، وصلت لربِّها قطافًا في أوانه، فلا تسقط بلا دويٍّ يُسْمَع على الجهة الأخرى من الجدار. تفقَّدت جروحاتي جيِّدًا أو ما نجا منها من علاماتٍ قاتمة؛ لعلِّي أسترجِعُ ذكرى قُبُلاتٍ قديمة أو ظلالَ أجسادٍ فرضت سلطتها على أوَّل جسدي، أو أخرى جئتها طواعيةً ومستعدًّا. بحثتُ عن أيِّ شيءٍ ينقذُ ماءَ جسدي أمامَ تحرُّشات نَنَّا الناعمة والخشنة في بعض الأحيان.

بحثتُ عن شيءٍ ينفض عنِّي بتولةً زادَ عمرها عن أكثر من عقديْن زمنيَّيْن، عانقتُ خلالهما جدارًا إسمنتيًّا أَنْسَنْتُهُ حتى صَدَّقَتِ استجاباتُه مداعباتي، واستعنْتُ بكلِّ يدٍ ممكنةٍ وبكلِّ حاسَّةٍ رحتُ أوقظها من سُباتها العميق والطويل. لم يكنْ الأمر سهلًا، أنا ونَنَّا في مشاهد حِسِّيَّة تمامًا، فذاك مكانٌ لا حياة لي بعده إنْ فقدتُهُ أو أضاعني. بدأتُ بخطواتٍ قصيرة وبطيئة، كَشَفْتُ لِنَنَّا بعض أسرارِ لقاءاتنا الليليَّة ومشاويرَنا، كتبتُ لها عن غَدِنا المشترك، عن أحلامٍ رَجَوْتُ الله أن تتحقَّق. زِدْتُ من وتيرةِ مَشاويرنا معًا ومن

تفصيلاتها الجسديَّة وزدتُ في تورُّطي، وكان على جسدي أن يستعيرَ أنفاسًا إضافيَّة كثيرة وطاقاتٍ كامنةً صرتُ في أَمَسّ الحاجة إليها.

بقيتُ على خوفي ألَّا تُصَدِّق نَنَّا حقيقة ما يحدث في لقاءاتنا ومشاويرنا معًا إذا أنا أخبرتُها، خفتُ أن ترى فيها خيالًا جامِحًا أو وعودًا معلَّقةً تنتظر أن تتحقَّق. وهل ستصدِّق نَنَّا العلامات الجديدة على جسدي؟ هل سَتُصَدِّقُ انقطاع أنفاسي؟ أحمر الشفاه على قمصاني؟ ثوبَها المُمَزَّق؟ تجاهلنا لكلِّ كائِنٍ حيٍّ أزعجته وقاحتنا، وهل ستُصدِّقُ دُعاء العاشقين لنا؟ وعناية السماء خلفَ كلِّ جدار؟ لم يكنْ خيالًا جامحًا، وشهدت على حقيقته أوجاعي انتهاء كلّ مشوارٍ جمعَنا. لم يكنْ خيالًا، فتلك عيون نَنَّا وهذا فمها، وهنا علَّقت ثيابها. هذه يدي التي احترقتْ، وتلك أصابعي التي خدشت خطوطَ الرخام على جسدها. وهذه رائحتها لا تزالُ تسكنُ ملابسي وعُرِيّي.

عادَ جسدي من حَبْسِه، عاد خشنًا وبلا تهذيبٍ يراعي بدايات نَنَّا، وتطلَّبه الأمر مشاويرَ مسائيَّة عديدة حتى تؤدِّب وتُهَذِّب ذكورته. وزادت مساحات الحسّ في رسائلي لنَنَّا، بَدَّلْنا في الأماكن وفي الأزمان، تحايلنا كثيرًا على الأرواح في الزنزانة إذا قرَّرت نَنَّا القدوم متأخِّرة لضبط بعض تفاصيل لقائنا الأخير فجاءت بلا موعدٍ مُسبَّق، واحتلَّت مكانها على سريري. وكانت زياراتها المتكرِّرة ليلًا قد زادت من توتُّر جداري ومن غَيْظِه أيضًا.

تشرين الثاني 2014

عيد ميلاد أغلى الحبايب

حبيبي الأغلى على قلبي.. كلّ عام وأنتَ حبيبي، كلّ عام وأنا مجنونةٌ بك وفيك، كلّ عام وأنتَ ناصري وأنا ناصِرَتُك. كانت تلك عنايةً إلٰهيَّة التي رتَّبت لقاءنا، ويا لعناية السماء! اليوم أنا من سيأخذك إلى مشوارٍ طويل، وأنصحك أن تلبس شيئًا دافئًا. كان المطر قد خانني في ذكرى ميلادي الأخيرة، فعلها على غير عادته ولكنَّه سيعوِّضني غدًا. في عيدك الأجواء ماطرة جدًّا، وقد أغفر له خيانته المفاجئة. سأكون أنا وأنت وبحر يافا يختم ثلاثيَّتنا، سأشكره على وفائه لي واستماعه مناجاتي حين منحني إيَّاك. البحر اليوم ليس هادئًا بل في قمَّة انفعاله كالذي يتوقَّع أو ينذرُ بقدومنا، ولا أظنُّك والبحر على درايةٍ بالذي سيحدث وأظنّني سأستطيعُ تخيُّل المفاجأة على وجهيْكما. سأبخل عليك بالتفاصيل تمامًا كما تفعل أنت، فهذه ليلتي أنا وهذا مشواري والمكان اختياري، ولا شيء فيك سينجيك اقتحامي أو ينجيك غرقًا أكيدًا. نعم، هذه أنا التي تحدِّثك فلا تتفاجأ، فوحْدَكَ قادرٌ على استنطاق كلّ هذه المفردات والأفعال منِّي. ما الذي فعلته بي يا هِبةَ البحر ويا سيِّد عالم أهل السماء! سأترك رأسك على صدري كي تنصت لقلبي يقول لك كلّ ما لم أتقن قوله سابقًا.

أتمنَّى يا عمري أن تعجبك هديَّتي وكذلك مشوارنا.

حبيبتُك نَنَّا

مرفق مع الرسالة بوست كتبته باتريشيا على صفحتها الفيسبوكيَّة تتحدَّث فيه عن لقائها الأوَّل بك عام 1989:

On November 24, 1989 I walked into Aida camp, Palestine for the first time and was greeted by Naser Abusrour. That day changed my destiny. I wrote this poem yesterday

Once I met a dream
On a cold November day
He shared with me his dream of freedom
before he went away.
I carry now the night dream
For a nation just and true
With a solemn promise to remember
The oppression his people suffer through

So in memory of the dreams
Though he is far away
Let me not for sake the promise made
Twenty five years ago today

Petricia

ظلَّ جداري على خصامِه لي. لا يُشارك ولا يُبارك، ولا يُحرِّك إصبعًا إلَّا متوعِّدًا أو مُتَّهمًا. كرهَ جداري نَنَّا وكرهَ تشرينها كرهَ زيارتها المتأخِّرة وإذا بَكَّرَت، كرهَ ما تعلَّقت به من روائح

حرصت نَنَّا على الإكثار منها، وأظنُّها فعلت ذلك قاصدةً، كرهَ ما نسيته على سريري من قِطَع ثياب، كرهَ أحاديثنا الصباحيَّة وكرهَ المسائيَّة منها أيضًا، كرهَ غزلَ نَنَّا المتواصل بجارِه الذي تخلَّى وسقطَ وكرهَ انشغالاتي بها واشتياقي إذا رحلت سريعًا. لم أفصحْ يومًا لنَنَّا كرهَ جداري لها وأعتقدُني قلتُ لها عكسَ ذلك، ما عدتُ أذكر، كَرِهَ جداري تشرين نَنَّا الذي مضى، وراحَ يُعِدُّ كُرْهَهُ تشريني الذي بدأ.

وراحَ جداري يُحاوِرُني فجأةً:

ـ منذُ متى يعنيك تشرين؟

ـ أوَّله تقصد أو ثانيه؟

ـ توقَّف عن تذاكيك فأنا أعرفك جيِّدًا.

ـ ليسَ بما يكفي كما يبدو مِن سؤالك.

ـ بل أعرفك وهذه جروحاتك، هل أعدّها؟

ـ وهل أنا جروحاتي!!

ـ وهل أنتَ غيرها؟؟

ـ ونَنَّا؟

ـ إن لم تكنْ نَنَّاك جرحًا، فلماذا أشتمّ رائحة وجعك؟

ـ ظننتك تَوَقَّفْتَ عن مُخاطَبَتي وشمِّي؟

ـ من قال إنَّني أخاطبك!

ـ صوت من هذا إذن؟

ـ صوتك.

لا رحمةٌ ولا غفران، ما عادَ في جداري شيءٌ من هذا أو ذاك، فهو يقسو ولا يوفِّر وسيلةً في جَلْدي مُذْ خَلَّيْتُه. ليتَ للجدرانِ ذاكرةً كتلك لدى أجسادنا.

كَتَبْنا كثيرًا أنا ونَنَّا، والتقينا مرارًا في ركننا على ضفَّتي الزجاج تُرافقنا موسيقى التشيلو، لكنْ لم يكن في الموسيقى ما يمنع عنِّي صَوْتَ بكاء نَنَّا الذي سيرافق كلّ لقاءاتنا القادمة. آمنت نَنَّا وصَدَّقَت مباركةَ عناة خِطبَتنا، ورأت كيفَ اخْضَرَّت أرضُنا والسماء حينَ نزلَ بَعْلٌ من كَرْمِلِهِ العالي، وبنى له واحةً على طرَفِ رُكْنِنا الصغير. آمنت وصَدَّقَت وبكت إيمانَها وتصديقَها، بكت نَنَّا كثيرًا حتى صار البكاءُ مرادفًا لكلِّ ما نَقولُه ونفعلُه، بكاءُ قَبْلَنا وبكاءُ بَعْدَنا، بكت إذا قُلْنا كلامًا في الحُبِّ، وبكت إذا تَوَقَّفْنا عن أحاديثنا، بَكَت نَنَّا.

بكاءُ مدينة

«للهِ وحدَه الحقُّ أن يكونَ وحيدًا»

(مَثَل تُرْكيّ)

28/ 12/ 2014

ناصري.. الأشياء التي قلتَها في الرسالة الأخيرة أصابتني بالدوار. أخيرًا يا سيِّدي، قفزتَ عن خطابك العذريّ وأنا سعيدةٌ جدًّا بكلِّ ما صرَّحت به من معلوماتٍ عن لقاءاتنا المسائيَّة وعن غَدٍ سيجمعنا وعن سماءٍ رقيقةٍ تطلّ علينا من أعلى. الله عليكَ يا ناصر! صرتُ أحبّ جسدي الآن أكثر، وصارَ عليك بأن تعرفَ أنَّك لستَ الوحيدَ القادر على العيش بتناغم مع هذا القيد وهذا المؤبَّد، فتوقَّفْ عن استخدامهما كوسيلةٍ لإبعادي أو إنقاذي، فقد صارا جزءًا من تكويني، ويمكنك سؤال إصبعك المحبوس إن كنتَ لا تصدِّق. لقد اعتدتُ في كلِّ سنةٍ إعدادَ قائمةٍ بالأشياء التي أتمنَّى حدوثها، وهذه السنة سأشطب العديد منها لأنَّها تحقَّقت بك ومعك ولم يبقَ إلَّا أن نجتمعَ ليكونَ صدرك وسادتي، وتضيء بوجهك صباحاتي. لماذا توَقَّفْتَ عن تَهَوُّرِكَ في لقائنا المسائيّ

الأخير، قلتَ إنَّك تهوَّرْتَ بسبب البرد، ولكنَّك توقَّفْتَ فجأةً. هل عليَّ أن أتمنَّى أن يَشْتَدَّ البرد أكثر حتى تزيد في تَهَوُّرُك؟ أحتاج أن تَفْقِدَ سيطرتك أحيانًا، فقد أصابني تهَوُّرُكَ بالدوران.. يا إلٰهي كم تُدَوِّخُني!

31/ 12/ 2014، ينقضي عامٌ وهبكَ لي بعدَ أن بدأتُ أفقدُ إيماني بالحبِّ. صدقت مُستغانمي حينَ قالت: «الحبّ يأتينا من أكثر مكانٍ وفي أكثر زمانٍ غير متوقَّعيْن»، سأحبّك في سنة 2015 أكثر فأكثر. والآن، اعْذُرْني لأنَّ لديَّ عملًا كثيرًا في المكتب ويتطلَّب جهدًا خارقًا، ولكن لا تقلق، فحبيبتك قدِّ الحِمْل وأكثر، . . . سأعودُ حينَ أستطيع.

3/ 1/ 2015، بكيْتُ كثيرًا في هذا اليوم، إنَّه اليوم الذي اعتقلتَ فيه، بكيْتُ إلى درجةٍ أثارت قَلَقَ أبي وأُمِّي عليَّ، أنا أبكي كثيرًا مؤخَّرًا وفي أحيانٍ عديدةٍ بلا أسبابٍ أُدركُها، لكنَّ الذي أعرفه جيِّدًا هو أنَّني أريدك هنا معي، على صدري وفي عيوني وفوقَ هَمِّي ووجعي. كيف يُمْكِنُ لأحَدٍ أن يُحبَّ أحدًا هكذا! ولكنِّي أفعل وأُحبُّك قبل البكاء وبعده.

يا الله شو بحبَّك

نَنَّا

حين يُصيبُ أجسادنا جرحٌ فإنَّنا نصرخ ونشتمُ ونلعن ونغضب، نشتم قابليَّتنا للجرح وسرعة نزفنا إنْ عَمَّقَت فينا الجروح، نلعن سهولة الإصابة وسطحيَّة أجسادنا، ونغضَبُ إذا سكنت الأوجاعُ مَكانَ الجُرْحِ وأطالَت فيه مقامها. تغزو الأوجاعُ

بقيَّةَ الأعضاءِ بلا جرحٍ أصابها، يشبهُ الأمرُ حالةَ تضامُنٍ مزيَّفةٍ لا نصدِّقُها ولا نؤمن بما تدَّعيه أعضاؤنا السليمة من أوجاع، ونرفضُ التسليم بتعطيلِ بعضنا لكُلِّنا، ونَثورُ ونُلْقي باللائمة على بعضنا وعلى كلِّنا، على بعضنا الذي أُصيبَ وعلى كُلِّنا الذي تَمارَضَ وتكاسلَ وصدَّق دور الضحيَّة بِلا جُرْمٍ وقعَ عليه. نرى أطرافنا تتجمَّدُ إذا أصابَ جرحٌ صدرنا، ويزيد صدرنا في صعوده والهبوط إذا تعثَّرَ طرفٌ فينا، وتسهر عيْنٌ إذا أصاب عيْنًا لنا ما أقلق نومها وتنامُ إذا نامت. تضيقُ أرواحنا بحديثِ أجسادنا المدَّعي وما تبثُّه من إشارات ضعفٍ ووهنٍ أثقلت تحليقها ودورانها إذا دارت تلعنُ أرواحُنا أجسادَنا إن عجزت عن دورانها والتحليق، وجلست تستمعُ لأَنّاتٍ لا تصدِّقها.

لا يشبه الأمر جرحَ الأجساد وادِّعاءاتها إذا أصابَ الجرحُ روحنا، فلا بعضٌ يلومه كلّه ويُكَذِّبُ ادِّعاءه. ولا صراخٌ ولا شَتْمٌ ولا كيانات سفليَّة أو عُليا نلعنها ونلقي عليها جامَّ غضبنا وإحباطنا. إنَّ جروح الروح كلِّيَّةٌ في إصابتها وفي نزفها، وعجزها كُلِّيّ، ولا شفاءَ تنتظره أو تصلِّي استعجاله، جروحُ الروحِ باقيةٌ لا تغادرُ أو تُفارقُ أو تعطينا مُهلةً نُرَمِّمُ فيها قُوانا، تضربُ فينا جذورها عميقًا، لكأنَّ أوَّلنا جرحٌ ونصفَنا جُرْحٌ وآخرَنا موعدٌ مع جرحٍ جديد، لا صراخ في جرحنا ولا لعناتٍ، وتتجمَّدُ رُدودُ أَفْعالِنا الجسديَّة فَلا علاقةَ لأجسادنا بما أصابَ روحَنا من جراحات، تضيقُ أرواحنا بأجسادنا فتبحثُ عن سبيلٍ للخروج إلى فضاءٍ أوسع تزرعُ فيه أوجاعها. تضيق الأرواح أكثر، فنبكي.

ـ ما الذي يُبْكيكِ الآن؟

ـ لا أعرف.

ـ لكنِّي أنا أعرف.

ـ أرجوك لا تَقُلْ شيئًا.

ـ نَنَّا، أنا.

ـ ناصر، توقَّفْ عن علاجك بكائي.

ـ ومتى تتوقَّفين أنتِ عن جَلْدي بالبكاء؟

ـ أنا لستُ ضعيفةً أو جبانة، فلا تخشَ عليّ.

ـ الحبُّ ليس اختبارًا لقُوَّتنا يا نَنَّا.

ـ أنا فقط أُريدُكَ معي، كيف تُسَمِّي هذا ضعفًا!

ـ متى تصدِّقين؟

ـ أُصدِّق ماذا؟

ـ غَزْلَك.

يقولون إنَّ أجسادَنا تهرُبُ إلى البكاء إذا ما عادت تحتملُ أوجاعها. لا أصدِّق ولا أنسِبُ للأجسادِ فعلًا روحيًّا كالبكاء فكذلك هو البكاء، فِعْلٌ روحيٌّ صامتٌ وعميقٌ وسائل، تخجل الأرواح من الصراخ والشتم وغيرها من ردود أفعال الأجساد حين يصيبها الجرح عميقًا، ولا يلزمها سوى ركنٍ وحيدٍ يستقبلُ سيولَتها، ولا يَمُدّ يَدًا أو تزعجُهُ رطوبةُ من جاءَ يشاركُهُ عزلَتَهُ. ركنٌ ناءٍ يُطِلُّ عليها من بُعْدٍ ولا يسأل ولا تعنيه أسبابُها، ولا يهمّه إن شفيت أو ماتت، ركنٌ باردٌ لا يمانع لو التصقت به الأرواح الجريحة ساعةً مبتلَّة طويلة، ركنٌ هادئٌ لا تزعج أصواته من

جاءت من الأرواح تنشدُ عزلةً تبرأ فيها أو تموت، وركنٌ طيِّعٌ يتمدَّد إذا كبرت الجراح واتَّسعتْ، ويتقلَّص إذا انسحبت وتراجعت.

ـ ناصر، أنا.

ـ أنتِ ما غَزَلْتِهِ يا نَنَّا، وهذا دمي وتلك خيوطه.

ـ أغادر ركنك وكأنَّ روحي تغادرني، أخاف وأختنق.

ـ أعود أنا إلى زنزانتي فَأَجِدُكِ على سريري وقد عَلَّقْتِ ثيابَكِ على صدر من كانَ يومًا جداري.

ـ يقولون انسحبي الآن قبل أن تتورَّطي أكثر، أخاف وأختنق.

ـ تخلَّى عنِّي جداري، وقال إنِّي خُنْتُه حين خَلَّيْتُه، عاتبَ وعاقب.

ـ لا يصدِّقون أنَّك ممكنٌ، ويربكونني في احتمالاتك.

ـ يكره جداري أنَّكِ صِرْتِ احتمالي الوحيد.

ـ ضُمَّني إليك أكثر.

ـ وهل سَتُصَدِّقينَني إن فَعَلْت؟

صامتةٌ هي الروح في جرحها ولا صوت لها، ولا تبحث عن رفقةٍ تُواسي أو تُشارِكُ أو تَتَضامَن، أو تحاول أن تُخَفِّف وتأتي تقول في الجرح قولًا عامًّا. لا صوتَ للأرواح الجريحة، ولا تحتاج إلى جوْقةٍ من الأصوات ترافقها في طريقٍ قد تكون الأخيرة، ولا تُعلن ولا تجهر بالجرح، وتظلّ على سرِّها وتهاجر إلى صحراءَ أخرى لا تعرفها ولا تميِّز وجهها، ولا يعنيها بكاءُ

قادم جديد. وتقطن بعيدًا وإن جاوَروها تلزم بيتها، وإن قفزوا عن سورِ حديقتها غَلَّقَتِ الأرواح أبوابَها. تبكي الأرواح طويلًا وتبكي مريرًا، وإن سألوها صدفةً عن بكائها أنكرت وادَّعَتْ. تجلس عند أوَّلِ جرحها أوَّلُه قاع، ونصفه قاع، وآخره قاعٌ أخير؛ ولا ضفَّةٌ للجرح، ولا شاطئٌ، ولا جَزْرٌ يَعِدُ الأرواحَ أنَّ يابِسةً صارت وشيكة.

2015 /4 /4

روحُ نَنّا

سمعتُ كثيرًا عن توأمة الأرواح وأعجبتني الفكرة حينَها لكنْ صِرْتُ أفهمها الآن. كنتُ أردتُ رجلًا ذا حضورٍ فإذا بي أقع في غرامِ رَجُلٍ يحضر بقوَّةٍ حتى في غيابه، وتريدني أن أهرُبَ يا ناصر؟! المرَّة الوحيدة التي هربتُ فيها منك قفزتُ إلى حُضْنِك. دعني يا توأم روحي أتورَّطُ فيك أكثر، فقد تكون هناك حالاتُ ما بعد الاختناق، وما بعدَ الغرق سأكتشفها معك. اعلمْ يا حبيبي أنَّني سبَّبْتُ لك كثيرًا من القلق حين فقدتُ تماسكي وبكيت أعتذر. كنت قريبًا جدًّا، وفي الوقت نفسه بعيدًا. شعرتُ قبلَ مغادرتي ركننا أنَّني أعود إلى عالمٍ لا يفهمني، مؤلمٌ ابتعادي عنك يا ناصر، مؤلمٌ جدًّا. لماذا عليَّ أن أُنتزع منك في كلِّ مرَّةٍ من جديد؟! وأنا لا أعيش إلَّا الساعات التي أقضيها معك، إنَّه البكاء حبًّا وعليك أن تصدِّقني، أريد فقط أن أكون محاطةً بك، آهٍ لو تعرف!

18/ 4/ 2015، كَرِهْتُ هذا الشهر وَلَيْتَهُ ينتهي، عادَ بُكاءُ الليل واسْتَوْطَنَ في سريري. . . ، أبكي كثيرًا، ولا أتمنَّى إلَّا أن أجدك

تحتضِنُ رأسي وتُخْبِرُني أنَّ كلّ شيءٍ انتهى، وأنَّنا صِرْنا معًا.

حبيبتُكَ نَنَّا

بَكَت نَنَّا شهورَنا القريبة القادمة، بكت على زجاجنا وبكت على أوراقنا، بكت حين كتبت وبكت إذا قرأت، بكت أكثر إذا قلنا كلامًا أكثر في الحبِّ. نهرب إلى أحاديث أخرى، ثم نعود إلى حديثنا عن حبّنا، وتعود نَنَّا إلى بكائها. دافعت عن بُكائِها نَنَّا، ودافعت أكثر في كلِّ مرَّةٍ أشرتُ إلى باب الهروب.

ـ نَنَّا، أريدكِ أن تعديني بشيء.

ـ كلّ ما تريد وأكثر.

ـ عِديني يا نَنّا.

ـ أعِدُكَ.

ـ إذا تراجع شعورك اتِّجاهي ولو قليلًا، تعالي وأخبريني.

ـ لماذا تقول هذا؟

ـ لأنِّي لن أقبل يا نَنّا.

ـ لن تقبل بماذا؟

ـ بأنصاف مشاعر.

ـ أعرف أنَّ بُكائي يسلِّم ضعفي، ولكنَّكَ الوحيد الذي أسمح لنفسي وبلا حياء كشف ضعفي أمامه وتعريته.

ـ لا أريد لهذا الحبّ أن يتحوَّل إلى وحشٍ يهدِّد توازنكِ ويظلّ يأتي بكِ باكيةً إلى لقاءاتنا. أريدكِ ألَّا تبكي.

ـ أيّ وحشٍ يا ناصر وأنا أهرب من وحوشي إليك.

ـ ولكنّي ما عُدْتُ أحتمل كلّ هذا البكاء.

ـ سأتوقّف.

ـ وهل سيتوقّف هو؟

ـ أنت تُخيفُني يا ناصر.

ـ اهْرُبي يا نَنّا، اهْرُبي إلى وُحوشِكِ الصغيرة.

ـ لقد وَعَدْتَني مرّةً ألّا يكون بيننا قراراتٌ أُحاديَّة الجانب بل نفعل ونقرّر أَمْرنا معًا.

ـ اهْرُبيْ الآن.

ـ لا أظنّك تخلف وعدًا وَعَدْتَنيه.

ـ نَنّا، إذا تنفَّستِ بدوني، إذا حضرتِ كاملةً في غيابي، إذا سقط رأسكِ ولو مرّةً وحيدة بعيدًا عن صدري، تعالي هنا وأخبريني.

ـ أَعِدُكَ.

خاطَبْتُ خوف نَنّا بكلِّ اللغات التي عرفتها، رأيتها تهرب من خوفها أو على الأقلِّ فعلت ذلك في حضوري. تنكَّرتُ له وأطلقت عليه ألقابًا عديدة، لا تشبهه ولا تكشف عن جَلْده لساعاتها وتشويه ما غزلت وخطَّطَتْ. نَنّا التي كانت في الأمس حديثًا في الحبِّ لا أمَلُّ استماعه، غاصَتِ اليوم في بكائها بعد أن احتلَّ الخوف مساحاتٍ واسعةً في فضاءاتها.

حاولت نَنّا إخفاءَ خوفها بكلِّ الطرق، لكنَّه ظَلَّ حاضِرًا وظلَّ سيِّد الموقف في جميع لقاءاتنا وكِتاباتنا. بكت نَنّا بين السطور

وعلى الهوامش، وسكنَ الخوف على ضِفَّتَي اللوح الزجاجيّ في ركننا الصغير، وسبقني إلى ثغرها إذا نويتُ تقبيلها. نَنَّا قَدَّمت بالبكاء اشتياقها ووحدتها وانتظارها، وكنَّا ننتظر أن يغفو البكاء أو يلتفت إلى موضوعٍ سوانا يشغله حتى نستطيع استنطاق مشاعرنا بعيدًا عن إرهابه، وكنَّا نلتفّ حوله ولا نصدر أصواتًا تُذَكِّرُه بوجودنا، ونَهْمِس ونقول بالإشارة، وتكلَّمَت أعيُنُنا.

زاحمنا البكاء كلّ فراغٍ استأنسنا به وجلسنا عند أوَّله، وإن تباطأنا وتأخَّرنا وصل قَبْلَنَا ولبسَ عباءته واحتلَّ أكبر مساحةٍ ممكنة، وملأَ سماءَ المكانِ بغَيْماتٍ بَشَّرَت بِبُكاءٍ غزير، أعَدَّ مائدتنا وَأَكَلَ من خُبْزِنا قَبْلَنا، وخفَّف من جرعات السكَّر في قبلاتنا، جلسَ بيننا لا يخجل ولا يُراعي فينا خلقًا أو لباقةً ولو في حدودها الدنيا، بعثرَ ما اجتهدت نَنَّا في رسمه على وجهها ساعةً طويلة على مرآتها. فَرَّت ملائكة السماء بعدَ أن ثقل الماء فجأةً على وجه نَنَّا، ولبست الملائكةُ ثيابها بعد أن غسلت عن أجسادها ملوحةً كادت تَحْرِقُها، وجلست بعيدًا تراقب احتراقي. نزعت صاحبة التشيلو عنها أحمرَ لم يتوقَّف مرَّةً عن مغازلتي بلا طائل يُرْجى، وارتدت أسودَ صار يَليقُ بالمناسبة. لقد غيَّرَ البكاءُ ملامح ركننا الصغير كما غيَّرَ في ملامِحِنا أنا ونَنَّا. حين تبكي نَنَّا لا يعود فينا ما يُبَشِّرُ بنا أو يُبَشِّرُنا. البكاء نزف الروح، وكان عليَّ أن أجلسَ أُراقب نزفها، وألعن ركني الذي ضاقَ بها حتى اختنقتْ. أظلّ على جلوسي ولعنات ركني حتى تأتي لحظةٌ يتوقَّف فيها كلّ شيءٍ على ضِفَّتي حتى لعناتي، ثم أبكي.

بين بكائنا وبين حديثنا المتسلِّل عن الحبّ، وعشرات

الرسائل وعديد اللقاءات في ركننا، قرَّرت نَنَّا بعد سؤالي واستشارتي أن تختار عملًا جديدًا، يتطلَّب منها الانتقال والسكن في أحد أحياء مدينة القدس المحتلَّة.

ـ سأجد نفسي أكثر في عملٍ جديد.

ـ سعيدٌ من أجلك يا نَنَّا.

ـ ولكنْ هناك أمرٌ أرجو ألَّا يزعجك.

ـ وهو؟

ـ قد لا أستطيع رؤيتك إلَّا مرَّةً واحدة في كلِّ شهر.

ـ هذا لا يزعجني، ألا تجدي نفسك في الذي تفعلينه يزعجني أكثر.

ـ أحقًّا تعني هذا؟

ـ وهل حقًّا تسألين!؟

ـ عرفتُ أنَّك سَتَتَفَهَّم، رغم سؤالي.

ـ لا مكانٌ ولا زمانٌ في لغة أهل السماء يا نَنَّا، فقط أنا وأنتِ.

ـ في كلِّ زمانٍ وفي كلِّ مكان، صحّ؟

ـ بالضبط.

ـ أنا منفعلة جدًّا، إنَّها القدس.

ـ مدينةٌ تُطِلُّ على مدينة، هكذا أنتما.

ـ كم أحبّك يا ناصر.

ـ وليتَنا أنا وَحُبّي نَكْفيكِ يا نَنَّا.

ـ هذا ممكن لو أحببتَني كما تحبّها.

ـ من تقصدين؟

ـ قدسُك مدينتك.

كنتُ وجدتُ وسائلي في التعامل والتعاطي مع انتظار أمّي الذي لا ينتهي، والذي وقفَ يهدِّد بالأسئلة كلّ توازنٍ ممكنٍ تنشده أيّ روحٍ تعلَّقت طويلًا على جدرانها، هَذَّبَت أمّي من انتظارها رحمةً بي حتى صارتْ، ورغمًا عنها، تتقن فنون الانتظار وتتحايل عليه وعليَّ وعليها. أعادتني نَنَّا إلى مشوار تعلُّم جديد فقد تلوَّنَ انتظارها بألوانٍ مركَّبة ومعقَّدة، ولا شيء في مشواري مع أمّي جهَّزني أو خفَّفَ عليَّ سقطاتي الموجعة التي رافقت انتظار نَنَّا. رأت فيَّ نَنَّا فاتحة مشوارها، بينما ختمتُ أنا بها مشواري، واختلطت عليها معاني الوصول حين ظنَّت أنَّها وصلت. بحثت عنّي في الطرف الآخر من سريرها، وبكت.

إنَّنا حين نصل ندقّ مساميرنا في خطّ النهاية، ونعلِّق عليها أسئلةً وأمنياتٍ تمنَّيناها. حين نصل يتوقَّف الوحي، ونغلق جيِّدًا كهفنا ونروح نزرع بذورنا في كلِّ أرضٍ خصبة، أو في أخرى قاحلة خَصُبَت بعد سماعها أخبار قدومنا. حين نصل نُفرغ حقائبنا من الثياب والرسائل وألبومات الصور ومن ذكرياتنا من مشوارنا ونرتِّبها على جدران وسقف الوصول. نمزِّق جوازات السفر ولا تعود تعنينا الحدود ولا الجسور، ولا يتوقَّف القطار عند محطَّاتنا الفارغة منَّا، ويكتفي بصفيرٍ قصيرٍ عَلَّنا ننتبهُ وَنُصَلِّي من أجله ورُكَّابه هدفًا قريبًا يصلونَهُ.

كم جميلٌ أن نصل، نُلقي تحيَّاتنا الأخيرة على انتظارنا ونودِّعه بلا أمنياتٍ بلقاءٍ جديد يجمعنا، وبلا فنجان قهوةٍ أخيرٍ لذكرى أيَّامٍ مضت. كم جميلٌ أن نصل دون أن يحمل الوصول علامات انتهاءٍ أو كفاية، بل يحمل أنا الفريدة المتفرِّدة والفردانيَّة أنا الوحيدة والأخيرة ولا أنا غيرها، تزاحم أنا على أنا في أنا. أنا الرضى والقبول والتسليم، وأنا الجاهزة لاستقبال أنا أخرى تفرَّدت واكتملتْ، وجاءت تنشد أنا شريكةً لها في الوصول.

ظلَّت نَنَّا على انتظارها وبكائها، وبقيتُ عند وصولي أكتب لها عن انتظاري الذي قلتُ فيه كلماتي الأخيرة، وساعدته في حمل حقائبه، وتركته ذات صيفٍ تحت شجرةٍ لم تحمل ظلًّا كثيرًا.

6/ 7/ 2015 ـ الساعة 6:05

مرحبًا يا كلّ حياتي

هذه أوَّل رسالة أكتبها في غرفتي في القدس. أمس الأحد كان أوَّل أيَّام عملي الجديد، وكان استقبالي من قبل الزملاء جيِّدًا. خفتُ من قدومي هنا في البداية، واتَّضح لي سريعًا أنِّي بالغتُ في خوفي وفي قلقي. المشوار من هنا إلى بيت لحم أقرب بكثير... لقد وصلتني رسالتك وفيها قصيدة انتظرتُها، كيف أنقل إليك شعوري الآن، أو كيفَ تخلَّيتُ بعد قراءتها عن قَوْلي في قصيدة درويش: انتظرها كأجمل قصيدة حبّ، قصيدتك يا سيِّدي أروع ما قرأته، ولكنْ هل كان عليَّ أن أنتظر كلّ هذا الوقت لكي أكتشف أن أجمل ما كُتِبَ في الحبِّ سيُكْتَب لي أنا؟ كيف لا أكون الأوفر حظًّا وقد صِرْتُ قصيدتك! أنت حبيبي وكلّ ما أتمنَّاه

وأريده. . . ، أنا أعشقُ أنتَ.

28/ 7/ 2015، (وكتَبتَ أيضًا تلبسين ثوبًا من سحاب ويكتب كتابك الأنبياء، وتشهد عليه ملائكةٌ كثيرة، ويزفّك إليَّ حمزة وقافلة طويلة من الشهداء). . هذا ما كنت بحاجةٍ لسماعه. في الأمس بكيت كثيرًا، أمَّا الآن فأنا في أفضل حالاتي، شكرًا حبيبي. في عملي الجديد، صرتُ أقرب لأوجاع الناس ومُعاناتهم أمام سلطات الاحتلال، أعرف أنَّك فخورٌ بما أعمل، ولكنِّي سأبذل طاقاتٍ أكبر كي أستحقّ ثقتك بي، أعدك. إنَّ الموت أرحم من أن نقف عاجزين، وها هو يلتفّ حولنا ويُضَيِّقُ علينا خناقه، لقد شَلَّ عجزُنا فينا كلّ أفعالنا، لكنَّنا أنا وأنت سنتغلَّبُ على كلِّ شيء، وهذا وعدٌ وهذا دين. شكرًا لأنَّك جعلتَ من انتقالي سهلًا دون أن تُشعرني أنَّك تبذل جهدًا، وشكرًا لأنَّك رفيقي في وحدَتي إذا عادت تسكن قريبة منِّي. هذه المدينة تَبُثُّ فينا شعورًا غريبًا وليتَني أستطيع تفسيره فأنقله لك.

نَنّا في القدس، تحبّك وتنتظرك

كلّ امرأةٍ مدينة، لها تاريخها البعيد والقريب، هزائمها والانتصارات، أسماء المؤسِّسين والفاتحين والقادمين بلا دعوة محمَّلين بالنوايا، لها عشَّاقها ومريدوها وشعراءٌ كتبوا فيها ولها نَثْرًا أو قصيدة، لها حجارةٌ تروي ذاكرةً قديمة وشوارع لا تزال تحفظ بعض أصوات من مرُّوا، لها أزقَّةٌ شَهِدَت كثيرَ قُبُلاتٍ مراهقةٍ ومسروقةٍ ومحمومة، لها بوَّاباتها ومفاتيح لا تأمن عليها إلَّا

من صدَّقته ووثقت، لها أسرارٌ مدفونة عميقًا لا تكشفُ عن عريها ولا تُفْشيها إلَّا لعاشقٍ تركَ النثر والقصائد للمتردِّدين وجاءَ يحترق جسدًا عند أوَّل نارٍ أشعلتها، لها بقاياها ممَّن يئسوا عند أوَّل جدار فاختاروا لهم مدينةً أخرى قصرت في جدرانها، وأطالت في صبرها محاولاتهم المتعثِّرة، ولها من سقطت في أسرَّتهم ضحيَّة وراحوا يزرعون على جسدها راياتهم المنتصرة بعد كلِّ انكسار.

كلّ امْرَأَةٍ مدينة، نَدْخُلُها أوَّل مرَّةٍ وتحدِّد انطباعاتنا الأولى عنها إن كنَّا نعود نزورها أَم نكتفي، ولا نرى طائلًا في تكرار الزيارة. أمَّا إن أعجبتنا ودغدغت فضولنا وكان لديها ما تقدِّمه غير الذي عرضته على رصيفها وفي الحوانيت وعلى رفوف مكتباتها وغير ما ادَّعَتْهُ من معارف وثقافات، إن كان ماؤها يصلح للاغتراق ويستقبل عرينا السابح دون نظرات استغرابٍ أو استهجان، إن كانت نساؤها تخفي تحت ثيابها جديدًا لم تصرِّح به أو كشفت عنه، إن كان في ذكورها ما لا يزعجُ فينا رجولةً في أوَّل عمرها، إن كان فيها ما يثير حواسَّنا ويُبقي فيها رغبةً في مزيد، إن بقيت على كرسيِّها تجلس إذا غازلناها غزلًا صريحًا، إنْ استمعت إلى حديثنا لا تقاطعْ ولا تسرق في غفلةٍ منَّا نظرةً على عقارب ساعاتها، إن وقعت في غرامنا بلا اعتبارٍ لأعمارنا وأقمارنا أو لعُمْرٍ مكوثنا فيها، إنْ علقت في ثيابنا بقايا رائحةٍ من عطرِها.. عُدْنا نزورها ثانيةً وثالثةً، ووقعنا في غرامها وسكنَّا على شُرْفةٍ فيها تطلّ علينا. كلّ امرأةٍ مدينة، ولكلِّ رجلٍ مدينةٌ يسكنها في قلبها أو على أطرافها. صارت نَنَّا مدينةً في اكتمالها، وصارت قريتي وصارت المخيَّم.

ـ كلّ ما في المدينة يغازلني يا ناصر.

ـ هل عليَّ أن أغار؟

ـ ربَّما!

ـ من حجارتها أم من مقدَّسها، أم ممَّ؟

ـ رجالها.

ـ أو من رجالها؟

ـ تقولها كأنَّ الأمر لا يعنيك.

ـ بل يعنيني جدًّا.

ـ كيف؟

ـ أريدهم أن يغازلوكِ جميعًا.

ـ وبعد؟

ـ وأكون أنا من تغازلينه.

ـ لئيم.

ـ أُقِرّ وأعترف.

ـ هل ستأتي الليلة؟ هل أنتظرك؟

ـ أجيءُ إن دَعَوْتِني، وَصَدَّقْتِ قدومي.

ـ أُصَدِّقُه، وأتمنَّى أن يظلّ ويبقى.

ـ حسنًا، سآتي إذنْ ولكنْ بلا بكاء.

ـ لا أعدك.

عجيبةٌ قُدْسنا هذه! كثيرون ماتوا في سبيلها، تركوا خلفهم

أبناءهم وزوجاتهم وخياناتهم، وجاؤوا يموتون فيها ومن أجلها وعليها. أشعلوا النيران في بوَّاباتها، وأطلقوا على جدرانها حجارةً من العيار الثقيل.. جاؤوها من بعيدٍ وجاؤوا من كلِّ اتِّجاه، جاؤوا من وراء الشمس وجاؤوا يَمْتَطون القمر والنجمات. هذا يحتلّها، وهذا جاء فاتحًا، وثالثٌ صاحب وصاية. دخلوها لم يسألوا أهلها إنْ كان ينقصهم فتحٌ أو وصايةٌ أو تهذيب. دخلوها لم يسألوا حجارتها القديمة وحاراتها العتيقة عن ميولها الثقافيَّة أو الاجتماعيَّة أو الدينيَّة أو الجنسيَّة، ودخلوها جميعًا بلا استئذانٍ فقد كانوا تركوا خَلْفَهُم أيضًا أخلاقَهُم. عاشروها بكلِّ طريقةٍ ممكنة. فهذا يغازل أوَّلًا ويقدِّم هديَّةً متواضعة لا ترهق جيبَه، يقول فيها بعضَ كلام حبٍّ لا يقصده أو يعنيه، يتمهَّل في نزع ثيابها ولا يتخشَّن، ينفِّذُ أمره ثم يستغفر ربّه طويلًا وكثيرًا استغفارًا لا يقصده ولا يعنيه، ثم يتركها ترتدي ثيابها على عجلٍ فلا يتأخَّر عن صلاته.

وآخر يوفِّر عليها مقدِّماته وكلامًا في الحبِّ ولا يغازلُ، فهي تجهل أبجديَّتَه ورموزها، لا يقدِّم هديَّةً وإن تواضعت ويوفِّر هداياه لأخرى قد تكونُ أبهى وأجمل، وأسهل.. ويستعجلُ، لا تَهُمُّهُ ثيابُها التي اجتهدت في تطريزها، ليسَ احتفاءً به، فيمزِّقها ويخدش بلامبالاةٍ صدرها، يعتليها كما تعتلي البهيمةُ مثيلتها، يكثِرُ من أنَّاته ويستفزّه صَمْتُها، يزيدُ في خشونَتِه ويرجو صراخًا يُعيد إليه فحولةً صدَّقها، ينفِّذ أمره، تبكي المدينة، ويرى هو في البكاء تعويضًا عن صراخها.

أمَّا الثالث، فيأتيها متردِّدًا، لا يعلم هل يقدِّم لنفسه بهديَّةٍ أو

بحديثٍ قصيرٍ في الحبّ! هل يغازلها أم أنَّها قد ترى في مغازلته لها وقاحةً فتنفرُ منهُ وتستعصي.. يتقدَّم خطوةً ويتراجع في أخرى. يجلس قريبًا منها ويمدّ يدًا لامست ثديَها الأيمن، يراقب ردود أفعالها، يشجِّعه وجهها الذي خلا من تعبيراتٍ يستطيع تفسيرها يُقبِّل فمها ثم يتخلَّى سريعًا. يمدّ يدًا أخرى ويُعَمِّقُ. هي على حالتها، لا يستطيع قراءتها أو فهمها، ينتهي صبره وينتهي تردُّده. وكما يحدث لدى كلّ ذكرٍ نموذجيّ، يبدأ ببطءٍ نزع ثيابها عنها. تساعده هي، فتُقَصِّرُ من عمر اللحظة دقيقةً أو نصفها، ينفِّذ هو أمره. ويرتدي ثيابه مُغْفِلًا بعض تفاصيلها الصغيرة، فقد كان تَذَكَّرَ تَرْكَهُ أولاده في بيته دون عنايةٍ أو مراقبة.

ماتوا جميعهم، بعضهم مع شواهد لا تزال باقية، تحمل أسماءهم وتاريخ ميلادهم وظروف موتهم التي لا تخلو من تعظيم لصَغائِر أعمالهم وأفعالهم. وآخرون بلا شواهد تذكِّر بهم أو بميلادهم وبلا إشارةٍ تدلّنا على قبورهم، فلا يظلّ لدينا منهم إلَّا ذكرى لهم في بعض الكتب التي نشكِّك في مصداقيَّتها. ماتوا جميعهم، من قَدَّمَ وغازلَ ومن تَخَشَّنْ، ومن مات والذي تردَّدَ. وظلَّت هي باقيةً بعدهم، لَمْلَمَت ثيابها، توقَّفت عن البكاء نفضت عن جسدها كلّ ما يُذَكِّرُ بهم، ونسيتهم سريعًا. هكذا، تفعل المدينة في المارِّين سريعًا على هامش ذاكرتها، يتركون على جسدها جرحًا تشفى منه تمامًا، تنام ليلها وتصحو على احتمالاتٍ ومحاولاتٍ جديدة، وتُعِدُّ إفطارَها وحيدةً وَتُصَلِّي محاولة تأتي تستحقّ منها تأخيرَ إفطارها ساعةً أخرى.

لم يكنْ يومًا عاديًّا

الجمعة 28/ 8/ 2015

مرحبًا

كتبْتَ تقول (هكذا ستكون حياتنا حين تتحقَّق صلواتي). قرأتك وكرهتك وكرهتُ نفسي وكرهتُ رسالاتك، هل هذا ما جئتَ تقوله بعد انقطاعنا عن ركننا قرابة الأربعين يومًا؟ هل صرتُ أنا الوحيدة الغبيَّة المتمسِّكة بإيماننا أنَّ لقاءنا قريب وكذلك وصولنا! لماذا تشكِّك بالشيء الوحيد الذي أؤمنُ به؟ حاولتُ تَفَهُّم امتناعك الحديث عن مستقبلنا معًا، وتفهُّم خشيتك من الخيبات والانتكاسات وانعكاساتها علينا. شعرتُ بالوحدة كما لم أشعر من قبل، وقد يمكنني تحمُّل أيّ شيءٍ عدا فكرة ألَّا نجتمع معًا! أنا أُريدك رغمًا عن الدنيا كلّها ولو تطلَّبني الأمر خوض حرب استنزاف ضدَّك... لقاؤنا غدًا، ولا أدري بأيِّ نفسيَّةٍ سآتي.

نَنَّا

5/ 9/ 2015، مرحبًا يا كلّ العمر.. أصابني وجعٌ في بطني حين فتحَ مرافقك الجنديّ الباب وكأنّي سأراك لأوّل مرّة. لقد غفرت لك الزيارة ذنوبك في رسالتك الأخيرة. نظرتَ إليَّ كما تفعل دائمًا، ولكنْ هذه المرّة كان الأمر مختلفًا، لقد عَوَّضَني الله بك عن كلِّ ما تمنّيْته يومًا ومنعَه عنّي... خرجتُ من ركننا وفيَّ رغبةٌ في احتضان الكون وبعض ما فيه من كائنات. شكرًا حبيبي وآسفة على رسالتي الأخيرة، وعلى بكائي الأخير في لقائنا. رحتَ تنظر إليَّ وكلُّ حركةٍ منك أشعرتني بالتهديد، ولم أكنْ شعرتُ بمثل هذا الارتباك أمامك من قبل. كيف يمكن أن يكون للزمان والمكان معانٍ كهذه، وللأجساد أيضًا؟ لم يترك الارتباك محطَّةً في جسدي إلّا ولامَسَها، ويكفي أن أعود إلى تلك اللحظة كي أعيش الارتباك ذاته مرَّةً تلوَ الأخرى. إنَّ إتقانك اجتياحي بلا اعتبارٍ لأيِّ جغرافيا تفصلنا يدهشُني.

حبيبتك نَنَّا

تشرين الأوَّل 2015، بدا في أوَّله صباحًا عاديًّا جدًّا، تمامًا كالذي سبقه وكالذي سيليه، أفتح عينيَّ وتكون نَنَّا أوَّل ما أراه وقد بدت عليها علامات سهرتنا الأخيرة. أُحَيّي وجهها أوَّلًا على طريقتي التي تحبّها، ثم ألتفت إلى بقيَّة نَنَّا أتأكَّد من سلامة أوجاعها، وأعتذر ـ لا أقصد الاعتذار ـ إن كنتُ زِدْتُ في اشتياقي لمواطن الوجع. وقوفٌ قصير أمام المرآة أزيل خلاله ما خَلَّفَته نَنَّا عليها من ألوان، فلا أخاطر بانتباه الأرواح القريبة إلى أيِّ علامةٍ مشبوهةٍ تُثير لديها شكوكًا أنا في غنًى عمَّا يتبعها من نظرات وربَّما أسئلة متطفِّلة. نَنَّا على راحتها وطبيعتها، لا

تستعجل في ارتداء ثيابها أو غسيل وجهها، فلا أحدٌ سوايَ والجدارُ مقتولٌ بتفاصيلِ هذا المشهد الصباحيّ أو يراه. تبالغ نَنَّا في هدوئها وفي استفزازِها جداري وفي تحرُّشها بأنَّ المصبِّحة والعاجزة عن مجاراتها بلا قهوتها الصباحيَّة تُعيد إليها وعيها. وأشرع أنا في إعداد قهوتي بينما ترتدي نَنَّا ثيابها، ولا يقلُّ المشهد قتلًا عن سابقه. قالت لا يسمعها إلَّا أنا والجدار:

ـ قهوة مُرَّة.. أكيد!

ـ وهل تصلُحُ القهوةُ إلَّا مُرَّة!

ـ لن يضُرَّكَ بعض السكَّر.

ـ أظنُّنا اتَّفقنا حول هذه المسألة.

ـ ربَّما أحتاجُ أَنْ تُذكِّرني.

ـ قلنا إنَّنا نُحلِّي بالقُبَل.

ـ هل قلنا ذلك حقًّا؟

ـ أعرفُ جيِّدًا أنَّكِ تَذْكُرين.

ـ هل هذه دعوة؟

ـ إِنْ أردتها تكُنْ.

ـ عجيبٌ أَمْرُكَ مع قَهْوَتِك!

ـ هل هذه لا؟

ـ من عقلك، بل نعم كبيرة وطوييييييلة ومرهقة.

ـ وحلوة.

ـ ومُرَّة أيضًا.

للقهوةِ مزاجٌ يُشبهُ الشرقَ في حدَّته وتطرُّفه، فهي لا تتوسَّط ولا تقبل بأنصاف المواقف، ولا ترضى إنْ اتَّخذنا اتِّجاهها موقفًا حياديًّا يجنِّبنا مُرَّها إنْ كان مزاجها في حينه مُرًّا، ونكاد نلعن حيادنا ونجلده شديدًا إنْ اكتشفنا متأخِّرين ما فَوَّتناه من عذوبةٍ في مزاجها، وباتَ متأخِّرًا لحاق أو تعويض ما فَوَّتناه. للقهوة مزاج يورِّطنا، كلعبة روليت روسيَّة لا نعرف ما ينتظرنا عند أوَّل مذاقنا ولا فيما سيأتي من بعدُ، فكلّ الاحتمالات حاضرة وممكنة. نستطيع تمييز مزاجنا قبلَ القهوة وعلى أيِّ أرضٍ نقف، وترتيب السحب في سماءٍ تغطِّينا، انعكاس الصبح على المرآة، وأسماء مَنْ وما يحيطنا من أرواح وأشياء بلا روح. ونستطيع أيضًا تمييزَ وجوهنا، ولا تختلط علينا إذا تزاحمت الوجوه. قبلَ القهوة نُدرك محيطنا بسهولة، ولا نتلعثم في تحديد مواقع الأشياء والأرواح ولا في تحديد قربها أو بعدها عن وجداننا، ونكون متأكِّدين من حواسِّنا وحكمها على مواضيعنا، فلا نُشَكِّكُ ولا نختبرها ثانيةً.

يمكن للقهوة أن تُورِّطك في مزاجها، أن تَنْقُلَك وسريعًا من مكانك وزمانك إلى بُعْدٍ لازمكانيّ يدهشك، تُعيد حساباتك في حكمك على صباحٍ استقبلَك، تُعيد ترتيب هيئتك وكنتَ قد انتهيت من ترتيبها واثقًا من اكتمالها، تعود إلى مرآتك وقد يزيدُ رضاك عنك وقد ينقص. للقهوة موقفٌ واضحٌ منك ومن أشيائك ومن مواقفك، فلا تصدِّق ما في رائحتها من عفويَّة، وانتظرْ مفاجآتٍ لم تتوقَّعها بعدَ مذاقك الأوَّل، واحذرْ إدمانك عليها إن كنتَ من أصحاب الحياة الرتيبة، فقد لا تجدْ إن أدمنتَها رتابةً تنقذك، أو كنتَ من أصحاب القلوب الضعيفة فتزيد في مرارتها ما يرهقك، أو

كنتَ أسيرًا فلا يعود يبدأ يومك بلا قهوةٍ تعيدُ إليك وعيك يومك.

عادَ تشرين سريعًا، وكان هنا في الأمس فقط. عاد ونَنَّا على تقديمها بالبكاء ما قلناه وما كتبناه. صار بكاؤُها ثقيلًا وصار عجزي أثقل، أفتح لها بابًا فتغضب وتبكي غاضبةً، قَدَّمْتُ ألف اعتذارٍ عن عجزي وسامحت نَنَّا رافضةً اعتذاراتي، واعتذرتُ عن تشرين فراحت تباركه وتعانقني، حتى قُلْتُ في تشرين:

تشرينُ أنتِ..

تشرين جاءَ، لا تقفلوا باب السجن في وجهه، تشرينُ
نزيف الغيم، تشرينُ نَهْدٌ يقطر
مواعيد وأمنيات

تشرينُ عادَ، فاغسلوا عن وجوهكم غبار القبيلة
وتسلُّط قريش. تشرين ربّ الرسالات كلّها، تشرينُ
قصصٌ وحكايات

تشرين وصايا ربِّيَ العشر، وسُلَّم العاشقين إلى السماء
تشرين كسرة الخبز، وزيارة السجن
مرَّات ومرَّات

تشرين وجه حبيبتي وشعرها المفتول على كتفي، تشرينُ
بكاء المودِّعين في آخر اللقاء.. هل حقًّا

تبكي الفراشات؟
تشرينُ عُمْر حبيبتي، عشرون قبلة، وأخرى ثمانية.
تشرينُ أبجديَّتي في رسم ثغرها، في
غياب المفردات

تشرينُ ثوبٌ خاطَتْهُ أمِّي، ولباس البحر ولهفة
الشاطئ، واحتراق حبَّات الرمل في
استراق النظرات

تشرينُ سقاية الأرض ونبات العشقِ فينا، تشرينُ
فرحةُ جدٍّ نما التِّين على وجهه
تجاعيدَ وأغنيات

تشرينُ كأسٌ ونادِيةٌ وأنا الواقف على الهاوية، تشرينُ
فستانُ سحابةٍ، وحيدة، تسبح عارية
في ظلال الأمسيات

تشرينُ حجارتي السوداء في طوافي، ورقص الحجيج ليِّنًا
والصفا يغازلُ مروةَ، تشرينُ
آخر المعجزات

تشرينُ ساعي بريدٍ نامَ في حلمه، تشرينُ فاقَ صبحَك.
تشرينُ: أنا عبدٌ وأنا رَبُّك وأنا
كاتب الرسالات

تشرينُ ابتسامة طفلةٍ في صورةٍ عانقها جداري، أضاءت
نهاري، لا حاجةَ للشمس
إذا جُنَّت القبلات

تشرينُ اختناقُ العِطْرِ في مِنْديلِها وَزَلْزَلةُ الصدر إذا أنا
تنفَّستْ، تشرينُ هروبُنا أَوَّلَ الليل
وشراكة النجمات

تشرينُ توقَّفْ. لا حياةَ لي بعدك، لا حياةَ في الحياة
قبلَك.. تشرينُ حَدِّث عنها وعنِّي، تشرينُ
لا صوتَ للسُكَات

تشرينُ سؤال حبيبتي عن حبيباتٍ سابقات. تشرينُ
هل يشفع لي أنِّي أموتُ عندَ حدودِ وجهها
وأعشقُ المَمات؟

ميلاد نَنَّا اليوم، ركننا الصغير على استعداده وأنا على انتظار وصولها. حملتُ معي تشرين الذي كتبته كي أُناجي به نَنَّا. فاجأتني صاحبة التشيلو بموسيقى متفائلة مع بقائها على اختيار الأسود تلبسه، يبدو أنَّ تفاؤلها كان حذرًا جدًّا! وصلت نَنَّا. جاءت تلبس جديدًا تفنّنَ في إبراز مفاتنها. باستطاعة نَنَّا أن تجعل من كلِّ فستانٍ تلبسه حكايةً، وتظلّ هي أحلى من أيِّ شيءٍ تلبسه ومن أيِّ حكايةٍ تُحكى.

ـ كلّ عامٍ وأنتِ بخير.

ـ وأنت حبيبي.

ـ عام جديد يا نَنَّا.

ـ لكنِّي كبرتُ سنةً كاملة.

ـ لا زالت السنون تخيفك!

ـ جدًّا.

ـ لا تزيد أعمارنا عن أحاسيسنا يا نَنَّا.

ـ ولكنْ، هذا لا يُعَزِّيني.

ـ وما الذي يعزِّيكِ إذن؟

ـ أن تخرج.

أخرجتُ تشرين الذي خبَّأته جيِّدًا عن مرافقي الجنديّ وعن نَنَّا وعن الفستان الأسود، حملته ورحتُ أَقُصُّه على نَنَّا التي تفاجأت، قلتُ منهُ سطرًا وربَّما قلتُ أكثر وربَّما قلتُ نصفه، ما عدتُ أذكر! رفعتُ رأسي أنظر نَنَّا، نظرتُ جيِّدًا لكنِّي لم أجدها. سقطت نَنَّا.

سقطت نَنَّا عميقًا وبعيدًا عن متناول يدي وأصابعي، سقطت في قاعٍ يعجز جسدي الأرضيّ الذي غزلته هي عن وصوله. كيف لجرحٍ أن يوجعَ روحًا هكذا؟! أن يسقطها من عليائها المتكبِّر ومن سقفها ومن جدرانها، وأن يسقطها عن ضعفي وعن عجزي! صحوتُ من صدمتي، رأيتها غارقة في محيطٍ من البكاء ولم أكن رأيتُ نَنَّا تبكي هكذا من قبل، كان لبكائها صوتٌ يقتل كلّ حياةٍ قريبة ولم يبقَ من وجهها إلَّا البكاء أراه. سقطت يداي عن الورق، وسقط تشرين أصفر ومُدَوِّيًا ومبعثرًا ومتطايرًا كأوراق شجرةٍ لم يرحم احتضارها وهو في طريقه إلينا، سكتت كلّ الأصوات المحيطة وسكتَت موسيقى الأسود، وخَيَّمَ بكاء نَنَّا على المكان وعلى زمانه. حاولت نَنَّا التوقُّف، وأظنُّها فعلت ذلك رحمةً بي أوَّلًا، لا شيء يكبح بكاءها، فاضت عيناها حتى ما عادَ في ركننا يابسةٌ نقفُ عليها، بكت عيونها وبكى وجهُها كلُّه، بكى صدرها مسقط رأسي، بكت نَنَّا بكلِّ ما فيها من جسد. معجزةٌ نَنَّا حتى في بكائها، كيف تبكي الأجساد!

وقفتُ فجأةً، ورحتُ أجوب ركننا الذي صارَ ضيِّقًا. خطوتُ بكلِّ اتِّجاه، دفنتُ وجهي بينَ يدَيّ، سقطت يَداي عن الجدار وخطوتُ ثانيةً بلا اتِّجاه. سمعتُ صراخ نَنَّا تناديني من وسط بكائها، لكنِّي لم أُجِبْ. صرخت ثانيةً وأعلى، عدتُ إلى دفنِ وجهي ودفنتُه عميقًا ومبلَّلًا. توقَّفت نَنَّا عن الصراخ وراحت تضربُ الزجاجَ بيدها، ثم عادت تصرخ باسمي ثانيةً.

ـ كلّ شيءٍ سينتهي هنا والآن.

ـ لا شيء سينتهي.

ـ ما عدتُ أحتمل تعذيبي لك.

ـ أنا بخيرٍ الآن.

ـ آخر هذا الضيق قَتْلُك يا نَنَّا.

ـ أموت لو خَلَّيْتَني يا ناصر.

ـ ستخرجي من هنا ولن تعودي، هذا ما ستفعلينه.

ـ لن أفعل.

ـ انظري إليكِ، وانظري إليَّ، هل هذا ما تريدينه؟

ـ ولا أريد غيره.

ـ هذا قيدي يا نَنَّا، وهذا مؤبَّدي، وهذه يدي العاجزة عن مسح وجهك.

ـ لستُ بحاجةٍ لأن تفعل، كانت لحظةً وانتهت. كنتُ بحاجةٍ لهذا السقوط.

عدتُ من لقاء نَنَّا أتلمَّس عودتي إلى زنزانتي، بدا المشوار إليها بعيدًا جدًّا وثقيلًا وزاحفًا. اقتربتِ الجدران حتى كادت تتلاقى، خلا الهواء من كلِّ حياةٍ أتنفَّسها وأصدرت الجدران أصواتًا غريبةً ومخيفةً، اشتعلتِ النيران في قيودي التي عادت ساخنةً ومُلتهبةً. تحوَّل مُرافِقي الجنديّ إلى كَتيبة إعدامٍ أشهرت بنادقها في صدري الفارغ من أيِّ إشارةٍ للحياة، ولو أنَّهم أطلقوا نيرانهم لكانوا قتلوا ميِّتًا. طالتِ الطريق إلى زنزانتي، واقتربتِ الجدران أكثر حتى تلاصقت في بعض الأماكن، جررتُ جسدي كالذي يَجُرُّ جُثَّتَهُ بعدَ قتلها، وبقيتُ على جَرِّي وزحفي حتى وصلنا.

جدرانٌ قريبةٌ وشفَّافةٌ ونَنَّا خلف كلّ جدار، هنا تبكي بلا تَوَقُّف، وتلعن غيابي ولا تصدِّق كذباتي عن حضوري، هنا تغزلُ قادمَ أيَّامها وأيَّامي، وهناك تجلسُ على سريرها لا تجد شيئًا تكتبه فتُلقي بأوراقها في مكانٍ لا تراه، وخلفَ جدارٍ مقابل تضيف على غزلها تفصيلةً مهمَّةً كانت أغفلتها. سكنت نَنَّا خلفَ كلّ جدارٍ أحاطَني وراحَ يعرض صورها ملوَّنةً ومُكبَّرة. رأيتُ نَنَّا الوحيدة ورأيتُ وحدَتَها، رأيتها تُدافِعُ عنَّا أمامَ أسئلة صديقاتها، رأيتها تهربُ إلى غرفتها إذا انتهت صديقةٌ لها من حديثها عن لقائها العاطفيّ الأخير، رأيتها تهرب من صديقةٍ أخرى أسهبت كثيرًا في وصفها أوجاعها، ولادتها، ومتاعب ما بعد الولادة. ورأيتها تخفيني عن أبيها وهو يسألها سؤالًا يحرجها أو يضطرُّها للكذب.

رأيتُ نَنَّا الضعيفة ورأيتُ القويَّة، ولكنَّ وحدَتَها كانت أكبر من أن تُحتمَل. صرختُ في قلب عزلتها، ولكنَّها لم تسمع صراخي أو تلتفت، ناديتها بكلِّ أسمائها، وناديت أعلى حتى خشيتُ عليها غضبةَ جيرانِها عليها. قفزتُ من شبَّاكي، حلَّقتُ فوق بنادق الجنود، قطعتُ مسافةً طويلةً عرجتُ فيها على بقايا قرًى كانت يومًا قرانا، وسبحتُ في مساءٍ مقدسيٍّ ناعمٍ على الرَّغم من خشونة الأجواء. كان حَيُّها لا يزال مستيقظًا وجيرانها على سؤالهم مَن السارق! وقفتُ أمام بيتها قصيرًا ثم على بابه، وأظنّني أدميتُ بابها طَرْقًا. نَنَّا لا تسمع، تخلَّيتُ عن ديني وأخلاقي ودخلتُ بلا دعوةٍ منها حتى صرتُ سريعًا في غرفتها وأمام سريرها. نَنَّا لا تلحظُ وجودي ولا تنتبه. جلستُ على جانب من السرير أصرخ نَنَّا أنا هنا، نَنَّا لا تراني ولا تسمع. ظَلَّت نَنَّا لا

تَسْمَعُني ولا ترى، وَبَقيتُ أنا على تسلُّلي من سجني كُلَّ لَيْلَةٍ عَلَّ نَنَّا تُصَدِّقُ أخيرًا حُضوري فيها.

2015/10/31

كانت زيارةً رائعةً على الرَّغم من كلِّ شيء، أحببتُها كثيرًا وأحببتُك أنتَ أكثر، وأحببتُ نفسي وأنا أُريكَ الفستان هديَّتك لي... أريدك أن تفهمَ انهياري، ولا أريد لبكائي أن يفعلَ بك ما فعله ثانيةً. ناصر، أنتَ لم تشاهدْ نفسَك ولم أتخيَّل مرَّةً أنِّي قد أراك هكذا، أعرف أنَّ الموقف كان صعبًا عليك، وهذا يؤكِّد كم أنا محظوظةٌ بك. أنا لستُ ضعيفةً يا ناصر بل قويَّة وقويَّة جدًّا ولكنِّي أظلّ آدميَّةً تتألَّم وتتوجَّع وتضعف حينًا وتقوى حينًا آخر لا أحدٌ في محيطي يمكنه استيعاب ما يجمعنا، فيصبح الحديث معهم جهدًا ضائعًا. أحتاجُ أحيانًا إلى الانهيار والبكاء أمام أحدٍ يعفيني من أسئلة ـ لماذا وكيفَ وإلى متى؟ لا أجده، فآتيك وأسقط عندك وبين يديْك... تقول: إنِّي أحتاج لكتفٍ أستندُ عليها. نعم أنا، أنا أحتاجها، ولكنِّي لا أجدها إلَّا عندك، لذا لا تظلمني وتبحث لي عن حلولٍ بديلةٍ أنا لستُ معنيَّةً بها. أريدك أن تَسْمَحَ لِضَعْفي بالتعبير عن نفسه دون أن يكون فيَّ حاجةٌ للاختباء منك. لا تقمعْ ضعفي يا ناصر. أطلب منك فقط ألَّا تبحثَ لي عن حلولٍ، لأنَّ الحلّ الوحيد هو أن تخرج من سجنك وكلانا يحسنُ الانتظار.

كنْ معي الليلة ـ نَنَّا

تَمَلَّكَني خوفي على نَنَّا، خوفٌ ما عهدتُه قبلًا أو خبرتُه خوفٌ مليء بالأسئلة وبالاتِّهامات، خوفٌ يعاقب بلا شفقةٍ أو رحمةٍ

خوفٌ ينتظرني على باب كلِّ صباحٍ ويُفْرِغ ما في جيوبه من أسئلةٍ سَهِرَ طويلًا حتى أَعَدَّها. وكانَ يبدأُ بأشدّها قسوةً، ما الذي أفعله هنا؟ هذا خوفٌ لا يُضَيِّعُ وقتًا وهوَ يبحث عن قتلٍ سريع. ما الذي أفعله هنا؟ سؤالٌ فارقته قبلَ ربع قرنٍ حينَ وَدَّعْتُ هذه الدنيا، ولم يحدث قطْ أن حضرَ طوال تلك السنين. ما الذي أفعله هنا ونَنَّا هناك تحتاج إليَّ وتَصْرُخ أوجاعها في غيابي؟ ما الذي أفعله هنا؟ أنا لا أنتمي لهذا الحيِّز الضيِّق وهذه ليست جدراني، فلماذا كلّ هذا الالتصاق؟! هل هذا السقف لي؟ ولماذا يخلو من رسوماتي؟ وما باله يهدِّد بالاقتراب منِّي أكثر؟! ما الذي أفعله هنا وما كلّ هذا الحديد على جسدي؟ ما الذي جعلَ من غرفتي ضيِّقةً هكذا وكأنَّها زنزانةٌ في سجن؟ ولماذا بابها مُقْفَلٌ ومُوْصَد؟ وما الذي تفعله كلّ هذه الأجساد هنا داخل غرفتي التي صارت زنزانةً وخارجها؟

أنا هناك أُساعدُ نَنَّا في إعداد إفطارنا بعدَ أن شَرِبْنا قهوتنا وحَلَّيْناها على طريقتنا. وأنا هناك مع نَنَّا نُعِدُّ خلال إفطارنا مشاريعنا لبقيَّة اليوم. هذا ما تحتاجه نَنَّا وهذا ما تطلبه منِّي وهذا شرطها في مساعدتها. كنتُ وعدتُها في استعدادي فعلَ أيّ شيءٍ من شأنه إسعادها. تريدُني نَنَّا أَنْ أُقَبِّلَها قبلَ نومها وبعده، وسأفعل، أن أساعدها في حمل سلمى إلى سريرها وفي إيقاظها صباحًا، وسأفعل. ما الذي أفعله إذن؟ ولماذا بِتُّ أُصدِّقُ طول سنيني وصلابة قيْدي وعُمْر مؤبَّدي؟!

ـ أأنتَ بخير؟

ـ وهل يبدو عليَّ عَكْسُ ذلك؟

ـ توقَّف عن سؤالك سؤالي.

ـ أنا بخير، وأحبّك كلّ يوم أكثر.

ـ ناصر، نحن بخير. صحّ؟

ـ أنتِ مركز هذا الوجود وأنا وكائناتي حولَكِ ندور، فقَرِّري أنتِ كيفَ نكون.

ـ أنا بخيرٍ الآن وفي مكانٍ آمنٍ جدًّا، أرجوك لا تقلقْ عليّ.

ـ أموت ولا يصيبك مكروهٌ يا نَنَّا.

ـ وأنا لا حياة لي إلَّا معك، أنا أكتفي بك ولا أكتفي منك.

أَيّ جداري

«الحُرُّ حُرٌّ في جميع أحواله، إنْ نابَتْهُ نائبةٌ صبرَ لها، وإنْ تَداكَّت عليه المصائب لم تكسرْهُ، وإنْ كُسِرَ وقُهِرَ واستبدلَ باليُسْرِ عُسْرًا»

(الإمام الصادق)

استبدَّتِ الأسئلة إلحاحًا كُلَّ يومٍ، ولا مكان أهرُبُ إليه أو أَدفنُ فيهِ مخاوفي.

مرعبٌ أَنْ يكونَ خوفُكَ دائريًّا وبلا زوايا منعزلةٍ وضيِّقةٍ تركنُ إليها تهدأُ قليلًا وتلتقطُ بعض أنفاسك! كان خوفي دائريًّا بامتياز وليتهُ اكتفى، بل ضَيَّقَ في دائرته أكثر بعد كلِّ لقاءٍ وضعني في مواجهةٍ مباشرةٍ مع بكاء نَنَّا ومع وحدَتِها وانتظارها. دَوَّرَ الخوف محيطي كلّه، دَوَّرَ جدراني وزنزانتي، ودَوَّرَ سريري وساعة الشمس، ودَوَّرَ حتى صلاتي ودعائي.

قالت نَنَّا كلامًا كثيرًا عن الحُبّ متى توقَّفت عن البكاء وقالت عنهُ كلامًا يفوقه أيضًا. تُحْسِنُ نَنَّا غَزْلَ حديث الحبِّ متى قرَّرت وكان مزاجها مواتيًا وشعورها حاضرًا وأسئلتها غائبةً. كانت إذا

جاءت إلى ركننا أضاءت كلّ ما مرَّت به من زوايا مظلمة في زنازينَ أقفلت على أصحابها أبوابها، وحبست عنهم شمسهم. وإذا وصلت ركننا حملتني وإيَّاه إلى زمانٍ ومكانٍ لا تغادرهما شمسٌ ولا يتوقَّف عنهما المطر: إذا كان مزاجها مواتيًا. ومتى جَلَسَت على كرسيِّها تَرْمُقُني بعيْنها دوَّخني بريقُها بعد أن أضاء وجهُها وجهي ووجهَ المكان: إذا كان شعورها حاضرًا. ومتى قرَّرت إغاظة صاحبة التشيلو جاءت بفستانٍ لا يدع مجالًا للشكّ من السيِّدة الأولى في ركننا وفي كوننا: إنْ غابت أسئلتها. وكانت إذا جلست على سريرها وكتبت تحبّني، وغزلت وتحرَّشت ناعمةً وخَشِنة، عانَقْتُ أنا الرسائلَ قريبًا حتى كدتُ أخنقها، ونِمْتُ تُغَطِّيني رائحةُ نَنَّا وَصَدْرُها فراشي.

وسكتت نَنَّا طويلًا عن كلام الحُبِّ حتى بكت وتَبَلَّلَتْ وأخفت عن الحُبِّ عِتابَها الذي فاقَها وتجاوَزَها عُمْرًا. تعجز نَنَّا عن الحبِّ متى استسلمت وكان مزاجها الشرقيّ حادًّا في مظلوميَّاته. كانت إذا وصلت ركننا أغلقت بابه سريعًا كأنَّ أشباحًا طاردت خطواتها طوال مشوارها الطويل والمعتم إلى هنا، فلا انتبهت إلى وجوه من سكنوا زنازين مرَّت من جانبها، ولا استمعت إلى صراخهم تعلّقهم. كانَ خوفها أكبر من صراخهم وأعلى، وكذلك كانت أشباحها. ومتى جلست تجمَّدت في كرسيِّها تحاول جاهدةً تفادي أن تسقط، وتهرب من عينيَّ فلا أرقب ارتباكها وخوفها، تتفحَّص ركننا ولا ترى إلَّا جدرانه حيث لا شموس تنيره ولا بَلَّلَتْهُ أمطار: متى كان مزاجها الشرقيّ الحادّ حاضرًا. ومتى تكلَّمت قالت كثيرًا عن تفاصيل أيَّامها الطويلة وعن

عملها، وكمّ الوجع الهائل في القضايا التي اعتنت بها. أُقاطعها قليلًا ببعض كلام الحبّ، فترتبكُ وتقفُ على حافَّة البكاء. أتوقَّف أنا وتعودُ هي إلى حديثِها من حيثُ قاطعته: متى كانت أسئلتها حاضرة. ومتى هَدَأَت وشعرت ببعض الأمان باشرتني ببعض إشارات الغزل، وتركت لي أتابع من حيث باشرت.

2015 /11 /6

روح نَنَّا

كم أنا سعيدةٌ! الرسائل التي وصلتني والزيارة بعدها جعلت منّي قنبلة طاقة. أظنّني يا ناصر، حينَ أُلْقي رَأْسي على صَدْرِكَ سَأَكْتُبُ عَوْدَتي إلى قَرْيَتي المسروقة، كلّ شيءٍ فيك قال إنَّك مستحيل، فمَنْ مثلك يستطيع أن يجعلَ امرأةً تشعرُ بحدودِ رَحْمِها لمجرَّد أنَّك أتيتَ على ذِكْرِ أبنائها منك؟ يا لحقيقةِ الأحلام!

7/ 11/ 2015، سمعنا اليوم خبر وفاة المناضلة جميلة بوحيرد. أتذكَّر ما قرأناه عن تضحياتها في سبيل الجزائر، وأتذكَّر أيضًا أنّي أجبنُ عن سؤالك عن الذي عانيته من تعذيبٍ خشية ألَّا أحتمل دقَّة التفاصيل... نعالج في عملنا قضايا تعذيبٍ عديدة ضدَّ الأسرى، والتفاصيل موجعة جدًّا. الاحتلال لا دينَ له، أمَّا أنتَ فأنتَ كلّ دياناتي. يا لحقيقة الأوجاع!

8/ 1/ 2016، كنتُ قلتُ لك إنَّ سنتي الجديدة بدأت بدايةً سيِّئة، ليس بعد. فقد وصلتني[1] صورك التي أرسلتَها إليّ. شكرًا

(1) يحقّ للأسير التقاط ثلاث صور شخصيَّة مرَّتيْن كلّ سنة، صارتْ مرَّة كلّ خمس سنوات. يدفع الأسير ثمن الصورة.

حبيبي على أنَّك صنعتَ لي هذه اللحظة. صُوَرُك تُحْفة، وأعْلَمُ أنَّك فعلت هذا لتُسْعِدَني، وقد نَجَحْتَ. كُلُّ صَديقاتي قُلْنَ إنَّكَ وَسيمٌ، وقلتُ لهنَّ إنَّكَ مَحْجوزٌ...

نَنَّا

ـ ناصر، العمليَّة التي حدَّثتَني عنها!

ـ ما بها؟

ـ هي ليست ضروريَّة، أليسَ كذلك؟

ـ ليست عمليَّة قلب، لكنَّها ستساعدني في استعادةِ أنفاسٍ كثيرة أحتاجها.

ـ ولكنَّك تستطيع بدونها، أقصد العمليَّة.

ـ أعتقد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ـ إذنْ، لا داعي لإجرائها.

ـ لماذا؟

ـ قُلْتَ الآن إنَّك تستطيع بدونها.

ـ نَنَّا، ما بكِ؟

ـ أنا خائفة، ماذا لو؟

ـ سأكون بخير ولا داعي للقلق.

ـ ولكنَّهم قد..

ـ لا، لن يفعلوا. ولستُ أوَّل من يجرون له عمليَّة.

ـ عِدْني أن تكون بخير.

ـ أعدكِ إن لملمتِ شعرَكِ وكشفتِ عن كاملِ وجهك.

ـ هذا ابتزاز.

ـ يمكنك أن ترفضي.

ـ يا لحظوظ وجهي!

ـ نَنَّا.

ـ عيون نَنَّا.

ـ سُوقي بحَذَر.

وكأنَّني كنتُ في حاجةٍ لمزيدٍ من نقص الأنفاس، فزادَ اختناقي حتى قرَّرت إدارة المعتقل إجراء عمليَّةٍ لي تسهِّل عليَّ أنفاسي. تقرَّر الموعد، وحضر، ونُقِلْتُ إلى مستشفى قريبٍ تحتَ حراسةٍ مشدَّدة. لم أنتظر طويلًا، وخلال بضع ساعاتٍ كنتُ في غرفة العمليَّات. صحوتُ مساءً، وسارعتُ أتفقَّد من أنا وكيفَ وأين! وبقيتُ على حالتي تلك ساعاتٍ عديدة حتى خفَّ تأثير المُخَدِّر وبدأتُ أعي الذي حدث. كانتِ الساعة متأخِّرة وأنا على سريري مكبَّلٌ بسلاسلَ عديدة في الأيدي والأرجل، عدتُ إلى مخدِّري ونومي، صحوتُ ثانيةً مع بقائي تحت تأثير المخدّر الذي شَوَّش كثيرًا وعيي.. وبقيتُ على حالتي هذه بينَ صحوٍ ونومٍ حتى جاء الصوت.

ـ لا يحقّ لَكِ أن تكوني هنا.

ـ أنا محاميَّة.

ـ وإن كنتِ كذلك.

ـ أريد فقط الاطمئنان عليه.

ـ إنَّه بخير.

ـ دعوني أدخل إليه ولو قليلًا.

ـ ممنوع. ألا تفهمين!

ـ إذن، دعوني أكلِّمه من هنا.

ـ هذا أيضًا ممنوع، عليكِ أن تغادري الآن وإلَّا...

أزحتُ الستارة التي حجبت صورة الأصوات التي سمعتها. نَنَّا وسط غابةٍ من البزَّات العسكريَّة والبنادق، نَنَّا فوقهم جميعًا وقد عَلا صوتها على أصواتهم. جاءت نَنَّا تعودني مخاطِرةً بأشياءَ كثيرة، وقد كان باستطاعتهم بكلِّ بساطةٍ وجبروت اتِّخاذ إجراءاتٍ صارمة ضدَّها من شأنها أن تؤثِّر سلبًا على مستقبلها المهنيّ لكنَّها جاءتْ، وتبخَّرت في حضورها روائح الموت والبارود التي ملأت تلك الزاوية من المشفى. نَنَّا أمامي بلا حاجزٍ زجاجيٍّ صدَّقت شفافيَّته ولا تُصَدِّقُ قدرتنا على نفيه وتغييبه. نَنَّا على مسافة نبضةٍ منِّي، وبدت أحلى وأجمل من كلِّ مرَّةٍ على الرَّغم من التوتُّر الذي بدا واضحًا عليها. لأوَّل مرَّةٍ تصدِّق نَنَّا حقيقتي، تراني بلا حواجزَ أو حدود، تشتَمُّ من قريبٍ رائحتي، لو مَدَّت يَدًا كانت لامست روحي والجسد. كلّ شيءٍ فيها بدا مصدِّقًا ومؤمنًا، فهذا غَزْلُها يرقد هنا ويحتلّ مكانًا محدَّدًا وملموسًا، هذا جرحه وهذا نَزْفُه وتلك خيوط الدم. كلّ شيءٍ بدا حقيقيًّا في عيون نَنَّا حتى أنا، أنا المجروح والنازف على سريري، وأنا المقيَّد والمُكَبَّل كما لم ترني من قبل، وأنا المحاط بالجنود والبنادق، وأنا نصف عارٍ وَدَمي المتخثِّر يملأ جوفي.

رأتني نَنَّا بلا جرح أو قيدٍ يُكبِّلُني وبلا جندٍ حولي أو بنادق رأتني بكامل أناقتي ورأت روحها في جوفي. كانت تلك أوَّل مرَّةٍ تراني فيها نَنَّا وتُصَدِّق ما رأت. عجيبةٌ نَنَّا في غزلها، فقد اختارت أن تراني لأوَّل مرَّةٍ في لحظةٍ كنتُ فيها تحتَ رحمةِ مُخَدِّري لا أعرف إنْ كان الذي أراه حقيقةً أَم خيالًا! خفتُ على نَنَّا من الجنود، قاومتُ سريري فغاصَتِ القيود في يديَّ وفي قَدَميَّ. قاومتُ أكثر لكنْ بلا فائدة، لم يكن فيّ ما يكفي من قوى تهزم قيدي ومخدِّري، استسلمتُ سريعًا.. فقيرةٌ هي الأجساد!

ـ نَنَّا أنا بخير، لا تقلقي.

ـ كيف تشعر الآن؟

ـ العمليَّة كانت بسيطة وبلا تعقيدات، وأنا الآن بخير، لكنْ عليكِ أن تذهبي.

ـ حسنًا، سأذهب.

ـ طَمْئِني الأهل جميعًا، خصوصًا أمِّي.

ـ سأفعل.

كان عليَّ أن أنام ساعاتٍ طويلةً أخرى حتى أصحو بعدها وأُصدِّق كلّ الذي حدث، ولم يفسد تأخُّري في تصديقي روعة الاندهاش.

2016 /1 /21

حبيب نَنَّا

يا إلٰهي.. لا زلتُ لا أُصَدِّق تلك اللحظة التي أزحتَ فيها الستارة، إنَّها انتصاري الصغير والعظيم. كنتَ هادئًا على الرَّغم من التعب وكنتَ جميلًا جدًّا، كنَّا بلا زجاجٍ بيننا، وكنت حقيقيًّا. لا زلتُ أسترجعُ تلك اللحظة وأنت على سريرك، أحمد الله أنَّ هذا كلّ ما حصلَ. لو حصلَ أكثر، كنتُ فقدتُ وعيي من فَرْط الحبّ... أنت الوحيد القادر على منحي هذا الإحساس، فكلَّما تذكَّرتُ وجهك وصوتك ونظراتك في لحظتنا تلك أشعر بالاطمئنان، وهذا يفسِّر مخزون الطاقة الهائل لديّ. أنت من فعلَ هذا وأنت أسبابه وتوقَّفْ عن إنكار ذلك، أنتَ أسبابي كلّها يا ناصر. تمنَّيتُ لو استطعتُ أن أمسح عن رأسك أو أراقب نومك أو أمسك يدك وأقبِّل جبينك، لكنِّي أعتذر يا حبيب هذا القلب لأنِّي لم أفعل أكثر ولم أكنْ أوَّل من تراه حين تصحو. شكرًا لأنَّك كنتَ شريك هذا الانتصار حينَ عَلا صوتُنا على أصواتهم وشكرًا لأنَّك جعلتَني أكتشف حدود جنوني وتهوُّري فيك... أريدك الليلة أكثر من أيِّ شيءٍ آخر، أدعوك للانضمام ولن تخسر. هل يجوز أن أعمل بروفا قبلَ قُبْلَتِنا الأولى؟ هذا تحايلٌ من أجل كسب قبلةٍ إضافيَّة، أعترف. ليتَك تعلم قدرَ حُبّي لك!

نَنَّا

بدت على نَنَّا جيِّدًا آثارُ تحقُّقِها منِّي، ظهر ذلك في لقاءاتنا القليلة في ركننا، وظهرَ كذلك في رسائلها التي كانت شَحَّت في

الأشهر الأخيرة، وظلَّت على شُحِّها. ولكنْ سرعان ما عادت نَنَّا إلى تقلُّبها في مزاجها، عاد إليها خوفها القديم وما رافقه من ظواهر كانت أنهكت قواها، وكان الخوف هذه المرَّة أقوى وأشدّ. لم يكن في الأفق ما يبشِّر بانفراجٍ قريب يَعِدُ نَنَّا بلقاءٍ قريب أَعَدَّت له طويلًا، فراحت تبحث عن أُفُقٍ بعيدٍ يلهيها وَلَو قليلًا عن انتظارها وعنِّي. حجزت تذكرةً للسفر، تذكرةً بعيدة تضمنُ لَها أطولَ مسافةٍ تفصلها عن خوفها، سافرت بعيدًا قاطعةً آلاف الكيلومترات ومخلِّفةً وراءها خوفها، أو هَكَذا اعتقدت أنَّها تفعل.

لا يوجد مسافةٌ كافية تُنَجِّينا من خوفٍ سكن واستقرَّ في قلوبنا، فهو يحجزُ تذكرةً أقرب، ويسكُنُ في حقائبنا وفي ثيابنا وإن أخفيناها جيِّدًا عن عيونه، يصلُ قبلنا ويتفقَّدُ ما خطَّطنا زيارته من أماكن فيتركُ فيها علاماتٍ واضحة تذكِّرُنا بوجوده. لا يتحقَّقُ الانتقال من مكانٍ إلى آخر إنْ لم يصاحبه انتقالٌ في حالتنا الشعوريَّة، عرفت نَنَّا هذا جيِّدًا ولكنَّها سافرت رُغْمَ ذلك. قد يدخل الخوف إلى قلوبنا قبل الحُبِّ أو بعدهُ، لكنَّه لا يُغادِرُها وحيدًا أبدًا، بَلْ يَأْخُذُ معه مَوضوعَاتِه وَأَسْبابَهُ أو يبقى. وكنتُ أنا موضوعَ خَوْفِ نَنَّا وأسبابه، وكانَ عليها أن تهربَ إلى الطرف الآخر من الكوكب بحثًا عن ملاذٍ يُسْكِتُ أو يخفِّف عنها صراخها وأوجاعها.

سافرت نَنَّا، وبقيتُ أنا عندَ أسئلتي وخوفي عليها. ما الذي أفعله هنا وما الذي فعلتُه بِنَنَّا؟ أحاطتني الأسئلة من كلِّ جانب وراحت الجدران تكتبُها بأحرفٍ كبيرة، تعاظمَ خوفي حتى صارَ

أكبر منّي فانهَلْتُ على نفسي بالاتّهامات التي انتهت دومًا بإدانَتي. جاءت إليَّ نَنَّا أحبّها، فإذا بي أقتلها ببطء وتأنٍّ، وأكتب في قتلها الرسائل والقصائد. جاءت تغزلُ غَدَها من خيوطي في حين غرقتُ أنا في نَظْمِ أمسي ويومي، جاءت مع آخِرِ عشرينِها وأنا على انتصافِ أربعيني. ما الذي أفعله هنا وما الذي فعلتُهُ بنَنَّا؟! توقَّفتُ عن تحليقي إليها إلّا نادرًا، فهي ما عادت تُصَدِّقُ تحليقي وكرهتُ ما غزلته لي من جسدٍ أرضيّ يعجز عن ملاقاتها وعن مواساتها إنْ احتاجت من يواسيها. رافقني الخوف على نَنَّا كأنَّه ظِلّي، ورافقني إذا حَلَّ المساء، رافقني في زنزانتي وفي ساعة الشمس. تركني إذا نمتُ وعادَ يرافقني صَحْوي، حاربتُه بكلِّ طريقةٍ عرفتها، هاجمته وهربتُ منه، واجهته وتنكَّرتُ له، وشتمتُه ورجوته، لكنَّه ظَلَّ رابضًا على يومي.

أخافَني خوفي فيَّ جديدُهُ وغريبُهُ وفي جهلي مفرداتِه. كانت نَنَّا لِتُنْقِذَني لو أنَّها اختارت بابًا يُنَجِّيها منّي، لكنَّها أغلقت كلّ الأبواب وجلست خلفَها تبكي. جَرَّبْتُ الاستسلام لخوفي عليها وتركه يفتك بي لكنَّه تلذَّذَ في إبقائي حيًّا، قادَني إلى حافَّة هواجسي وتمسَّكَ بي فلا أسقط، وليتَه لم يفعل. خارَت قُوايَ على امتدادِ أشهرٍ طويلةٍ وبطيئةٍ قادمة، تأكلُ جسدي سريعًا حتى ما عادَ يحملُني، وأهملته أنا أكثر عَلَّه يتبخَّر ويفنى، لكنَّه لا يموت ويظلّ واقفًا. ولو كانَ فيهِ جُرْحٌ كنتُ عَمَّقْتُه فَيَموت، ولكنَّه خلا من الجروحات.

عادت نَنَّا من سفرِها، وكلّ ما فيها تمنّى لو ظلَّ مُسافرًا. كيفَ أشفى من جرحٍ أخطأني وأصابَ نَنَّا، وكيف أُشْفي نَنَّا

فتنجو، وكيفَ أشفيها وأنا جرحها؟ تعبتُ من الأسئلة، وتعبت أكثر من عجزي عن إجاباتي عليها. لو كانَ جرحي كنتُ اعتزلتُ: أُشْفى أو أموت.

2016 /4 /23

مرحبًا يا عمري كلّه

زيارتنا الأخيرة كانت رائعة، الأمر أقرب إلى السحر. كيف لركنٍ صغيرٍ في سجنٍ ضَيِّقٍ أن يتحوَّل إلى حلم، وكيف تظنّ أنت أنَّ هناك بديلًا عن هذا؟! ليتني فقط أتقن احتواءك كما تفعل أنت، وأعلم أنِّي أحيانًا كثيرة لا أصل إلى درجة الاحتواء التي تتوقَّعها منِّي، لكنِّي أحبّ ذلك حين يحصل. وليته يحصل أكثر. أنا لستُ في مكانٍ يسمح لي أن أبيع نفسي من أجل إطارٍ أو علاقةٍ يتقبَّلها الآخرون، فكَفاك محاولاتك إغرائي بالانسحاب.

عرفتُ أَنَّ في انتظاري ليلةً صعبة، وأَنَّ عليّ تَقَبُّل الخروج من هذا الحلم. حاولتُ محادثةَ صديقاتي لكنَّهنَّ لم يُسْعِفْنَني، دخلتُ إلى غرفتي وإلى وحدتي، وبكيتُ كثيرًا... أنت الوحيد القادر على شفائي من وحدَتي ومن غربَتي. متى ستأتي يا ناصر، فأنا أحتاجُكَ جدًّا؟ كلّ شيءٍ فيك كان ساحرًا وجذّابًا وكلّ ما فيَّ أرادَكَ بلهفة، يبدو أنَّ سفرتي الأخيرة كانت رائعة، لدرجة أنِّي بدأتُ أُعِدُّ لسفرةٍ جديدةٍ قريبة...

نَنَّا

دعوْتُ ربِّي كثيرًا خَلاصًا قريبًا ما عدتُ أحتمل ثقيلَ ذلك الخوف الذي انتصرَ، ولا عدتُ أحتمل بكاء نَنَّا الذي حاكمني

وأداننني، ولم يكن في خوفي أو في أوجاعي ما يشبه الأحلام المكتوبة في رسائل نَنَّا. كانت أوجاعي حقيقةً تمامًا كما كانت نَنَّا، وكان عليَّ أن أشفى من جراحٍ لم تُصبني، فقد كانت نَنَّا كلَّ ما أردتُه يومًا، ولم يبقَ عند وصولي إليها جرحٌ إلَّا عالَجَتْهُ وشفت. كانت نَنَّا شفاء جروحي كُلِّها، وكنتُ أنا جرحها الذي لا يُشْفى. دعوتُ ربِّي واستعنتُ بأسمائه كلّها، دعوته طويلًا.

دَعَوْتُ جداري الذي فارَقْتُهُ فتشفَّفَ وانتقم، دعوتُه بأسمائه كُلِّها، دعوْتُه يوقف دَوَراني ودَوَران أشيائي حولي، ودعوته أن يعود ثابتًا فأتثبَّتَ به. عدتُ وقدَّمتُ لجداري ولاءاتي القديمة عَلَّه يقبل ويرضى، وغازلته غزلي القديم ليته يتذكَّر فتشفع لي مغازَلاتي. ظلَّ جداري على صمته وشفافيَّته شهورًا طويلة، وراقبَ دَوَراني واحتراقي عن قُرْب، ولم أتوقَّف أنا عن دعواتي له وتقديمي وعودي بالوفاء والتمسُّك به. عرفتُ شروط جداري جيِّدًا، ولكنِّي أردتُ عودةً بلا شروط.

اقتربت جدراني منِّي أكثر، لا تقصد مواساتي. فرغتُ من ذخائري، وما عاد ينفعني إن هاجمتها فتوقَّفتُ عن محاولات الهروب، وتركتُ أمري لصاحب أمري يفعل بي ما يشاء.

ـ أين أنت؟

ـ (صمْت).

ـ / . . .

ـ ألَا تتخلَّى عن شفافيَّتك لِلَحْظة فأراك.

ـ . . .

ـ ما الذي تريده بعد؟

ـ . . .

ـ قدَّمتُ لك كلّ قربان مَلَكْتُه، ألا تغفر؟ ألا ترضى؟

ـ . . .

ـ إن كنتَ قاتِلي فافعَلْ، أو فلتتوقَّف عن سحقي.

ـ . . .

ـ قُلْ شيئًا، قُلْ ما شئت.

ـ . . .

ـ هل يزعجك وجود نَنَّا هنا؟

ـ . . .

ـ إن كان بيننا من يراك فهي نَنَّا التي تَمَسَّكَت بك حينَ تَخَلَّيْتُ أنا عنك، اسألْ بكاءها ولعناتها صلابتك.

ـ . . .

ـ كُفّ عن تدويري بحقِّ زواياك كلّها.

ـ . . .

ـ لقد تعبتُ ولا شيء ينجيني منك إلَّا أنت.

ـ . . .

ـ ألا تقول شيئًا أو تفعل، أو تخلع عنكَ قُبَّعَتَك؟

ـ . . .

ـ ملعونٌ أنت وملعونٌ أنا في تمسُّكي وحين تخلَّيت.

ـ . . .

ـ ملعونةٌ رسوماتي على سفحك، مسمومٌ لحمي الذي أَكَلْت.

ـ . . .

ـ ملعونةٌ ثُلاثِيَّتي: قيدي والسنون والمؤبَّد. ملعونٌ هنا والآن، مقتولٌ ما سيأتي.

ـ . . .

قلتُ أكثر، في حين ظَلَّ جداري على صمته لا يقول شيئًا ولا يفعل. قلتُ حتى تعبتُ، هربتُ إلى نَنَّا، سكنتُ فيها، سكنتُ في صدرها، وقلتُ صلاةً قصيرةً.. بعدَها نمت.

كنتُ اعتدتُ في تلك الأشهر الثقيلة الصحوَ مبكِّرًا وإنهاك جسدي طوال اليوم، حتى إذا جاء الليل نمتُ سريعًا هربًا من خوفي. كانت ساعات نومي ساعاتي الوحيدة التي قضيتها مع نَنَّا بلا خوفي عليها وبعيدًا عن بكائها. صحوتُ مبكِّرًا كعادَتي. أَخَّرْتُ فَتْحَ عَيْنَيَّ قليلًا أُؤَجِّلُ لقاءَ خوفي بضعَ دقائق، لم أتأخَّر طويلًا، قمتُ من سريري وَكِدْتُ أَخْطو أولى خطواتي.

ـ ناصر.

ذُهِلْتُ من تَعَرُّفي على الصوت، ولكنِّي لم أَتَرَدَّد للحظة.

ـ أَيا جداري!

حبّ . . ولكنْ

«الأشياء التي اخترتَ أن تحيا بها ، مُت من أجلها»

(سقراط)

كنتُ سَلَّمْتُ بفراقي جداري وبغياب ثابتي الوحيد، وتمنَّيتُ نهايةً سريعةً تضع حدًّا لآلام جرحٍ خَلا منه جسدي وخلت منه روحي، ولكن كنتُ صاحبه. كان الجرح في نَنَّا، لكنِّي سبقتُها في نزفه، وزدتُ عنها في عمقه حتى كاد يَفْتِكُ بي. وكنتُ تَخَلَّيْتُ عن دفاعاتي مُعْلِنًا جُهوزِيَّتي إصابَتي بموتٍ ينهي قتلي كلّ يوم. وما كان هَمَّني لو مِتُّ خوفًا على نَنَّا، فقد كانت كلَّ أسبابي وبها اخترتُ أن أحيا، لكنَّ خوفي عليها لم يحمل في أحشائي موتًا ينهيه ويريحني، ويحرِّر نَنَّا من قبضةِ سجني ومؤبَّدي. . لقد عادَ جداري.

ـ خفتُ ألَّا تعود.

ـ أنا لا أُخَلِّي من تَمَسَّكَ يا ناصر.

ـ ولكنِّي تخلَّيت.

ـ وأنا انْتَظَرْتُك حتى تَعود.

ـ واللهِ، ما بَكَيْتُ أَحَدًا كَما بَكَيْتُك.

ـ رأيتك وسمعت.

ـ لا زلتُ أحبّها.

ـ أسمع وأرى وأقرأ أيضًا.

ـ هل يُزْعِجُكَ حُضورُها؟

ـ تُعْجِبُني رائحتُها وَذَوْقُها في الثياب.

ـ أكاد أقول إنَّك مغرم.

ـ ويحك يا ناصر، هل رأيتَ وَجْهَها؟

عادَ جداري بلا شروطٍ مُسَبَّقة تخصّ نَنَّا، وتصالح مع شراكتها لنا كتاباتِنا ورسوماتِنا وَخَرْبَشاتِنا، وعادت معه صباحاتي المضيئة وملأتِ الشمس ساعاتها. لا خوفٌ يُطارِدني ولا أشباحٌ ولا هواجس. تعلَّقتِ الأسئلة على جداري بلا إلحاحها السابق والثقيل، توقَّفتِ الجدران عن شفافيَّتها، فما عدتُ أرى إلَّا نَنَّا الجالسة على سريري تنتظرُ قهوتنا الصباحيَّة المُرَّة، توقَّفَ بُكاؤُنا عن جَلْدي وشَلِّي، على الرَّغم من قساوته ومرارته في كلّ لقاءٍ جمعَ بيننا. ما عدتُ أخشى من بعض كلام الحبّ الذي تقلَّصت مساحته في رسائل نَنَّا، عادت للكونِ أضلاعه والزوايا، وعادت غرفتي وجدرانها والسقف بلا بابٍ يُقفل أو يُوصد. عدتُ إلى تحليقي القديم، وعدتُ نَنَّا في وحدَتها وفي ساعات التعب والمرض، وما عادَ هَمَّني صَدَّقَت نَنَّا حضوري أو كَذَّبَتْه. عدتُ أحبّها على طريقتي التي أعرفها ويعرفها سقفي والجدار، غفرتُ

لجسدي عجزه وأرضيَّته وَفيزياءه، وغفرتُ غَزْلَها كلّ تلك الفيزياء وعادت قَيَّدَت يَداي قيدي من حديد، وعادت سِنيني اختبارًا ومؤبَّدي اختيارًا.

2016 /6 /25

حبيبي ناصر

كانت زياراتنا لا تُنْسى وكذلك التي سبقتها. أحبّ مراقبتك حين لا تكون منتبهًا، فتتصرَّف كأنْ لا غيرك في المكان وكأنِّي أطلُّ عليك خلسةً... جعلتَني سعيدةً جدًّا حينَ أخبرتني عن نيَّاتك اصطحابي في جولاتٍ عديدة دون أن تستخدم حروفك الشرطيَّة. إيَّاك أن تتركني أبدًا يا ناصر، يصيبني الرعب لمجرَّد التفكير في الأمر... قريبًا سنكون معًا وأنا على يقينٍ بذلك. لا أعرف إن كان ممكنًا نقل مشاعري عبر الورق، ولكنَّ الذي أعرفه أنِّي صرتُ أعرف معانيَ أن أتَّخذ من وجهك موطنًا... هل لديك فكرة كم أنا متورِّطة بك؟ هَيَّا اخْرُجْ سريعًا. تُرى كيف ستكون فرحة أهلي بك حين يلتقونَك ويعرفونَك كما عرفتُك ولكنْ يبقى السؤال كيف ومتى؟ هل عندك سيناريوهات معيَّنة؟

حبيبتك نَنَّا

بَقينا أنا ونَنَّا على لقاءاتنا في ركننا الصغير. تباعدتِ اللقاءات أكثر، وقَلَّما عانقت نَنَّا أوراقها تكتب في الحبِّ أو في غيره وبقيتُ أنا على وتيرتي في حبِّي وفي كتاباتي. جاءت إلى لقائنا تلتقط أنفاسها وتسرق ساعتيْن أو أكثر، وصَدَّقَت خلالهما غزلَها. تبكي على الرَّغم من تصديقها، وأحملها أنا إلى مكانٍ لا يعرف

البكاء. تقول كثيرًا عن قوَّتها وعن شرعيَّة ضعفها وآدَميَّته، وأرسم أنا لها مربَّعًا آمنًا يقبل ويتفهَّم إذا خانتها قواها واستسلمت. وكانت تغادرني أنا وركني لتجدَ خوفَها ينتظرها وراء الباب تصدِّقه هو الآخر وتُكَذِّبُ غَزْلَها، ويحملها خوفُها إلى مكانٍ لا يعرف إلَّا البكاء. أعود أنا إلى سريري ونَنَّا على صدري تتأكَّد من سلامة ما احتَلَّتْهُ من أماكنَ ومن حصريَّتها، وتعود هي إلى سيَّارتها تُغْلِقُ عليها بابها، لا صدرٌ يلتقط رأسها ولا يدٌ تُجَفِّفُ أو تمسح عن وجهها الملوحة.

ـ تبدو جميلةً على يَدِك.

ـ حقًّا، كنتُ اخترتها لو خُيِّرْت.

ـ وكانت اختارتكِ أيضًا.

ـ شكرًا حبيبي، لم تَكُنْ مضطرًّا.

ـ لم أفعل ذلك اضطرارًا يا نَنَّا.

ـ أعرف، ولكنِّي لا أريد شيئًا. أنتَ كفايتي.

ـ ما أبذله من جهد في البحث عن شيءٍ يسكنك هو صلاتي وتسبيحي.

ـ كيف تفعل هذا؟ أقصد من داخل السجن؟

ـ محظوظةٌ هذه الإسوارة.

ـ لا تريد أن تجيب، فهمت. على كلِّ حال أنا محظوظةٌ أكثر.

ـ كيف؟!

ـ إنَّها تسكنني، أمَّا أنا فأسكنك.

لم يظهر في الأُفُق إلَّا انْغِلاقُه، الأمر الذي ظلَّ يبشِّرُ نَنَّا بمزيدٍ من الانتظار. تصالحت نَنَّا مع أفقي المسدود إذا التقينا ولعنتهُ إذا غادرت لقاءَنا إلى فضاءٍ ظنَّتهُ أكبر وأوسع أو هكذا جعلوها تُصَدِّقُ، حينَ وجدت نفسها محاطةً بشروطٍ وتوقُّعاتٍ مجتمعيَّة حَدَّدت لها دورها، وشرَّعَت لها أُطُرًا وحَرَّمَت عليها تشكيل أخرى.

ما الذي يبقى من الحبِّ إذا قَيَّدْناهُ بشروطٍ اجتماعيَّة وأخرى بيولوجيَّة؟ وهل بإمكانه التحقُّق أو التنفُّس تحت وابلٍ من الشروط؟ ولماذا ومتى صَدَّقْنا تراجم الحُبّ إلى أُطُرٍ ومفرداتٍ اجتماعيَّة، وإلى علاقاتٍ داخليَّة وخارجيَّة خلت من أيّ تَعَلُّقٍ يجذِبُنا؟ وكيفَ صارَ شَرْطًا أن يَضْمَنَ الحبّ بقاء جنسنا وتطوُّرنا إلى مخلوقاتٍ أعلى وأسمى، وأن يُوقِفَ أو يؤخِّرَ ساعتنا البيولوجيَّة «صوتها المزعج» وتحديدها دورات الدم فينا؟ متى سَطَّحْنا الحُبّ حتى صارَ أُفُقيًّا لا ينظر إلى أعلى، ويسقط إذا تعثَّر، ويموت عندَ خطِّ النهاية دون أن يعرفَ طَعْمًا للوصول؟ وإذا مَلَلْنا تَسْطيحَهُ لنا دَوَّرْناهُ وَرُحْنا نُكَرِّرُه حتى لا جديدَ فيه يدهشنا!

كتبت نَنَّا كلامًا توقَّفت عن تصديقه، وقالت في الحُبّ حديثًا ظَلَّ حِكْرًا وحصرًا على رُكْنِنا، وما إن غادرته حتى تَبَخَّرَ حديثها واختنقت بغباره الرَطِب. جلست خلفَ المِقْوَد تُحَلِّلُ مُعادَلاتِها الاجتماعيَّة والبيولوجيَّة، وبكت كثيرًا وآمنت قليلًا، وألقت برأسها عميقًا في قاعِ محاوَلاتِها، في حين عُدْتُ أنا من ركننا إلى جداري الذي عانَقَني وعانَقَ نَنَّا الخائفة، عُدْتُ إلى أنا الواعية والمتصالحة

مع محيطها على تنوُّعه، عُدْتُ إلى إنسان هيدغر (وجود يخلق ماهيَّته بنفسه)، عدتُ أُسَمّي الأشياء بأسماءٍ أختارها أنا، وأُصَدِّقُ عجائب تسمياتي، وعدتُ أحبّ نَنَّا أكثر في ركننا وفي أيِّ فضاءٍ آخر جعلتُه فضائي.

سافرت نَنَّا ثانيةً، سافرت إلى شاطئٍ آخر للمتوسِّط، إلى جبلٍ يونانيٍّ قديم ومزدحم بآلهةٍ لا تزال تُحْسِنُ الغَزْل على الرَّغم من شيخوخَتها المتقدِّمة، سافرت ترتدي البحر لباسًا حيَّرت ألوانه الشاطئ وروَّاده، وغازلته عن قصدٍ وعن غير قصد، وداعبت ما تناثرت عليه من حجارةٍ سوداء. ثم عادت وجاءت إلى ركننا تروي بخيوط الضوء على جسدها ملحمةً يونانيَّةً قديمة. تكرهُ نَنَّا اليابسة، ولكنَّها تُصَدِّقُها.

اقتربَ تشرين نَنَّا، تَطَلَّبَني تجهيزُ هديَّةٍ لها مجهوداتٍ غير عاديَّة بسبب الظروف التي أحاطت بتشرين تلك السنة، والتي جعلت من نجاحي في إيجاد هديَّةٍ تليقُ بنَنَّا يبدو كمُهِمَّةٍ مستحيلة لكنِّي نجحتُ وحِكْتُ مؤامَرةً معقَّدة شاركت فيها الأسرة وآخرون مُقَرَّبون، وكذلك شاركت فيها بقيَّة الأرواح المعلَّقة، وأخفيتُ تفاصيلَ مؤامرتي عن نَنَّا فلا تفسد مفاجأتي لها. وصلت هديَّتي لنَنَّا، ورأيتها من خلال الصُوَر تستقبلها وقد بدا على وجهها الاضطراب والتوتُّر، قالت نَنَّا في لقائنا إنَّها أحبَّت الهديَّة، وإنَّها تحبُّني أكثر.

انتظرت نَنَّا قرابة شهرٍ حتى جاءت إلى ركننا، كان تشرين الثاني قد حضرَ وكذلك هديَّة نَنَّا لي، لكنَّ رسائل نَنَّا توقَّفت عن الوصول، لقد توقَّفت نَنَّا عن الكتابة.

ـ ناصر، أريد أن أُخبرك شيئًا.

ـ ما كلّ هذه الجدِّيَّة؟

ـ أفضل أن تعرف منِّي قبلَ زيارتك القادمة مع الأسرة.

ـ نَنَّا، ما بكِ أقلقتِني.

ـ لقد أَعَدْتُ هديَّتك لي إلى أُسْرَتِك.

ـ تقصدين هديَّتي الأخيرة في عيد ميلادك؟

ـ أجل.

ـ لماذا أعدْتِها؟!

ـ لأنِّي لا أستحقُّها.

ـ كُفِّي عن الأحاجي يا نَنَّا، ما الذي يحدث؟

ـ وأنت تَبْحَثُ في كُلِّ مَكانٍ عَن هَدِيَّةٍ لي، وَأَنْتَ هُنا في سِجْنِكَ، كُنْتُ أنا أُقَرِّرُ تَرْكَنا والانسحاب.

ـ ناصر، قُلْ شيئًا.

ـ ضعفتُ وكنتُ وحيدةً، وأردتُ أن أهرب من كلِّ شيءٍ ومن الناس جميعًا، ومنك.

ـ ولماذا لم تهرُبي.

ـ كانت مُجَرَّد لحظةٍ وانتهت، وأنا الآن هنا.

ـ لم تكنْ مُجَرَّد لحظةٍ يا نَنَّا، بل كان قرارًا.

ـ نعم، ولكنِّي لم أستطع تنفيذه، فعدتُ إليك.

ـ عدتِ إليَّ بدافع الحَرَج أم بدافع الرحمة والشفقة؟

ـ تَوَقَّف. أنا لا زلتُ أحبّك، وهذا شيءٌ لا أَهْرُب منه.

لا يَهَبُنا الحبّ سلطةً على أحد، ولا يُشَرِّعُ لنا أنانيَّاتنا أو نوازع التملُّك فينا، إنَّه يفعل عكسَ ذلك تمامًا. الحبّ يهذِّب فينا ما ورثناه من سلوكيَّاتٍ علقت بنا حين غادرْنا كَهْفَنا في غابَتِنا الأخيرة، الحُبُّ خلقٌ وحياةٌ وفرص اندهاشٍ لا تتوقَّف، الحبّ غَزْل إلٰهيٌّ وفِعْل بشرٍ صاروا فلاسفةً وأشباهَ أنبياء، والحبّ إطلالة أنا الفانية على أنا الأَزَلِيَّة. كان هذا ما غَزَلْتُه على جداري وبَشَّرْتُ به نفسي قبل أن تتعلَّم نَنَّا فنون الغزْل ونسج الخيوط، وكانت هذه شريعتي في كَوني الضَيِّق الواسع حين جاءت نَنَّا تَتَفَحَّصُ احتمالاتِها عِنْدَ الشاطئ المقابل للجدار.

هذه نَنَّا التي أحبّ وأشتهي وأعشق، هذه نَنَّا التي اخترتُ أن أحيا بها، وهي الآن على قمَّة خوفها. جلست أمامي لا يظهر منها إلَّا الخوف والارتباك، جلست تَجُرُّ جسدًا على حافَّة السقوط، وروحًا تاهَت من شدَّة التعب، لا خلقٌ ولا حياةٌ ولا اندهاشٌ ولا أزل، لا شيءَ فيها كان يُشبه نَنَّا، فعيونها التي أضاءت ركننا خلت من بريقها ولا سابحَ في وجهِها إلَّا خوفُها والأشباح. نظرت نَنَّا إليَّ لكنَّها لم تَرَني، تَوَقَّفتِ الموسيقى وغادرت صاحبة التشيلو رُكْنَنا بلا تحيَّةٍ تُلقيها على أيٍّ مِنّا. عادت نَنَّا واسْتَرْجَعَت هديَّتي لها بعدَ أيَّام.

عرفَ جداري ما عليَّ فعله، فدَنا واقتربَ كالذي يوحي أمرًا عرفتُه.

ـ ناصر.

ـ أعرف.

ـ لَكِنّي لم أَقُل شيئًا.

ـ أنتِ قُلْتِ كُلَّ شيء.

ـ أنا هنا إن احتجتَني.

ـ لَسْتُ خائفًا، ليسَ بعد.

ـ ستجدني هنا دومًا.

ـ وإن خَلَّيْتُكِ؟

ـ وهل تفعل!

ـ فعلتها مرَّة.

نتخلَّى كي نتمسَّك، هذا قهر المُحِبّين، نتمسَّك بالحبِّ ونتخلَّى عن موضوعه حتى يصير الحبّ خيارًا بلا شروطٍ أو مُعادَلات أو موضوع، لا تَعَلُّقٌ ولا تَمَلُّكٌ ولا غيرةٌ ولا فَناء فيصبح الحبّ موضوعًا بذاته ولذاته. رأيت عن قُرْب كيف يختنق الحبّ حينَ تحيطه الشروط والمطالب والاختبارات، حين يُوْضَع في قفص الاتِّهام إذا تخلَّفَ عن شرطٍ أو طلبٍ أو فشلَ عن غير قصدٍ في اختبار. ورأيتُ عن رُعْبٍ كيف يتحوَّل الحبّ إلى وحشٍ يهدِّد سلامةَ واتِّزان من تهوى وتعشق، يجلس مكانك ويُحَرِّفُ في مفردات خطابك العاشق، ويسبق خطواتك إلى قلب من تعشق ويجعل من صدرك حقلَ أوجاعٍ خَلا من مائِه وعُشْبِه ومن ملجئِهِ. خِفْتُ حين تحوَّلت المشاعر إلى معادلاتٍ لا أقيم لها وزنًا ولا وجدتُ لها مرادفًا في أبجديَّات أهل السماء. نتخلَّى كي نتمسَّك هذا فعل المحبِّين، ونفعله قَهْرًا وطَوْعًا. قهرَني خوفي على نَنَّا

وقهرَها خوفها وما صدَّقَتْهُ من شروط ومعادلات، وفشلتُ في جعلها تصدِّق وتؤمن بقدرتها على التحليق إلى حين تلتقي العوالم الفيزيائيَّة مع ما ورائها من عوالم. تكره نَنَّا اليابسة، لكنَّها كانت إذا جاءت إلى رُكْنِنا كي تَغْرَق، حافَظَت على مسافةٍ قريبةٍ من الشاطئ.

هل تدخلُ الآلهة إلى الأماكن الضيِّقة؟ نعم، تدخل. لكنَّها لا تبقى طويلًا. دخلت نَنَّا إلى ركني الصغير، ورأت فيهِ ما يشبه غزلَها وأسئلتها للبحر. جلست تتحقَّق من احتمالاتها واحتمالاتي غادرت قليلًا ثم عادت إلى كرسيِّها الأبيض تتحقَّق مجدَّدًا. غزلت شروطَها وجلست تنتظر، انتظرت عامًا وبكت عامًا، وزرعت في الثالث خوفًا كادَ يفتك بي وبها. حَرَّرَني جداري من خوفي حينَ قرَّر عودتَهُ إليَّ والالتصاق بي من جديد، وَعُدْتُ أنا أُحِبُّ نَنَّا وأتخلَّى عنها.

ضَيِّقٌ ومزدحمٌ وعجوز

كانون الأوَّل 2016، كانَ لقاؤُنا يقاربُ على الانتهاء وكانت نَنَّا قالت كلامًا كثيرًا بعضه في الحبِّ وأكثره في شؤونٍ أخرى حينَ حضرَ البكاء فجأةً، وبلا أيِّ علاماتٍ بَشَّرَت به.

ـ ما بكِ يا نَنَّا؟ ما الذي يبكيكِ الآن؟

ـ أنا خائفة يا ناصر.

ـ مِمَّ؟

ـ من كلِّ شيء، من الضغوطات حولي وعليَّ، من الأفق المسدود، ومن مؤبَّدك ومن عمرك.

ـ من كلّ هذا؟!

ـ أنا وحدي مقابلهم جميعًا والكلّ ينهار حولي، وأنت هنا وأنا أريد.

ـ تريدين ماذا يا نَنَّا؟

ـ أريد أن أكون أُمًّا.

ـ إن كان ركننا سيمنع عَنْكِ أمومَتَك قَتَلْتُه يا نَنَّا.

ـ ناصر، أنا أحبّك.

ـ أعرف.

ـ ولكنّي متعبة، وخائفة.

ـ وأعرف هذا أيضًا يا نَنَّا.

ـ لن أتأخَّر حتى زيارتنا القادمة.

ـ أنتظركِ.

ما عدتُ أستطيع احتمال إيذائي لنَنَّا أكثر، أخذتُها بهذا الحبّ إلى أقصى حدود طاقتِها حتى نفدت جميعُها. لم تكن هذه نيَّاتي حين عانقتُ مشاعري اتِّجاهها ولم أتنكَّر، أردتُ أن أحبّها وأن أدعوها إلى جولةٍ طويلةٍ خارج حدود هذا الكوكب، وكنتُ متأكِّدًا أنَّ ذلك ما أرادته نَنَّا، فقد كانَ في خطابها الذي جلبته معها إلى رُكْني أبجديَّاتٌ تُشبه أبجديَّات أهل السماء، وأَدْهَشَتْني قدرتها على قراءتي رغم غريب أمري وعجيب مفرداتي. أحببتها كما لا يجوز لبشرٍ أن يحبُّوا، أحببتها فوقَ قدراتي، وتخطَّيتُ بها حدودًا حُرِّمَت حتى على رجلٍ مثلي لم تردع تحليقَه حدودٌ أو حواجز، وأحببتها كالذي جاءَ إلى هذه الحياة فقط من أجل هذا الغرض.

كيفَ تحوَّلت نيَّاتي إلى جروحاتٍ وأوجاعٍ ملأت صدر نَنَّا؟ وكيفَ يجوزُ لي بقائي على تمسُّكي بها وفي تمسُّكي هلاكها؟! ليس من أجل هذا جئتُ أحبّها. لم يبقَ أمامي إلَّا التخلِّي عنها كي أظلّ على حُبّي لها. وتمنَّيتُ لو أنَّها حافظت على وعدها لي بأن لا تترك لِحُبّي أن يتحوَّلَ إلى وحشٍ يُهَدِّدُ سلامتها، وأن تأتي

قبل ذلك بساعة. كنَّا تَوَقَّفْنا هناك، وكان وجه نَنَّا الذي يُنيرُ أَطْرافَ السماء آخِرَ شَيْءٍ أراه.

غادرت نَنَّا ركني الصغير تجرّ معها خيباتها من استحالةِ ما غزلتْ، وتوقّفها عن تصديق حديثها مع البحر في ذلك اليوم الآذاريّ حين وقفت على الشاطئ، كان بحرها منفعلًا آنَذاك فَفضَّلَت مُناجاتَه من مسافةٍ آمِنة. أمَّا طريقي إلى زنزانتي ـ الغرفة فكانت قصيرةً ومُطْمَئِنَّة. وجدتُ جداري وحيدًا بلا نَنَّا تزاحمه استقبال وجهي، وبدت عليه علامات القلق والتوتُّر، لكنَّ توتُّره زالَ سريعًا.

ـ عُدْتَ وحدَكَ.

ـ وَهَلْ كُنْتَ تُفَضِّلُ عكسَ ذلك!

ـ أينَ نَنَّا؟

ـ غادرتْ.

ـ ألن تأتي؟

ـ قالت إنَّ المكان ضَيِّقٌ ومزدحمٌ وعجوز.

ـ هل قالت ذلك حقًّا؟!

ـ أَجَل.

ـ لكنْ، ليس هنا إلَّا أنا وربّك القديم، ومن قصدتَ بالعجوز!

ـ لا أَظُنُّها قَصَدَتْكَ أنت، يمكنك أن تهدأ.

ـ هل أنت بخير؟

ـ نَنَّا بخير.

ـ سألتُكَ عنكَ.

ـ وأنا أجبتُكَ عنّي.

ـ هل نحن بخير إذن؟

ـ سنكون بعدَ قليل.

سريعًا أعددتُ قَهْوَتي وكانت تلك أوَّل قهوة أشربها وحيدًا منذُ قدوم نَنَّا، وكانَ لِمُرِّها طَعْمٌ مختلفٌ، كانَ طَعْمُها مُرًّا كالفراق. ثم رُحْتُ أَكْتُبُ لنَنَّا عن قَهْوَتي المُرَّة والوحيدة.

حبيبتي نَنَّا

اعتدتُ في كلِّ مرَّةٍ ضاقت بكِ الدنيا وزادَ خَوْفُك من جرعاته أن أَهْرُبَ من خَوْفِك إليك، أَضُمُّكِ قريبةً إليّ حتى يهدأ خوفي أو يزول، ليسَ هذه المرَّة، فقد صارَ حضوري فيكِ ثقيلًا وَصِرْتُ أنا آخِرَ مَن تحتاجين إذا استبَدَّ بكِ الخوف....

ناصر

مَرَّت أيَّامٌ قليلة حتى جاءت مزيونة ورفيقاتها من أخواتي إلى الزيارة.

ـ هل أنت متأكِّد (سألتني أختي انشراح)؟

ـ نعم.

ـ لكنَّها تحبّك، أسمع ذلك في صوتها إذا حدَّثتني عنك.

ـ وأنا أحبّها أكثر، ألا تسمعين ذلك في صوتي؟

ـ ألا تفكِّر في الأمر أكثر؟

ـ فَكَّرْتُ.

ـ والآن، ماذا؟

ـ أريدكم حولَها جميعَكم.

ـ سنفعل.

ـ وأن تُحِبّوها.

ـ نحن نحبّها يا ناصر.

كيفَ تُقدِّمُ لتخلِّيكَ عمَّن تحبّ وبأيِّ كلماتٍ تبدأ، وهل تفعل ذلك سريعًا أم تتمهَّل؟ هل تُلاقيها وحيدًا أم تأخذ معك ضيقك وربّك والجدار، أم توفِّر عليها ثلاثيَّةً أزعجتها طويلًا وأبكتها مريرًا؟ هل تبدأ ببعض كلامٍ أخيرٍ في الحبِّ أم أنّ ذلك قد يجعلك تتردَّد، أو تقولُه مباشرةً فتبدو كالذي سهل عليه تخلِّيه والفراق؟ هل تنظر إلى وجهها، إلى فمها، أو إلى صدرها الذي خَلا منك، أو توفِّر على روحك جرحًا جديدًا أو طريًّا؟ ما الذي يُنَجِّيك لو بكت بكاءً أخيرًا، وكيف تُفَسِّرُ بلا كلامٍ عجزك؟! هل تجلس على كرسيِّك كما فَعَلْتَ دومًا أَم تَتجاهَلهُ، فإذا مِتَّ مِتَّ واقفًا! وهل يعنيكَ حقًّا على أيّ جرحٍ تموت؟

15 كانون الثاني 2017، كنتُ متأكِّدًا من طريقي إلى ركني الصغير ومن ضيقي ومن ربِّي ومن جداري، من إيماني القديم ومن روايتي ومن تصالحي مع أشيائي ومن أسمائها. كنتُ متأكِّدًا من تحليقي واندهاشي ووصولي، وكنتُ متأكِّدًا من خطواتٍ عرفتُ أنَّها الأخيرة باتِّجاه نَنَّا.

ذهبنا جميعنا، أنا وربِّي وضيق المكان، كنتُ تَخَلَّيْتُ بما

يكفي. مَشينا على مَهَل، ولا أحدَ يَنْظُرُ للآخر، وكأنَّ كُلًّا مِنّا يُعِدُّ وَداعَهُ على طريقته. فَتَحَ مُرافِقُنا الجنديّ الباب، دخلَ الجِدارُ أوَّلًا ثم دخل ربّي ثم أنا، جلستُ على كرسيّي الأبيض، وَظَلَّ الجدار واقفًا، بينما راقَبَ رَبِّي من مكانه توتُّري أنا والجِدار. دخلت نَنَّا.

حَيَّتْني أنا وَحْدي، وجلست على الأبيض كأنَّها تفعل ذلك لِأَوَّلِ مَرَّةٍ، مرتبكةً ومتوتِّرةً كالتي ألقت الجدران عليها القَبْض. رَبّي على مراقبته وجداري على وَقْفَتِه، وكلاهما يَنْتَظِرانِ كيف أبدأ. رَحَّبْتُ بِنَنَّا كما أفعلُ دائمًا وسألتها عن حالها، ربِّي وجداري على انتظارهما وأنا أتحيَّن فرصةً أقدِّم فيها للذي جئتُ أقوله أو جئتُ أتخلَّى عنه. كان ركني الضيِّق والعجوز قد امتلأَ بغياب نَنَّا، شيءٌ ما في حضورها خَبَّرَ كثيرًا عن غيابها، وكأنَّ التي حضرت تُشبه نَنَّا أو جاءت مكانها. نظرَ إليَّ ربِّي ونظرتُ إلى جداري، ولكنِّي لم أَتَلَقَّ مساعدةً كثيرة. وبينَما كنتُ على انشغالي في بحثي عن مقدِّمةٍ مناسبة وفي نظراتي باتِّجاه مرافقي، عرفت نَنَّا جيِّدًا ما جاءت تقوله، فقدَّمت له سريعًا ودون تردُّدٍ أو مساعدةٍ من أحد.

ـ ناصر، جئتُ أقول أمرًا.

ـ أسمعك يا نَنَّا.

ـ جئتُ أُبْلِغُكَ بأنِّي قرَّرتُ الانسحاب.

هكذا، بلا تَرَدُّد أو مقدِّماتٍ طويلة وبلا مرافقين لوقت الحاجة، قالت نَنَّا ما جاءت تُبْلِغُني إيَّاه، قالته سريعًا وحادًّا وقاطعًا. تكرَهُ نَنَّا الانتظارَ، كان هذا غَزْلَها منذُ أوَّلِ الأمر

اختارت هي البداية حين جاءت تُعْلِنُ اشتياقَها، ومتى يئست من أمرنا جاءت وَغَزَلَت له نهايةً على طريقتها.

ـ قلتُ لَكِ سابقًا، هنا رجلٌ سيحبّك تحتَ أيِّ ظرفٍ وبِلا شروط أو مطالب.

ـ تعبتُ. ما عدتُ أحتمل.

ـ اتَّخذتِ قرارًا صحيحًا يا نَنَّا.

ـ أنا لا زلتُ أُحِبُّكَ، ولكنّي ما عدتُ أقوى.

ـ شكرًا نَنَّا، على كلِّ نبضةٍ تأخَّرت وعلى كلِّ نَفَسٍ تَأَجَّلَ وعلى حياةٍ قصيرة، ولكنْ كانَ فيها ما يكفيني.

ـ هل ستكونُ بخير؟

ـ لا حياةَ بَعْدَكِ يا نَنَّا، عرفتُ هذا منذُ البداية وَقَبِلْتُه.

أردتُ أن أُقَصِّرَ في عمر تلك اللحظة قدرَ الإمكان، ولا أدري فعلتُ ذلك رحمةً بي أو بنَنَّا أو ربَّما خشيتُ انفعالاتٍ لا سيطرةَ لي عليها. طلبتُ من نَنَّا أن تغادر رُكْني فقد كان أجهدَها البكاء، رفضت وظلَّت على كرسيِّها. صَرَخْتُ عالِيًا اخْرُجي يا نَنَّا. نَنَّا على كُرْسِيِّها. انْتَفَضْتُ لآخِرِ مرَّةٍ وصرختُ أعلى في وَجْهِها، لكنَّها أرادت أن تُفَسِّرَ أكثر. وَجَّهْتُ صراخي للجنود خَلْفَ الباب، أَخْرِجوني من هنا، لا أحدَ يَسْمَعُني. وَرُحْتُ أَدُقُّ البابَ بِيَدٍ ليست لي. خافت نَنَّا على يَدي وتدخَّلت سريعًا. حسنًا سَأَخْرُج. حملت قليلَ أوراقها، واتَّجَهَت نحوَ الباب.

ـ نَنَّا.

ـ نعم.

ـ سُوقي بحَذَر.

غادرت نَنَّا، وظَلَّ في الركن أنا وَربِّي وَوُسْعُ المكان. صامِتين عُدْنا إلى زنزانتنا ـ الغرفة، جداري في مكانه، وأنا على جداري، وَربِّي قبلَ مغادرته يُديرُ شُؤونَه.

ـ ظَنَنّا أَنَّكَ لن تَنْجو.

ـ حقًّا فَعَلْتُما؟!

ـ نعم.

ـ هل خفتما عليّ؟

ـ وهل ظننتَ غير ذلك؟

ـ ولماذا يَهُمُّكُما أمري؟

ـ وهل تصدِّق لو قلنا؟

ـ أضيفُها كذبةً على كذباتي.

ـ الآن، عرفنا أَنَّكَ نَجَوْت.

ـ لم تُجيبا عن سؤالي؟

ـ هكذا، سريعًا وبلا تَرَدُّدٍ وبلا مقدِّماتٍ طويلة، وبصوتٍ حادٍّ وقاطعٍ قالا مَعًا: لأنَّنا نحبّ رِفْقَتَكَ.

غرور

«الإنسان يتلقَّى وجوده بالولادة ويتلقَّى ماهيَّته بالاختيار»

(علي شريعَتي)

ولدتُ مرَّتيْن، وقُتِلْتُ مثلهما عددًا. وُلدتُ بدايةً من رحْم مُخَيَّم ضَيِّقٍ عَلَّقَني على جُدْرانِهِ قصيرًا، روى روايةً صَدَّقْتُها وَزِدْتُ عليها كذباتي، وعشتُ في مَرْكَزِهِ وعلى هامِشِ مَدينَتِه المشتبهة. بَقيتُ على كذباتي وَتَعَلُّقي وهامِشِيَّتي حتى قتلتني آلةُ سَحْقٍ مُبْصِرة أَعْماها كَثيرُ قَتْلِها حتى ما عادت تُمَيِّزُ في القتل، لم يَكْفِها قَتْلي فَراحَت تُخْفي آثارَ جريمتها، تَدْفِنُني عميقًا في سطح جدار قاعي. وكالذي عاش جداريَّته والقاع من قبل، حَمَلْتُ قَتْلي وَجاوَرْتُ الجِدارَ قبري، وَعَلَّمني الجدارُ فُنونَ تَعَلُّقي الجديدة أَتْقَنْتُها سريعًا وَتَعَلَّقْتُ جداري طويلًا حتى صِرْتُ أَعْجِنُهُ وصارَ يَأْكُلُني، وإذا جاعَ ظَلَلْتُ أنا صَحْنَهُ المفضَّل. أمَّا في الثانية، فَوُلِدْتُ من رَحْمِ رُكْنٍ اختلطَ فيه الإسمنت والزجاج، عَجَنَتْهُ نَنَّا من خيوطي وصنعت منهُ جوارًا لها، وغزلت من باقي الخيوط مستقبلًا آمنت بِحَتْمِيَّتِه. زِدْتُ على غَزْلِها من كذباتي المعتادة حتى امتلأَ الركنُ

بآلهةٍ قديمةٍ وَمَلائِكَةٍ سابحةٍ وَبِفستانٍ أحمر يُجيدُ العَزْفَ على أَوْتارِها. اقتربت نَنَّا ودنت حتى صَدَّقَت غزلَها، وصَدَّقْتُه أنا أكثر.

وُلِدْتُ من رَحْمٍ مزيونة أوَّلًا، ومن رَحْمٍ نَنَّا في الثانية. قَتَلَ الظُلْمُ وَليدَ الأولى، وقتلت بالخوفِ وَليدَها الثانية، لم يكنْ في ركني ما يكفي نَنَّا، كانَ واسِعًا لكنَّها لم تَرَ فيهِ إلَّا الضيق.

أنت لا تكفيني، أنت وإيمانُك وجدرانك وكذباتك وَخُرافاتك عن التحليق. أنتَ لا تكفيني. أنت وَرُكْنُكَ الضيِّق وكوْنُكَ الواسع ومفرداتك الغريبة. أنت لا تكفيني. أنت وجروحاتك وأشباهها وبقايا النساء فيكَ ووعوداتك بجروحاتٍ قادمة. أنت لا تكفيني. أنت وسنينُك التي شاخت، وأربعونك المغادِر سقفَ عشريني.

لم تقُلْ نَنَّا شيئًا من هذا، ولكنَّها قالته كُلَّه. أنا لم أكن كافيًا وكان يَنْقُصُني شروطٌ عديدةٌ حتى يكتمل مشروع نَنَّا العاطفيّ. رأت فيَّ نَنَّا منقوصًا يحتمل الاكتمال إن توافرت شُروطُهُ. رأت نَنَّا ما بَعْدي لكنَّها لم تَرَني. غزلت ممَّا بعد قصيدةً طويلة كتبتها في رسائلها، وقرأتها عليَّ وهي تجلسُ خلفَ ذلك الأحمق الزجاجيّ. وحين تعطَّلَت عجوز ما غزلته نَكَفَت بيدها صدور القصيدة.

في سجني، لي في كلِّ ليلة صحبةٌ ولقاء، أَخْتارُ الفضاءَ الذي يَروقُني، أُنْهي حِوارًا طويلًا ومعَّقدًا مع خالق الأكوان حول خلقه ووجوده، أفرش سحابتي حيث لا غيمات تحجبُ عنِّي رفقةَ الأقمار أو رؤية آخر جُرْم قَرَّرَ أن يسقطَ فجأةً وسريعًا، أضبطُ ساعات الأرض ومواعيدَ السهر، فلا تتعارض مع مواقيتي

وأستلقي في غيمَتي أغازل كلّ امرأةٍ راحت تحجزُ لموعدها. أختار المكان والزمان وألوان الثياب على أجساد رفيقاتي، لا أكرِّر في كلام الحبّ، ولا أُقَبِّلُ فَمًا مرَّتيْن وأزرع في الصدور أعشابي.

في سجني، أنا سيِّد هذا الجدار وكلّ جدارٍ قبلَه وأيّ جدارٍ يأتي بعده. أنا سيِّد هذه الشرفات وما تُطِلُّ عليها، لا أحد يدخل حديقتي أو يقطف نهدًا من نسائي. أنا كلّ المساءات لي وأوَّل الليل، وعطش الصبح لشمسٍ تأخَّرت والتصاق النهار لي. أنا لي ساعة الشمس وشمس الساعة وكلّ ساعةٍ لي. أنا ربّ هذا الركن ورَبّ الزنزانة وربّ مؤبَّدي وربّ هذا السقف وربّ الانتظار وهذا القاع لي.

ـ أنت لا تكفيني (قالت نَنَّا).

ـ في سجني، أنا سيِّد أشيائي وصاحب الأسماء إن شئتُ بدَّلتُ فيها، وإن شئتُ أبقيت. أنا عمر هذا القيد وأنا سجني وأنا السجين. أنا الشاهد على ضياع قضيَّتي وأنا الشهيد، أنا الفاقد حرِّيَّتي وأنا حرِّيَّتي وأنا الفقيد، وأنا الحبيس بلا مَحْبَسٍ يأكل من أصابعي وأنا الحديد. أنا لي في كلِّ نَنَّا حبيبةٌ، وأنا العاشق وأنا المعشوق.

ـ أنت لا تكفيني (قالت نَنَّا).

ـ في سجني، أنا المُقِل المكثر المؤمن المدمن المبطئ المُسْرِع المحزن المُفْرِح المُنْجِد المُغْرِق المُطِلّ المُمِلّ المبكي المضحك، وأنا الضيق الواسع السابِحُ الغارِقُ الرابِحُ الخاسِرُ

العالق المارق الناسك الفاسق الباذخ الكادح السابق اللاحق الزارع والبارع.

ـ **أنتَ لا تكفيني (قالت نَنَّا).**

ـ في سجني، أنا ناصرٌ محمودٌ سامِحٌ حمزةُ محمَّدٌ أحمدُ مالكٌ عَبْدٌ مُهَنَّدٌ فارسٌ منتصرٌ منصورٌ وليدٌ خالدٌ سائدٌ عمَّارٌ عمادٌ علاءٌ عادلٌ عاصم.

ـ **أنتَ لا تكفيني (قالت نَنَّا).**

ـ في سجني، جداري أنا وأنا الجدار، وهذه أشيائي وتلك أسماؤُها.

ـ **أنتَ لا تكفيني (قالت نَنَّا).**

ـ هذه زنزانَتي وهذا مقامي وهاكم مقالي. والله، ما نزلتُ منزلًا حيًّا أعزّ عليَّ من منزلي هذا.

ـ **أنت لا تكفيني (قالت نَنَّا).**

ـ هذا أنا وهذا ربِّي وهذا ضَيِّقي الواسع.

ـ **أنتَ لا تكفيني (قالت نَنَّا).**

ـ هدأَ صراخي كلّه ما عدا صراخًا واحدًا لا يهدأ ولا يختنق، صراخًا يظلّ يقول:

ـ نَنَّا، رُدّي إليَّ غروري.

انتهت

(معتقل هداريم، زنزانة رقم 33
الساعة 18 : 1 ـ الجمعة 6/ 7/ 2019)

مكتبة
t.me/soramnqraa

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

لا، هذه ليستْ حكايتي. إنَّها حكايةُ جدارٍ قرَّرَ أن يختارَني شاهدًا على ما يقول ويفعل[...] لقد أعطاني الجدار صِفاتي وألقابي كلّها منذ بداية المشوار، في المخيَّم، على هامش المدينة، في السجن، وفي قلب امرأةٍ أو على أطرافه.

أنا صَوْتُ هذا الجدار وَهكَذا قرَّرَ أن يتكلَّم[...]

كتبتُ ملتزمًا بما أملاهُ عليَّ وحسبَ قوانينَ تَخُصُّهُ وَحْدَه[...] كتبتُ بِلا معالَجاتٍ لغويَّة، سِوى تلك التي عانى منها الجدار وأَصَرَّ على تدويرِها. وكتبتُ لِأَنَّ القِراءةَ في زمن الشُحِّ صارتْ فِعْلًا جبانًا.

أتمنَّى لكَ - لكِ قِراءةً وَعِرة

من مقدِّمة ناصر أبو سرور

telegram
@soramnqraa

ناصر أبو سرور: فلسطيني (مواليد 1969) حاصل على ماجيستير دراسات إقليميَّة. اعتُقل عام 1993 إلى حينه، وصدر بحقِّه حُكمٌ بالسجن المؤبَّد.

دار الآداب